التدبر والبيان

في

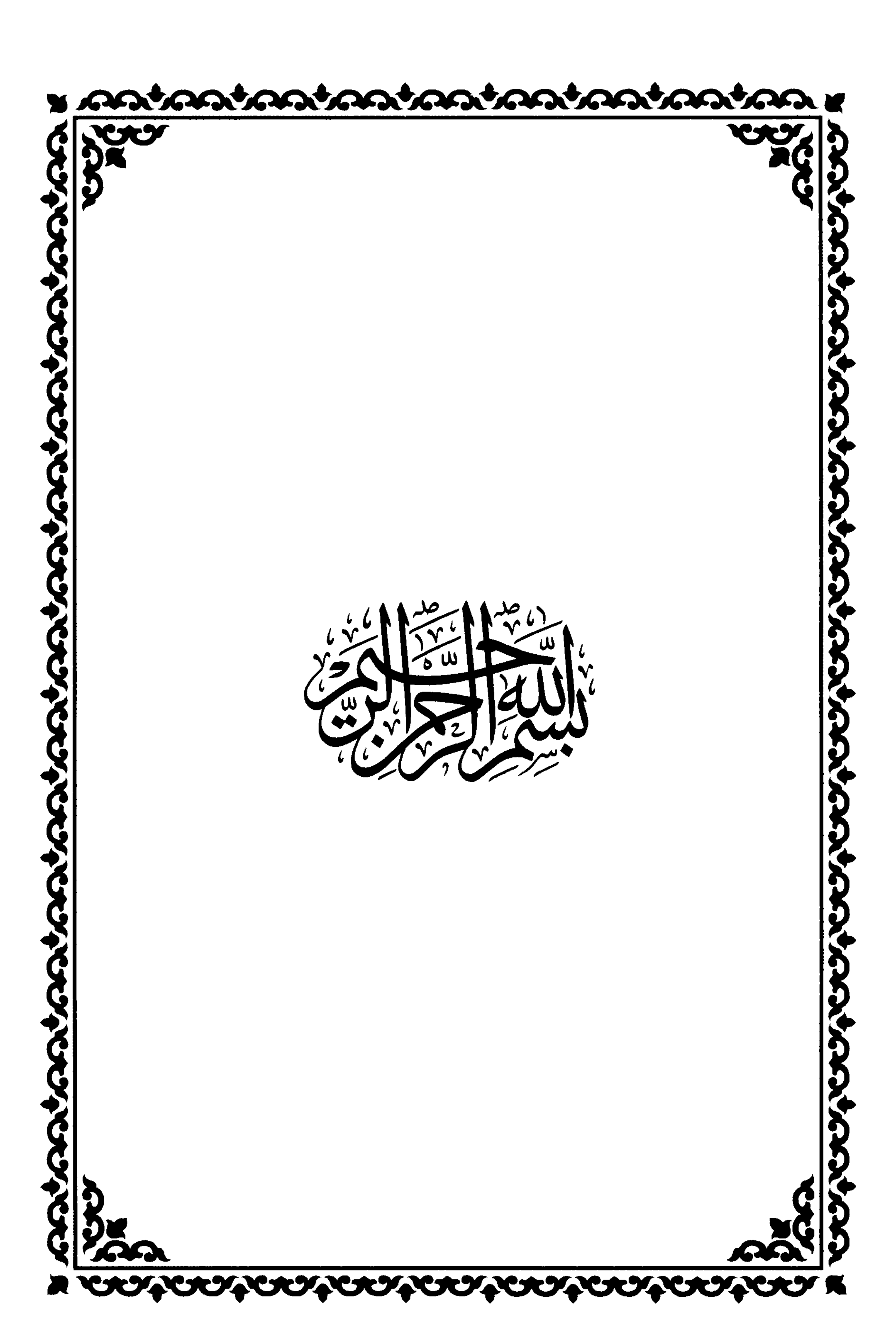
تفسير القرآن بصحيح السنن

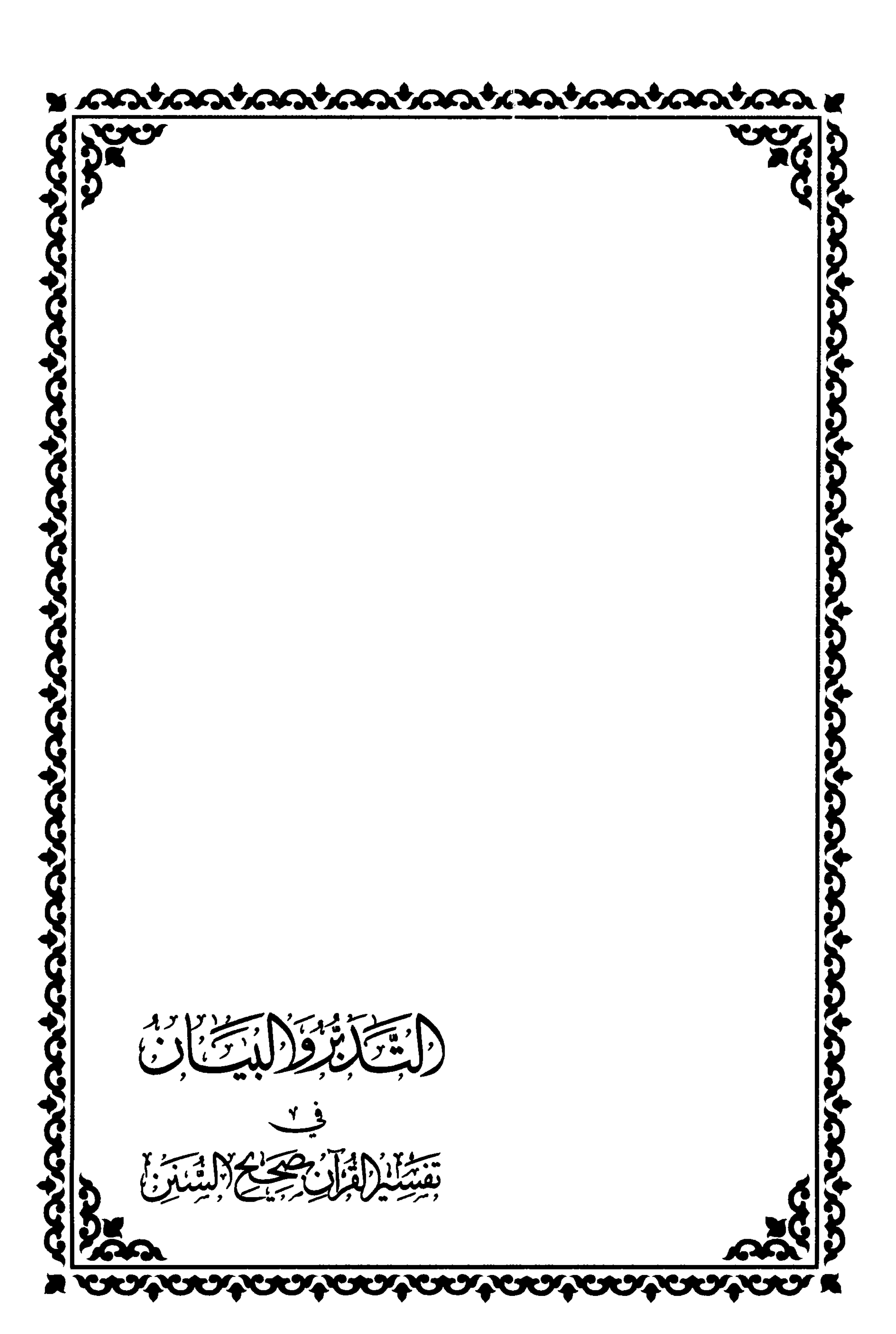
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الخامس والثلاثون

المنافقون - نوح


بسم الله الرحمن الرحيم



التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : **AT-TADABBUR WAL-BAYĀN**
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 — عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17×24 cm — قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. — سنة الطباعة

Printed in : Lebanon — بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st — الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨



سورة المنافقون

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «فضح أحوال المنافقين بعد كثير من دخائلهم وتولد بعضها عن بعض من كذب، وخيس بعهد اللَّه، واضطراب في العقيدة، ومن سفالة نفوس في أجسام تغر وتعجب، ومن تصميم على الإعراض عن طلب الحق والهدى، وعلى صد الناس عنه. وكان كل قسم من آيات السورة المفتتح بـ« إذا » خص بغرض من هذه الأغراض. وقد علمت أن ذلك جرت إليه الإشارة إلى تكذيب عبد اللَّه بن أبي ابن سلول فيما حلف عليه من التنصل مما قاله.

وختمت بموعظة المؤمنين، وحثهم على الإنفاق، والادخار للآخرة قبل حلول الأجل»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٣٣).

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «وجه تعلق هذه السورة بما قبلها هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول ﷺ، وذكر من كان يكذبه قلبًا ولسانًا بضرب المثل كما قال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾[1]، وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلبًا دون اللسان ويصدقه لسانًا دون القلب، وأما الأول بالآخر، فذلك أن في آخر تلك السورة تنبيهًا لأهل الإيمان على تعظيم الرسول ﷺ ورعاية حقه بعد النداء لصلاة الجمعة، وتقديم متابعته في الأداء على غيره، وأن ترك التعظيم والمتابعة من شيم المنافقين، والمنافقون هم الكاذبون، كما قال في أول هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ يعني عبد اللَّه بن أبي وأصحابه؛ ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وتم الخبر عنهم ثم ابتدأ فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ أي: أنه أرسلك فهو يعلم أنك لرسوله، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ أنهم أضمروا غير ما أظهروا، وإنه يدل على أن حقيقة الإيمان بالقلب، وحقيقة كل كلام كذلك، فإن من أخبر عن شيء واعتقد بخلافه فهو كاذب، لما أن الكذب باعتبار المخالفة بين الوجود اللفظي والوجود الذهني، كما أن الجهل باعتبار المخالفة بين الوجود الذهني، والوجود الخارجي، ألا ترى أنهم كانوا يقولون بألسنتهم: نشهد إنك لرسول اللَّه، وسماهم اللَّه كاذبين لما أن قولهم يخالف اعتقادهم»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك، بل على الضد من ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا حضروا عندك

(١) الجمعة: الآية (٥).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ١٣).

واجهوك بذلك، وأظهروا لك ذلك، وليسوا كما يقولون، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول اللّه فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي فيما أخبروا به وإن كان مطابقًا للخارج، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه، ولهذا كذّبهم بالنسبة إلى اعتقادهم»[١].

قال السعدي: «لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر الإسلام فيها وعز، صار أناس من أهلها، من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ليبقى جاههم، وتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم. فذكر اللَّه من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذرهم العباد، ويكونوا منهم على بصيرة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان صفات المنافقين

* عن عبد اللَّه بن عمرو أن النبي ﷺ قال: **«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»**[٣]

★ **فوائد الحديث:**

تقدم الكلام على الحديث وفوائده في سورة (البقرة) الآية (٨).

* عن زيد بن أرقم قال: كنت في غزاة فسمعت عبد اللَّه بن أبيّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول اللَّه حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل. فذكرت ذلك لعمي -أو لعمر- فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول اللَّه ﷺ إلى عبد اللَّه بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول اللَّه ﷺ وصدّقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول اللَّه ﷺ ومقتك، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٨٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٩-١٩٨)، والبخاري (١/ ١٢٠-١٢١/ ٣٤)، ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٨)، وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٤٦٨٨)، والترمذي (٥/ ٢٠-٢١/ ٢٦٣٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٤٩٠-٤٩١/ ٥٠٣٥) كلهم من حديث عبد اللَّه بن عمرو ﷺ.

ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إليَّ النبي ﷺ فقرأ فقال: «**إن اللَّه قد صدقك يا زيد**»[١]

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «في الحديث من الفوائد ترك مؤاخذة كبراء القوم بالهفوات، لئلا ينفر أتباعهم، والاقتصار على معاتبتهم، وقبول أعذارهم، وتصديق أيمانهم، وإن كانت القرائن ترشد إلى خلاف ذلك، لما في ذلك من التأنيس والتأليف»[٢].

قال ابن العربي: «في تبليغ زيد بن أرقم رسول اللَّه ﷺ ما قال عبد اللَّه بن أبي دليل على أنه يجوز تبليغ ما لا يجوز للمقول فيه، وليس من النمّ لما فيه من المنفعة وكشف الغطاء عن السرائر الخبيثة..»[٣].

قال الحافظ: «وفيه جواز تبليغ ما لا يجوز للمقول فيه، ولا يعد نميمة مذمومة إلا إن قصد بذلك الإفساد المطلق، وأما إذا كانت فيه مصلحة ترجح على المفسدة فلا»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٧٣)، والبخاري (٨/ ٨٣٠-٨٣١/ ٤٩٠٠)، ومسلم (٤/ ٢١٤٠/ ٢٧٧٢)، والترمذي (٥/ ٣٨٧/ ٣٣١٢) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٢/ ١١٥٩٨).

(٢) فتح الباري (٨/ ٨٣٣).

(٣) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٠٢).

(٤) فتح الباري (٨/ ٨٣٣).

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٤﴾

★ غريب الآية:

جنة: وقاية وسترة لدفع الأذى.

يفقهون: الفقه: العلم بالشيء بدليله. وفقُه الرجلُ: صار فقيهًا.

طبع: ختم.

يؤفكون: يصرفون عن الحق إلى الضلال.

اقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة والحَلْفات الآثمة، ليصدقوا فيما يقولون، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم، فاعتقدوا أنهم مسلمون فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خَبالًا، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ولهذا قال تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ولهذا كان الضحاك بن مُزَاحم يقرؤها: «اتَّخذُوا إيمَانَهُمْ جُنَّةً» أي: تصديقهم الظاهر جُنَّة، أي: تقية يتقون به القتل. والجمهور يقرؤها: ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ جمع يمين.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٣﴾

أي: إنما قُدّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران، واستبدالهم

الضلالة بالهدى ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾

أي: كانوا أشكالا حسنة وذوي فصاحة وألسنة، إذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخَور والهلع والجزع والجبن؛ ولهذا قال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف، يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩﴾[1] فهم جَهَامات وصور بلا معاني. ولهذا قال: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾»[2].

قال الرازي: «لم شبههم بالخشب المسندة؛ لا بغيره من الأشياء المنتفع بها؟ نقول: لاشتمال هذا التشبيه على فوائد كثيرة لا توجد في الغير.

الأولى: قال في (الكشاف): شبهوا في استنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط، ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكًا فارغًا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع، ويجوز أن يراد بها الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحائط؛ شبهوا بها في حسن صورهم، وقلة جداوهم.

الثانية: الخشب المسندة في الأصل كانت غصنًا طريًا يصلح لأن يكون من الأشياء المنتفع بها، ثم تصير غليظة يابسة، والكافر والمنافق كذلك كان في الأصل صالحًا لكذا وكذا، ثم يخرج عن تلك الصلاحية.

الثالثة: الكفرة من جنس الإنس حطب، كما قال تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[3]، والخشب المسندة حطب أيضًا.

---

(١) الأحزاب: الآية (١٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥١-١٥٢).
(٣) الأنبياء: الآية (٩٨).

الرابعة: أن الخشب المسندة إلى الحائط أحد طرفيها إلى جهة، والآخر إلى جهة أخرى، والمنافقون كذلك؛ لأن المنافق أحد طرفيه وهو الباطن إلى جهة أهل الكفر، والطرف الآخر وهو الظاهر إلى جهة أهل الإسلام.

الخامسة: المعتمد عليه الخشب المسندة ما يكون من الجمادات والنباتات، والمعتمد عليه للمنافقين كذلك، وإذا كانوا من المشركين إذ هو الأصنام، إنها من الجمادات أو النباتات»[1].

قال السعدي: «فهؤلاء ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ على الحقيقة، لأن العدو البارز المتميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين، ﴿فَٱحْذَرْهُمْ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبينت أدلته، واتضحت معالمه، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء»[2].

قال عطية محمد سالم: «قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ فيه ما يشعر بحصر العداوة في المنافقين مع وجودها في المشركين واليهود، ولكن إظهار المشركين شركهم، وإعلان اليهود كفرهم مدعاة للحذر طبعًا. أما هؤلاء فادعاؤهم الإيمان وحلفهم عليه، قد يوحي بالركون إليهم ولو رغبة في تأليفهم. فكانوا أولى بالتحذير منهم لشدة عداوتهم ولقوة مداخلتهم مع المسلمين، مما يمكنهم من الاطلاع على جميع شؤونهم. وقد جاء في آخر السورة كله كاشفًا لحقيقتهم ومبينًا شدة عداوتهم سواء في قولهم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾[3] أو في تآمرهم على المسلمين في قولهم: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[4]»[5].

* * *

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ١٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٨٧).
(٣) المنافقون: الآية (٧).
(٤) المنافقون: الآية (٨).
(٥) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾

★ غريب الآية:

لَوَّوْا: عطفوا وحركوا استهزاءً وإعراضًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن المنافقين -عليهم لعائن الله- أنهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: صَدوا وأعرضوا عما قيل لهم، استكبارًا عن ذلك، واحتقارا لما قيل لهم ولهذا قال: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾ كما قال في سورة (براءة)»[١].

قال ابن عاشور: «هذا حالهم في العناد ومجافاة الرسول ﷺ، والإعراض عن التفكر في الآخرة، بَلْهَ الاستعداد للفوز فيها.

و﴿تَعَالَوْا﴾ طَلَب من المخاطب بالحضور عند الطالب، وأصله فِعل أمر من التعالي، وهو تكلف العُلو، أي: الصعود، وتنوسي ذلك وصار لمجرد طلب الحضور، فلزم حالة واحدة فصار اسم فِعل، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[٢] الآية في سورة (الأنعام).

وهذا الطلب يجعل ﴿تَعَالَوْا﴾ مشعر بأن هذه حالة من أحوال انفرادهم في جماعتهم، فهي ثالث الأغراض من بيان مختلف أنواع تلك الأحوال، وقد ابتدأت بـ(إذا)؛ كما ابتدئ الغرضان السابقان بـ(إذا): ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾[٣]، و﴿وَإِذَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥٢-١٥٣).
(٢) الأنعام: الآية (١٥١).
(٣) الآية (١).

رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[١].

والقائل لهم ذلك يحتمل أن يكون بعضَ المسلمين وَعَظوهم ونصحوهم، ويحتمل أنه بعض منهم اهتدى وأراد الإنابة.

قيل: المقول له هو عبد اللَّه بنُ أُبَيّ ابن سلول على نحو ما تقدم من الوجوه في ذكر المنافقين بصيغة الجمع عند قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ وما بعده.

والمعنى: اذهبوا إلى رسول اللَّه وسَلُوه الاستغفار لكم. وهذا يدل دلالة اقتضاء على أن المراد: توبوا من النفاق، وأخلصوا الإيمان، وسَلُوا رسول اللَّه ليستغفر لكم ما فرط منكم، فكان الذي قال لهم ذلك مطَّلعًا على نفاقهم، وهذا كقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) المنافقون: الآية (٤).

(٣) البقرة: الآية (١٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٤٣-٢٤٤).

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾

★ غريب الآية:

ينفضوا: يتفرقوا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ فإنهم -على زعمهم- لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين اللَّه. وهذا من أعجب العجب، أن يدعي هؤلاء المنافقون، الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بالحقائق. ولهذا قال تعالى ردا لقولهم: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، وييسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرها على من يشاء. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيئتهم»[1].

قال ابن عاشور: «هذا أيضًا من مقالاتهم في مجامعهم وجماعتهم يقولونها لإخوانهم الذين كانوا ينفقون على فقراء المسلمين تظاهرًا بالإسلام، كأنهم يقول بعضهم لبعض: تظاهَرْ بالإسلام بغير الإنفاق؛ مثل قولهم لمن يقول لهم: تعالوا يستغفر لكم رسول اللَّه، ولذلك عقبت بها. وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن قائل هذه المقالة عبد اللَّه بن أُبَيّ ابن سلول كما تقدم في طالعة تفسير هذه السورة،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٨٨-٣٨٩).

فإسناد هذا القول إلى ضمير المنافقين لأنهم تقبلوه منه إذ هو رأس المنافقين، أو فشا هذا القول بين المنافقين فأخذوا يبثونه في المسلمين»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أقوال المنافقين الشنيعة في أهل الإيمان

* عن زيد بن أرقم قال: «غزونا مع رسول اللَّه ﷺ، وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبتدر الماء، وكان الأعراب يسبقونا إليه، فسبق أعرابي أصحابه، فسبق الأعرابيّ فيملأ الحوض، ويجعل حوله حجارة، ويجعل النِّطع عليه حتى تجيء أصحابه، فأتى رجل من الأنصار أعرابيا، فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه، فانتزع قباض الماء، فرفع الأعرابي خشبته فضرب بها رأس الأنصاري فشجّه، فأتى عبد اللَّه بن أبيّ رأس المنافقين فأخبره -وكان من أصحابه- فغضب عبد اللَّه بن أبي ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول اللَّه حتى ينفضوا من حوله يعني: الأعراب، وكانوا يحضرون رسول اللَّه ﷺ عند الطعام، فقال عبد الله: إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمدا بالطعام فليأكل هو ومن معه، ثم قال لأصحابه: لئن رجعتم إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، قال زيد: وأنا ردف رسول اللَّه ﷺ، فسمعت عبد اللَّه بن أبيّ فأخبرت عمي، فانطلق فأخبر رسول اللَّه ﷺ، فأرسل إليه رسول اللَّه ﷺ، فحلف وجحد، فصدقه رسول اللَّه ﷺ وكذبني، قال: فجاء عمي إلي فقال: ما أردت إلا أن مقتك رسول اللَّه ﷺ وكذّبك والمسلمون، قال: فوقع علي من الهمّ ما لم يقع على أحد، قال: فبينما أنا أسير مع رسول اللَّه ﷺ في سفر قد حققت برأسي من الهم؛ إذ أتاني رسول اللَّه ﷺ فعرك أذني، وضحك في وجهي، فما كان يسرّني أنّ لي بها الخلد في الدنيا، ثم إن أبا بكر لحقني فقال: ما قال لك رسول اللَّه ﷺ؟ قلت: ما قال لي شيئا إلا أنه عرك أذني، وضحك في وجهي، فقال: أبشر، ثم لحقني عمر، فقلت له مثل قولي لأبي بكر، فلما أصبحنا قرأ رسول اللَّه ﷺ سورة المنافقين»[2].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٤٦).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٨٧-٣٨٨/ ٣٣١٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٥٤-٥٥)، والحاكم (٢/ ٤٨٨-٤٨٩) وصححه ووافقه الذهبي.

★ **غريب الحديث:**

النِّطع : بالكسر وبالفتح وبالتحريك بساط من الأديم .

قِباض الماء : بكسر القاف، والمراد به ما يقبض به الماء ويمسك من الحجارة وغيرها، والمعنى أن الرجل الأنصاري نزع الحجارة التي جعلها الأعرابي حول الحوض ليمسك به الماء .

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائده في بداية هذه السورة .

* * *

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يقول هؤلاء المنافقون الذين وَصف صفتهم قبل﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾ فيها، ويعني بالأعزّ: الأشدّ والأقوى، قال اللَّه -جل ثناؤه-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ يعني الشدة والقوة: ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ باللَّه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك. وذُكر أن سبب قيل ذلك عبد اللَّه بن أُبي كان من أجل أن رجلا من المهاجرين كَسَعَ رجلا من الأنصار»[١].

قال السعدي: «وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم. وقال كبيرهم، عبد اللَّه بن أبي بن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء -يعني المهاجرين- إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك» وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ﴾بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول اللَّه ومن اتبعه هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار هم الأذلاء. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ذلك، فلذلك زعموا أنهم الأعزاء، اغترارًا بما هم عليه من الباطل»[٢].

قال ابن عاشور: «هذا وصف لخبث نواياهم إذ أرادوا التهديد وإفسادَ إخلاص الأنصار وأخوّتهم مع المهاجرين بإلقاء هذا الخاطر في نفوس الأنصار؛ بذرًا للفتنة والتفرقة، وانتهازًا لخصومة طفيفة حدثت بين شخصين من موالي الفريقين، وهذا

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٨٩).

القول المحكي هنا صدر من عبد اللَّه بن أُبيّ بن سلول حين كسَع حليفُ المهاجرين حليفَ الأنصار كما تقدم في ذكر سبب نزول هذه السورة، وعند قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾[(١)]، فإسناد القول إلى ضمير المنافقين هنا كإسناده هناك.

وصيغة المضارع في حكاية هذه المقالة لاستحضار الحالة العجيبة كقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[(٢)]. والمدينة هي مدينتهم المعهودة وهي يثرب.

و﴿ٱلْأَعَزُّ﴾: القويّ العزة، وهو الذي لا يُقهر ولا يُغلب على تفاوت في مقدار العزّة؛ إذ هي من الأمور النسبية. والعزة تحصل بوفرة العدد وسعة المال والعُدة، وأراد بـ(الأعز) فريق الأنصار؛ فإنهم أهل المدينة وأهل الأموال، وهم أكثر عددًا من المهاجرين، فأراد: لَيُخْرِجن الأنصار من مدينتهم مَن جاءها من المهاجرين.

وقد أبطل اللَّه كلامهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو جواب بالطريقة التي تسمي القول بالموجَب في علم الجدل، وهي مما يسمّى بالتسليم الجَدلي في علم آداب البحث.

والمعنى: إن كان الأعزّ يخرج الأذلّ فإن المؤمنين هم الفريق الأعزّ. وعزتهم بكون الرسول ﷺ فيهم وبتأييد اللَّه رسولَه ﷺ وأولياءه؛ لأن عزّة اللَّه هي العزّة الحق المطلقة، وعزّة غيره ناقصة، فلا جرم أن أولياء اللَّه هم الذين لا يُقهرون إذا أراد اللَّه نصرهم ووعدهم به. فإن كان إخراجٌ من المدينة فإنما يُخرج منها أنتم يا أهل النفاق»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: كنا في غزاة -قال سفيان مرة: في جيش- فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمع ذاك رسول اللَّه ﷺ فقال: «**ما بال دعوى**

(١) المنافقون: الآية (٧).

(٢) هود: الآية (٧٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٤٩).

جاهلية؟» قالوا: يا رسول الله! كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: «**دعوها فإنها منتنة**». فسمع بذلك عبد اللَّه بن أبي فقال: فعلوها؟ أما واللَّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله! دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «**دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**» وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد. قال سفيان: فحفظته من عمرو: قال عمرو: سمعت جابرًا: كنا مع النبي ﷺ[1].

★ غريب الحديث:

كسع: المشهور فيه أنه ضرب الدبر باليد أو بالرجل.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وقوله ﷺ لعمر حين قال: دعني أضرب عنق هذا المنافق: «لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه»؛ دليل على أن المنافقين الذين علم نفاقهم في عهد رسول اللَّه ﷺ كانوا مستحقين للقتل، لكن امتنع النبي ﷺ من ذلك؛ لئلا يكون قتلهم منفرًا لغيرهم عن الدخول في الإسلام؛ لأنَّ العرب كانوا أهل أنفة وكبر بحيث لو قتل النبي ﷺ هؤلاء المنافقين لنفر من بعد عنهم، فيمتنع من الدخول في الدين، وقالوا: هو يقتل أصحابه، ولغضب من قرب من هؤلاء المنافقين، فتهيج الحروب وتكثر الفتن، ويُمتنع من الدخول في الدين، وهو نقيض المقصود، فعفا النبي ﷺ عنهم، ورفق بهم، وصبر على جفائهم وأذاهم، وأحسن إليهم حتى انشرح صدر من أراد اللَّه هدايته، فرسخ في قلبه الإيمان، وتبين له الحق اليقين. وهلك عن بينة من أراد اللَّه هلاكه، وكان من الخاسرين. ثم أقام النبي ﷺ مستصحبًا لذلك إلى أن توفاه اللَّه تعالى، فذهب النفاق وحكمه؛ لأنَّه ارتفع مسماه واسمه. ولذلك قال مالك: النفاق في عهد رسول اللَّه ﷺ هو الزندقة عندنا اليوم. ويظهر من مذهبه أن ذلك الحكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٩٢-٣٩٣)، والبخاري (٨/ ٨٣٦/ ٤٩٠٥)، ومسلم (٤/ ١٩٩٨-١٩٩٩/ ٢٥٨٤[٦٣])، والترمذي (٥/ ٣٨٩-٣٩٠/ ٣٣١٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٢/ ١١٥٩٩).

﴿قُلُوبِهِم مَّرَضٌ . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾[١]، وبقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[٢]، فقد سوى بينهما في الأمر بالجهاد، وجهاد الكفار: قتالهم وقتلهم، فليكن جهاد المنافقين كذلك. وفي الآيتين مباحث ليس هذا موضعها، وقد ذهب غير واحد من أئمتنا إلى أن المنافقين يعفى عنهم ما لم يظهروا نفاقهم؛ فإن أظهروه قتلوا، وهذا أيضًا يخالف ما جرى في عهد النبي ﷺ؛ فإنّ منهم من أظهر نفاقه، واشتهر عنه حتى عرف به، واللَّه أعلم بنفاقه، ومع ذلك لم يقتلوا لما ذكرناه، واللَّه تعالى أعلم»[٣].

قال شيخ الإسلام: «وفي هذه القصة بيان أن قتل المنافق جائز من غير استتابة، وإن أظهر إنكار ذلك القول، وتبرّأ منه، وأظهر الإسلام، وإنما منع النبي ﷺ من قتله ما ذكره من تحدث الناس أنه يقتل أصحابه؛ لأن النفاق لم يثبت عليه بالبينة، وقد حلف أنه ما قال، وإنما علم بالوحي وخبر زيد بن أرقم، وأيضًا لِما خافه من ظهور فتنة بقتله، وغضب أقوام يخاف افتتانهم بقتله»[٤].

وقال أيضًا: «ففي هذا دلالة على أن قتل المنافق كان جائزًا، إذ لولا ذلك لأنكر النبي ﷺ على من استأذنه في قتل المنافق، ولأنكر على عمر إذ قتل مَن قتل من المنافقين، ولأخبر النبي ﷺ أن الدم معصوم بالإسلام، ولم يعلّل ذلك بكراهية غضب العشائر المنافقين لهم، وأن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، وأن يقول القائل لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم؛ لأن الدم إذا كان معصومًا كان هذا الوصف عديم التأثير في عصمة دم المعصوم، ولا يجوز تعليل الحكم بوصف لا أثر له، ويترك تعليله بالوصف الذي هو مناط الحكم، وكما أنه دليل على القتل فهو دليل على القتل من غير استتابة على ما لا يخفى»[٥].

وقد تقدم الكلام على هذا المعنى في سورة النحل: الآيات (١٠٦-١٠٩).

* * *

---

(١) الأحزاب: الآيتان (٦٠و٦١).
(٢) التوبة: الآية (٧٣).
(٣) المفهم (٦/ ٥٦١-٥٦٢).
(٤) الصارم المسلول (٣/ ٦٧١).
(٥) المصدر السابق (٣/ ٦٧٢-٦٧٣) بتصرف يسير.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تلهكم: تشغلكم وتصرفكم. واللهو: ما لا فائدة فيه من قول وعمل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبرًا لهم بأنه من التَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ يقول: ومن يلهه ماله وأولاده عن ذكر اللَّه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقول: هم المغبونون حظوظهم من كرامة اللَّه ورحمته - تبارك وتعالى -»[2].

قال السعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره؛ فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره؛ فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة اللَّه، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم؛ لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[3]»[4].

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥٩).
(٢) جامع البيان (٢٨/ ١١٧).
(٣) التغابن: الآية (١٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٩٠).

قال ابن عاشور: «انتقال من كشف أحوال المنافقين المسوق للحذر منهم والتحذير من صفاتهم، إلى الإقبال على خطاب المؤمنين بنهيهم عما شأنُه أن يشغل عن التذكر لما أمر اللَّه ونهى، ثم الأمر بالإنفاق في سبل الخير في سبيل اللَّه ومصالح المسلمين وجماعتهم وإسعاف آحادهم؛ لئلا يستهويهم قول المنافقين: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾[1]، والمبادرة إلى ذلك قبل إتيان الموت الذي لا يُدْرى وقت حلوله حين تمني أن يكون قد تأخر أجله ليزيد من العمل الصالح فلا ينفعه التمني، وهو تمهيد لقوله بعده: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾[2]، فالمناسبة لهذا الانتقال هو حكاية مقال المنافقين، ولذلك قدم ذكر الأموال على ذكر الأولاد لأنها أهم بحسب السياق.

ونودي المخاطبون بطريق الموصول لما تؤذن به الصلة من التهمم لامتثال النهي.

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بها اشتغالًا يلهي عن ذكر الله؛ لأن الأموال مما يكثر إقبال الناس على إنمائها والتفكير في اكتسابها؛ بحيث تكون أوقات الشغل بها أكثر من أوقات الشغل بالأولاد. ولأنها كما تشغل عن ذكر اللَّه بصرف الوقت في كسبها ونمائها؛ تشغل عن ذكره أيضًا بالتذكير لكنزها بحيث ينسى ذكر ما دعا اللَّه إليه من إنفاقها.

وأما ذِكر الأولاد فهو إدماج؛ لأن الاشتغال بالأولاد والشفقة عليهم وتدبير شؤونهم وقضاء الأوقات في التأنس بهم من شأنه أن ينسي عن تذكر أمر اللَّه ونهيه في أوقات كثيرة، فالشغل بهذين أكثر من الشغل بغيرهما»[3].

* * *

---

(١) المنافقون: الآية (٧).

(٢) الآية (١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٠-٢٥١).

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأنفقوا أيها المؤمنون باللَّه ورسوله من الأموال التي رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول إذا نزل به الموت: يا ربِّ هلا أخرتني فتُمْهِلَ لي في الأجل إلى أجل قريب. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ يقول: فأزكي مالي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يقول: وأعمل بطاعتك، وأؤدّي فرائضك»[١].

قال السعدي: «وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات، ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه. فليشكروا الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾ متحسرًا على ما فرط في وقت الإمكان، سائلا الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لأتدارك ما فرطت فيه، ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق جزيل الثواب، ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه»[٢].

قال ابن كثير: «فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئا

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١١٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٩٠-٣٩١).

يسيرًا، يستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات! كان ما كان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه. أما الكفار فكما قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[2]»[3].

قال ابن عاشور: «هذا إبطال وتقض لكيد المنافقين حين قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾[4]، وهو يعمّ الإنفاق على الملتفين حول رسول اللَّه ﷺ والإنفاقَ على غيرهم، فكانت الجملة كالتذييل.

وفعل ﴿أَنفِقُوا۟﴾ مستعمل في الطلب الشامل للواجب والمستحب؛ فإن مدلول صيغة: افعل؛ مطلق الطلب، وهو القدر المشترك بين الوجوب والندب.

وفي قوله: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ إشارة إلى أن الإنفاق المأمور به شكر لله على ما رزق المنفِق؛ فإن الشكر صرف العبد ما أنعم اللَّه به عليه فيما خُلق لأجله، ويعرف ذلك من تلقاء الشريعة.

و(مِن) للتبعيض، أي: بعض ما رزقناكم، وهذه توسعة من اللَّه على عباده، وهذا البعض منه هو معيّن المقدار مثل مقادير الزكاة وصدقة الفطر. ومنه ما يتعين بسدّ الخلة الواجب سدّها مع طاقة المنفق؛ كنفقات الحج، والجهاد، والرباط، ونفقات العيال الواجبة، ونفقات مصالح المسلمين الضروريّة والحاجيّة، ومنه ما يتعين بتعين سببه كالكفارات، ومنه ما وكل للناس تعيينه مما ليس بواجب من الإنفاق، فذلك موكول إلى رغبات الناس في نوال الثواب، فإن ذلك باب عظيم من القربى من رضى اللَّه تعالى، وفي الحديث: «**الصدقة تُطفئ الخطايا كما يُطفئ الماءُ النارَ**»[5].

---

(١) إبراهيم: الآية (٤٤). (٢) المؤمنون: الآيتان (٩٩و١٠٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٥٩-١٦٠). (٤) المنافقون: الآية (٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٥-٢٤٦)، والترمذي (٥/ ١٣/ ٢٦١٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٤-١٣١٥/ ٣٩٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨/ ١١٣٩٤)، والحاكم (٢/ ٤١٢-٤١٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وقد ذكَّر اللَّه المؤمنين بما في الإنفاق من الخير بأن عليهم أن يكثروا منه ما داموا مقتدرين قبل الفوت، أي: قبل تعذر الإنفاق والإتيان بالأعمال الصالحة، وذلك حين يحسّ المرء بحالة تؤذن بقرب الموت، ويُغْلَب على قواه، فيسأل اللَّه أن يؤخر مَوته ويشفيه ليأتي بكثير مما فرط فيه من الحسنات طمعًا أن يستجاب له؛ فإن كان في أجله تأخير فلعل اللَّه أن يستجيب له، فإن لم يكن في الأجل تأخير أو لم يقدر اللَّه له الاستجابة فإنه خير كثير»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل صدقة الصحيح الشحيح

* عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول الله! أيّ الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم؛ قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان**»[٢].

★ غريب الحديث:

تأمُل: بضم الميم، أي: تطمع بالغنى.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال الزين بن المنير ما ملخصه: مناسبة الآية للترجمة أن معنى الآية التحذير من التسويف بالإنفاق استبعادا لحلول الأجل واشتغالا بطول الأمل، والترغيب في المبادرة بالصدقة قبل هجوم المنية وفوات الأمنية. والمراد بالصحة في الحديث من لم يدخل في مرض مخوف فيتصدق عند انقطاع أمله من الحياة كما أشار إليه في آخره بقوله: «ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم» ولما كانت مجاهدة النفس على إخراج المال مع قيام مانع الشح دالا على صحة القصد وقوة الرغبة في

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٢-٢٥٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣١)، والبخاري (٣/ ٣٦٣/ ١٤١٩) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧١٦/ ١٠٣٢)، وأبو داود (٣/ ٢٨٧/ ٢٨٦٥)، والنسائي (٥/ ٧٢/ ٢٥٤١)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٣/ ٢٧٠٦).

القربة كان ذلك أفضل من غيره، وليس المراد أن نفس الشح هو السبب في هذه الأفضلية. والله أعلم»[(١)].

وقال الخطابي: «فيه دليل على أن بعض المرض يُقصر يدَ المالك عن بعض مِلكه، وأن سخاوته بالمال لا تمحو عنه سمة البخل إذا كانت في حال مرضه، ولا تحُوز له فضيلة الأجر، ولذلك شرط أن يكون المتصدق صحيح البدن، شحيحًا بالمال، يجد له وقعًا في قلبه، وحزازة في نفسه، لما يأمله من طول العمر، ومخافة من حدوث الفقر»[(٢)].

* عن عائشة قالت: جاءها سائل، فأمرت له عائشة بشيء، فلما خرجت الخادم دعتها، فنظرت إليه، فقال لها رسول الله ﷺ: «**ما تخرجين شيئًا إلا بعلمك**»، قالت: إني لأعلم، فقال لها: «**لا تحصي فيحصي الله عليك**»[(٣)].

⋆ غريب الحديث:

لا تحصي: من الإحصاء وهو الإحاطة بالشيء حصرًا وتعدادًا، والمراد به ههنا عدّ الشيء للتبقية وادّخاره للاعتداد به، وترك الإنفاق منه في سبيل الله.

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والمعنى النهي عن منع الصدقة خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة؛ لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يعطي ولا يحسب. وقيل: المراد بالإحصاء عد الشيء لأن يدخر ولا ينفق منه، وأحصاه الله قطع البركة عنه، أو حبس مادة الرزق أو المحاسبة عليه في الآخرة[(٤)]»[(٥)].

---

(١) فتح الباري (٣/ ٣٦٣/ ٣٦٤).

(٢) أعلام الحديث (١/ ٧٥٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٠٨)، وأبو داود (٢/ ٣٢٥/ ١٧٠٠)، والنسائي (٥/ ٧٧/ ٢٥٤٨)، وصححه ابن حبان (٨/ ١٥١-١٥٢/ ٣٣٦٦) واللفظ له.

(٤) وهذا منه رَحِمَهُ اللَّهُ تفسير باللازم والصواب إبقاء الصفة على ظاهرها كما وردت.

(٥) فتح الباري (٣/ ٣٨٣).

قال الكرماني: «إحصاء الله يحتمل وجهين: أحدهما: أنه يحبس عنك مادة الرزق، ويقلله بقطع البركة حتى يصير كالشيء المعدود. والآخر: أنه يناقشك في الآخرة عليه»[١].

* * *

(١) شرح الكرماني (٧/ ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «اعتراض في آخر الكلام، فالواو اعتراضية تذكيرًا للمؤمنين بالأجل لكل روح عند حلولها في جسدها حين يؤمر الملك الذي ينفخُ الروح يكتب أجله وعمله ورزقه وشقي أو سعيد. فالأجل هو المدة المعينة لحياته لا يؤخر عن أمده، فإذا حضر الموت كان دعاء المؤمن اللَّه بتأخير أجله من الدعاء الذي استجاب؛ لأن اللَّه قدر الآجال. وهذا سر عظيم لا يعلم حكمة تحديده إلا اللَّه تعالى..

وهذا إرشاد من اللَّه للمؤمنين ليكونوا على استعداد للموت في كل وقت، فلا يؤخروا ما يهمهم عمله سؤال ثوابه، فما من أحد يؤخر العمل الذي يسره أن يعمله وينال ثوابه إلا وهو معرض لأن يأتيه الموت عن قريب أو يفاجئه، فعليه بالتحرز الشديد من هذا التفريط في كل وقت وحال، فربما تعذر عليه التدارك بفجأة الفوات أو وهن المقدرة، فإنه إن كان لم تطاوعه نفسه على العمل الصالح قبل الفوات؛ فكيف يتمنى تأخير الأجل المحتوم؟»[1].

وقال عطية محمد سالم: «قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ وكذلك لا يقدمها عليه، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[2]. وبين تعالى عدم تأخرهم مع أنهم وعدوا بأنهم يصدقون ويكونون من الصالحين، مشيرًا للسبب في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: لو أخركم؛ لأن شيمتكم الكذب وخلف الوعد، وأن هذا دأب

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٥-٢٥٦).

(٢) يونس: الآية (٤٩).

أمثالهم كما بينه تعالى في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[٢]. فقوله تعالى عنهم: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾، تعادل في ما صدقها.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: لو أخرهم لن يصدقوا ولن يكونوا من الصالحين، والله تعالى محيط علمه بما سيكون، كإحاطته بما قد كان. والله تعالى أعلم»[٣].

* * *

(١) إبراهيم: الآية (٤٤).

(٢) المؤمنون: الآيتان (٩٩و١٠٠).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٢٧-٣٢٨).



سورة التغابن

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «اشتملت هذه السورة على التذكير بأن من في السماء ومن في الأرض يسبحون لله أي: ينزهونه عن النقائص تسبيحا متجددا، وأن الملك لله وحده. فهو الحقيق بإفراده بالحمد؛ لأنه خالق الناس كلهم. فآمن بوحدانيته ناس وكفر ناس، ولم يشكروا نعمه إذ خلقهم في أحسن صورة، وتحذيرهم من إنكار رسالة محمد ﷺ. وإنذارهم على ذلك ليعتبروا بما حل بالأمم الذين كذبوا رسلهم، وجحدوا بيناتهم تكبرا أن يهتدوا بإرشاد بشر مثلهم.

والإعلام بأن اللَّه عليم بالظاهر والخفي في السماوات والأرض، فلا يجري أمر في العالم إلا على ما اقتضته حكمته. وأنحى عليهم إنكار البعث وبين لهم عدم استحالته، وهددهم بأنهم يلقون حين يبعثون جزاء أعمالهم؛ فإن أرادوا النجاة فليؤمنوا باللَّه وحده وليصدقوا رسوله ﷺ والكتاب الذي جاء به، ويؤمنوا بالبعث؛ فإنهم إن آمنوا كفرت عنهم سيئاتهم وإلا فجزاؤهم النار خالدين فيها. ثم تثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من ضر أهل الكفر بهم فليتوكلوا على اللَّه في أمورهم.

وتحذير المؤمنين من بعض قرابتهم الذين تغلغل الإشراك في نفوسهم تحذيرا من أن يثبطوهم عن الإيمان والهجرة. وعرض لهم بالصبر على أموالهم التي صادرها المشركون، وأمرهم بإنفاق المال في وجوه الخير التي يرضون بها ربهم وبتقوى اللَّه والسمع له والطاعة»[1].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٩).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «وجه التعلق بما قبلها ظاهر لما أن تلك السورة للمنافقين الكاذبين، وهذه السورة للمنافقين الصادقين، وأيضًا تلك السورة مشتملة على بطالة أهل النفاق سرًّا وعلانية، وهذه السورة على ما هو التهديد البالغ لهم، وهو قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[(١)]. وأما الأول بالآخر فلأن في آخر تلك السورة التنبيه على الذكر والشكر كما مر، وفي أول هذه إشارة إلى أنهم إن أعرضوا عن الذكر والشكر؛ قلنا: من الخلق قوم يواظبون على الذكر والشكر دائمًا، وهم الذين يسبحون»[(٢)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يسجد له ما في السموات السبع وما في الأرض من خلقه ويعظمه.

وقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: له ملك السموات والأرض، وسلطانه ماض قضاؤه في ذلك، نافذ فيه أمره.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ يقول: وله حمد كلّ ما فيها من خلق؛ لأن جميع من في ذلك من الخلق لا يعرفون الخير إلا منه، وليس لهم رازق سواه، فله حمد جميعهم. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: وهو على كلّ شيء ذو قدرة، يقول: يخلق ما يشاء، ويميت من يشاء، ويغني من أراد، ويفقر من يشاء، ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء، لا يتعذّر عليه شيء أراده؛ لأنه ذو القدرة التامة التي لا يعجزه معها شيء»[(٣)].

---

(١) التغابن: الآية (٤). (٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٢١).
(٣) جامع البيان (٢٨/ ١١٩).

قال السعدي: «ذكر كمال ألوهيته سبحانه، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السموات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج عن ملكه مخلوق، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام وأسداه من النعم. وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريده»[١].

قال عطية محمد سالم: «هذه السورة آخر السور المفتتحة بالتسبيح. والفعل هنا بصيغة المضارع الدال على التجدد والحدوث. والتذييل هنا بصفات الكمال لله تعالى بقوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ للإشعار بأن الملك لله وحده لا شريك له، نافذ فيه أمره، ماض فيه حكمه، بيده أزمة أمره، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[٢]، وكقوله في سورة (يس): ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾[٣].

ومن قدرته على كل شيء وتصريفه لأمور ملكه كيف يشاء، أن جعل العالم كله يسبح له بحمده تنفيذا لحكمة فيه، كما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤]، فجمع الحمد والحكم معًا لجلالة قدرته، وكمال صفاته»[٥].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٩٢).
(٢) الملك: الآية (١).
(٣) الآيتان (٨٢و٨٣).
(٤) القصص: الآية (٧٠).
(٥) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٣١).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء اللَّه وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾»[1].

قال محمد المكي الناصري: «انتقلت الآيات الكريمة إلى التعبير عن حقيقة طبيعية ونفسية ميز اللَّه بها الإنسان من بين جميع المخلوقات، ألا وهي تزويده بالاستعداد التام للاتجاه نحو الخير إن أراده والاتجاه نحو الشر إن رغب فيه، وجعله حرا في اختيار ما يشاء من الهدى أو الضلال، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أي: أن من اختار الكفر منكم كفر، ومن اختار الإيمان منكم آمن، ومن حرية الاختيار التي زود اللَّه بها الإنسان نشأت مسؤولية عن عمله، وجزاؤه خيرا إن عمل خيرا، وشرا إن عمل شرا. أما من ناحية الخلق والتكوين فقد خلق اللَّه الإنسان متساويا مزودا بنفس الملكات اللازمة، ونفس الأجهزة الضرورية، وله بعد ذلك أن يختار، وعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره في الدنيا وفي الآخرة، وقد جاء التعقيب المناسب على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: أنه سبحانه يحصي أعمالكم، ويراقب اختياراتكم، ثم يجازيكم عليها بما أنتم أهل له»[2].

قال عطية محمد سالم: «قال الشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه- في مذكرة الدراسة: المعنى أن اللَّه هو الذي خلقكم وقدر على قوم منكم الكفر، وعلى قوم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٩٣).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٤٣-٢٤٤).

منكم الإيمان، ثم بعد ذلك يهدي كلا لما قدره عليه كما قال: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝﴾[(١)]، فيسر الكافر إلى العمل بالكفر، ويسر المؤمن للعمل بالإيمان، كما قال ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[(٢)]. اهـ

ومن المعلوم أن هذا النص من مأزق القدرية والجبرية، وأن أهل السنة يؤمنون أن كلا بقدر اللَّه ومشيئته. كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية: وهم أهل السنة وسط بين قول: إن العبد مجبور على عمله لا اختيار له كالورقة في مهب الريح، وبين قول: إن العبد يخلق فعله بنفسه ويفعل ما يريد بمشيئته، وأهل السنة يقولون بقوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝﴾[(٣)]»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن القدر سرّ من الأسرار استأثر اللَّه به

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ -وهو الصادق المصدوق- قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث اللَّه ملكا يؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه يعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة**»[(٥)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن هبيرة: «هذا الحديث يدل على وجوب الإيمان أن كل نسمة توجد إلى

---

(١) الأعلى: الآية (٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٨٢)، والبخاري (٨/ ٩١٩/ ٤٩٤٩) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٤٠/ ٢٦٤٧[٧])، الترمذي (٤/ ٣٨٨/ ٢١٣٦) وقال: «حسن صحيح»، ابن ماجه (١/ ٧٨/ ٣٠-٣١) عن علي رضي الله عنه.

(٣) التكوير: الآيتان (٢٨و٢٩).

(٤) أضواء البيان (٨/ ٣٣٢).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨/ ٢١٣٧) وقال: «حسن صحيح»، النسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

يوم القيامة قد سبق في علم اللَّه ما يكون من رزقها وأجلها وسعادتها وشقائها . وهذا علم ينفرد اللَّه ﷻ به ، فله الأمر من قبل ومن بعد .

قال **أحمد بن حنبل** رَحِمَهُ اللَّهُ لما سمع هذا الحديث قال : هذا الحديث ينبغي أن يكون أشد شيء في الحث على زيادة العمل .

ووفق ذلك فإنه حيث كان الأمر قد فرغ منه فإنه لا يعمل إلا من قد سبق له التوفيق ، فهو يعان عليه ويساعد فيه ، وهو الأمارة على أن الكتاب الذي سبق كان مقتضيًا ذلك ، إلا أنه مع ذلك فإنه لا ينبغي أن يركن الإنسان إلى عمل ولا يعوّل على عبادة ؛ فإن اللَّه ﷻ إذا اطّردت الأسباب خرقها في نوادر ، ليتبيّن بذلك أنه لا تجوز عبادة الأسباب ولكن يعبد اللَّه المسبِّب ؛ فلهذا قال : «فيبقى بينه وبين الجنة أو بين النار مقدار ذراع» فهذا ينبغي أن يتداوى به في نفي العجب عن العاملين لا ترك العمل الصالح ، وفي الحذر من القنوط من رحمة اللَّه تعالى لا في الزيادة من الذنوب إزماعًا على الهلكة»[1] .

وقد تقدم الحديث والكلام عليه في مواضع : في سورة (الأعراف)، وفي سورة (القمر) .

* * *

---

(١) الإفصاح (٢/ ٤٨).

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: خلق السموات السبع والأرض بالعدل والإنصاف، وصوّركم: يقول: ومثلكم فأحسن مثلكم، وقيل: إنه عُنِيَ بذلك تصويره آدم، وخلقه إياه بيده..

﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ يقول: وإلى اللَّه مرجع جميعكم أيها الناس»[1].

قال ابن كثير: « ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والحكمة، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: أحسن أشكالكم؛ كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[2] وكقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[3] الآية. وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع والمآب»[4].

قال عطية محمد سالم: «فخلق السموات والأرض وخلق الإنسان في أحسن صورة آيتان من آيات الدلالة على البعث، كما قال تعالى في الأولى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[5]، وقال في الثانية: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[6]. ولذا جاء عقبها قوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بعد الموت والبعث. فكأنه يقول لهم: هو الذي خلقكم وخلق لكم آيات قدرته على بعثكم، من ذلك خلق السماوات والأرض، ومن ذلك خلقكم

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٢٠).
(٢) الانفطار: الآيات (٦-٨).
(٣) غافر: الآية (٦٤).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦١-١٦٢).
(٥) غافر: الآية (٥٧).
(٦) يس: الآية (٧٩).

وتصويركم في أحسن تقويم، فكأن موجب ذلك الإيمان بقدرته تعالى على بعثكم بعد الموت، وبالتالي إيمانكم بما بعد البعث، من حساب وجزاء وجنة ونار، ولكن فمنكم كافر ومنكم مؤمن»(١).

قال محمد المكي الناصري: «عاد كتاب اللّٰه إلى التذكير بقدرة اللّٰه، والتنويه بحكمته المتجلية في خلق السماوات والأرض، وفي تصوير الإنسان على أحسن صورة، وفي ذلك تنبيه للإنسان -ولا سيما إذا كان منحرفا عن الحق- إلى أن يعود إلى اللّٰه، ودعوة له إلى أن يتدبر آياته في الآفاق والأنفس، إذ لا فضل عليه لأحد سواه، فهو الذي خلقه أحسن خلق، وصوره أحسن صورة، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه، وهو الذي يستحق أن يحمد ويشكر ويعبد ولا يكفر، لاسيما وأن منه كان البدء وإليه ستكون العودة، وذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ يشير بالأصالة إلى تكوين الخلقة الإنسانية وصنعها في حد ذاتها، وإلى هندستها الفريدة بين المخلوقات، وإلى ما ميزها اللّٰه به من أجهزة ووظائف وخصائص جعلت الإنسان عمومًا (سيد الأحياء) المتفوق عليها جميعا، ولو كان شكل بعض أفراده دميما وغير جميل، فجمال الخلقة الإنسانية وكمال التركيب الإنساني لا يختلفان بالنسبة لغيره من الحيوانات غير الناطقة، وإن كانت أشخاص الإنسان تتفاوت بعضها عن بعض في نسبة الجمال والتناسب»(٢).

قال ابن عاشور: « ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ إدماج امتنان على الناس بأنهم مع ما خلقوا عليه من ملابسة الحق على وجه الإجمال، وذلك من الكمال، وهو ما اقتضته الحكمة الإلهية؛ فقد خُلقوا في أحسن تقويم إذ كانت صورة الإنسان مستوفية الحسن متماثلة فيه، لا يعتورها من فظاعة بعض أجزائها ونقصان الانتفاع بها ما يُناكد محاسن سائرها، بخلاف محاسن أحاسن الحيوان من الدواب والطير والحيتان من مشي على أربع مع انتكاس الرأس غالبًا، أو زحف، أو نقز في المشي

---

(١) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٤٤).

في البعض.

ولا تعتور الإنسان نقائصُ في صورته إلا من عوارضَ تعرض في مدة تكوينه من صَدَمَات لبطون الأمهات، أو علل تحلّ بهن أو بالأجنة، أو من عوارض تعرض له في مدة حياته فتشوه بعض محاسن الصور. فلا يعد ذلك من أصل تصوير الإنسان، على أن ذلك مع ندرته لا يعد فظاعة ولكنه نقص نسبي في المحاسن، فقد جمع بين الإيماء إلى ما اقتضته الحكمة قد نبههم إلى ما اقتضاه الإنعام. وفيه إشارة إلى دليل إمكان البعث؛ كما قال: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾[1]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾[2]»[3].

* * *

(١) ق: الآية (١٥).

(٢) يس: الآية (٨١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يعلم ربكم أيها الناس ما في السموات السبع والأرض من شيء، لا يخفى عليه من ذلك خافية ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ أيها الناس بينكم من قول وعمل ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من ذلك فتظهرونه. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يقول -جل ثناؤه-: واللَّه ذو علم بضمائر صدور عباده، وما تنطوي عليه نفوسهم، الذي هو أخفى من السرّ، لا يعزب عنه شيء من ذلك. يقول -تعالى ذكره- لعباده: احذَروا أن تسرّوا غير الذي تعلنون، أو تضمروا في أنفسكم غير ما تُبدونه، فإن ربكم لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو محص جميعه، وحافظ عليكم كله»(1).

قال ابن عاشور: «كانوا ينفون الحشر بعلة أنه إذا تفرقت أجزاء الجسد لا يمكن جمعها ولا يحاط بها. ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(2)، فكان قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ دحضًا لشبهتهم، أي: أن الذي يعلم ما في السموات والأرض لا يعجزه تفرق أجزاء البدن إذا أراد جمعها. والذي يعلم السرّ في نفس الإنسان، والسرُّ أدق وأخفى من ذرات الأجساد المتفرقة؛ لا تخفى عليه مواقع تلك الأجزاء الدقيقة، ولذلك قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾(3)»(4).

قال محمد المكي الناصري: «وضح كتاب اللَّه أن علم الخالق سبحانه محيط بجميع خلقه، بحيث لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه مطلع على ظواهر الناس وبواطنهم دون أيّ فرق ولا استثناء، وبذلك لا يستطيع الإنسان وإن أسرَّ ما في نفسه، وأخفى ما في صدره- أن يتملص من رقابة اللَّه، أو

---

(1) جامع البيان (٢٨/ ١٢٠).
(2) السجدة: الآية (١٠).
(3) القيامة: الآيتان (٣و٤).
(4) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٦٦).

أن يتخلص من عين اللَّه التي الحساب لرقابة اللَّه عند كل خطوة يخطوها نحو الخير أو الشر، وأن يقدر نتائج عمله وعواقبه كل التقدير، وإلى هذا المعنى ينبه قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)﴾»[(١)].

* * *

(١) التيسير (٦/ ٢٤٤-٢٤٥).

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- لمشركي قريش : ألم يأتكم أيها الناس خبر الذين كفروا من قبلكم ، وذلك كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ فمسّهم عذاب اللَّه إياهم على كفرهم . ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يقول : ولهم عذاب مؤلم موجع يوم القيامة في نار جهنم ، مع الذي أذاقهم اللَّه في الدنيا وبال كفرهم .

وقوله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يقول -جل ثناؤه- : هذا الذي نال الذين كفروا من قبل هؤلاء المشركين من وبال كفرهم ، والذي أعدّ لهم ربهم يوم القيامة من العذاب ، من أجل أنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات الذي أرسلهم إليهم ربهم بالواضحات من الأدلة والإعلام على حقيقة ما يدعونهم إليه ، فقالوا لهم : أبشر يهدوننا ، استكبارًا منهم أن تكون رسل اللَّه إليهم بشرًا مثلهم ، واستكبارًا عن اتباع الحقّ من أجل أن بشرًا مثلهم دعاهم إليه ؛ وجمع الخبر عن البشر ، فقيل : يهدوننا ، ولم يقل : يهدينا ؛ لأن البشر وإن كان في لفظ الواحد فإنه بمعنى الجميع .

وقوله : ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ﴾ يقول : فكفروا باللَّه ، وجحدوا رسالة رسله الذين بعثهم اللَّه إليهم استكبارًا ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ يقول : وأدبروا عن الحقّ فلم يقبلوه ، وأعرضوا عما دعاهم إليه رسلهم ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ﴾ يقول : واستغنى اللَّه عنهم ، وعن إيمانهم به وبرسله ، ولم تكن به إلى ذلك منهم حاجة ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ يقول : واللَّه غني عن جميع خلقه ، محمود عند جميعهم بجميل أياديه عندهم ، وكريم فعاله فيهم»[1] .

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٢٠-١٢١).

قال الرازي: «اعلم أن قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ الَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ خطاب لكفار مكة: وذلك إشارة إلى الويل الذي ذاقوه في الدنيا، وإلى ما أعد لهم من العذاب في الآخرة. فقوله: ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: شدة أمرهم؛ مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[1]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ﴾ أي: بأن الشأن والحديث أنكروا أن يكون الرسول بشرًا، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجرًا، ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟﴾ وكفروا بالرسل وأعرضوا، ﴿وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عن طاعتهم وعبادتهم من الأزل»[2].

قال ابن ناصر السعدي: « ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: ليس لهم فضل علينا، ولأي شيء خصهم اللَّه دوننا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[3]، فهم حجروا فضل اللَّه ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلا للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها»[4].

قال القنوجي: « ﴿فَقَالُوا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: قال قوم منهم لرسولهم هذا القول، منكرين أن يكون الرسول من جنس البشر، متعجبين من ذلك، كما قالت ثمود: ﴿فَقَالُوا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾[5]، ومن غباوتهم أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشرًا، وسلموا واعتقدوا أن الإله يكون حجرًا!!»[6].

قال عطية محمد سالم: «فيه استنكار الكفار أن يكون من يهديهم بشرًا لا ملَكًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا۟ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا۟ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾.

قال الشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه- في مذكرة الدراسة: فشبهتهم هذه الباطلة ردها اللَّه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾[8]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾[9] أي: لا ملائكة، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾[10]»[11].

---

(١) الدخان: الآية (٤٩).
(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٢٤).
(٣) إبراهيم: الآية (١١).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٩٥).
(٥) القمر: الآية (٢٤).
(٦) فتح البيان (١٤/ ١٦٦).
(٧) الإسراء: الآية (٩٤).
(٨) الأنعام: الآية (٩).
(٩) النحل: الآية (٤٣).
(١٠) الفرقان: الآية (٢٠).
(١١) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٣٨).

قال ابن عاشور: «انتقال من التعريض الرمزي بالوعيد الأخروي في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[(١)]، إلى قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾[(٣)]؛ إلى تعريض أوضح منه بطريق الإيماء إلى وعيد لعذاب دنيوي وأخروي معًا؛ فإن ما يسمّى في باب الكناية بالإيماء أقل لوازم من التعريض والرمز فهو أقرب إلى التصريح. وهذا الإيماء بضرب المَثل بحال أمم تلقوا رسلهم بمثل ما تلقّى به المشركون محمدًا ﷺ تحذيرًا لهم من أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بأولئك، فالجملة ابتدائية لأنها عَدٌّ لصنف ثانٍ من أصناف كفرهم وهو إنكار الرسالة.

فالخطاب لخصوص الفريق الكافر بقرينة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾؛ فهذا الخطاب موجه للمشركين الذين حالهم كحال من لم يبلغهم نبأ الذين كفروا مثلَ كفرهم، مثلُ عاد وثمود ومَدين وقوم إبراهيم. .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦﴾ ارتقاء في التعريض إلى ضرب منه قريبٍ من الصريح، وهو المسمى في الكناية بالإشارة. كانت مقالةُ الذين من قبلُ مماثلة لمقالة المخاطبين، فإذا كانت هي سبب ما ذاقوه من الوبال فيوشك أن يذوق مماثلوهم في المقالة مثل ذلك الوبال. فاسم الإشارة عائد إلى المذكور من الوبال والعذاب الأليم.

فهذا عَدّ لكفر آخر من وجوه كفرهم وهو تكذيبهم الرسول ﷺ وتكذيبهم بالقرآن؛ فإن القرآن بيّنة من البيّنات؛ لأنه معجزة»[(٤)].

* * *

---

(١) التغابن: الآية (٢).

(٢) التغابن: الآية (٣).

(٣) التغابن: الآية (٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٦٧-٢٦٨).

قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ فإنه وإن كان عسيرًا بل متعذرًا بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم، لو اجتمعت على إحياء ميت واحد، ما قدروا على ذلك. وأما اللَّه تعالى فإنه إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾(١)»(٢).

قال ابن كثير: «هذه هي الآية الثالثة التي أمر اللَّه رسوله ﷺ أن يقسم بربه ﷻ على وقوع المعاد ووجوده، فالأولى في سورة (يونس): ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۝٥٣﴾(٣)، والثانية في سورة (سبأ): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾(٤)، والثالثة هي هذه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾(٥)»(٦).

قال عطية محمد سالم: «قال الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه: أي أن الكفار ادعوا أنهم لا يبعثون قائلين: إن العظام الرميم لا تحيى. قل لهم يا نبي الله: بلى وربي لتبعثن، و(بلى) حرف يأتي لأحد معنيين: الأول: رد نفي؛ كما هنا. الثاني: جواب استفهام مقترن بنفي؛ نحو قوله: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾(٧)، وقوله:

(١) الزمر: الآية (٦٨).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٨٦٦).
(٣) يونس: الآية (٥٣).
(٤) سبأ: الآية (٣).
(٥) التغابن: الآية (٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٢-١٦٣).
(٧) الأعراف: الآية (١٧٢).

﴿وَرَبِّي﴾ قسم بالرب على البعث الذي هو الإحياء بعد الموت، وقد أقسم به عليه في القرآن ثلاث مرات: الأول هذا. والثاني: قوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ﴾[1]. الثالث: قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[2] اهـ.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ﴾ بينه تعالى بقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[3]، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ اسم الإشارة راجع إلى البعث، ويسره أمر مسلم؛ لأن الإعادة أهون من البدء. كما قال تعالى عن الكفار: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[4] وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ﴾[5]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾[6]»[7].

قال ابن عاشور: «هذا ضرب ثالث من ضروب كفر المشركين المخاطبين بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾[8] إلخ، وهو كفرهم بإنكارهم البعث والجزاء.

والجملة ابتدائية. وهذا الكلام موجه إلى النبي ﷺ بقرينة قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾. وليس هذا من الإظهار في مقام الإضمار، ولا من الالتفات؛ بل هو ابتداء غرض مخاطبٍ به غيرُ من كان الخطاب جاريًا معهم.

وتتضمن الجملة تصريحًا بإثبات البعث ذلك الذي أوتي إليه فيما مضى يفيد بالحق في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[9]، وبقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[10]»[11].

---

(١) يونس: الآية (٥٣).
(٢) سبأ: الآية (٣).
(٣) الإسراء: الآيتان (١٣و١٤).
(٤) يس: الآيتان (٧٨و٧٩).
(٥) لقمان: الآية (٢٨).
(٦) الروم: الآية (٢٧).
(٧) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٣٩).
(٨) التغابن: الآية (٥).
(٩) التغابن: الآية (٣).
(١٠) التغابن: الآية (٤).
(١١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٧٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم قول الرجل: زعموا

* عن أبي قلابة قال: قال أبو مسعود لأبي عبد اللَّه أو قال أبو عبد اللَّه لأبي مسعود: ما سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في (زعموا)؟ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**بئس مطية الرجل (زعموا)**»[١].

★ **غريب الحديث:**

مطية: بفتح الميم وكسر الطاء المهملة وتشديد التحتية؛ بمعنى الركوب.

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «أصل هذا أن الرجل إذا أراد الظعن في حاجة والمسير إلى بلد ركب مطيته وسار حتى يبلغ حاجته، فشبه النبي ﷺ ما يقدمه الرجل أمام كلامه ويتوصل به إلى حاجته من قولهم: زعموا بالمطية التي يتوصل بها إلى الموضع الذي يؤمه ويقصده.

وإنما يقال: (زعموا) في حديث لا سند له ولا ثبت فيه، وإنما هو شيء يحكى عن الألسن على سبيل البلاغ، فذم النبي ﷺ من الحديث ما كان هذا سبيله وأمر بالتثبت فيه والتوثق لما يحكيه من ذلك فلا يرويه حتى يكون معزِيًّا إلى ثبت ومرويًّا عن ثقة»[٢].

قال ابن بطال: «معناه أن من أكثر من الحديث بما لا يصحّ عنده، ولا يعلم صدقه لم يؤمن عليه الكذب»[٣].

قال الجيلاني: «لم تجئ هذه الكلمة في القرآن إلا في الإخبار عن قوم مذمومين بأشياء مذمومة، فكره للناس أخلاق المذمومين في أخلاقهم والكافرين في أديانهم الكاذبين في أقوالهم؛ لأن الأولى بهم لزوم أخلاق المؤمنين الذي سبقوهم بالإيمان»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٢)، وأبو داود (٥/ ٢٥٤/ ٤٩٧٢) واللفظ له.

(٢) معالم السنن (٤/ ١٢٠-١٢١). (٣) شرح البخاري (٩/ ٣٣٠).

(٤) فضل اللَّه الصمد (٢/ ٢٤٠).

قال القاري: «وفي الحديث المبالغة في الاجتناب عن إخبار الناس كيلا يقع في الكذب، وقد ورد في حديث رواه أبو داود، والحاكم عن ابن عمر مرفوعا: «**كفى بالمرء إثمًا أن يحدث بكل ما سمع**»[1]؛ لأن الرجل إذا كان مذموما مع قوله: زعموا أن الأمر كذا وكذا حيث أسند إلى الناس، ولم يجعله إنشاء من تلقاء نفسه، ولا جزم به، بل عبر بالزعم الذي بمعنى الادعاء والافتراء، كما أخبر اللّه تعالى بقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ فكيف لا يكون مذموما إذا أسند إليهم القول على وجه التحقيق، أو نسب إلى نفسه من غير إسناد إلى من سمعه أو كذب عليه ﷺ، والحاصل من الحديث أنه ينبغي تبديل هذه اللفظة وهذه الإضافة، فإما أن يحقق الكلام وينسبه إلى قائله، أو يسكت كما قال النبي ﷺ: «**من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[2]»[3].

* * *

(١) أخرجه: أبو داود (٥/ ٢٦٥-٢٦٦/ ٤٩٩٢)، وابن حبان [الإحسان: (١/ ٢١٣-٢١٤/ ٣٠)]، والحاكم (١/ ١١٢) لكن من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (١٠/ ٦٥١/ ٦١٣٦) واللفظ له، ومسلم (١/ ٦٨/ ٧٤)، وأبو داود (٥/ ٣٥٨/ ٥١٥٤)، والترمذي (٤/ ٥٦٩/ ٢٥٠٠) وقال: «حديث صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣١٣/ ٣٩٧١) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) المرقاة (٨/ ٥٣١).

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ⑧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فصدّقوا باللَّه ورسوله أيها المشركون المكذّبون بالبعث، وبإخباره إياكم أنكم مبعوثون من بعد مماتكم، وأنكم من بعد بلائكم تنشرون من قبوركم، ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ يقول: وآمنوا بالنور الذي أنزلنا، وهو هذا القرآن الذي أنزله اللَّه على نبيه محمد ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: واللَّه بأعمالكم أيها الناس ذو خبرة محيط بها، محصٍ جميعها، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم على جميعها»[1].

قال ابن ناصر السعدي: «لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك منهم موجب كفرهم باللَّه وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء، وهو الإيمان به وبرسوله وبكتابه وسماه اللَّه نورًا، لأن النور ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله اللَّه من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب اللَّه فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان باللَّه ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٢١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٩٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في الدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله

* عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: لا، قال: **«فارجع، فلن أستعين بمشرك»**. قالت: ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة، قال: **«فارجع فلن أستعين بمشرك»**. قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة: **«تؤمن بالله ورسوله؟»** قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: **«فانطلق»**[1].

★ غريب الحديث:

بحرّة الوبر: الحَرّة بفتح الحاء وتشديد الراء. والوَبَرة بفتح الواو والباء الموحدة بعدها راء، وبسكون الموحدة أيضًا: موضع على أربعة أميال من المدينة.

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «وفيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من الاجتهاد، والحرص على دخول الناس في الإسلام»[2].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٧-٦٨-١٤٨-١٤٩)، ومسلم (٣/ ١٤٤٩-١٤٥٠/ ١٨١٧) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ١٧٢/ ٢٧٣٢)، والترمذي (٤/ ٨٠١/ ٨٥٥١) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩/ ١١٦٠٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٥/ ٢٨٣٢).

(٢) التمهيد (فتح البر ١١/ ٩٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «يريد به يوم القيامة، جمع فيه أهل السموات وأهل الأرض، و﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾، والتغابن: تفاعل من الغبن في المجازاة والتجارات، يقال: غبنه يغبنه غبنًا: إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته، قال ابن عباس ﵄: إن قومًا في النار يعذبون وقومًا في الجنة يتنعمون، وقيل: هو يوم يغبن فيه أهلُ الحق أهلَ الباطل، وأهلُ الهدى أهلَ الضلالة، وأهلُ الإيمان أهلَ الكفر، فلا غبن أبين من هذا. وفي الجملة فالغبن في البيع والشراء. وقد ذكر تعالى في حق الكافرين أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، واشتروا الضلالة بالهدى، ثم ذكر أنهم ما ربحت تجارتهم، ودل المؤمنين على تجارة رابحة، فقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾[1] الآية، وذكر أنهم باعوا أنفسهم بالجنة، فخسرت صفقة الكفار، وربحت صفقة المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ يؤمن باللَّه على ما جاءت به الرسل من الحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك، ويعمل صالحًا أي: يعمل في إيمانه صالحًا إلى أن يموت»[2].

قال السعدي: «يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع اللَّه به الأولين والآخرين، ويوقفهم موقفًا هائلًا عظيمًا، وينبئهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتغابن بين الخلائق، ويرفع أقوام إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلى

(١) الصف: الآية (١٠).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٢٥-٢٦).

أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون، فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟ فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: إيمانًا تامًّا، شاملًا لجميع ما أمر اللَّه بالإيمان به، ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق اللَّه وحقوق عباده. ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾»[١].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفُذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾[٣]»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حقيقة الغبن يوم القيامة

* عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «**لا يدخل أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء؛ ليزداد شكرًا، ولا يدخل النار أحدًا إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن؛ ليكون عليه حسرةً**»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «لو أساء ليزداد شكرًا» أي: لو كان عمل عملًا سيئًا وهو الكفر فصار من أهل النار، وقوله: «ليزداد شكرًا» أي: فرحًا ورضًا، فعبر عنه بلازمه؛ لأن الراضي بالشيء يشكر من فعل له ذلك»[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٩٧-٣٩٨). (٢) هود: الآية (١٠٣).
(٣) الواقعة: الآيتان (٤٩و٥٠). (٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٤١)، والبخاري (١١/ ٥١٠/ ٦٥٦٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٧/ ١١٤٥٤).
(٦) الفتح (١١/ ٥٤٠).

قال الكرماني: «فإن قلت: الجنة ليست دار شكر؛ بل هي دار جزاء؛ قلت: الشكر ليس على سبيل التكليف؛ بل هو على سبيل التلذذ، أو المراد لازمه وهو الرضا والفرح؛ لأن الشاكر عن الشيء راض به فرحان بذلك»[١].

قال الحافظ: «قوله: «لو أحسن» أي: لو عمل عملًا حسنًا وهو الإسلام، وقوله: «ليكون عليه حسرة» أي: الزيادة في تعذيبه»[٢].

قال العيني: «إن ذلك يقع عند المسألة في القبر»[٣].

قال الملا علي القاري: «ويحتمل أن يكون الإراءة في القبر على ما يشهد له بعض الأحاديث، ويحتمل أن يكون يوم القيامة على ما هو الظاهر المتبادر من هذا الحديث، والله تعالى أعلم»[٤].

* * *

(١) شرح الكرماني (١١/ ٥٧-٥٨).
(٢) الفتح (١١/ ٥٤٠).
(٣) عمدة القاري (١٥/ ٦٣١).
(٤) المرقاة (٩/ ٥٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين جحدوا وحدانية اللَّه، وكذّبوا بأدلته وحججه وآي كتابه الذي أنزله على عبده محمد ﷺ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ يقول: ماكثين فيها أبدًا لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يقول: وبئس الشيء الذي يُصَار إليه جهنم»[1].

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ أي: كفروا وكذبوا من قبلُ، واستمرُّوا على كفرهم وتكذيبهم، فلم يستجيبوا لهذه الدعوة، ثبت لهم أنهم أصحاب النار. ولذلك جيء في جانب الخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الثبات لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

وجيء لهم باسم الإشارة لتمييزهم تمييزًا لا يلتبس معه غيرهم بهم؛ مثل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾[2] مع ما يفيده اسم الإشارة من أن استحقاقهم لملازمة النار ناشئ عن الكفر والتكذيب بآيات اللَّه، وهذا وعيد.

وجملة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراض تذييلي لزيادة تهويل الوعيد»[3].

قال السعدي: «أي: كفروا بها من غير مستند شرعي ولا عقلي؛ بل جاءتهم الأدلة والبينات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب»[4].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٢٢).

(٢) البقرة: الآية (٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٧٨).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٩٨-٣٩٩).

قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا بما أخبر به في سورة (الحديد): ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾[١]، وهكذا قال ههنا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾. قال ابن عباس: بأمر اللَّه يعني عن قدره ومشيئته. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء اللَّه وقدره فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله؛ هدى اللَّه قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدىً في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه أو خيرًا منه»[٢].

قال عطية محمد سالم: «في هذه الآية الكريمة نص صريح بأن ما يصيب أحدًا مصيبة إلا بإذن اللَّه. ومعلوم أنه كذلك ما يصيب أحدًا خير إلا بإذن اللَّه على حد قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[٣] أي: والبرد. ولكن التنصيص على المصيبة هنا ليدل أن كل شيء ينال العبد إنما هو بإذن الله؛ لأن الجبلة تأبى المصائب وتتوقاها، ومع ذلك تصيبه، وليس في مقدوره دفعها بخلاف الخير، قد يدعي أنه حصله باجتهاد منه كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾[٤].

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ قرئ يهدأ بالهمز من الهدوء، وقلبه بالرفع، وهي بمعنى يهدي قلبه، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، فيسترجع فيطمئن قلبه بهذا ولا يجزع، وهذا من خصائص المؤمن. كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له حتى**

---

(١) الحديد: الآية (٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٣).

(٣) النحل: الآية (٨١).

(٤) القصص: الآية (٧٨).

الشوكة يشاكها في قدمه»[١] ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[٢] أي: إلى ما يلزمهم من امتثال وصبر، ولذا جاء بعدها ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. ومن ناحية أخرى يقال: إن قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، والكفر أعظم المصائب، ومن يؤمن باللّه يهد قلبه. والإيمان باللّه أعظم النعم، فيقول قائل: إن كان كل ذلك بإذن اللّه، فما ذنب الكافر وما فضل المؤمن، فجاء قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بيانًا لما يلزم العبد، وهو طاعة الرسل فيما جاءوا به، ولا يملك سوى ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ من نسبة الهداية إلى القلب بيان لقضية الهداية العامة والخاصة، كما قالوا في قوله تعالى عنه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣] مع قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[٤]. فقالوا: الهداية الأولى دلالة إرشاد كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[٥] والثانية: هداية توفيق وإرشاد، ويشهد لذلك شبه الهداية من اللّه لقلب من يؤمن باللّه، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بتكرار فعل الطاعة يدل على طاعة الرسول تلزم مستقلة. وقد جاءت السنة بتشريعات مستقلة وبتخصيص القرآن ونحو ذلك، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[٦]. ومما يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[٧]، فكرر الفعل بالنسبة لله وللرسول ولم يكرره بالنسبة لأُولِي الأمْر؛ لأن طاعتهم لا تكون استقلالًا بل تبعًا لطاعة اللّه وطاعة رسوله، كما في الحديث: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[٨]»[٩].

قال ابن عاشور: «استئناف انتقل إليه بعد أن توعد المشركون بما يحصل لهم من

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) البقرة: الآيات (١٥٥-١٧٥).

(٣) الشورى: الآية (٥٢).

(٤) القصص: الآية (٥٦).

(٥) فصلت: الآية (١٧).

(٦) الحشر: الآية (٧).

(٧) النساء: الآية (٥٩).

(٨) أخرجه: أحمد (١/ ٩٤)، والبخاري (١٣/ ٢٨٩/ ٧٢٥٧)، ومسلم (٣/ ١٤٦٩/ ١٨٤٠)، وأبو داود (٣/ ٩٢-٩٣/ ٢٦٢٥)، والنسائي (٧/ ١٧٩/ ٤٢١٦) من حديث علي ﷺ بلفظ: «لا طاعة في معصية اللّه، إنما الطاعة في المعروف».

(٩) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٤٢-٣٤٤).

التغابن يوم يجمع اللَّه الناس يوم الحساب. ويشبه أن يكون استئنافًا بيانيًا؛ لأن تهديد المشركين بيوم الحساب يثير في نفوس المؤمنين التساؤل عن الانتصاف من المشركين في الدنيا على ما يلقاه المسلمون من إضرارهم بمكة؛ فإنهم لم يكفوا عن أذى المسلمين، وإصابتهم في أبدانهم وأموالهم، والفتنة بينهم وبين أزواجهم وأبنائهم. فالمراد: المصائب التي أصابت المسلمين من معاملة المشركين، فأنبأهم اللَّه بما يسليهم عن ذلك بأن اللَّه عالم بما ينالهم. وقال القرطبي: قيل: سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقًا لصانهم اللَّه عن المصائب». .

والمعنى: أن المؤمن مرتاض بالأخلاق الإسلامية، متبع لوصايا اللَّه تعالى، فهو مجافٍ لفساد الأخلاق من الجزع والهلع، يتلقى ما يصيبه من مصيبة بالصبر والتفكر في أن الحياة لا تخلو من عوارض مؤلمة أو مكدرة. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[1] أي: أصحاب الهدى الكامل؛ لأنه هدى متلقىً من التعاليم الإلهية الحق المعصومة من الخطل؛ كقوله هنا: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾. وهذا الخبر في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ إيماء إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب؛ لأنه يلزم من هدى اللَّه قلب المؤمن عند المصيبة ترغيب المؤمنين في الثبات، والتصبر عند حلول المصائب، فلذلك ذيل بجملة ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فهو تذييل للجملة التي قبلها وارد على مراعاة جميع ما تضمنته من أن المصائب بإذن اللَّه، ومن أن اللَّه يهدي قلوب المؤمنين للثبات عند حلول المصائب، ومن الأمر بالثبات والصبر عند المصائب، أي: يعلم جميع ذلك»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الصبر على المصائب

* عن صهيب ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير! وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»**[3].

---

(١) البقرة: الآيات (١٥٥-١٥٧).
(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٧٨-٢٨٠).
(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير!**» المؤمن هنا: هو العالم باللَّه، الرّاضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك: أن المؤمن المذكور إمّا أن يبتلى بما يضرّه، أو بما يسرّه؛ فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني عرف نعمة اللَّه عليه، ومنّته فيها فشكرها، وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: «**وليس ذلك إلا للمؤمن**» أي: المؤمن الموصوف بما ذكرتُه؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة ولم يحتسبها؛ بل يتضجّر ويتسخّط، فينضاف إلى مصيبته الدنيوية مصيبته في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها، ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة، والحسنة سيئة -نعوذ باللَّه من ذلك»[(١)].

قال علي القاري: «قوله: «ضراء» أي: فقر، ومرض، ومحنة، وبلية. «صبر فكان» أي: صبره. «خيرًا له»: وبهذا تبيّن قول بعض العارفين أنه لا يقال على الإطلاق: إن الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر؛ بل حالة التفويض والتسليم أولى»[(٢)].

قال المناوي: ««**وإن أصابته ضراء**» كمصيبة «صبر فكان خيرًا له»، فإنه يصير من أحزاب الصابرين الذي أثنى عليهم في كتابه المبين، فالعبد ما دام قلمُ التكليف جاريًا عليه فمناهج الخير مفتوحة بين يديه؛ فإنه بين نعمة يجب عليه شكر المنعم بها ومصيبة يجب عليه الصبر عليها، وأمر ينفذه ونهي يجتنبه، وذلك لازم له إلى الممات»[(٣)].

قال علي القاري: «وجه حصر الخير في كل حال للمؤمن الكامل؛ لأن غيره إن أصابته سراء شبع وبطر، وإن أصابته ضراء جزع وكفر، بخلاف حال المؤمن»[(٤)].

قال الطيبي: «قوله: «إلا للمؤمن» مظهَر وقع موقع المضمَر ليشعر بالعلية»[(٥)].

قال علي القاري: «وفيه أن الإظهار والإضمار مستويان في الإشعار بالعلية، ولعل النكتة هي إظهار الإشعار على وجه التصريح، فإنه آكد من طريق التلويح»[(٦)].

---

(١) المفهم (٦/ ٦٣٠).
(٢) المرقاة (٩/ ١٥٢).
(٣) الفيض (٤/ ٣٠٢).
(٤) المرقاة (٩/ ١٥٣).
(٥) شرح الطيبي (١٠/ ٣٣٣٤).
(٦) المرقاة (٩/ ١٥٢).

* عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا أراد اللَّه بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد اللَّه بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة**»(١).

* وعنه عن النبي ﷺ قال: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن اللَّه إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن علان: «قوله: «العقوبة في الدنيا» ببلاء في نفسه أو بموت صديقه أو بفقد ماله ونحوه، فيكون ذلك إذا سلم من التبرّم من الأقدار كفارة لجناياته فيوافي القيامة وقد خلص من تبعة الذنب ودركه، فإن لم يكن من أرباب المخالفات ونزل به بلاء كان زيادة في درجاته، وعليه يحمل حديث «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»(٣). «وإذا أراد اللَّه بعبده» المذكور «الشر» من العقاب والعذاب «أمسك عنه» الأذى «بذنبه» ففيه استدراجه من حيث لا يشعر «حتى يوافي به» أي بذنبه حاملا له على كاهله «يوم القيامة» فيجازى به، وأين جميع أهوال الدنيا ومضايقها من ساعة من عذاب النار وما فيها من الأغلال والأنكال؟ وفي الحديث الحث على الصبر على ما تجري به الأقدار، وأنه خير للناس في الحال والمآل، فمن صبر فاز، ومن تبرّم بالأقدار فقدر اللَّه لا يرد، وفات المتبرّم أعالي الدرجات وتكفير السيئات واللَّه ولي التوفيق»(٤).

قال الطيبي: «والمعنى لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها، فيستوفي حقه من العقاب»(٥).

قال المباركفوري: «قوله: «في الدنيا» ليخرج منها وليس عليه ذنب، ومن فعل

---

(١) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥١٩/ ٢٣٩٦) وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه»، والحاكم (٤/ ٦٠٨) وسكت عنه الذهبي في التلخيص. وانظر السلسلة الصحيحة (١٢٢٠).

(٢) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥١٩/ ٢٣٩٦) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٨/ ٤٠٣١)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٤٦).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١)، والبخاري (١٠/ ١٣٧/ ٥٠٤٨)، ومسلم (٤/ ١٩٩١/ ٢٥٧١) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) دليل الفالحين (١/ ١٨١).

(٥) شرح الطيبي (٤/ ١٣٥٠).

ذلك معه فقد أعظم اللطف به والمنة عليه»[(١)].

قال الطيبي: «قوله: «فمن رضي فله الرضا» شرط وجزاء، فهم منه أن رضى اللّه تعالى مسبوق برضى العبد، ومحال أن يرضى العبد عن اللّه إلا بعد رضا اللّه عنه، كما قال ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[(٢)] ومحال أن يحصل رضى اللّه ولا يحصل رضى العبد في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾[(٣)] فعن اللّه الرضى أزلًا وأبدًا، سابقا ولاحقًا»[(٤)].

قال ابن علان: «مع عظم البلاء، فمن حلّ به خلاف ما يهواه بالطبع من الشدائد فليفرح بها، لما فيها من التخصيص وإجزال العطاء، فإن لم يكن من أهل العلم مقام الرضا فلا أقل من أهل مقام الصبر.. في كل ساعة»[(٥)].

قال الملا علي القاري: «قوله: «فمن رضي» أي بالبلاء، «فله الرضا» أي فليعلم أن له الرضا من المولى أو فليحصل له الرضى في الآخرة والأولى»[(٦)].

* عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب**»[(٧)].

* عن عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[(٨)].

★ **غريب الحديث:**

شق الجيوب: جمع جيب بالجيم والموحدة، وهو: ما يفتح من الثوب ليدخل فيه الرأس، والمراد بشقه: إكمال فتحه إلى آخره، وهو علامة التسخط.

---

(١) تحفة الأحوذي (٧/ ٦٥).
(٢) البينة: الآية (٨).
(٣) الفجر: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٤) المصدر السابق.
(٥) دليل الفالحين (١/ ١٨١-١٨٢).
(٦) المرقاة (٤/ ٤٢).
(٧) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٢-٣٤٣)، ومسلم (٢/ ٦٤٤/ ٩٣٤) واللفظ له، وأخرج طرفه الآخر: ابن ماجه (١/ ٥٠٣-٥٠٤/ ١٥٨١).
(٨) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٢)، والبخاري (٣/ ٢١٠/ ١٢٩٤) واللفظ له، ومسلم (١/ ٩٩/ ١٠٣)، والترمذي (٣/ ٣٢٤/ ٩٩٩) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٤/ ٣١٩/ ١٨٦١)، وابن ماجه (١/ ٥٠٤-٥٠٥/ ١٥٨٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «ليس منا» أي من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدين ولكن فائدة إيراده بهذا اللفظ المبالغة في الردع عن الوقوع في مثل ذلك كما يقول الرجل لولده عند معاتبته: لست منك ولست مني؛ أي: ما أنت على طريقتي. وقال الزين بن المنير ما ملخصه: التأويل الأول يستلزم أن يكون الخبر إنما ورد عن أمر وجودي؛ وهذا يصان كلام الشارع عن الحمل عليه. والأولى أن يقال: المراد أن الواقع في ذلك يكون قد تعرض لأن يهجر ويعرض عنه فلا يختلط بجماعة السنة تأديبا له على استصحابه حاله الجاهلية التي قبحها الإسلام؛ فهذا أولى من الحمل على ما لا يستفاد منه قدر زائد على الفعل الموجود. وحكي عن سفيان أنه كان يكره الخوض في تأويله ويقول: ينبغي أن يمسك عن ذلك ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر. وقيل: المعنى ليس على ديننا الكامل؛ أي أنه خرج من فرع من فروع الدين وإن كان معه أصله حكاه ابن العربي.

ويظهر لي أن هذا النفي يفسره التبري الآتي في حديث أبي موسى بعد بابٍ، حيث قال: برئ منه النبي ﷺ، وأصل البراءة الانفصال من الشيء، وكأنه توعده بأن لا يدخله في شفاعته مثلًا. وقال المهلب: قوله: «أنا بريء» أي من فاعل ما ذكر وقت ذلك الفعل، ولم يرد نفيه عن الإسلام.

قلت: بينهما واسطة تعرف مما تقدم أول الكلام، وهذا يدل على تحريم ما ذكر من شق الجيب وغيره، وكأن السبب في ذلك ما تضمنه ذلك من عدم الرضا بالقضاء، فإن وقع التصريح بالاستحلال مع العلم بالتحريم أو التسخط مثلا بما وقع فلا مانع من حمل النفي على الإخراج من الدين»[١].

قال ابن بطال: «وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[٢] قال: لا ينُحن، ولا يشققن، ولا يخمشن، ولا ينشرن شعرًا، ولا يدعون ويلًا. وقد نسخ اللّه ذلك بشريعة الإسلام، وأمر بالاقتصاد في الحزن والفرح، وترك الغلو في

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢١٠-٢١١).
(٢) الممتحنة: الآية (١٢).

ذلك، وحضّ على الصبر عند المصائب واحتساب أجرها على اللَّه، وتفويض الأمور كلها إليه، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾[(١)] فحقّ على كل مسلم مؤمن عَلِم سرعة الفناء، ووشك الرحيل إلى دار البقاء، ألا يحزن على فائت من الدنيا، وأن يستشعر الصبر والرضا؛ لينال هذه الدرجات الرفيعة من ربه، وهي الصلاة والرحمة والهدى، وفي واحد من هذه المنازل سعادة الأبد، وهبنا اللَّه الصبر والرضا بالقضاء إنه كريم وهاب»[(٢)].

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث صريح النهي عن أن يبلغ الحزن إلى ضرب الخدود وشق الجيوب، أو أن ينتهي إلى دعوى الجاهلية من كونهم كانوا يذكرون الكلام الباطل الذي نسخه الإسلام، وليس في هذا ما يمنع البكاء وظهور الرقة على الإنسان عند فقد حبيبه أو أخيه المسلم»[(٣)].

قال القرطبي: «ودعوى الجاهلية هنا هي: النياحة وندبة الميت، والدعاء بالويل، والنعي، وإطراء الميت بما لم يكن فيه، كما كانت الجاهلية تفعل، ويحتمل أن يراد بها: نداؤهم عند الهياج والقتال: يا بني فلان! مستنصرًا بهم في الظلم والفساد، وقد جاء النهي عنها في حديث آخر وقال: «**دعوها فإنها منتنة**»[(٤)]، وأمر بالانتماء إلى الإسلام فقال: «**ادعوا بدعوة المسلمين التي سماكم اللَّه بها**»[(٥)]، والأولى أليق بهذا الحديث؛ لأنه قرنه بضرب الخدود وشقّ الجيوب»[(٦)].

تقدم الكلام على الصبر عند المصيبة في سورة البقرة.

* * *

---

(١) البقرة: الآية (١٥٦).

(٢) شرح ابن بطال (٣/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٣) الإفصاح (٢/ ٢٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٩٢-٣٩٣)، والبخاري (٨/ ٨٣٦/ ٤٩٠٥)، ومسلم (٤/ ١٩٩٨-١٩٩٩/ ٢٥٨٤[٦٣])، الترمذي (٥/ ٣٨٩-٣٩٠/ ٣٣١٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٢/ ١١٥٩٩) عن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما.

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٢)، والترمذي (٥/ ١٣٦-١٣٧/ ٢٨٦٣)، وصححه الحاكم (١/ ٤٢١-٤٢٢)، ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٤/ ١٢٤-١٢٦/ ٦٢٣٣).

(٦) المفهم (١/ ٣٠١).

قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أيها الناس في أمره ونهيه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ﷺ، ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ فإن أدبرتم عن طاعة اللّه وطاعة رسوله مستكبرين عنها، فلم تطيعوا اللّه ولا رسوله ﴿فَإِنَّمَا﴾ فليس ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ محمد إلا ﴿ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أنه بلاغ إليكم لما أرسلته به. يقول -جل ثناؤه-: فقد أعذر إليكم بالإبلاغ، واللّه وليّ الانتقام ممن عصاه وخالف أمره وتولى عنه»[1].

قال السعدي: «قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة اللّه وطاعة رسوله مدار السعادة وعنوان الفلاح، ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: عن طاعة اللّه وطاعة رسوله؛ ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغًا يبين لكم ويتضح وتقوم عليكم به الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة اللّه وطاعة رسوله أو عدم ذلك عالِمُ الغيب والشهادة»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٢٣-١٢٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠١).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال تعالى مخبرًا أنه الأحد الصمد، الذي لا إله غيره، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣﴾ فالأول خَبَرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه، وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾[1]»[2].

قال القنوجي: «﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي فليفوضوا أمورهم إليه، ويعتمدوا عليه لا على غيره. حث للرسول على التوكل على اللّه، والتقوى به حتى ينصره على من كذبه، وتولى عنه»[3].

قال ابن عطية: «وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تحريض للمؤمنين على مكافحة الكفار والصبر على دين الله»[4].

* * *

(١) المزمل: الآية (٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٠).
(٣) فتح البيان (١٤/ ١٧٠).
(٤) المحرر الوجيز (٥/ ٣٢٠).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدّقوا اللّه ورسوله ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يصدونكم عن سبيل اللّه، ويثبطونكم عن طاعة اللّه ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أن تقبلوا منهم ما يأمرونكم به من ترك طاعة اللّه..

وقوله: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ﴾ يقول: إن تعفوا أيها المؤمنون عما سلف منهم من صدّهم إياكم عن الإسلام والهجرة، وتصفحوا لهم عن عقوبتكم إياهم على ذلك، وتغفروا لهم غير ذلك من الذنوب، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكم لمن تاب من عباده، من ذنوبكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم أن يعاقبكم عليها من بعد توبتكم منها»[1].

قال ابن ناصر السعدي: «هذا تحذير من اللّه للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذه صفته، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، التي فيها محذور شرعي ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية، ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٢٤-١٢٦).

فمن عفا عفا اللَّه عنه، ومن صفح صفح عنه، ومن عامل اللَّه فيما يحب، وعامل عباده بما يحبون وينفعهم، نال محبة اللَّه ومحبة عباده، واستوثق له أمره»[١].

قال ابن العربي: «﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ معناه على أنفسكم. والحذر على النفس يكون بوجهين: إما لضرر في البدن، وإما لضرر في الدين. وضرر البدن يتعلق بالدنيا، وضرر الدين يتعلق بالآخرة. فحذر اللَّه العبد من ذلك وأنذره به»[٢].

قال عطية محمد سالم: «ومما يعتبر توجيهًا قرآنيًا لعلاج مشاكل الحياة الزوجية وقضية الأولاد التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي إن عداوة الزوجة والأولاد لا ينبغي أن تقابل إلا بالعفو والصفح والغفران، وأن ذلك يخفف أو يذهب أو يجنب الزوج والولد نتائج هذا العداء، وأنه خير من المشاحة والخصام»[٣].

قال ابن العربي: «هذا يبين وجه العداوة؛ فإن العدو لم يكن عدوا لذاته، وإنما كان عدوا لفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة.

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان. فقال له: أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك، فخالفه فآمن. ثم قعد له على طريق الهجرة، فقال له: أتهاجر وتترك أهلك ومالك؟؛ فخالفه فهاجر؛ فقعد له في طريق الجهاد، فقال: أتجاهد فتقتل نفسك وتنكح نساؤك، ويقسم مالك؟، فخالفه فجاهد فقتل، فحق على اللَّه أن يدخله الجنة**»[٤].

وقعود الشيطان يكون بوجهين: أحدهما يكون بالوسوسة. والثاني: بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب. قال اللَّه سبحانه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾[٥] وفي حكمة عيسى ﷺ: من اتخذ أهلًا ومالًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٢-٤٠٣).

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٨١٩).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٤٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٣)، والنسائي (٦/ ٣٢٩-٣٣٠/ ٣١٣٤)، وصححه ابن حبان (١٠/ ٤٥٣-٤٥٤/ ٤٥٩٣)، وحسن الحافظ إسناده في الإصابة (٤/ ١٢٠) عن سبرة بن أبي فاكه.

(٥) فصلت: الآية (٢٥).

وولدًا كان للدنيا عبدًا. وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك حال العبد؛ قال النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد القطيفة، تعس فانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»[١]، ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم، ولا همة أخس من همة ترتفع بثوب جديد»[٢].

قال ابن عاشور: «والمناسبة بينها وبين الآية التي قبلها لأن كلتيهما تسلية على ما أصاب المؤمنين من غم من معاملة أعدائهم إياهم، ومن انحراف بعض أزواجهم وأولادهم عليهم.

وإذا كانت السورة كلها مكية -كما هو قول الضحاك- كانت الآية ابتداء إقبال على تخصيص المؤمنين بالخطاب بعد قضاء حق الغرض الذي ابتدئت به السورة؛ على عادة القرآن في تعقيب الأغراض بأضدادها من ترغيب أو ترهيب وثناء أو ملام أو نحو ذلك؛ ليوفى الطرفان حقيهما، وكانت تنبيهًا للمسلمين لأحوال في عائلاتهم قد تخفى عليهم؛ ليأخذوا حذرهم، وهذا هو المناسب لما قبل الهجرة؛ كان المسلمون بمكة ممتزجين مع المشركين بوشائج النسب والصهر والولاء، فلما ناصبهم المشركون العداء لمفارقتهم دينهم، وأضمروا لهم الحقد، وأصبحوا فريقين؛ كان كل فريق غير خال من أفراد متفاوتين في المضادة تبعًا للتفاوت في صلابة الدين وفي أواصر القرابة والصهر، وقد بلغ العداء إلى نهاية طرفه، فتندحض أمامه جميع الأواصر، فيصبح الأشد قربًا أشد مضرة على قريبه من مضرة البعيد. فأيقظت هذه الآية المؤمنين لئلا يغرهم أهل قرابتهم فيما توهم من جانب غرورهم، فيكون ضرهم أشد عليهم، وفي هذا الإيقاظ مصلحة للدين وللمسلمين، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾، ولم يأمر بأن يضروهم، وأعقبه بقوله: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ جمعًا بين الحذر وبين المسالمة، وذلك من الحزم»[٣].

---

(١) سيأتي تخريجه في الآية الموالية.

(٢) أحكام القرآن (٤/ ١٨١٨-١٨١٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٨٣-٢٨٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال: «هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول اللّه ﷺ، فلما أتوا رسول اللّه ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الآية»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال الخازن: هذا فيمن أقام على الأهل والولد، ولم يهاجر فرأى الذين قد سبقوه بالهجرة قد تفقهوا في الدين؛ فهَمّ أن يعاقب زوجه وولده الذين ثبّطوه ومنعوه عن الهجرة؛ لما ألحقوا به، ولا ينفق عليهم، ولا يصيبهم بخير، فأمره اللّه بالعفو والصفح عنهم»[2].

قال ابن العربي: «فيه ثلاث مسائل:

الأولى: العداوة، قد بينا معانيها في كل موضع عرضت لنا فيه، وهي عبارة عن البعد، وقد يكون البعد بالمكان، وقد يكون بالمضرة والإذاية، وهو المذموم شرعًا.

الثانية: قوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ عام في الذكر والأنثى؛ فقد يكون الرجل عدو زوجه وولده مما يضرهما به في الدين كما يكونون عدوًّا له بمثل ذلك وإن كان سبب الآية يدل على أن الخطاب للرجال في التحذير من الأزواج والبنين، ولكن عموم القول يتناول ذلك ولا يضره خصوص سببه على ما بيناه في أصول الفقه.

الثالثة: لمن حال الأزواج والأولاد بين المرء وبين الهجرة، فقبل ذلك منه وساعده عليه، ثم استبصر بعد ذلك، ورأى وجه المضرة عليه منه؛ أراد أن يعاقب على ذلك، روي بالقتل، وقيل: بغيره من الأدب، فقال اللّه لهم: ﴿وَإِن تَعْفُواْ

---

(١) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣٩١/ ٣٣١٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». والحاكم (٢/ ٤٩٠) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) تفسير الخازن (٤/ ٢٧٦).

﴿وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ﴾ يعني: عنهم ولهم؛ فإن اللَّه يفعل ذلك بهم. وهذا يدل على جواز عقابهم لهم، وإن كان الوقوع منهم في ذلك باختيارهم، ومن أطاع غيره في معصية فالمذنب هو العاصي ليس المشير عليه بذلك؛ لكن يجوز له عقوبته إذا كانت له عليه ولاية بما كان من استشارته الفاسدة، واللَّه أعلم»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تخصيص الشؤم بمن تحصل منهم العداوة والفتنة

* عن أسامة بن زيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[(٢)].

⋆ فوائد الحديث:

ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: باب ما يتقى من شؤم المرأة وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾

قال الحافظ: «قال تقي الدين السبكي: في إيراد البخاري هذا الحديث عقب حديثي ابن عمر وسهل[(٣)] بعد ذكر الآية في الترجمة إشارة إلى تخصيص الشؤم بمن تحصل منها العداوة والفتنة، لا كما يفهمه بعض الناس من التشاؤم بكعبها أو أن لها تأثيرا في ذلك، وهو شيء لا يقول به أحد من العلماء، ومن قال إنها سبب في ذلك فهو جاهل، وقد أطلق الشارع على من ينسب المطر إلى النوء الكفر فكيف بمن ينسب ما يقع من الشر إلى المرأة مما ليس لها فيه مدخل؟ وإنما يتفق موافقة قضاء وقدر فتنفر النفس من ذلك، فمن وقع له ذلك فلا يضره أن يتركها من غير أن يعتقد نسبة الفعل إليها»[(٤)].

قال ابن بطال: «وفي حديث أسامة أن فتنة النساء أعظم الفتن مخافة على

---

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٠)، والبخاري (٩/ ١٧١/ ٥٠٩٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٨/ ٢٧٤١)، والترمذي (٥/ ٩٥/ ٢٧٨٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥/ ٣٩٩٨).

(٣) سيأتي ذكرهما.

(٤) فتح الباري (٩/ ١٧١).

العباد؛ لأنه ﷺ عمم جميع الفتن بقوله: «**ما تركت بعدي فتنة أضرّ على الرجال من النساء**»، ويشهد لصحة هذا الحديث قول اللَّه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾[1] الآية، فقدم النساء على جميع الشهوات، وقد روي عن بعض أمهات المؤمنين أنها قالت: من شقائنا قدمنا على جميع الشهوات.

فالمحنة بالنساء أعظم المحن على قدر الفتنة بهن، وقد أخبر اللَّه مع ذلك أن منهن لنا عدوًا، فينبغي للمؤمن الاعتصام باللَّه، والرغبة إليه في النجاة من فتنتهن، والسلامة من شرّهنّ»[2].

قال ابن حجر: «وفي الحديث أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن ويشهد له قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ فجعلهن من حب الشهوات، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك، ويقع في المشاهدة حب الرجل ولده من امرأته التي هي عنده أكثر من حبه ولده من غيرها، ومن أمثلة ذلك قصة النعمان بن بشير في الهبة وقد قال بعض الحكماء: النساء شرّ كلهن وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن. ومع أنها ناقصة العقل والدين تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين، كشغله عن طلب أمور الدين وحمله على التهالك على طلب الدنيا، وذلك أشد الفساد»[3].

قال الطيبِي: «قوله: «فتنة أضرّ» وذلك أن المرأة إذا لم تكن يمنعها الصلاح الذي من جبلتها، كانت عين المفسدة، فلا تأمر زوجها إلا بشرّ ولا تحثّه إلا على فساد، وأقل ذلك أن ترغّبه في الدنيا كي يتهالك فيها، وأي فساد أضرّ من هذا!»[4].

قال الملا علي القاري: «لأن الطباع كثيرًا تميل إليهن وتقع في الحرام لأجلهن، وتسعى للقتال والعداوة بسببهن، وأقل ذلك أن ترغبه في الدنيا وأي فساد أضر من هذا، وحبّ الدنيا رأس كل خطيئة، وإنما قال: «بعدي» لأن كونهن فتنةً أضرَّ ظَهرَ بعده»[5].

قال ابن العربي: «كل فتنة لصاحبه، ولكن الخوف على الرجل أكثر لأنه قوّام،

---

(١) آل عمران: الآية (١٤).

(٢) شرح ابن بطال (٧/ ١٨٨-١٨٩).

(٣) الفتح (٩/ ١٧١-١٧٢).

(٤) شرح الطيبي (٧/ ٢٢٦٠).

(٥) المرقاة (٦/ ٢٦٦-٢٦٧).

فإذا فسد القوام عم الفساد جميع الأقوام، والنساء رياحينُ فلابدّ في شمّهن وشياطينُ فنعوذ باللَّه من إغرائهن»[١].

قال النووي: «وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن، وأكثرهن فتنة الزوجات، ودوام فتنتهن وابتلاء الناس بهن»[٢].

قال ابن الجوزي: «اعلم أن شهوات الحس غالبة على الآدميّ، وأبلغ الشهوات الحسية الميل إلى النساء، والعقل كاللجام المانع عمّا لا يصلح، فالمحاربة بين الحسّ والعقل ما تنقطع، إلا أن التوفيق إذا أعان صان»[٣].

قال أبو جعفر الطحاوي: «فقال قائل: ففي هذا الحديث عن رسول اللَّه ﷺ ما قد ذكرتموه عنه فيه، وقد رويتم عنه ما يخالف ذلك. -ثم ساق بسنده حديث كعب ابن عياض عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**لكلّ أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**»[٤]- ثم قال: ففي هذا الحديث أن فتنة أمته المال، فكيف يجوز أن تكون فتنة النساء أعظم من ذلك؟ فكان جوابنا له في ذلك أن قوله ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من فتنة النساء**» هو على الفتنة التي تلحق الرجال دون النساء، وفي ذلك ما قد دلّ أنه قد ترك ﷺ في أمته فتنًا سوى النساء، وكان قوله ﷺ: «**فتنة أمتي المال**» على فتنة تعُمّ الرجال والنساء من أمته، فكانت تلك الفتنة أوسع وأكثر أهلًا من الفتنة الأخرى، وكل واحدة منهما فأهلها الأهل الذين قد دلّ كلٌّ واحد من هذين الحديثين عليهم من هم، وقد روي عنه ﷺ من تحذيره من فتنة الدنيا ومن فتنة النساء»[٥].

* عن عبد اللَّه بن عمر ﵄: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الشؤم في المرأة والدار والفرس**»[٦].

---

(١) عارضة الأحوذي (١٠/ ٢٣٠). (٢) شرح مسلم (١٧/ ٤٦).

(٣) كشف المشكل (٤/ ١٩).

(٤) حديث كعب بن عياض أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٠)، والترمذي (٤/ ٤٩٢/ ٢٣٣٦) وقال: «صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٧٦/ ١١٧٩٤)، والحاكم (٤/ ٣١٨) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٥) شرح مشكل الآثار (١١/ ١٠١-١٠٢).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٥)، والبخاري (٩/ ١٧٠/ ٥٠٩٣)، ومسلم (٤/ ١٧٤٦-١٧٤٧/ ٢٢٢٥)، وأبو داود (٤/ ٢٣٧/ ٣٩٢٢)، والترمذي (٥/ ١١٦/ ٢٨٢٤)، والنسائي (٦/ ٥٢٩/ ٣٥٧١).

★ **غريب الحديث:**

الشؤم: الشؤم في كلام العرب: النحس، وكذلك قال أهل العلم بتأويل القرآن في قول اللَّه ﷻ: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾[1] قالوا: مشائيم، قال أبو عبيدة: نحسات: ذوات نحوس مشائيم.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «اختلف العلماء في هذا الحديث فقال مالك وطائفة: هو على ظاهره؛ وأن الدار قد يجعل اللَّه تعالى سكناها سببا للضرر أو الهلاك، وكذا اتخاذ المرأة المعينة أو الفرس أو الخادم قد يحصل الهلاك عنده بقضاء اللَّه تعالى، ومعناه قد يحصل الشؤم في هذه الثلاثة كما صرح به في رواية: «إن يكن الشؤم في شيء»»[2].

قال ابن العربي: «فمنهم من قال: معناه الإخبار عما تعتقده الجاهلية. وقيل: معناه الإخبار عن حكم اللَّه الثابت في الدار والفرس والمرأة؛ يكون الشؤم فيها عادة أجراها وقضاء أنفذه، ويوجده حيث شاء منها متى شاء والأول ساقط لأن النبي ﷺ لم يبعث ليخبر عن الناس بما كانوا يعتقدونه؛ وإنما بعث ليعلم الناس ما يلزمهم أن يعلموه ويعتقدوه»[3].

قال ابن حجر: «قال ابن قتيبة: ووجهه أن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون، فنهاهم النبي ﷺ، وأعلمهم أن لا طيرة، فلما أبوا أن ينتهوا بقيت الطيرة في هذه الأشياء الثلاثة.

قلت: فمشى ابن قتيبة على ظاهره، ويلزم على قوله أن من تشاءم بشيء منها نزل به ما يكره»[4].

قال القرطبي: «وقد سلك العلماء في تأويل ذلك الحديث أوجهًا أُخَر؛ منها أن بعضهم قال: إنما هذا منه ﷺ خبر عن غالب عادة ما يتشاءم به، لا أنه خبر عن

---

(١) فصلت: الآية (١٦).
(٢) شرح النووي (١٤/ ١٨٤).
(٣) عارضة الأحوذي (١٠/ ٢٦٤-٢٦٥).
(٤) فتح الباري (٦/ ٧٦).

الشرع. وهذا ليس بشيء؛ لأنه تعطيل لكلام الشارع عن الفوائد الشرعية التي لبيانها أرسله اللَّه ﷺ، ومنهم من تأول الشؤم المذكور في هذه الثلاثة فقال: الشؤم في المسكن ضيقه، وسوء جيرانه، وفي المرأة سوء خلقها، وألا تلد، وفي الفرس جماحه، وألاّ يغزى عليه، وهذا المعنى لا يليق بالحديث، ونسبته إلى أنه هو مراد الشرع من فاسد الحديث»[1].

قال الملا علي القاري: «وقيل: هذا إرشاد منه ﷺ لأمته، فمن كان له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس لا تعجبه بأن يفارق بالانتقال عن الدار وتطليق المرأة وبيع الفرس، فلا يكون هذا من باب الطيرة المنهي عنها»[2].

قال الخطابي: «اليمن والشؤم سِمَتان لِما يصيب الإنسان من الخير والشر، والنفع والضرّ، ولا يكون شيء من ذلك إلا بمشيئة اللَّه وقضائه، وإنما هذه الأشياء محالّ وظروف جعلت مواقع لأقضيته، ليس لها بأنفُسها وطباعها فعل، ولا تأثير في شيء، إلا أنها لما كانت أعم الأشياء التي يقتنيها الناس، وكان الإنسان في غالب أحواله لا يستغني عن دار يسكنها وزوجة يعاشرها، وفرس يربطه، وكان لا يخلو من عاض مكروه في زمانه ودهره أضيف اليمن والشؤم إليها إضافة مكان ومحلّ، وهما صادران عن مشيئة اللَّه سبحانه»[3].

قال ابن بطال: «قال المهلب: قوله: «إنما الشؤم في ثلاث» فحقيق في ظاهر اللفظ حين لم يستطع أن ينسخ التطير من نفوس الناس، فأعلمهم أن الذي يعذبون به من الطيرة لمن التزمها إنما هو في ثلاثة أشياء وهي الملازمة لهم، مثل دار المنشأ والمسكن، والزوجة التي هي ملازمة في حال العيش اليسير، والفرس الذي به عيشه وجهاده وتقلبه، فحكم ﷺ بترك هذه الثلاثة الأشياء لمن ألزم التطير حين قال في الدار التي سكنت والمال وافر والعدد كثير؛ اتركوها ذميمة خشية ألا يطول تعذب النفوس بما يكره من هذه الثلاثة ويتطير به، وأما غيرها من الأشياء التي إنما هي خاطرة وطارئة، وإنما تحزن بها النفوس ساعة أو أقل مثل الطائر المكروه الاسم

(١) المفهم (٥/ ٦٣١).
(٢) المرقاة (٦/ ٢٦٩).
(٣) أعلام الحديث (٢/ ١٣٧٩).

عند العرب بمن يرحل منهم، فإنما يعرض له ذلك حين مروره به، فقد أمر ﷺ في مثل هذا وشبهه -لا يضر من عرض له- بأمر في المرأة والفرس والدار خلاف ذلك لطول التعذب بها»[١].

قال القرطبي: «ولا يظن بمن قال هذا القول: أن الذي رخّص فيه من الطيرة بهذه الأشياء الثلاثة هو على نحو ما كانت الجاهلية تعتقد فيها، وتفعل عندها؛ فإنها كانت لا تقدم على ما تطيرت به، ولا تفعله بوجه بناء على أن الطيرة تضرّ قطعًا، فإن هذا ظنّ خطأ، وإنما يعني بذلك: أن هذه الثلاثة أكثر ما يتشاءم الناس بها لملازمتهم إياها، فمن وقع في نفسه شيء من ذلك فقد أباح الشرع له أن يتركه، ويستبدل به غيره مما تطيب به نفسه، ويسكن له خاطره، ولم يلزمه الشرع أن يقيم في موضع يكرهه، أو مع امرأة يكرهها، بل قد فسح له في ترك ذلك كله؛ لكن مع اعتقاد أن اللّه تعالى هو الفعّال لما يريد، وليس لشيء من هذه الأشياء أثر في الوجود، وهذا على نحو ما ذكرناه في المجذوم. فإن قيل: فهذا يجري في كل متطيَّر به، فما وجه خصوصية هذه الثلاثة بالذكر؟ فالجواب: ما نبّهنا عليه من أن هذه ضرورية في الوجود، ولا بدّ للإنسان منها، ومن ملازمتها غالبًا. فأكثر ما يقع التشاؤم بها؛ فخصّها بالذكر لذلك، فإن قيل: فما الفرق بين الدار وبين موضع الوباء؛ فإن الدار إذا تُطُير بها، فقد وسع له في الارتحال عنها، وموضع الوباء قد منع من الخروج منه؟! فالجواب ما قاله بعض أهل العلم: إن الأمور بالنسبة إلى هذه المعنى ثلاثة أقسام:

أحدها: ما لم يقع التأذّي به، ولا اطّردت عادة به خاصة ولا عامة، لا نادرة ولا متكرّرة؛ فهذا لا يُصغى إليه، وقد أنكر الشرع الالتفات إليه، كلقي غراب في بعض الأسفار، أو صراخ بومة في دار، ففي مثل هذا قال ﷺ: «**لا طيرة**»[٢] و«**لا تطيّروا**». وهذا القسم هو الذي كانت العرب تعتبره، وتعمل عليه؛ مع أنه ليس في لقاء الغراب، ولا دخول البومة دارًا ما يشعر بأذىً ولا مكروه، لا على جهة الندور، ولا التكرار.

---

(١) شرح ابن بطال (٥/ ٦١-٦٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٧)، والبخاري (١٠/ ٢٦٣/ ٥٧٥٥)، ومسلم (٤/ ١٧٤٤/ ٢٢٢٣)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٦/ ٧٥٩٢) عن أبي هريرة.

وثانيها: ما يقع به الضرر؛ ولكنه يعمّ، ولا يخصّ، ويندر ولا يتكرر كالوباء؛ فهذا لا يقدم عليه عملًا بالحزم والاحتياط، ولا يُفرّ منه لإمكان أن يكون قد وصل الضرر إلى الفارّ، فيكون سفره سببًا في محنته، وتعجيلًا لهلكته كما قدمناه.

ثالثها: سببٌ يخصّ، ولا يعمّ، ويلحق منه الضرر بطول الملازمة، كالدار والفرس والمرأة فيباح له الاستبدال، والتوكل على اللَّه تعالى، والإعراض عما يقع في النفوس منها من أفضل الأعمال، وقد وضح الجواب والموفق للصواب»[1].

* * *

(١) المفهم (٥/ ٦٢٩-٦٣١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الخازن: «أي بلاء واختبار، وشغل عن الآخرة. وقد يقع الإنسان بسببهم في العظائم، ومنع الحق، وتناول الحرام، وغصب مال الغير، ونحو ذلك ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني: الجنة، والمعنى: لا تباشروا المعاصي بسبب أولادكم، ولا تؤثروهم على ما عند اللّه من الأجر العظيم. قال بعضهم: لما ذكر اللّه العداوة أدخل «من» للتبعيض، فقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾؛ لأنهم كلهم ليسوا بأعداء. ولم يذكر من في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ لأنهم لم يخلوا من الفتنة واشتغال القلب بهم»[١].

قال ابن العربي: «قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يعني الجنة؛ فهي الغاية، ولا أجر أعظم منها في قول المفسرين. وعندي ما هو أعظم منها، وهو ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: واللفظ للبخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن اللّه يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا ربنا! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»[٢].
ولا شك في أن الرضا غاية الآمال»[٣].

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: يوم القيامة ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كما

---

(١) تفسير الخازن (٤/ ٢٧٦-٢٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٨)، والبخاري (١١/ ٥٠٦-٥٠٧/ ٦٥٤٩)، ومسلم (٤/ ٢١٧٦/ ٢٨٢٩)، والترمذي (٤/ ٥٩٥/ ٢٥٥٥)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٦/ ٧٧٤٩).

(٣) أحكام القرآن (٤/ ١٨٢٠-١٨٢١).

قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما يتقى من فتنة المال

* عن بريدة ﷺ قال: «بينما النبي ﷺ يخطب إذ أقبل الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران، يقومان ويعثران، فنزل إليهما النبي ﷺ فأخذهما، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾»[3].

* عن ابن عباس قال: سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: «**لو أن لابن آدم ملء واد مالًا لأحب أن له إليه مثله، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب اللّٰه على من تاب**». قال ابن عباس: فلا أدري من القرآن هو أم لا[4].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض**»[5].

* عن كعب بن عياض ﷺ سمعت رسول اللّٰه ﷺ يقول: «**إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**»[6].

---

(١) آل عمران: الآيتان (١٤و١٥). (٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥٤)، وأبو داود (١/ ٦٦٣-٦٦٤/ ١١٠٩)، والترمذي (٥/ ٦١٦-٦١٧/ ٣٧٧٤) وقال: «هذا حديث حسن غريب». والنسائي (٣/ ١٢٠/ ١٤١٢)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٠/ ٣٦٠٠)، وابن خزيمة (٣/ ١٥١-١٥٢/ ١٨٠١ و١٨٠٢)، وابن حبان (١٣/ ٤٠٢-٤٠٣/ ٦٠٣٨ و٦٠٣٩) واللفظ له، والحاكم (١/ ٢٨٧) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٠)، والبخاري (١١/ ٤٠٣/ ٦٤٣٦) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٢٥-٧٢٦/ ١٠٤٩).

(٥) أخرجه: البخاري (١١/ ٣٠٤/ ٦٤٣٥) واللفظ له، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٥-١٣٨٦/ ٤١٣٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ١٦٠)، والترمذي (٤/ ٤٩٢/ ٢٣٣٦) وقال: «هذا حديث صحيح غريب»، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٣٨٦/ ١١٧٩٥)، وابن حبان (الإحسان ٨/ ١٧/ ٣٢٢٣)، والحاكم (٤/ ٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي.

★ غريب الأحاديث:

تعس: تعس يتعَس، إذا عثر وانكبّ لوجهه وقد تفتح العين وهو دعاء عليه بالهلاك.

القطيفة: هي كساء له خمل، أي الذي يعمل لها ويهتم بتحصيلها.

الخصيفة: هي ثوب خزّ وصوف معلم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سودًا أو معلمة، وكانت من لباس الناس قديمًا وجمعها خمائص.

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد:

قال ابن بطال: «ذم الحرص على الدنيا والشره على الازدياد منها، ولذلك آثر أكثر السلف التقلل من الدنيا والقناعة والكفاف فرارًا من التعرض لما لا يعلم كيف النجاة من شر فتنته»[1].

قوله: «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» قال أحمد البنا: «أي: بلاء ومحنة واختبار يختبر اللَّه بها عباده ليتميز من يشغله ذلك عن طاعة اللَّه ممن لا يشغله، فمن أقبل على طاعة اللَّه ﷻ واشتغل بها عن ماله وولده كان من الفائزين؛ ومن عكس كان من الهالكين»[2].

قوله: «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» قال الطيبي: «ويمكن أن يقال: معناه أن بني آدم مجبولون على حب المال، والسعي في طلبه، وأن لا يشبع منه إلا من عصمه اللَّه تعالى، ووفقه لإزالة هذه الجبلة عن نفسه، وقليل ما هم، فوضع «ويتوب اللَّه على من تاب»، إشعارا بأن هذه الجبلّة المركوزة فيه مذمومة جارية مجرى الذنب، وأن إزالتها ممكنة ولكن بتوفيق اللَّه وتسديده، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3] أضاف الشح إلى النفس دلالة على أنها غريزة فيها، وبين إزالتها بقوله: ﴿يُوقَ﴾، ورتب عليه قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وهنا نكتة دقيقة: فإن في ذكر بني آدم تلويحًا إلى أنه مخلوق من التراب، ومن طبيعته

---

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ١٦٠).

(٢) الفتح الرباني للبنا (٦/ ١٠٢).

(٣) التغابن: الآية (١٦).

القبض واليبس فيمكن إزالته بأن يمطر اللَّه ﷻ السحائب من غمائم توفيقه فيثمر حينئذ الخلال الزكية، والخصال المرضية ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾[1] فمن لم يتداركه التوفيق وتركه حرصه لم يزدد إلا حرصًا وتهالكًا على جمع المال»[2].

قال الصنعاني: «أراد بعبد الدينار والدرهم من استعبدته الدنيا بطلبها، وصار كالعبد لها تتصرف فيه تصرف المالك لينالها وينغمس في شهواتها ومطالبها. وذكر الدينار والقطيفة مجرد مثال، وإلا فكل من استعبدته الدنيا في أي أمر وشغلته عما أمر اللَّه تعالى، وجعل رضاه وسخطه متعلّقًا بنيل ما يريد أو عدم نيله فهو عبده، فمن الناس من يستعبده حب الإمارات ومنهم من يستعبده حب الصور، ومنهم من يستعبده حب الأطيان»[3].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٥٨).
(٢) شرح الطيبي (١٠/ ٣٣٢٣).
(٣) سبل السلام (٤/ ٣١٩).

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يقول -تعالى ذكره-: واحذروا اللَّه أيها المؤمنون وخافوا عقابه، وتجنبوا عذابه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، والعمل بما يقرّب إليه ما أطقتم وبلَغه وسعكم.

وذُكر أن قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ نزل بعد قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[1] تخفيفًا عن المسلمين، وأن قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخ قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾. وقد تقدم بياننا عن معنى الناسخ والمنسوخ بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع؛ وليس في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ دلالة واضحة على أنه لقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ناسخ، إذ كان محتملا قوله: اتقوا اللَّه حقّ تقاته فيما استطعتم، ولم يكن بأنه له ناسخ عن رسول اللَّه ﷺ فإذا كان ذلك كذلك، فالواجب استعمالهما جميعًا على ما يحتملان من وجوه الصحة.

وقوله: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ يقول: واسمعوا لرسول اللَّه ﷺ، وأطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه. ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ يقول: وأنفقوا مالًا من أموالكم لأنفسكم تستنقذوها من عذاب اللَّه. والخير في هذا الموضع المال.

وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ومن يَقِهِ اللَّه شحَ نفسه، وذلك اتباع هواها فيما نهى اللَّه عنه»[2].

قال القرطبي: «فإن قيل: فإذا كانت هذه الآية محكمة غير منسوخة فما وجه قوله

---

(١) آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) جامع البيان (٢٨/ ١٢٧).

في سورة التغابن: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ وكيف يجوز اجتماع الأمر باتقاء اللَّه حق تقاته والأمر باتقائه ما استطعنا، والأمر باتقائه حق تقاته إيجاب القرآن بغير خصوص ولا وصل بشرط، والأمر باتقائه ما استطعنا أمر باتقائه موصولا بشرط.

قيل له: قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ بمعزل مما دل عليه قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، وإنما عنى بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ فاتقوا اللَّه أيها الناس، وراقبوه فيما جعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم، وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام، فتتركوا الهجرة ما استطعتم، بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين.

وذلك أن اللَّه -جل ثناؤه- قد كان عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾[1] فأخبر أنه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا بالإقامة في دار الشرك، فكذلك معنى قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم. ومما يدل على صحة هذا أن قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ عقيب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[2].

ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك»[3].

قال عطية محمد سالم: «قالوا: الشح، أخص من البخل، وقيل البخل: أن تضن بمالك، والشح أن تضن بمال غيرك، والواقع أن الشح منتهى البخل. وإن ذكره هنا بعد قضايا الأزواج والأولاد وفتنتهم وعداوتهم، ثم الأمر بالسمع والطاعة

(١) النساء: الآيات (٩٧-٩٩).
(٢) التغابن: الآية (١٤).
(٣) التفسير (١٨/ ٩٥و٩٦).

والإنفاق في قوله: ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ يشعر بأن أكثر قضايا الزوجية منشؤها من جانب المال حرصًا عليه أو بخلًا به، حرصًا عليه بالسعي إليه بسببهم، فقد يفتن في ذلك، وشحًا به بعد تحصيله فقد يعادونه فيه.

والعلاج الناجع في ذلك كله الإنفاق وتوقي الشح، والشح من جبلة النفس ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾[1] وفي إضافة الشح إلى النفس مع إضافة الهداية فيما تقدم إلى القلب سر لطيف، وهو أن الشح جبلة البشرية. والهداية منحة إلهية، والأولى قوة حيوانية، والثانية قوة روحية.

فعلى المسلم أن يغالب بالقوة الروحية ما جبل عليه من قوة بشرية لينال الفلاح والفوز، كما أشار تعالى بقوله: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[2]. ثم قال: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾[3]»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأمر بالتقوى حسب الاستطاعة

* عن الحكم بن حزن الكلفي قال: وفدت إلى رسول اللَّه ﷺ سابع سبعة، أو تاسع تسعة، فدخلنا عليه فقلنا: يا رسول الله! زرناك فادع اللَّه لنا بخير، فأمر بنا، أو أمر لنا بشيء من التمر، والشأن إذ ذاك دون، فأقمنا بها أيامًا شهدنا فيها الجمعة مع رسول اللَّه ﷺ فقام متوكئًا على عصا، أو قوس، فحمد اللَّه، وأثنى عليه كلمات خفيفات طيبات مباركات، ثم قال: «**أيها الناس! إنكم لن تطيقوا -أو: لن تفعلوا- كل ما أمرتم به ولكن سددوا وأبشروا**»[5].

★ غريب الحديث:

سدّدوا: أي الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، قال أهل اللغة: السداد التوسط في العمل.

أبشروا: أي بالثواب على العمل الدائم وإن قلّ. والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل؛ لأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره، وأبهم

(١) النساء: الآية (١٢٨).
(٢) الكهف: الآية (٤٦).
(٣) الكهف: الآية (٤٦).
(٤) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٤٥-٣٤٦).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٢)، وأبو داود (١/ ٦٥٨-٦٥٩/ ١٠٩٦) واللفظ له.

المبشر به تعظيمًا له وتفخيمًا .

*** عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[(١)] .**

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «قوله: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام كالصلاة بأنواعها، فإذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل غسل الممكن وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته أو لغسل النجاسة فعل الممكن، وإذا وجبت إزالة منكرات أو فطرة جماعة من تلزمه نفقتهم أو نحو ذلك وأمكنه البعض فعل الممكن، وإذا وجد ما يستر بعض عورته أو حفظ بعض الفاتحة أتى بالممكن وأشباه هذا غير منحصرة وهي مشهورة في كتب الفقه. والمقصود التنبيه على أصل ذلك. وهذا الحديث موافق لقول اللَّه تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وأما قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ففيها مذهبان: أحدهما: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ والثاني -وهو الصحيح أو الصواب وبه جزم المحققون-: أنها ليست منسوخة؛ بل قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ مفسرة لها ومبينة للمراد بها، قالوا: وحق تقاته هو امتثال أمره واجتناب نهيه، ولم يأمر ﷻ إلا بالمستطاع قال اللَّه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[(٣)] واللَّه أعلم»[(٤)].

قال ابن بطال: «فأما قوله ﷺ: **«فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»** فقد احتج به من قال: إن الأمر موضوع على الندب دون

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٠٨)، والبخاري (١٣/ ٣١٢/ ٧٢٨٨) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٩٧٥/ ١٣٣٧)، والنسائي (٥/ ١١٦-١١٧/ ٢٦١٨)، وابن ماجه (١/ ٣/ ٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٣) الحج: الآية (٧٨).

(٤) شرح مسلم (٩/ ٨٦).

الإيجاب، قالوا: ألا تراه ﷺ علق الأمر بمشيئتنا واستطاعتنا، وألزمنا الانتهاء عما نهى عنه، فوجب حمل النهي على الوجوب دون الأمر. قال أبو بكر بن الطيب: والتعلق بهذا غير صحيح، ومعنى قوله: «فأتوا منه ما استطعتم» إذا كنتم مستطيعين، وقد يأمر بالفعل الذي يستطيعه على طريق الوجوب كما يأمر به على وجه الندب، ولا يدل على أنه ليس بواجب، قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يرد به ندبنا إلى التقوى دون إيجابه، ومعنى الآية والخبر: أن اتقوه إذا كنتم سالمين غير عجزة قادرين، ولم يرد أنه لا يؤمر إلا من قد وجدت قدرته على الفعل كما تقول القدرية.

وقال المهلب: من احتج بهذا الحديث أن النواهي أوجب من الأوامر فهو خطأ؛ لأنه ﷺ لم ينه بهذا الحديث عن المحرمات التي نهى اللَّه عنها في كتابه بأن حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإنما أراد فإذا نهيتكم عما هو مباح لكم أن تأتوه، فإنما نهيتكم رفقًا بكم، كنهيه عن الوصال إبقاءً عليهم، وكنهيه عبد اللَّه بن عمرو عن صيام الدهر وقيام الليل كله، وكنهيه عن إضاعة المال؛ لئلا يكون سببًا لهلاكهم، وكنهيه عن كسب الحجام وعسب الفحل تنزهًا واعتلاءً عن الأعمال الوضيعة.

وأما الأمر الذي أمرهم أن يأتوا منه ما استطاعوا، فهو الأمر من التواصي بالخير، والصدقات وصلة الرحم، وغير ذلك مما سنه، وليس بفرض ولذلك قال لهم: «فأتوا منه ما استطعتم» أي: لم آمركم بذلك أمر إلزام ولا أمر حتم أن تبلغوا غاياته لكن ما استطعتم من ذلك؛ لأن اللَّه تعالى عفا عما لا يستطاع»[1].

قال ابن رجب: «والتحقيق في هذا أن اللَّه لا يكلف العباد من الأعمال ما لا طاقة لهم به، وقد أسقط عنهم كثيرا من الأعمال بمجرد المشقة رخصة عليهم ورحمة لهم. وأما المناهي فلم يعذر أحد بارتكابها بقوة الداعي والشهوات بل كلفهم تركها على كل حال. وأن ما أباح أن يتناول من المطاعم المحرمة عند الضرورة ما تبقى معه الحياة لا لأجل التلذذ والشهوة ومن هنا يعلم صحة ما قاله الإمام أحمد: إن النهي أشد من الأمر»[2].

* * *

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٥٥).

قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن تنفقوا في سبيل اللَّه، فتحسنوا فيها النفقة، وتحتسبوا بإنفاقكم الأجر والثواب؛ يضاعف ذلك لكم ربكم، فيجعل لكم مكان الواحد سبع مئة ضعف إلى أكثر من ذلك مما يشاء من التضعيف، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فيصفح لكم عن عقوبتكم عليها مع تضعيفه نفقتكم التي تنفقون في سبيله، ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ يقول: واللَّه ذو شكر لأهل الإنفاق في سبيله، بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا في الدنيا في سبيله ﴿حَلِيمٌ﴾ يقول: حليم عن أهل معاصيه بترك معاجلتهم بعقوبته»[1].

قال السعدي: «رغب تعالى في النفقة فقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه اللَّه تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها، ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَ﴾ مع المضاعفة أيضًا ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم؛ فإن الذنوب يكفرها اللَّه بالصدقات والحسنات: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[2].

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل من عصاه؛ بل يمهله ولا يهمله، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[3]، واللَّه تعالى شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وناء

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٢٨).
(٢) هود: الآية (١١٤).
(٣) فاطر: الآية (٤٥).

بالتكاليف الثقال، ومن ترك شيئًا لله عوضه اللَّه خيرًا منه»[١].

قال عطية محمد سالم: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ قال الشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه-: شكر اللَّه لعبده هو مجازاته له بالأجر الجزيل على العمل القليل.

وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾ أي: لا يعجل بالعقوبة؛ بل يستر ويتجاوز عن ذنوب. ومجيء هذا التذييل هنا يشعر بالتوجيه في بعض نواحي إصلاح الأسرة، وهو أن يقبل كل من الزوجين عمل الآخر بشكر، ويقابل كل إساءة بحلم ليتم معنى حسن العشرة؛ ولأن الإنفاق يستحق المقابلة بالشكر والعداوة تقابل بالحلم»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان استقراض اللَّه ﷻ عبده

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يقول اللَّه ﷻ: استقرضت عبدي فأبى أن يقرضني، وسبني عبدي ولا يدري، يقول: وادهراه وادهراه، وأنا الدهر**» ثم تلا أبو هريرة قول اللَّه ﷻ: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ﴾[٣].

★ فوائد الحديث:

بوب الإمام أبو بكر بن خزيمة على الحديث بقوله: «باب كراهية منع الصدقة إذ مانعها مانع استقراض ربه، إذ اللَّه ﷻ سمى الصدقة قرضًا، استقرض اللَّه عباده ووعد على ذلك بتضعيف الصدقة أضعافًا كثيرا قال اللَّه ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[٤]»[٥].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٤٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٠)، وصححه ابن خزيمة (٤/ ١١٣/ ٢٤٧٩) والحاكم (٢/ ٤٩١) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٤) البقرة: الآية (٢٤٥).

(٥) صحيح ابن خزيمة (٤/ ١١٣).

قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: عالم ما لا تراه أعين عباده ويغيب عن أبصارهم وما يشاهدونه فيرونه بأبصارهم. ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ يعني الشديد في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره ونهيه، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما يصلحهم»[١].

قال السعدي: «أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها»[٢].

قال عطية محمد سالم: «قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ مجيء الآية بالجملة الاسمية يشعر بالحصر، وقد صرح به في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[٣]، ومجيؤه هنا أيضًا يشعر بأن الرقابة على الأسرة بين الطرفين إنما هي لله تعالى، لأنهما يكونان في عزلة عن الناس ولا يطلع على ما بينهما إلا اللّه، عالم الغيب والشهادة، أي فليراقب كل منهما ربه عالم الغيب والشهادة، ومجازيًا كلا منهما على فعله»[٤].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٢٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٥).

(٣) الأنعام: الآية (٥٩).

(٤) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٤٨-٣٤٩).



سورة الطلاق

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «الغرض من آيات هذه السورة تحديد أحكام الطلاق، وما يعقبه من العدة والإرضاع، والإنفاق، والإسكان. تتميمًا للأحكام المذكورة في سورة البقرة.

والإيماء إلى حكمة شرع العدة.

والنهي عن الإضرار بالمطلقات، والتضييق عليهن.

والإشهاد على التطليق وعلى المراجعة.

وإرضاع المطلقة ابنها بأجر على اللَّه.

والأمر بالائتمار والتشاور بين الأبوين في شأن أولادهما.

وتخلل ذلك الأمر بالمحافظة الوعد بأن اللَّه يؤيد من يتقي اللَّه، ويتبع حدوده، ويجعل له من أمره يسرًا، ويكفر عنه سيئاته.

وأن اللَّه وضع لكل شيء حكمه، لا يعجزه تنفيذ أحكامه.

وأعقب ذلك بالموعظة بحال الأمم الذين عتوا عن أمر اللَّه ورسله، وهو حث للمسلمين على العمل بما أمرهم به اللَّه ورسوله ﷺ لئلا يحق عليهم وصف العتو عن الأمر.

وتشريف وحي اللَّه تعالى»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٩٣-٢٩٤).

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ ﴾

★ **غريب الآية:**

لعدتهن: العدة: المدة التي تحتبس فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها.

أحصوا: اضبطوا بالعدد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية محمد سالم: «قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ ﴾ الآية. قيل في سبب نزولها أن النَّبي ﷺ طلق حفصة ﵄ فنزلت، وقيل غير ذلك، وعلى كل فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم. ومما يشهد لهذه القاعدة ما لو أخذنا بعين الاعتبار النسق الكريم بين السورتين، حيث كان آخر ما قبلها موضوع الأولاد والزوجات من فتنة وعداء، والإشارة إلى علاج ما بين الزوجين من إنفاق وتسامح على ما أشرنا إليه سابقًا هناك، فإن صلح ما بينهم بذاك فبها ونعمت، وإن تعذر ما بينهما وكانت الفرقة متحتمة فجاءت هذه السورة على إثرها تبين طريقة الفرقة السليمة في الطلاق وتشريعه، وما يتبعه من عدد وإنفاق ونحو ذلك»[(١)].

قال ابن كثير: «خُوطب النبي ﷺ أولا تشريفًا وتكريما، ثم خاطب الأمة تبعًا فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾»[(٢)].

قال عطية محمد سالم: «قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ بالنداء للنبي ﷺ.

وقوله: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ﴾ بخطاب لعموم الأمة. قالوا: كان النداء للنبي ﷺ، والخطاب للأمة تكريمًا لرسول اللَّه ﷺ وتكليفًا للأمة. وقيل: خوطبت الأمة في

---

(١) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٥٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٨).

شخصية الرسول ﷺ كخطاب الجماعة في شخصية رئيسها.

وقال الشيخ رحمة اللّه تعالى علينا وعليه: ولهذه الآية استدل من يقول: إن الرسول ﷺ يكون داخلًا في عموم خطاب الأمة اهـ. والواقع أن الخطاب الموجه للنبي ﷺ على ثلاث أقسام:

الأول: قد يتوجه الخطاب إليه ﷺ ولا يكون داخلًا فيه قطعًا، وإنما يراد به الأمة بلا خلاف، من ذلك قوله تعالى في بر الوالدين: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[١]، فكل صيغ الخطاب هنا موجهة للنبي ﷺ، وهو قطعا ليس مراد بذلك لعدم وجود والدين، ولا أحدهما عند نزولها كما هو معلوم.

الثاني: أن يكون خاصًا به لا يدخل معه غيره قطعًا، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

والثالث: هو الشامل له ﷺ ولغيره بدليل هذه الآية، وأول السورة التي بعدها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾[٣] فهذا كله خطاب موجه له ﷺ. وجاء بعدها مباشرة ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[٤] بخطاب الجميع- ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فدل أن الآية داخلة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، وهذا باتفاق، وقد بين الشيخ رحمة اللّه تعالى علينا وعليه هذه المسألة بأقوى دليل فيها عند قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ إلى قوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[٥] »[٦].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يقول: إذا طلقتم نساءكم فطلقوهن لطهرهن الذي يحصينه من عدتهن طاهرًا من غير جماع، ولا تطلقوهن بحيضهن الذي لا يعتددن به من قرئهن»[٧].

---

(١) الإسراء: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٢) الأحزاب: الآية (٥٠).
(٣) التحريم: الآية (١).
(٤) التحريم: الآية (٢).
(٥) الروم: الآيتان (٣٠و٣١).
(٦) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٥٣-٣٥٥).
(٧) جامع البيان (٢٨/ ١٢٨-١٢٩).

وقال السعدي: «يقول تعالى مخاطبًا لنبيه ﷺ وللمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ أي: أردتم طلاقهن ﴿فَ﴾ التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله؛ بل ﴿ طَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب تلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها في طهر وطئ فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين ولا يتضح بأي عدة تعتد.

﴿ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ ﴾ وإحصاء العدة: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض وليست حاملا، فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقها في النفقة ونحوها، فإذا ضبطت عدتها علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه للزوج وللمرأة إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها»[(١)].

وقال ابن كثير: «ومن ههنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة، فطلاق السنة أن يطلقها طاهرًا من غير جماع أو حاملا قد استبان حملها، والبدعي هو أن يطلقها في حال الحيض أو في طهر قد جامعها فيه ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها»[(٢)].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ يقتضي أنهن اللاتي دخل بهن من الأزواج؛ لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ ﴾[(٣)]»[(٤)].

قال عطية محمد سالم: «تنبيه:

كل ما تقدم في شأن العدة، إنما هو في خصوص الحرائر، وبقي مبحث الإماء.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٦-٤٠٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٩).
(٣) الأحزاب: الآية (٤٩).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٠٠).

أما الإماء: فالحوامل منهن كالحرائر سواء بسواء، وغير الحوامل فالجمهور على أنها على النصف من الحرة إلا أن الحيضة لما لم تكن تتجزأ فجعلت عدتها فيها حيضتين. وهذا باتفاق الأئمة الأربعة. أما ذات الأشهر فالجمهور على أنها تعتد شهرًا ونصفًا، وخالف مالك فجعل لها ثلاثة أشهر، فيكون مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وافق الجمهور في ذوات الحيض، وخالف الجمهور في ذوات الأشهر، وقد أخطأ ابن رشد مع مالك في نقاشه معه هذه المسألة، فقال في بداية المجتهد:

وقد اضطرب قول مالك في هذه المسألة، فلا بالنص أخذ ولا بالقياس عمل، يعني أنه لم يأخذ بالنص في ذوات الحيض فيجعل لهن ثلاثة قروء، كما أخذ به في ذوات الأشهر، حيث جعل لهن ثلاثة أشهر بالنص ولا بالقياس عمل، أي فلم ينصف الأشهر قياسًا على الحيض، فكان مذهبه ملفقًا بين القياس في ذوات الحيض، والنص في ذوات الأشهر، فخالف في ذلك الأئمة الثلاثة.

واضطرب قوله في نظر ابن رشد؛ لأنه لم يطرد القياس فيهما، ولا أعمل النص فيهما، ولكن الحق في المسائل الخلافية لا يمكن أن يعرف إلا بعد معرفة وجهة النظر عن المخالف، فقد يكون محقًا، وقد يكون فعلًا الحق مع غيره.

وفي هذه المسألة بالذات أشار العدوي في حاشيته: بأن وجهة نظر مالك هي الرجوع إلى أصل الغرض من العدة وهو براءة الرحم. والشهر والنصف لا يكفي للمرأة نفسها أن تخبر عن نفسها عما إذا كانت حاملًا أم لا، فأكمل لها المدة المنصوص عليها.

أما الحيضتان: ففيهما بيان لبراءة الرحم اهـ ملخصًا.

وهذا الذي قاله العدوي له أصل من الشرع؛ لأن ذات الأقراء وجدناها في بعض الصور تعتد بحيضة، كما جاء النص في عدة المختلعة، وإن كان فيها خلاف. ووجدنا الأمة تثبت براءة رحمها في غير هذا بحيضتين قطعًا، وهي فيما إذا كانت سرية لمالكها فأراد بيعها فإنه يستبرئها بحيضة، والذي يشتريها يستبرئها بحيضة قبل أن يمسها. ثم هو يفترشها ويأمن من أن يسقي ماءه زرع غيره، فعلمنا أن في الحيضتين براءة للرحم، فاكتفى بهما مالك ووافق الجمهور.

وأما الشهر والنصف فإنهما لا يمكن أن تتبين المرأة فيهما حملًا؛ لأنها مدة

الأربعين الأولى وهي مرحلة النطفة. فظهر بهذا أن الحق مع مالك، وأن ابن رشد هو الذي اضطربت مقالته على مالك، وقد سقنا هذا التنبيه لبيان واجب طالب العلم أمام المسائل الخلافية من ضرورة البحث عن السبب ووجهة نظر المخالف، وعدم المبادرة للإنكار؛ لأن يكون هو أحق بأن ينكر عليه، ولا يسارع لرد قول قد يكون قوله هو أولى بأن يرد عليه. وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ اتفق المفسرون أن المراد لاستقبال عدتهن، وفيه مبحث الطلاق السني والبدعي. واعلم أن الحامل وغير المدخول بها لا بدعة في طلاقهما عند الجمهور، وألحقت بهما الصغيرة. والطلاق البدعي هو: جمع الثلاث في مرة، أو الطلاق في الحيضة، أو في طهر مسها فيه. وعند الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يفرق الطلقات على الصغيرة كل طلقة في شهر ولا يجمعها، وقد طال البحث في حكم الطلاق البدعي، هل يقع ويحتسب على المطلق أم لا؟.

والأصل فيه حديث عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض، فبلغ ذلك عمر فأخبر النَّبي ﷺ بذلك، فقال له ﷺ: «**مره فليراجعها**»[١].

والذي عليه الجمهور أنه يعتد بتلك الطلقة، وإن خالف فيها السنة، وعليه أن يراجعها وليعمل كما أمر به النَّبي ﷺ فليمسكها حتى تطهر، ثم إن شاء أمسكها وإن شاء طلقها في طهر لم يمسها فيه، أي لتستقبل عدتها ما لم تكن الطلقة الثالثة أو بالثلاث على ما عليه الجمهور.

وقد سئل أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الاعتداد بهذه الطلقة في الحيضة فقال: إن قوله ﷺ: «**فليراجعها**». يدل على الاعتداد بها؛ لأنه لا رجعة إلا من طلاق.

وقد أطال ابن دقيق العيد الكلام عليها في أحكام الإحكام وغيره مما لا داعي إلى سرده، وحاصله ما قدمنا، ولم يقل بعدم الاعتداد بها إلا سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين[٢].

قال ابن عاشور: ﴿ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ الإحصاء: معرفة العدِّ وضبطه. وهو مشتق من الحصى وهي صغار الحجارة، لأنهم كانوا إذا كثرت أعداد شيء جعلوا لكل

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) تقدم ذلك عند سورة البقرة: الآية (٢٢٨).

معدود حصاةً ثم عدوا ذلك الحصى، قال تعالى: ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾[١].

والمعنى: الأمر بضبط أيام العدة والإتيان على جميعها وعدم التساهل فيها لأن التساهل فيها ذريعة إلى أحد أمرين؛ إما التزويج قبل انتهائها فربّما اختلط النسب، وإما تطويل المدة على المطلقة في أيام منعها من التزوج لأنها في مدة العدة لا تخلو من حاجة إلى من يقوم بها.

وأما فوات أمد المراجعة إذا كان المطلق قد ثاب إلى مراجعة امرأته.

والتعريف في العدة للعهد فإن الاعتداد مشروع من قبل كما علمته آنفًا والكلام على تقدير مضاف لأن المحصَى أيام العدة.

والمخاطب بضمير ﴿ وَأَحْصُواْ ﴾ هم المخاطبون بضمير ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ فيأخذ كل من يتعلق به هذا الحكم حَظه من المطلق والمطلقة ومن يطلع على مخالفة ذلك من المسلمين وخاصة ولاة الأمور من الحكام وأهل الحسبة فإنهم الأولى بإقامة شرائع اللَّه في الأمة وبخاصة إذا رأوا تفشي الاستخفاف بما قصدته الشريعة. .

ففي العدة مصالح كثيرة وتحتها حقوق مختلفة اقتضتها تلك المصالح الكثيرة وأكثر تلك الحقوق للمطلّق والمطلَّقة وهي تستتبع حقوقًا للمسلمين وولاةِ أمورهم في المحافظة على تلك الحقوق وخاصة عند التحاكم»[٢].

وقال أبو حيان إن قوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ على إطلاقه يشعر بالاعتداد بالطلاق سنيًا كان أو بدعيًا»[٣].

قال السعدي: «وقوله: ﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أي في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات»[٤].

وقال ابن جرير: «يقول: وخافوا اللَّه أيها الناس ربكم فاحذروا معصيته أن تتعدوا حده»[٥].

---

(١) الجن: الآية (٢٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٥٦-٣٥٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٧).

(٥) جامع البيان (٢٧/ ١٣٢).

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ تحذير من التساهل في أحكام الطلاق والعدة. ذلك أن أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزنًا، وكان قرابة المطلقات قلما يدافعن عنهن، فتناسى الناس تلك الحقوق وغمصوها، فلذلك كانت هذه الآيات شديدة اللهجة في التحدّي، وعبر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود اللَّه ولزيادة الحرص على التقوى أتبع اسم الجلالة بوصف ﴿ رَبَّكُمْ ﴾ للتذكير بأنه حقيق بأن يتقى غضبه»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المراجعة ووقت الطلاق للعدة التي أمر اللَّه ﷻ أن يطلق لها النساء

* عن سالم أن عبد اللَّه بن عمر ﭭ أخبره أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر عمر لرسول اللَّه ﷺ، فتغيظ فيه رسول اللَّه ﷺ ثم قال: «**ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا فيل أن يمسها، فتلك العِدة كما أمره الله**»[(٢)].

★ فوائد الحديث:

تقدم الكلام على فوائده مستوفى في سورة البقرة الآية (٢٢٨).

* عن عمر أن رسول اللَّه ﷺ طلق حفصة ثم راجعها[(٣)].

★ فوائد الحديث:

«دل الحديث على مشروعية مراجعة الرجل زوجته المطلقة طلاقًا رجعيًا من غير عقد جديد إذا لم تنقض عدتها. وهي مشروعة بالكتاب، والسنة، والإجماع. قال اللَّه تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾[(٤)]. أي: أزواجهن أحق

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٩٨-٢٩٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٦١)، والبخاري (٨/ ٨٤٢/ ٤٩٠٨)، ومسلم (٢/ ١٠٩٥/ ١٤٧١[٤])، وأبو داود (٢/ ٦٣٤-٦٣٥/ ٢١٨٢)، والترمذي (٣/ ٤٧٩/ ١١٧٦) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٤٤٩/ ٣٣٩١)، وابن ماجه (١/ ٦٥٢/ ٢٠٢٣).

(٣) أخرجه: أبو داود (٢/ ٧١٢/ ٢٢٨٣)، والنسائي (٦/ ٥٢٣/ ٣٥٦٢)، وابن ماجه (١/ ٦٥٠/ ٢٠١٦)، والحاكم (٢/ ١٩٧) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (١٠/ ١٠٠/ ٤٢٧٥).

(٤) البقرة: الآية (٢٢٨).

بمراجعتهن في العدة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ﴾[1]. أي: إذا قاربن بلوغ انقضاء عدتهن فأمسكوهن أي: أرجعوهن. وأما السنة فحديث الباب وما تقدم للمصنف في قصة طلاق امرأة عبد اللّٰه بن عمر من قوله ﷺ لعمر: «مره فليراجعها».

قال القرطبي: وأجمع العلماء على أن الحر إذا طلق زوجته الحرة وكانت مدخولا بها- تطليقة أو تطليقتين أن له مراجعتها ما لم تنقض عدتها وإن كرهت المرأة. فإن لم يراجعها المطلق حتى انقضت عدتها فهي أحق بنفسها، وتصير أجنبية منه لا تحل له إلا بنكاح مستأنف بولي وإشهاد»[2].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٣١).

(٢) تكملة المنهل (٤/ ٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾

★ **غريب الآية:**

مبينة: أي: واضحة عليها برهان.

يتعد: يتجاوز.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أي: في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضا الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضًا»[١].

وقال ابن جرير: «لا تخرجوا من طلقتم من نسائكم لعدتهنّ من بيوتهنّ التي كنتم أسكنتموهنّ فيها قبل الطلاق حتى تنقضي عدتهنّ»[٢].

وقال أبو عبد اللَّه القرطبي: «﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾ أي: ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدة، ولا يجوز لها الخروج أيضا لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أثمت ولا تنقطع العدة. والرجعية والمبتوتة في هذا سواء. وهذا لصيانة ماء الرجل. وهذا معنى إضافة البيوت إليهن، كقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾[٤] فهو إضافة إسكان وليس إضافة تمليك.

وقوله: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ يقتضي أن يكون حقا في الأزواج. ويقتضي قوله: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ ﴾ أنه حق على الزوجات»[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٩).
(٢) جامع البيان (٢٨/ ١٣٢).
(٣) الأحزاب: الآية (٣٤).
(٤) الأحزاب: الآية (٣٣).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٥٤).

قال ابن عاشور: «في إضافة البيوت إلى ضمير النساء إيماء إلى أنهن مستحقات المكث في البيوت مدة العدة بمنزلة مالك الشيء، وهذا ما يسمى في الفقه مِلْك الانتفاع دون العين، ولأن بقاء المطلقات في البيوت اللآتي كنّ فيها أزواجًا استصحاب لحال الزوجية، إذ الزوجة هي المتصرفة في بيت زوجها ولذلك يدعوها العرب «ربّة البيت» وللمطلقة حكم الزوجة ما دامت في العدة إلا في استمتاع المطلق.

وهذا الحكم سببُه مركب من قصد المكارمة بين المطلّق والمطلقة. وقصد الانضباط في علة الاعتداد تكميلًا لتحقق لحاق ما يظهر من حمل بأبيه المطلّق حتى يبرأ النسب من كل شك.

وجملة ﴿ وَلَا يَخۡرُجۡنَ ﴾ عطف على جملة ﴿ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ ﴾ وهو نهي لهن عن الخروج، فإن المطلق قد يُخرجها فترْغب المطلقة في الخروج لأنها تستثقل البقاء في بيت زالت عنه سيادتها فنهاهن اللَّه عن الخروج. فَإذا كان البيت مكترى سكنتْه المطلقة وكراؤه على المطلق، وإذا انتهى أمد كرائه فعلى المطلق تجديده إلى انتهاء عدة المطلقة.

وهذا الترتب بين الجملتين يشعر بالسببية، وأن لكل امرأة معتدة حق السكنى في بيت زوجها مدة العدة لأنها معتدة لأجله، أي لأجل حفظ نسبه وعِرضه فهذا مقتضى الآية.

ولذلك قال مالك وجمهور العلماء بوجوب السكنى للمطلقة المدخول بها سواء كان الطلاق رجعيًّا أو بائنًا. وقال ابن أبي ليلى: لا سكنى إلا للمطلقة الرجعية، وعلل وجوب الإسكان للمطلقة المدخول بها بعدة أمور: حفظ النسب، وجبر خاطر المطلقة وحفظ عرضها. وسيجيء في هذه السورة قوله تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم ﴾[1] الآية. وتَعلم أن ذلك تأكيدًا لما في هذه الآية من وجوب الإسكان في العدة أعيد ليبين عليه قوله: ﴿ مِّن وُجۡدِكُمۡ ﴾ وما عطف عليه»[2].

وقال أيضًا: «والذي تخلص لي أن حكمة السكنى للمطلقة أنها حفظ

---

(١) الطلاق: الآية (٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٩٩-٣٠٠).

الإعراض، فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها، وقد يتسرب سوء الظن إليها فيكثر الاختلاف عليها ولا تجد ذا عصمة يذب عنها فلذلك شرعت لها السكنى ولا تخرج إلا لحاجياتها فهذه حكمة من قبيل المَظنة، فإذا طرأ على الأحوال ما أوقعها في المشقة أو أوقع الناس في مشقة من جرائها أخرجت من ذلك المسكن وجرَى على مكثها في المسكن الذي تنتقل إليه ما يجري عليها في مسكن مطلقها لأن المظِنة قد عارضتها مَئِنَّة. ومن الحكم أيضًا في ذلك أن المطلقة قد لا تجد مسكنًا، لأن غالب النساء لم تكن لهن أموال وإنما هن عيال على الرجال، فلما كانت المعتدة ممنوعة من التزوج كان إسكانها حقًا على مفارقها استصحابًا للحال حتى تحل للتزوج فتصير سكناها على من يتزوجها. ويزاد في المطلقة الرجعية قصد استبقاء الصلة بينها وبين مطلقها لعلهُ أن يثوب إليه رشده فيراجعها فلا يحتاج في مراجعتها إلى إعادة التذاكر بينه وبينها أو بينه وبين أهلها. فهذا مجموع علل فإذا تخلفت واحدة منها لم يتخلف الحكم، لأن الحكم المعلل بعلتين فأكثر لا يبطله سقوط بعضها بخلاف العلة المركبة إذا تخلف جزء منها»[1].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ يقول -جل ثناؤه-: لا تخرجوهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، أنها فاحشة لمن عاينها أو علمها.

واختلف أهل التأويل في معنى الفاحشة التي ذكرت في هذا الموضع، والمعنى الذي من أجله أذن اللّٰه بإخراجهنّ في حال كونهنّ في العدّة من بيوتهنّ، فقال بعضهم: الفاحشة التي ذكرها اللّٰه في الموضع هي: الزنى، والإخراج الذي أباح اللّٰه هو: الإخراج لإقامة الحدّ. .

وقال آخرون: الفاحشة التي عناها اللّٰه في هذا الموضع: البذاء على أحمائها. .

وقال آخرون: بل هي كل معصية لله. .

وقال آخرون: بل ذلك نشوزها على زوجها، فيطلقها على النشوز، فيكون لها التحول حينئذ من بيتها. .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٠٤).

وقال آخرون: الفاحشة المبينة التي ذكر اللَّه ﷻ في هذا الموضع: خروجها من بيتها..

والصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: عنى بالفاحشة في هذا الموضع: المعصية، وذلك أن الفاحشة هي كلّ أمر قبيح تعدّى فيه حدّه، فالزنى من ذلك، والسرقة والبذاء على الأحماء، وخروجها متحوّلة عن منزلها الذي يلزمها أن تعتدّ فيه منه، فأي ذلك فعلت وهي في عدتها، فلزوجها إخراجها من بيتها ذلك لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها»(١).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ أي: لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا كما قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المُسَيَّب، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومجاهد، وعِكْرمة، وسعيد بن جبير، وأبو قِلابة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، وسعيد بن أبي هلال، وغيرهم، وتشمل ما إذا نشزَت المرأة، أو بَذَت على أهل الرجل، وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبي بن كعب، وابن عباس، وعكرمة، وغيرهم»(٢).

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وهذه الأمور التي بينتها لكم من الطلاق للعدّة، وإحصاء العدّة، والأمر باتقاء اللَّه، وأن لا تخرج المطلقة من بيتها إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، حدود اللَّه التي حدّها لكم أيها الناس فلا تعتدوها.

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ومن يتجاوز حدود اللَّه التي حدّها لخلقه فقد ظلم نفسه: يقول: فقد أكسب نفسه وزرًا، فصار بذلك لها ظالما، وعليها متعدّيا»(٣).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أي: شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٣٣-١٣٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٠).

(٣) جامع البيان (٢٨/ ١٣٤).

حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي: يخرج عنها، ويتجاوزها إلى غيرها، ولا يأتمر بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ أي: بفعل ذلك»(١).

قال ابن عاشور: «والمعنى: من يتعد شيئًا من حدود اللَّه فقد ظلم نفسه، وبهذا تعلم أن ليس في قوله: ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ إظهار في مقام الإضمار لاختلاف هذين المركبين بالعموم والخصوص وجيء بهذا الإطناب لتهويل أمر هذا التعدي.

وأُخبر عن متعديها بأنه ظلم نفسه للتخويف تحذيرًا من تعدي هذه الحدود، فإن ظلم النفس هو الجريرة عليها بما يعود بالإضرار وذلك منه ظلم لها في الدنيا بتعريض النفس لعواقب سيئة تنجر من مخالفة أحكام الدين، لأن أحكامه صلاح للناس فمن فرط فيها فاتته المصالح المنطوية هي عليها.

قال: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢).

ومنه ظلم النفس في الآخرة بتعريضها للعقاب المتوعد به على الإخلال بأحكام الدّين قال تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٣) فإن للمؤمنين حظًا من هذا الوعيد بمقدار تفاوت ما بين الكفر ومجرد العصيان وجيء في هذا التحذير بمَن الشرطية لإفادة عموم كل من تعدى حدود اللَّه فيدخل في ذلك الذين يتعدون أحكام الطلاق وأحكام العدة في هذا العموم»(٤).

وقال السعدي: «﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ أي: التي حددها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها، ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ أي: بخسها حقها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود اللَّه التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة»(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٠).
(٢) المائدة: الآية (٦).
(٣) الزمر: الآيات (٥٦-٥٨).
(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٠٥-٣٠٦).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سكنى المبتوتة

* عن مالك، عن يحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد وسليمان بن يسار أنه سمعهما يذكران أن يحيى بن سعيد بن العاص طلق بنت عبد الرحمن بن الحكم، فانتقلها عبد الرحمن، فأرسلت عائشة أم المؤمنين إلى مروان -وهو أمير المدينة- اتق اللَّه وارددها إلى بيتها. قال مروان في حديث سليمان: إن عبد الرحمن بن الحكم غلبني. وقال القاسم بن محمد: أوَ ما بلغكِ شأن فاطمة بنت قيس؟ قالت: لا يضرك أن لا تذكر حديث فاطمة. فقال مروان بن الحكم: إن كان بك شر فحسبك ما بين هذين من الشر(١).

★ غريب الحديث:

قالت: لا يضرك أن لا تذكر حديث فاطمة: أي لأنه لا حجة فيه لجواز انتقال المطلقة من منزلها بغير سبب.

فقال مراوان بن الحكم: إن كان بك شر: أي إن كان عندك أن سبب خروج فاطمة ما وقع بينها وبين أقارب زوجها من الشر فهذا السبب موجود، ولذلك قال: (فحسبك ما بين هذين من الشر)(٢).

* عن فاطمة بنت قيس، أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة وهو غائب فأرسل إليها وكيله بشعير، فسخطته، فقال: واللَّه ما لك علينا من شيء؛ فجاءت رسول اللَّه ﷺ فذكرت ذلك له؛ فقال: **«ليس لك عليه نفقة»**، وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال لها: **«تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند عبد اللَّه بن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك، فإذا حللت فآذنيني»**، قالت: فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم بن هشام خطباني، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، أنكحي أسامة بن زيد»**، قالت: فكرهته، ثم قال: **«أنكحي أسامة بن زيد»**، فنكحته

---

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ٥٩٦/ ٥٣٢١-٥٣٢٢)، ومسلم (٢/ ١١٢٠/ ١٤٨١)، وأبو داود (٢/ ٧١٩/ ٢٢٩٥).
(٢) الفتح (٩/ ٥٩٨).

فجعل اللَّه في ذلك خيرًا واغتبطت به»[١].

★ **غريب الحديث:**

سخطته: لم ترض به لقلته، أو لقيمته.

آذنيني: أعلميني.

اغتبطت به: أي صلح حالها.

★ **فوائد الحديثين:**

قال الحافظ: -معلقا على حديث مروان وعائشة ﵂ في قصة فاطمة بنت قيس- «وهذا مصير من مروان إلى الرجوع عن رد خبر فاطمة، فقد كان أنكر ذلك على فاطمة بنت قيس كما أخرجه النسائي[٢] من طريق شعيب عن الزهري «أخبرني عبيد اللَّه بن عبد اللَّه أن عبد اللَّه بن عمرو بن عثمان بن عفان طلق بنت سعيد بن زيد البتة وأمها حزمة بنت قيس، فأمرتها خالتها فاطمة بنت قيس بالانتقال، فسمع بذلك مروان فأنكر، فذكرت أن خالتها أخبرتها أن رسول اللَّه ﷺ أفتاها بذلك، فأرسل مروان قبيصة بن ذؤيب إلى فاطمة يسألها عن ذلك» فذكرت الحديث. وأخرجه مسلم[٣] من طريق معمر عن الزهري دون ما في أوله، وزاد: فقال مروان: (لم يسمع هذا الحديث إلا من امرأة فسنأخذ بالعصمة التي وجدنا عليها الناس). . فكأن مروان أنكر الخروج مطلقا ثم رجع إلى الجواز بشرط وجود عارض يقتضي جواز خروجها من منزل الطلاق كما سيأتي»[٤].

وقال أيضًا: «اختلف السلف في نفقة المطلقة البائن وسكناها، فقال الجمهور: لا نفقة لها ولها السكنى، واحتجوا لإثبات السكنى بقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾[٥] ولإسقاط النفقة بمفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، فإن مفهومه أن غير الحامل لا نفقة

---

(١) أخرجه: من طرق مختلفة عن فاطمة بنت قيس أحمد (٦/ ٤١٢-٤١٦)، ومسلم (٢/ ١١١٤-١١٢٠/ ١٤٨٠[٤٥,. ٣٦-٥١,. ٤٧])، وأبو داود (٢/ ٧١٢-٧١٦/ ٢٢٩٠,. ٢٢٨٤)، والترمذي (٣/ ٤٨٤/ ١١٨٠)، والنسائي (٦/ ٥١٨-٣٥٤٧)، وابن ماجه (١/ ٦٥٦/ ٢٠٣٥-٢٠٣٦).

(٢) (٦/ ٥٢٠-٥٢١/ ٣٥٥٤).

(٣) (٢/ ١١١٧/ ١٤٨٠[٤١]).

(٤) الفتح (٩/ ٥٩٨).

(٥) الآية (٦).

لها، وإلا لم يكن لتخصيصها بالذكر معنى، والسياق يفهم أنها في غير الرجعية؛ لأن نفقة الرجعية واجبة لو لم تكن حاملا. وذهب أحمد، وإسحاق، وأبو ثور إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى على ظاهر حديث فاطمة بنت قيس، ونازعوا في تناول الآية الأولى المطلّقة البائن، وقد احتجت فاطمة بنت قيس صاحبة القصة على مروان حين بلغها إنكاره بقولها: (بيني وبينكم كتاب اللَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قالت: هذا لمن كانت له مراجعة، فأيّ أمر يحدث بعد الثلاث، وإذا لم يكن لها نفقة وليست حاملا فعلام يحبسونها؟) وقد وافق فاطمة على أن المراد بقوله تعالى: ﴿يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ المراجعة، قتادة والحسن والسدي والضحاك أخرجه الطبري عنهم، ولم يحكِ عن أحد غيرهم خلافه. وحكى غيره أن المراد بالأمر ما يأتي من قبل اللَّه تعالى من نسخ أو تخصيص أو نحو ذلك، فلم ينحصر ذلك في المراجعة، وأما ما أخرجه أحمد من طريق الشعبي عن فاطمة في آخر حديثها مرفوعا: «**إنما السكنى والنفقة لمن يملك الرجعة**» فهو في أكثر الروايات موقوف عليها، وقد بين الخطيب في «المدرج» أن مجالد بن سعيد تفرد برفعه وهو ضعيف، ومن أدخله في رواية غير رواية مجالد عن الشعبي فقد أدرجه وهو كما قال، وقد تابع بعض الرواة عن الشعبي في رفعه مجالدا لكنه أضعف منه. وأما قولها: (إذا لم يكن لها نفقة فعلام يحبسونها) فأجاب بعض العلماء عنه بأن السكنى التي تتبعها النفقة هو حال الزوجية الذي يمكن معه الاستمتاع ولو كانت رجعية، وأما السكنى بعد البينونة فهو حق لله تعالى بدليل أن الزوجين لو اتفقا على إسقاط العدة لم تسقط، بخلاف الرجعية، فدل على أن لا ملازمة بين السكنى والنفقة، وقد قال بمثل قول فاطمة: أحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وداود وأتباعهم. وذهب أهل الكوفة من الحنفية وغيرهم إلى أن لها النفقة والكسوة، وأجابوا عن الآية بأنه تعالى إنما قيد النفقة بحالة الحمل ليدل على إيجابها في غير حالة الحمل بطريق الأولى؛ لأن مدة الحمل تطول غالبًا. ورده ابن السمعاني بمنع العلة في طول مدة الحمل؛ بل تكون مدة الحمل أقصر من غيرها تارة وأطول أخرى فلا أولوية، وبأن قياس الحائل على الحامل فاسد؛ لأنه يتضمن إسقاط تقييد ورد به النص في القرآن والسنة، وأما قول بعضهم: إن حديث فاطمة

أنكره السلف عليها كما تقدم من كلام عائشة، وكما أخرج مسلم[١] من طريق أبي إسحاق: (كنت مع الأسود بن يزيد في المسجد فحدث الشعبي بحديث فاطمة بنت قيس أن رسول اللَّه ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة، فأخذ الأسود كفًّا من حصى فحصبه به، وقال: ويلك تحدث بهذا؟ قال عمر: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت، قال اللَّه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، فالجواب عنه أن الدارقطني قال: قوله في حديث عمر: (وسنة نبينا) غير محفوظ، والمحفوظ: (لا ندع كتاب ربنا) وكأن الحامل له على ذلك أن أكثر الروايات ليست فيها هذه الزيادة، لكن ذلك لا يرد رواية النفقة، ولعل عمر أراد بسنة النبي ﷺ ما دلت عليه أحكامه من اتباع كتاب اللَّه، لا أنه أراد سنة مخصوصة في هذا، ولقد كان الحق ينطق على لسان عمر، فإن قوله: (لا ندري حفظت أو نسيت) قد ظهر مصداقه في أنها أطلقت في موضع التقييد، أو عممت في موضع التخصيص كما تقدم بيانه، وأيضا فليس في كلام عمر ما يقتضي إيجاب النفقة، وإنما أنكر إسقاط السكنى.
وادعى بعض الحنفية أن في بعض طرق حديث عمر: (للمطلقة ثلاثا السكنى والنفقة) ورده ابن السمعاني بأنه من قول بعض المجازفين فلا تحل روايته، وقد أنكر أحمد ثبوت ذلك عن عمر أصلًا، ولعله أراد ما ورد من طريق إبراهيم النخعي عن عمر، لكونه لم يلقه، وقد بالغ الطحاوي في تقرير مذهبه فقال: خالفت فاطمة سنة رسول اللَّه ﷺ لأن عمر روى خلاف ما روت، فخرج المعنى الذي أنكر عليها عمر خروجا صحيحا، وبطل حديث فاطمة فلم يجب العمل به أصلا. وعمدته على ما ذكر من المخالفة ما روى عمر بن الخطاب، فإنه أورده من طريق إبراهيم النخعي عن عمر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لها السكنى والنفقة**» وهذا منقطع لا تقوم به حجة»[٢].

قال القرطبي: «ويظهر من كلام هؤلاء الأئمة أن الثابت عن عمر رضي الله عنه قوله: (لها السكنى لا غير) ولم يثبتوا قوله: (والنفقة)، وليس بمعروف عند أهل المدينة،

---

(١) مسلم (٢/ ١١١٨-١١١٩/ ١٤٨٠[٤٦]).
(٢) الفتح (٩/ ٦٠٠-٦٠١).

ولذلك قال مالك: إنه سمع ابن شهاب يقول: المبتوتة لا تخرج من بيتها حتى تحلّ، وليس لها نفقة، إلا أن تكون حاملا. قال مالك: وهذا الأمر عندنا. وإلى هذا أشار مروان بقوله: سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، أي: بالأمر الذي اعتصم الناس به وعملوا عليه. يعني بذلك أنها لا تخرج من بيتها ولا نفقة لها»[١].

قال ابن بطال: «إسقاط السكنى هو الذي أُنكر على فاطمة بنت قيس، وكذلك أنكرت عليها عائشة إطلاق اللفظ وكتمان السبب الذي من أجله أباح رسول اللَّه ﷺ خروجها من منزل الزوج، فقالت: (اتق اللَّه ولا تكتمي السرّ الذي من أجله نقلكِ)، وذلك أنها كانت في لسانها ذرابة فاستطالت على أحمائها -أهل زوجها- فلهذا نقلها، لا أنه لا سكنى لها، والمرأة عندنا إذا آذت أهل زوجها جاز نقلها من ذلك الموضع، فدل أن عائشة علمت معنى ما أمر به رسول اللَّه فاطمة، ولم يكن قولها شيئًا قالته برأيها، ألا ترى قولها لمروان: (دع عنك حديث فاطمة فإن لها شأنًا) وقالت: (ألا تتقي اللَّه فاطمة) علمت يقينا أنها عرفت قصتها كيف كانت، وقول مروان لعائشة: (إن كان بك الشر فحسبك ما بين هذين من الشر) يدل أن فاطمة إنما أمرت بالتحويل إلى الموضع الذي أمرت به لشر كان بينها وبينهم، وإذا كان الشر والشقاق واقعا بين الزوجين جاز للحاكم أن يبعث إليها بحكمين يكون لهما الجمع بينهما والفرقة، فكان تحويل المعتدة من مسكن إلى مسكن إذا وقع الشر أحرى أن يجوز»[٢].

قال أبو عمر في التمهيد: «فهذا عمر، وعائشة، وابن عمر، ينكرون على فاطمة أمر السكنى ويخالفونها في ذلك؛ ومال إلى قولهم فقهاء التابعين بالمدينة، وإليه ذهب مالك، والشافعي، وأصحابهما؛ لكن من طريق الحجة وما يلزم منها قول أحمد بن حنبل ومن تابعه أصح وأحج، لأنه لو وجب السكنى عليها وكانت عبادة تعبدها اللَّه بها لألزمها ذلك رسول اللَّه ﷺ، ولم يخرجها عن بيت زوجها إلى بيت أم شريك، ولا إلى بيت ابن أم مكتوم؛ ولأنه أجمعوا أن المرأة التي تبذو على أحمائها بلسانها، تؤدب وتقصر على السكنى في المنزل الذي طلقت فيه، وتمنع من

(١) المفهم (٤/ ٢٧٥).

(٢) شرح صحيح البخاري (٧/ ٤٩٥).

أذى الناس ؛ فدل ذلك على أن من اعتل بمثل هذه العلة في الانتقال اعتل بغير صحيح من النظر ، ولا متفق عليه من الخبر ؛ هذا ما يوجبه عندي التأمل لهذا الحديث مع صحته ، وباللَّه التوفيق .

وإذا ثبت أن النبي ﷺ قال لفاطمة بنت قيس وقد طلقت طلاقا باتا : «لا سكنى لك ولا نفقة ، وإنما السكنى والنفقة لمن عليها رجعة» ؛ فأي شيء يعارض به هذا؟ هل يعارض إلا بمثله عن النبي ﷺ الذي هو المبين عن اللَّه مراده من كتابه ، ولا شيء عنه ﵇ يدفع ذلك ؛ ومعلوم أنه أعلم بتأويل قول اللَّه ﷻ : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ من غيره ﷺ ؛ وأما الصحابة فقد اختلفوا كما رأيت ، منهم من يقول لها السكنى والنفقة منهم : عمر ، وابن مسعود ؛ ومنهم من يقول : لها السكنى ولا نفقة ؛ منهم ابن عمر ، وعائشة ، ومنهم من يقول : لا سكنى لها ولا نفقة ؛ وممن قال ذلك : علي ، وابن عباس ، وجابر ؛ وكذلك اختلاف فقهاء الأمصار على هذه الثلاثة الأقوال على ما ذكرنا وبينا والحمد لله .

وأما الشافعي ومالك ، فلا محالة أنه لم يثبت عندهما عن النبي ﷺ أنه قال لفاطمة : لا سكنى لك ولا نفقة ، مع ما رأوا من معارضة العلماء الجلة لها في ذلك واللَّه الموفق للصواب»[1] .

قال القرطبي : قال أبو العباس مبينا السبب الذي من أجله خرجت فاطمة بنت قيس من بيت زوجها - «إنما أذن النبي ﷺ لفاطمة أن تخرج من البيت الذي طُلقت فيه لما ذكره مسلم في الرواية الأخرى من أنها خافت على نفسها من عورة منزلها ، وفيه دليل على أن المعتدّة تنتقل لأجل الضرورة . وهذا أولى من قول من قال : إنها كانت لَسِنة تؤذي زوجها وأحماءها بلسانها ، فإن هذه الصفة لا تليق بمن اختارها رسول اللَّه ﷺ لحبه بن حبه ، وتواردت رغبات الصحابة عليها حين انقضت عدتها ، ولو كانت على مثل تلك الحال لكان ينبغي ألا يرغب فيها ، ولا يحرس عليها . أيضا : فلم يثبت بذلك نقل مسند صحيح ، وإنما الذي تُمسك به في ذلك قول عائشة : ما لفاطمة خير أن تذكر هذا . وقول عمر : لا ندع كتاب اللَّه لقول امرأة لا نعلم حفظت أو نسيت . وقول بعضهم : تلك امرأة فتنت الناس . وليس في شيء

---

(١) التمهيد (فتح البر ١٠/ ٦١٦-٦١٧).

من ذلك دليل على ذلك.

ويا للعجب! كيف يجترئ ذو دينٍ أن يقدم على غيبة مثل هذه الصحابية التي اختارها النبي ﷺ لحبّه ابن حبه لسبب خبر لم يثبت. وأعجب من ذلك قول بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ إنها نزلت في فاطمة، لأنها كانت فيها بذاذة لسان، وأذى للأحماء. وهذا لم يثبت فيه نقل، ولا يدل عليه نظر، فذكر ذلك عنها ونسبته إليها غيبة أو بهتان..»[1].

* * *

(١) المفهم (٤/ ٢٦٩-٢٧٠).

قوله تعالى: ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: لا تدري ما الذي يحدث؟، لعل اللَّه يحدث بعد طلاقكم إياهن رجعة»[(١)].

قال السعدي: « ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ أي: شرع اللَّه العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة، فمنها: أنه لعل اللَّه يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك من معرفة مدة العدة، ولعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحكم: أنها مدة التربص، يعلم براءة رحمها من زوجها»[(٢)].

وقال القرطبي: «الأمر الذي يحدثه اللَّه أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه، فيراجعها. وقال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة. ومعنى القول: التحريض على طلاق الواحدة والنهي عن الثلاث، فإنه إذا طلق ثلاثا أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع، فلا يجد عند الرجعة سبيلا. وقال مقاتل: ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أي بعد طلقة أو طلقتين. ﴿ أَمْرًا ﴾ أي المراجعة من غير خلاف»[(٣)].

قال شيخ الإسلام: «قال غير واحد من الصحابة والتابعين والعلماء: هذا يدل على أن الطلاق الذي ذكره اللَّه هو الطلاق الرجعي، فإنه لو شرع إيقاع الثلاث عليه لكان المطلق يندم إذا فعل ذلك، ولا سبيل إلى رجعتها فيحصل له ضرر بذلك، واللَّه أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم، ولهذا قال اللَّه تعالى أيضا بعد ذلك: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وهذا إنما يكون في

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٣٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٨-٤٠٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٥٦-١٥٧).

الطلاق الرجعي لا يكون في الثلاث، ولا في مبائن»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الله يحدث من أمره ما يشاء

* عن عبد الله قال: كنا نسلم في الصلاة ونأمر بحاجتنا، فقدمت على رسول الله ﷺ وهو يصلي فسلمت عليه فلم يرد علي السلام، فأخذني ما قدم وما حدث، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة قال: «**إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن الله -جل وعز- قد أحدث من أمره أن لا تكلموا في الصلاة**» فرد علي السلام[٢].

★ غريب الحديث:

فأخذني ما قدم وما حدث: معناه: الحزن والكآبة يريد أنه قد عاوده قديم الأحزان واتصل بحديثها.

★ فقه الحديث:

بوب الإمام البخاري رحمه الله بهذه الآية والحديث في «كتاب التوحيد والرد على الجهمية» من صحيحه، ومراده رحمه الله «بيان أن الله تعالى يحدث ما يريد إحداثه في أي وقت أراد، وأن إحداثه ذلك من أفعاله التي هي أوصاف له، فيحدث الأمر من أمره تعالى والكلام ويطلق عليه أنه حدث ومحدث؛ لأنه وجد بعد ما قبله ويسمى كلامًا حديثًا، ويطلق عليه أنه حادث ومحدث بمعنى الجديد الذي تكلم به بعد كتبه السابقة له، ولهذا قال: وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين، فمن ذلك كلامه ومخاطبته لمن يريد أن يخاطبه من خلقه، وأمره لمن يأمره ونهيه، وإجابته لمن يدعوه، وإحياؤه لمن يريد حياته، وإماتته لمن يريد أن يميته، وإذلال من يريد ذله، وإعزاز من يشاء، وهدايته من يشاء، وإضلال من يشاء، وتصرفه في خلقه وملكه كيف يشاء»[٣].

---

(١) الفتاوى الكبرى (٣/ ٦١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٧)، وأبو داود (١/ ٥٦٧-٥٦٨/ ٩٢٤) واللفظ له، والنسائي (٣/ ٢٣/ ١٢٢٠)، وابن حبان: الإحسان (٦/ ١٥-١٧/ ٢٢٤٣ و٢٢٤٤) وعلقه البخاري بصيغة الجزم عن ابن مسعود(١٣/ ٦٠٧).
وأصل الحديث في الصحيحين بغير هذا اللفظ: البخاري (٣/ ٩٤/ ١١٩٩)، ومسلم (١/ ٣٨٢/ ٥٣٨).

(٣) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ٤٠٠).

«والمقصود الذي أراده الإمام البخاري من هذا: الردّ على من ينكر أفعال اللَّه تعالى من القول والفعل ونحوهما مما يتعلق بمشيئته وإرادته وقدرته، فإن هذا الأصل أنكرته الجهمية والمعتزلة ومن تشعّب عنهما ظانّين أنه لا يمكن إثبات حدوث العالم، وإثبات وجود الخالق له تعالى إلا بإثبات حدوث الأجسام، ولا يمكن إثبات حدوث الأجسام إلا بإثبات حدوث ما يقوم بها من الصفات والأفعال المتعاقبة التي يسمونها الحوادث، فلذلك قالوا: كل من قامت به الحوادث أو كان محلًّا لها فهو حادث، وهذا الذي حدا بهم إلى إنكار صفات اللَّه وأفعاله القائمة به المتعلقة بمشيئته وقدرته. وعليهم توجه رد الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب»[١].

قال شيخ الإسلام: «من تدبر كلام أئمة السنة المشاهير في هذا الباب علم أنهم كانوا أدق الناس نظرا، وأعلم الناس في هذا الباب بصحيح المنقول وصريح المعقول، وأن أقوالهم هي الموافقة للمنصوص والمعقول، ولهذا تأتلف ولا تختلف، وتتوافق ولا تتناقض، والذين خالفوهم لم يفهموا حقيقة أقوال السلف والأئمة، فلم يعرفوا حقيقة المنصوص والمعقول، فتشعبت بهم الطرق وصاروا مختلفين في الكتاب مخالفين للكتاب، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[٢]. ومن أعظم أصول التفريق بينهم في هذه المسألة مسألة أفعال اللَّه تعالى وكلام اللَّه ونحو ذلك مما يقوم بنفسه ويتعلق بمشيئته وقدرته، فإن هذا الأصل لما أنكره من أنكره من أهل الكلام الجهمية والمعتزلة ونحوهم، وظنوا أنه لا يمكن إثبات حدوث العالم وإثبات الصانع إلا بإثبات حدوث الجسم، ولا يمكن إثبات حدوثه إلا بإثبات حدوث ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة، ألجأهم ذلك إلى أن ينفوا عن اللَّه صفاته وأفعاله القائمة به المتعلقة بمشيئته وقدرته، أو ينفوا بعض ذلك، وظنوا أن الإسلام لا يقوم إلا بهذا النفي»[٣].

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٠٣-٤٠٤) بتصرف.

(٢) البقرة: الآية (١٧٦).

(٣) درء التعارض (٢/ ٣٠١-٣٠٢).

قوله ﷺ: «إن اللَّه يحدث ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة» «.. ولا يصف اللَّه أعلم منه تعالى، ولا أعلم من رسوله بعده، ومن لم يرض بما قاله اللَّه ورسوله فبعدًا له»[١].

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ٤٠٥).

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فإذا بلغ المطلقات اللواتي هنّ في عدة أجلهنّ وذلك حين قرب انقضاء عددهنّ ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يقول: فأمسكوهنّ برجعة تراجعوهن، إن أردتم ذلك بمَعْرُوف، يقول: بما أمرك اللَّه به من الإمساك وذلك بإعطائها الحقوق التي أوجبها اللَّه عليه لها من النفقة والكسوة والمسكن وحُسن الصحبة، ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أو اتركوهنّ حتى تنقضي عددهنّ، فتبين منكم بمعروف، يعني بإيفائها ما لها من حق قبله من الصداق والمتعة على ما أوجب عليه لها»(١).

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي: شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده. ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي: محسنًا إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي: من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن»(٢).

وقال السعدي: «وقوله: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي: قاربن انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيرًا بين الإمساك والفراق. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: على وجه المعاشرة الحسنة، والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرر، وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٣٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧١).

﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فراقًا لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها»[١].

قال ابن عاشور: «المعروف: هو ما تعارفه الأزواج من حسن المعاملة في المعاشرة وفي الفراق.

فالمعروف في الإمساك: حسن اللقاء، والاعتذارُ لها عما فرط، والعودُ إلى حسن المعاشرة.

والمعروف في الفراق: كف اللسان عن غِيبتها وإظهارِ الاستراحة منها.

والمعروف في الحالين من عمل الرَّجل، لأنه هو المخاطب بالإمساك أو الفراق.

وأما المعروف الذي هو من عمل المرأة فمقرر من أدلة أخرى كقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٢]..

ولمَّا قيد أمر الإباحة من قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ بقيد بالمعروف فُهم منه أنّه إن كان إمساك دون المعروف فهو غير مأذون فيه وهو الإمساك الذي كان يفعله أهل الجاهلية أن يطلق الرجل امرأته فإذا قاربت انتهاء عدتها راجعها أيامًا ثم طلقها يفعل ذلك ثلاثًا ليطيل عليها من العدة فلا تتزوج عدة أشهر إضرارًا بها»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٩).

(٢) البقرة: الآية (٢٢٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/٣٠٨).

قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: « ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ ﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سدًا لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما ما يلزمه بيانه»[1].

قال القاسمي: «أي أشهدوا عند الرجعة والفرقة من يرضى دينهما وأمانتهما.. وهذا الإشهاد على المراجعة والطلاق مندوب، ومنهم من ذهب إلى وجوبه عليها، ومنهم من فرق بين المراجعة فأوجبه فيها، وبين الطلاق فاستحبه. وظاهر الأمر في الآية الوجوب فيهما، والترجيح يجب أن يكون بدليل مرجح. ومما يؤيد الوجوب أن الأوامر في الآية كلها قبل وبعد للوجوب إجماعا، ولا دليل يصرف الأمر بالإشهاد عن ظاهره، فبقي كسابقه ولاحقه، وإن كان القِران لا يفيد المشاركة في الحكم، إلا أنه عاضد ومؤيد، إذا لم يوجد صارف. ثم الأمر بالإشهاد عند الطلاق يدل على أن الحلف بالطلاق، أو تعليق وقوعه بأمر كله مما لا يعد طلاقًا في الشرع؛ لأن ما طلب فيه الإشهاد لابد أن ينوى فيه إيقاعه ويعزم عليه ويتهيأ له. وجدير بعصمة ينوى حلها، وكانت معقودة أوثق عقد أن يشهد عليه، بعد أن يسبقها مراجعة من حكَمين من قبل الزوجين، كما أشارت إليه آية الحكم. فليتدبر الطلاق المشروع والطلاق المبتدع، وبالله التوفيق»[2].

قال ابن عاشور: «ظاهر وقوع هذا الأمر بعد ذكر الإمساك أو الفراق أنه راجع إلى كليهما؛ لأن الإشهاد جُعل تتمة للمأمور به في معنى الشرط للإمساك أو الفراق؛ لأن هذا العطف يشبه القيد وإن لم يكن قيدًا، وشأن الشروط الواردةِ بعد جمل أن تعود إلى جميعها.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٩).

(٢) محاسن التأويل (١٦/ ١٩٦-١٩٧).

وظاهر صيغة الأمر الدلالة على الوجوب، فيتركب من هذين أن يكون الإِشهاد على المراجعة وعلى بتّ الطلاق واجبًا على الأزواج؛ لأن الإِشهاد يرفع أشكالًا من النوازل وهو قول ابن عباس، وأخذ به يحيى بن بُكير من المالكية، والشافعي في أحد قوليه، وابن حنبل في أحد قوليه، وروي عن عمران بن حصين، وطَاوس، وإبراهيم، وأبي قلابة، وعطاء. وقال الجمهور: الإِشهاد المأمور به الإِشهاد على المراجعة دون بتّ الطلاق»[١].

«وقيل: فائدة الإشهاد أن لا يقع بينهما التجاحد، وأن لا يتهم في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرجل يراجع ولا يشهد وصفات الشهود

* عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن أناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول اللَّه ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا أمناه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء، اللَّه يحاسب سريرته. ومن أظهر لنا سوءا لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال: إن سريرته حسنة[٣].

⋆ غريب الحديث:

أمِنّاه: من الأمن، أي: صيرناه عندنا أمينا.

⋆ فوائد الحديث:

قال أبو الحسن بن القابسي: «ينبغي لكل من سمع هذا الحديث أن يحفظه ويتأدب به. والمرفوع من هذا الحديث إخبار عمر عما كان الناس يؤخذون به على عهد رسول اللَّه ﷺ، وبقية الخبر بيان لما يستعمله الناس بعد انقطاع الوحي

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٠٩)
(٢) الكشاف (٤/ ١١٩).
(٣) أخرجه: البخاري (٥/ ٣١٥/ ٢٦٤١).

بوفاة النبي»[١].

قال ابن بطال: «في هذا الحديث من الفقه أن من ظهر منه الخير فهو العدل الذي تجب قبول شهادته»[٢].

قال الحافظ: «والعدل عند الجمهور من يكون مسلما مكلفًا حرًا غير مرتكب كبيرة ولا مصر على صغيرة. زاد الشافعي: وأن يكون ذا مروءة. ويشترط في قبول شهادته أن لا يكون عدوًا للمشهود عليه، ولا متهمًا فيها بجر نفع ولا دفع ضر، ولا أصلا للمشهود له ولا فرعًا منه»[٣].

قال ابن بطال: «اتفق مالك والكوفيون والشافعي أن الشهود اليوم على الجرحة حتى تثبت العدالة. قال أبو حنيفة: إلا شهود النكاح فإنه على العدالة. وهذا قول لا سلف له فيه ولا دليل عليه، ولو عُكس عليه هذا القول لم يكن أحد القولين أولى بالحكم من الآخر، وحجة الفقهاء أن الشهود على الجرحة قوله: ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾[٤] فخاطب الحكام ألا يقبلوا إلا من كان بهذه الصفة، ودل القرآن أن في الناس غير مرضي ولا عدل، فلذلك كلف الطالب إذا جعل القاضي أحوال الشهود أن يعدلوا عنده»[٥].

* عن مطرف بن عبد اللَّه أن عمران بن حصين سئل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها؟ فقال: طلقت لغير سنة، وراجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها وعلى رجعتها، ولا تعد[٦].

★ فوائد الحديث:

قال الصنعاني: «دل الحديث على شرعية الرجعة، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾[٧] الآية، وقد أجمع العلماء على أن الزوج يملك رجعة زوجته في الطلاق الرجعي ما دامت في العدة من غير اعتبار رضاها ورضا وليها

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨/ ٢٣).
(٢) المصدر السابق (٨/ ٢٤).
(٣) الفتح (٥/ ٣١٥) بتصرف يسير.
(٤) البقرة: الآية (٢٨٢).
(٥) شرح صحيح البخاري (٨/ ٢٥).
(٦) أخرجه: أبو داود (٢/ ٦٣٧/ ٢١٨٦)، وابن ماجه (١/ ٦٥٢/ ٢٠٢٥).
(٧) البقرة: الآية (٢٢٨).

إذا كان الطلاق بعد المسيس، وكان الحكم بصحة الرجعة مجمعا عليه لا إذا كان مختلفًا فيه.

والحديث دل على ما دلت عليه آية سورة الطلاق وهي قوله: ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ بعد ذكره الطلاق، وظاهر الأمر وجوب الإشهاد، وبه قال الشافعي في القديم؛ وكأنه استقر مذهبه على عدم وجوبه، فإنه قال المرزعي في تيسير البيان: وقد اتفق الناس على أن الطلاق من غير إشهاد جائز.

وأما الرجعة فيحتمل أنها تكون في معنى الطلاق؛ لأنها قرينته، فلا يجب فيها الإشهاد؛ لأنها حق للزوج، ولا يجب عليه الإشهاد على قبضه، ويحتمل أن يجب الإشهاد، وهو ظاهر الخطاب. انتهى والحديث يحتمل أنه قاله عمران اجتهادا إذ للاجتهاد فيه مسرح، إلا أن قوله: «أرجع في غير سنة» قد يقال: إن السنة إذا أطلقت في لسان الصحابي يراد بها سنة النبي ﷺ فيكون مرفوعا، إلا أنه لا يدل على الإيجاب لتردد كونه من سنته ﷺ بين الإيجاب والندب. والإشهاد على الرجعة ظاهر إذا كانت بالقول الصريح، واتفقوا على الرجعة بالقول»[1].

قال في تكملة المنهل: «دل الأثر على مشروعية الإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة، وإن كان من كلام عمران بن حصين فهو في حكم المرفوع إلى النبي ﷺ لقوله فيه: (طلقت لغير سنة. الخ) وهذا متفق عليه. واختلف العلماء في هذا، فقال الشافعي وأحمد في أحد قوليهما: الإشهاد واجب لظاهر هذا الأثر ولظاهر الأمر في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أي: إذا طلقتم النساء المدخول بهن طلاقًا رجعيًا وقاربن انقضاء العدة فأمسكوهن، أي: راجعوهن قبل انتهاء العدة، أو فارقوهن أي: اتركوهن حتى تنقضي عدتهن، وأشهدوا ذوي عدل منكم على كل من الرجعة أو الطلاق، وقال الحنفيون ومالك وأحمد في رواية: الإشهاد المذكور مستحب؛ لأن الرجعة لا تفتقر إلى قبول المرأة فلم تفتقر إلى شهادة كسائر حقوق الزوج. ولأنها لا يشترط فيها الولي فلا يشترط فيها الإشهاد ويحمل الأمر في الآية على الاستحباب. وأما المراجعة فاتفقوا على أنها لا تكون إلا في أثناء العدة. وأنها تكون بالقول كقوله:

(١) سبل السلام (٣/ ٣٤٧-٣٤٨)، وانظر: نيل الأوطار (٦/ ٢٥٣)، ومجموع الفتاوى (٣٢/ ١٢٩).

رددت زوجتي إلى نكاحي وأمسكتها وراجعتها . لأن هذه الألفاظ ورد بها الكتاب والسنة. قال اللَّه تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَالِكَ﴾[١] وقال: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، وأما السنة فقوله ﷺ لعمر فيما تقدم: «مره -يعني عبد الله- فليراجعها».

واختلف العلماء في تعيين القول في المراجعة، فقال الشافعي وأحمد في أحد قوليه: يتعين لأنه لا بد من الإشهاد. والإشهاد إنما يكون على القول في مثل هذا المقام، فهي كالزواج. وقال الجمهور: لا يتعين القول. والمراجعة تحصل بالوطء أيضًا. إلا أن مالكًا وإسحاق قالا: لا بد مع ذلك من النية، لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»[٢]. وقال الحنفيون وسعيد بن المسيب والحسن والثوري والأوزاعي: تحصل المراجعة بالوطء وإن لم ينو؛ لأن مدة العدة مدة خيار، والاختيار يصح بالقول والوطء، ولقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَالِكَ﴾[٣] أي: وأزواجهن أحق بردهن إلى عصمتهم في العدة. ولما تقدم من قوله ﷺ لعمر: «مر عبد اللَّه فليراجعها» فظاهر الآية والحديث أن المراجعة لا تختص بالقول بل كما تكون به تكون بالوطء. فالظاهر ما ذهب إليه الحنفيون»[٤].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٢٢٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥)، والبخاري (١/ ١/ ١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١)، والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧)، والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧) من حديث عمر ﷺ.

(٣) البقرة: الآية (٢٢٨).

(٤) (٤/ ١٠٣-١٠٤).

قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ يقول: وأشهدوا على الحقّ إذا استشهدتم، وأدوها على صحة إذا أنتم دُعيتم إلى أدائها»[1].

وقال السعدي: «﴿ وَأَقِيمُوا۟ ﴾ أيها الشهداء ﴿ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ أي: ائتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه اللّٰه وحده ولا تراعوا بها قريبًا لقرابته، ولا صاحبًا لمحبته»[2].

وقال القاسمي: «﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ أي: لوجهه خالصا، وذلك أن يقيموها لا للمشهود له، ولا للمشهود عليه، ولا لغرض من الأغراض، سوى إقامة الحق، ودفع الظلم، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾[3]. وتدل الآية على حظر أخذ الأجرة على أداء الشهادة»[4].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ﴾ يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي أمرتكم به، وعرفتكم من أمر الطلاق، والواجب لبعضكم على بعض عند الفراق والإمساك عظة منا لكم، نعظ به من كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر، فيصدق به.

وعني بقوله: ﴿ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ﴾ من كانت صفته الإيمان بالله»[5].

وقال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ﴾ أي: الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتمر به من يؤمن

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٣٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٩).
(٣) النساء: الآية (١٣٥).
(٤) محاسن التأويل (١٦/ ١٩٧).
(٥) جامع البيان (٢٨/ ١٣٧).

باللَّه، وأنه شرع هذا، ويخاف عقاب اللَّه في الدار الآخرة»[١].

وقال السعدي: « ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ فإن الإيمان باللَّه، واليوم الآخر يوجب لصاحبه أن يتعظ بمواعظ اللَّه، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكن منها. بخلاف من ترحل الإيمان من قلبه فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ اللَّه لعدم الموجب لذلك»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٠٩-٤١٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: من يخف اللَّه فيعمل بما أمره به، ويجتنب ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجًا؛ بأن يعرّفه بأن ما قضى فلا بدّ من أن يكون، وذلك أن المطلق إذا طلّق كما ندبه اللَّه إليه للعدّة، ولم يراجعها في عدتها حتى انقضت ثم تتبعها نفسه، جعل اللَّه له مخرجًا فيما تتبعها نفسه. بأن جعل له السبيل إلى خطبتها ونكاحها، ولو طلقها ثلاثًا لم يكن له إلى ذلك سبيل.

وقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ يقول: ويسبب له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ومن يتق اللَّه فيما أمره به، وتَرَك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله»[2].

وقال ابن القيم: «واعلم أن من اتقى اللَّه في طلاقه فطلق كما أمره اللَّه ورسوله وشرعه له أغناه عن ذلك كله، ولهذا قال تعالى بعد أن ذكر حكم الطلاق المشروع: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾، فلو اتقى اللَّه عامة المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال والمكر والاحتيال؛ فإن الطلاق الذي شرعه اللَّه سبحانه: أن يطلقها طاهرا من غير جماع، ويطلقها واحدة، ثم يدعها حتى تنقضي عدتها، فإن بدا له أن يمسكها في العدة أمسكها، وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها أمكنه أن يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر، وإن لم يكن له فيها غرض لم يضره أن تتزوج

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٣٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٢).

غيره؛ فمن فعل هذا لم يندم ولم يحتج إلى حيلة ولا تحليل.

ولهذا سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال: «عصيت ربك، وفارقت امرأتك، لم تتق اللَّه فيجعل لك مخرجا».

وقال سعيد بن جبير: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني طلقت امرأتي ألفا فقال: أما ثلاث فتحرم عليك امرأتك، وبقيتهن وزر، اتخذت آيات اللَّه هزوا.

وقال مجاهد: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثا فسكت حتى ظننت أنه رادها إليه ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة ثم يقول: يا ابن عباس يا ابن عباس، وإن اللَّه تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ وإنك لم تتق اللَّه فلا أجد لك مخرجا عصيت ربك؛ وبانت منك امرأتك. ذكره أبو داود»[1].

وقال السعدي: «ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم أمر تعالى بتقواه، وأن من اتقاه في الطلاق وغيره بأن يجعل له فرجًا ومخرجًا. فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقة واحدة في غير حيض ولا طهر أصابها فيه فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل اللَّه له فرجًا وسعة يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح إذا ندم على الطلاق.

والآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى اللَّه تعالى، ولازم مرضاته في جميع أحواله؛ فإن اللَّه يثيبه في الدنيا والآخرة.

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى اللَّه جعل له فرجًا ومخرجًا، فمن لم يتق اللَّه، يقع في الآصار والأغلال، التي لا يقدرون على التخلص منها والخروج من تبعتها. واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق اللَّه فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها.

وقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: يسوق اللَّه الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به»[2].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٤٢٥-٤٢٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٠-٤١١).

قال شيخ الإسلام: «بين سبحانه في هذه الآية أن المتقي يدفع عنه المضرة، وهو أن يجعل له مخرجًا مما ضاق على الناس ويجلب له المنفعة ويرزقه من حيث لا يحتسب، وكل ما يتغذى به الحي مما تستريح به النفوس وتحتاج إليه في طيبها وانشراحها فهو من الرزق، واللَّه تعالى يرزق ذلك لمن اتقاه بفعل المأمور وترك المحظور»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الوصية بتقوى اللَّه تعالى

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلا جاءه فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول اللَّه ﷺ من قبلك: **«أوصيك بتقوى اللَّه، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر اللَّه، وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض»**[(٢)].

⋆ غريب الحديث:

رهبانية: الرهبانية غلو في تحمل التعبد من فرط الرهبة، والرهبة: مخافة مع تحرز واضطراب.

* عن أبي ذر ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال له: **«أوصيك بتقوى اللَّه في سر أمرك وعلانيته، وإذا أسأت فأحسن، ولا تسألن أحدا شيئا وإن سقط سوطك، ولا تقبض أمانة، ولا تقض بين اثنين»**[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٢٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٢) واللفظ له، وأبو يعلى (٢/ ٢٨٣-٢٨٤/ ١٠٠٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٢١٥) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى ورجال أحمد ثقات، وفي إسناد أبي يعلى ليث بن أبي سليم وهو مدلس» اهـ وقال في موضع آخر (١٠/ ٣٠١): «رواه الطبراني في الصغير وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس وقد وثق هو وبقية رجاله». وحسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (٥٥٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٩٣) وقال: «رواه... أحمد ورجاله ثقات» والحديث حسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤٩٨) وفي صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٩٥) و(٣/ ٢٢٦).

★ غريب الحديث:

سوط: السوط ما يضرب به من جلد سواء أكان مضفورًا أم لم يكن.

★ فوائد الحديثين:

في هذين الحديثين من الفوائد:

الوصية بتقوى اللَّه في السر والعلانية ظاهرًا وباطنًا، قال المناوي: «والقصد الوصية بإخلاص التقوى، وتجنب الرياء»[١].

وقال ابن رجب: «فهذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق اللَّه وحقوق عباده»[٢].

«شاملة لخير الدارين، إذ هي تجنب كل منهي وفعل كل مأمور.. ومن اتقى اللَّه حفظه من أعدائه ونجاه من الشدائد، ورزقه من حيث لا يحتسب، وأصلح عمله، وغفر زلله، وتكفل له بكفلين من رحمته، وجعل له نورًا يمشي به بين يديه، وقبله، وأكرمه، وأعزه، ونجاه من النار»[٣].

«وفي الجملة فالتقوى هي وصية اللَّه لجميع خلقه، ووصية رسول اللَّه ﷺ لأمته»[٤].

«وتقوى اللَّه في السر هو علامة كمال الإيمان، وله تأثير في إلقاء اللَّه لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين»[٥].

وفيهما أيضا بيان منزلة التقوى من الدين وأنها منه بمنزلة الرأس من الجسد، إذ هي «أس كل فلاح ونجاح في الدارين»[٦]. و«لا قبول لشيء عند اللَّه تعالى إلا بمراعاتها»[٧].

قال المناوي: «قال الغزالي: ليس في العالم خصلة للعبد أجمع للخير، وأعظم للأجر، وأجل في العبودية، وأعظم في القدر، وأدنى بالحال، وأنجع للآمال من هذه الخصلة التي هي التقوى، وإلا لما أوصى اللَّه بها خواص خلقه، فهي الغاية

---

(١) فيض القدير (٣/ ٧٥).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨).
(٣) فيض القدير (٣/ ٧٥).
(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٤).
(٥) المصدر السابق (١/ ٤١٠).
(٦) الفيض (٣/ ٧٤).
(٧) حاشية السندي على المسند (١٨/ ٢٩٩) بتصرف يسير.

التي لا متجاوز عنها ولا مقتصر دونها، وقد جمع اللَّه فيها كل نصح، ودلالة، وإرشاد، وتأديب، وتعليم، فهي الجامعة لخيري الدارين، الكافية لجميع المهمات، المبلغة إلى أعلى الدرجات»[١].

* * *

(١) الفيض (٣/ ٧٤).

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾

★ غريب الآية:

حسبه: كافيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ومن يتق اللَّه في أموره، ويفوّضها إليه فهو كافيه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ منقطع عن قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾. ومعنى ذلك: إن اللَّه بالغ أمره بكل حال توكل عليه العبد أو لم يتوكل عليه»[1].

وقال القاسمي: «﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ أي: من يتوكل على ما شرعه، ويفوض أمره إلى ما جعله المخرج، فهو كافيه، لأنه لا دواء أنجح منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ قرئ بالإضافة، أي يبلغ ما من أمره، فمن تيقن ذلك فوض أمره إليه، وعول عليه. وقرئ «إن اللَّه بالغٌ أمرَه» أي تام وكامل أمره وحكمه وشرعه، لما فيه من الحكم والرحمة. ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ أي حدا وتقديرا، حسبما تقتضيه الحكمة. ومنه تقديره ما قدر في أمر الطلاق، مما بينه في شأنه وتوقيته، ومعرفة المخرج منه»[2].

قال شيخ الإسلام: «هذه الآية مطابقة لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3] الجامعة لعلم الكتب الإلهية كلها؛ وذلك أن التقوى هي العبادة المأمور بها فإن تقوى اللَّه وعبادته وطاعته أسماء متقاربة متكافئة متلازمة والتوكل

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٣٩-١٤٠).
(٢) محاسن التأويل (١٦/ ١٩٩).
(٣) الفاتحة: الآية (٥).

عليه هو الاستعانة به فمن يتق اللّه مثال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن يتوكل على اللّه مثال: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما قال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[(١)] وقال: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾[(٢)] وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[(٣)]. ثم جعل للتقوى فائدتين: أن يجعل له مخرجا، وأن يرزقه من حيث لا يحتسب. والمخرج هو موضع الخروج وهو الخروج وإنما يطلب الخروج من الضيق والشدة وهذا هو الفرج والنصر والرزق فبين أن فيها النصر والرزق كما قال: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾[(٤)] ولهذا قال النبي ﷺ: «**وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟ بدعائهم، وصلاتهم، واستغفارهم**»[(٥)] هذا لجلب المنفعة، وهذا لدفع المضرة. وأما التوكل فبين أن اللّه حسبه أي كافيه، وفي هذا بيان التوكل على اللّه من حيث إن اللّه يكفي المتوكل عليه كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[(٦)] خلافا لمن قال: ليس في التوكل إلا التفويض والرضا. ثم إن اللّه بالغ أمره ليس هو كالعاجز. ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾»[(٧)].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي: منفذ قضاياه، وأحكامه في خلقه، بما يريده ويشاؤه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، كقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[(٨)]»[(٩)].

قال عطية محمد سالم: «قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾:

بعد الأمر بإحصاء العدة، وكون العدد مختلفة الأنواع من أقراء إلى أشهر إلى وضع الحمل، والمعتدات متفاوتات الأقراء وأمد الحمل، فقد تكون في أوله أو وسطه أو آخره، وكل ذلك لا بد من إحصائه لما يترتب عليه من حرمة وحلية، فتخرج من عدة هذا وتحل لذاك. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾[(١٠)] وهذا كله لا يتأتى إلا بالإحصاء. والإحصاء لا يكون

(١) هود: الآية (١٢٣).
(٢) الممتحنة: الآية (٤).
(٣) هود: الآية (٨٨).
(٤) قريش: الآية (٤).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٣)، والبخاري (٦/ ٨٨/ ٢٨٩٦)، والنسائي (٦/ ٣٥٢/ ٣١٧٨) من حديث سعد بن مالك.
(٦) الزمر: الآية (٣٦).
(٧) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٥و٥٦).
(٨) الرعد: الآية (٨).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٤).
(١٠) البقرة: الآية (٢٣٥).

إلا لمقدر معلوم، وعليه فقوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ مؤكد لهذا كله، وكذلك فيه نص صريح أنه تعالى قد جعل لكل شيء من الأشياء أيًا كان هو قدرًا لا يتعداه لا بزيادة ولا بنقص، ولفظ شيء أعم العمومات.

وقد جاءت آيات كثيرة دالة على هذا العموم عامة وخاصة، فمن الآيات العامة قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1]، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[2] وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[3].

وقد جمع العام والخاص قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[4]، ومن التقدير الخاص في مخصوص قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[5].

إنها قدرة باهرة، وحكمة بالغة، وإرادة قاهرة، وسلطة غالبة، قدرة من أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

وقد قال علماء الهيئة: إن حساب مسير هذه الأفلاك في منازلها أدق ما يكون من مآت أجزاء الثانية، ولو اختلف جزء من الثانية لاختل نظام العالم، ولما صلحت على وجه الأرض حياة، ونحن نشاهد حركة الليل والنهار ونقصانهما وزيادتهما وفصول السنة كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[6]، وهو ﷻ يحصيه، وكذلك التقدير لوجود الإنسان قبل وبعد وجوده، قال تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾[7] أي: قدر خلقه وصورته ونوعه، كما بين ذلك بقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[8].

وهذا أيضًا من آيات قدرته يرد بها سبحانه على من جحد وجود الله

(١) القمر: الآية (٤٩).
(٢) الفرقان: الآية (٢).
(٣) الرعد: الآية (٨).
(٤) الحجر: الآية (٢١).
(٥) يس: الآيات (٣٨-٤٠).
(٦) المزمل: الآية (٢٠).
(٧) عبس: الآيتان (١٨و١٩).
(٨) الشورى: الآيتان (٤٩و٥٠).

وكفر بالبعث، كما في مستهلها قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[1]، ثم بين تعالى أنه خلقه من نطفة ماء مهين، ولكن قدر اللّه تعالى قدرتها وصورتها حتى صارت خلقًا سويًا، وجعل له وهو في بطن أمه عينين ولسانًا وشفتين أي وأنفًا وأذنين ويدين ورجلين، وكل جهاز فيه حير الحكماء في صنعه ونظامه، ثم قدر تعالى أرزاقه على الأرض قبل وجوده يوم خلق الأرض، وجعله آية على قدرته وعاتب الإنسان على كفره: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[2]، وبعد وجود الكون وخلق الإنسان قدر في الإيجاد بإنزال المطر، ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾[3]. ثم إن صب هذا الماء كان بقدر، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ ﴾[4].

وقوله: ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[5] أي: بقدر ما يصلحهم ولو زاده لفسد حالهم، كما في قوله قبلها: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ ﴾[6]، وبقدر مصلحتهم ينزل لهم أرزاقهم. كما نبه على ذلك بقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[7] هذه لمحة عن حكمة تقدير العزيز الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه، والذي قدر الأشياء قبل وجودها كما في قوله: ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[8]، وكما في حديث القلم[9] وكتابة كل شيء قبل وجوده بزمانه ومكانه ومقداره، إن آية القدرة وبيان قدرة الخالق وعجز المخلوق كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[10] وكقوله: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ

---

(١) عبس: الآيتان (١٧و١٨).

(٢) فصلت: الآيتان (٩و١٠).

(٣) عبس: الآيات (٢٤-٢٨).

(٤) المؤمنون (١٨).

(٥) الشورى: الآية (٢٧).

(٦) الشورى: الآية (٢٧).

(٧) العلق: الآيتان (٦و٧).

(٨) الأعلى: الآية (٣).

(٩) أخرجه: ابن جرير (٢٩/ ١٤)، والحاكم (٢/ ٤٩٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣)، وفي الأسماء والصفات (٤٨١)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٨٠) من حديث ابن عباس ﷺ بلفظ: «إن أول شيء خلق اللّه القلم. . .».

(١٠) النحل: الآية (٦١).

مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ ﴾[١] أي: لا يتعداه ولا يتخطاه، وقد تحداهم اللَّه في ذلك بقوله: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[٢] كلا إنهم مدينون، ولن يستطيعوا إرجاعها.

وهنا يقال للدهريين والشيوعيين الذين لا يعترفون بوجود فاعل مختار وعزيز قهار، إن هذا الكون بتقديراته ونظمه لآية شاهدة وبينة عادلة على وجود اللَّه ﷻ: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٣] كما يقال للمؤمنين أيضًا إن ما قدره اللَّه نافذ، وما قدر للعبد آتيه، وما لم يقدر له لن يصل إليه، طويت الصحف وجفت الأقلام ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ ﴾[٤] ويقال مرة أخرى: اعملوا كل ميسر لما خلق له، وباللَّه تعالى التوفيق»[٥].

قال ابن القيم: «جعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على اللَّه فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٦] فالتوكل والحسب بدون قيام كان مشوبًا بنوع من التوكل فهو توكل عجز فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزا، ولا يجعل عجزه توكلا؛ بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ومن ههنا غلط طائفتان من الناس إحداهما: زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كاف في حصول المراد، فعطلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة اللَّه الموصلة إلى مسبباتها، فوقعوا في نوع تفريط وعجز بحسب ما عطلوا من الأسباب، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب فجمعوا الهم كله وصيروه هما واحدا، وهذا وإن كان فيه قوة من هذا الوجه ففيه ضعف من جهة أخرى، فكلما قوي جانب التوكل بإفراده أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل فإن التوكل محله الأسباب وكماله بالتوكل على اللَّه فيها، وهذا كتوكل الحراث الذي شق الأرض وألقى فيها البذر فتوكل على اللَّه في زرعه وإنباته فهذا قد أعطى التوكل

---

(١) فاطر: الآية (١١).

(٢) الواقعة: الآيات (٨٣-٨٧).

(٣) يس: الآية (٨٣).

(٤) الحديد: الآية (٢٣).

(٥) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٦٠-٣٦٤).

(٦) المائدة: الآية (١١).

حقه ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بورا، وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جده في السير وتوكل الأكياس من النجاة من عذاب اللَّه والفوز بثوابه مع اجتهادهم في طاعته فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره ويكون اللَّه حسب من قام به. وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره وليس اللَّه حسب صاحبه فإن اللَّه إنما يكون حسب المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها، لا إضاعتها.

والطائفة الثانية التي قامت بالأسباب، ورأت ارتباط المسببات بها شرعا وقدرا، وأعرضت عن جانب التوكل، وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته فليس لها قوة أصحاب التوكل ولا عون اللَّه لهم وكفايته إياهم ودفاعه عنهم؛ بل هي مخذولة عاجزة بحسب ما فاتها من التوكل. فالقوة كل القوة في التوكل على اللَّه كما قال بعض السلف: «من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله» فالقوة مضمونة للمتوكل والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل، ولابد أن يجعل اللَّه له مخرجًا من كل ما ضاق على الناس، ويكون اللَّه حسبه وكافيه»[(1)].

وقال أيضا: «لما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله: ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ أي: وقتا لا يتعداه فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له.

فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت، ودعوت فلم أر شيئا ولم تحصل لي الكفاية، فاللَّه بالغ أمره في وقته الذي قدره له»[(2)].

قال السعدي: «التوكل على اللَّه من أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحسب قوة توكل العبد على اللَّه يقوى إيمانه، ويتم توحيده، والعبد مضطر إلى التوكل على اللَّه، والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه.

وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار، المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) إعلام الموقعين (٤/ ١٦١).

إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة. فمتى استدام العبد هذا العلم، وهذا الاعتماد، والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله، وتعلق به وكل إليه، وخاب أمله»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن التوكل من الفرائض، وأنه من شروط الإيمان

* عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا، وتروح بطانًا**»[2].

⋆ **غريب الحديث:**

تغدو: أي تذهب أول النهار.

خماصا: بكسر الخاء المعجمة. جمع خميص أي: جياعا.

تروح: أي ترجع آخر النهار.

بطانا: بكسر الموحدة. جمع بطين وهو: عظيم البطن، والمراد شباعا.

* عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل**»[3].

⋆ **غريب الحديث:**

فاقة: أي حاجة شديدة، وأكثر استعمالها في الفقر وضيق المعيشة.

---

(١) القول السديد (٩١-٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٤/ ٤٩٥/ ٢٣٤٤) واللفظ له وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (التحفة (٨/ ٧٩/ ١٠٥٨٦)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٤/ ٤١٦٤)، والحاكم (٤/ ٣١٨)، وابن حبان: [الإحسان (٢/ ٥٠٩/ ٧٣٠)].

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠٧)، وأبو داود (٢/ ٢٩٦/ ١٦٤٥)، والترمذي (٤/ ٤٨٧-٤٨٨/ ٢٣٢٦) واللفظ له وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب». والحاكم (١/ ٤٠٨) وصححه ووافقه الذهبي.

أنزلها بالناس: أي عرضها عليهم، أو أظهرها لهم لطريق الشكاية لهم وطلب إزالة فاقة منهم.

* عن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب: هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»[1].

★ غريب الحديث:

لا يسترقون: أي: لا يسألون غيرهم أن يرقيهم.

ولا يتطيرون: أي: لا يتشاءمون بالطيور ونحوها.

★ فوائد الأحاديث:

في هذه الأحاديث من الفوائد:

١- بيان فضيلة التوكل، ومنزلته في الإسلام، وبيان أنه «من أعظم الأسباب التي تستجلب بها المنافع، وتدفع بها المضار»[2]. «فهو عنوان سعادة المرء وفلاحه في الدنيا والآخرة، وهو ملجأ الرسل ومعاذهم، به انتصروا على أعدائهم، وبتحقيقه على وجه الكمال دخل أهل الجنة الجنة بسلام من غير حساب ولا عذاب»[3]. وبالجملة «فالتوكل مركب السائر الذي لا يتأتى له السير إلا به، ومتى نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته»[4]. فهو «أصل لجميع مقامات الإيمان، والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، ومنزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل»[5].

٢- بيان حقيقة التوكل، وحده، ورسمه:

قال القاضي عياض: «قال الطبري وغيره: اختلف الناس في التوكل ما هو؟

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١)، والبخاري (١١/ ٣٦٩/ ٦٤٧٢) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠/ ٢٢٠)، والترمذي (٤/ ٥٤٤-٥٤٥/ ٢٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٧٨/ ٧٦٠٤).

(٢) من كلام ابن رجب في لطائف المعارف ص (٧٣) بتصرف يسير.

(٣) مستفاد من كلام ابن القيم في مواطن متفرقة في المدارج (٢/ ١١٢-١٣٩).

(٤) من كلام ابن القيم في طريق الهجرتين ص (٢٥٥).

(٥) من كلام ابن القيم في طريق الهجرتين ص (٢٥٧) بتصرف يسير.

فذهبت طائفة إلى أنه لا يستحق اسمه إلا من لم يخالط قلبه غير اللَّه من سَبُع أو عدو، حتى يترك السعي في طلب الرزق فيما لا بد منه من مطعم ومشرب لضمان اللَّه رزقه، واحتجوا بما جاء في ذلك من الآثار. وقالت طائفة: حده: الثقة باللَّه والإيمان بأن قضاءه ماض، واتباع سنة نبيه في السعي فيما لا بد منه من مطعم ومشرب والتحرز من العدو، كما فعل ﷺ، وفعله الأنبياء. فقد نص اللَّه تعالى عنهم الخوف والكسب والتحرز عن عداهم، وعن نبينا مثله في ادخار قوت سنته وتطببه، وفعل ذلك جلة أصحابه، وهذا اختيار الطبري وعامة الفقهاء»[١].

وقال في تيسير العزيز الحميد تعليقًا على حديث ابن عباس: «واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلا كما يظنه الجهلة؛ فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم؛ بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه؛ إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلا على اللَّه كالاسترقاء والاكتواء، فتركهم له ليس لكونه سببا لكن لكونه سببًا مكروهًا، لاسيما والمريض يتشبث بما يظنه سببا لشفائه بخيط العنكبوت، أما نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهية فيه فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعا كما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا: «**ما أنزل اللَّه من داء إلا أنزل له شفاء**»[٢]، وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول اللَّه أنتداوى؟ فقال: «**نعم، يا عباد اللَّه تداووا فإن اللَّه ﷻ لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد**» قالوا: ما هو؟ قال: «**الهرم**» رواه أحمد[٣]. قال ابن القيم فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها، والأمر بالتداوي. وأنه لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع داء الجوع، والعطش، والحر، والبرد بأضدادها؛ بل لا تتم حقيقة التوحيد

(١) إكمال المعلم (١/ ٦٠٣-٦٠٤).

(٢) تفرد بإخرجه: البخاري (١٠/ ١٦٦/ ٥٦٧٨) دون مسلم، وابن ماجه (٢/ ١١٣٨/ ٣٤٣٩)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٩/ ٧٥٥٥).

(٣) (٤/ ٢٧٨)، وأبو داود (٤/ ١٩٢/ ٣٨٥٥)، والترمذي (٤/ ٣٨٣/ ٢٠٣٨) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١١٣٧/ ٣٤٣٦).

إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها اللَّه مقتضيات لمسبباتها قدرا وشرعا؛ وأن تعطيلها يقدح بمباشرته في نفس التوكل كما يقدح في الأمر والحكمة ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل؛ فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على اللَّه في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلا كان معطلا للأمر، والحكمة، والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزا»[(١)].

قال الحافظ: «وقد سئل أحمد عن رجل جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعمل شيئًا حتى يأتيني رزقي، فقال: هذا رجل جهل العلم، فقد قال النبي ﷺ: **«إن اللَّه جعل رزقي تحت ظل رمحي»**[(٢)]، وقال: **«لو توكلتم على اللَّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا»** فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق. قال: وكان الصحابة يتجرون ويعملون في نخيلهم، والقدوة بهم»[(٣)].

وقال الساعاتي في قوله: «لم تسد فاقته» أي: لتركه القادر على حوائج جميع الخلق الذي لا يغلق بابه، وقد قال وهب بن منبه لرجل يأتي الملوك: «ويحك أتأتي من يغلق عنك بابه، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه نصف الليل ونصف النهار ويظهر لك غناه؟». فالعبد عاجز عن جلب مصالحه ودفع مضاره، وليس معين له على مصالح دينه ودنياه إلا اللَّه ﷻ»[(٤)].

قال شيخ الإسلام: «وما رجا أحد مخلوقا، ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه»[(٥)].

* عن ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[(٦)] قالها إبراهيم ﵇ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[(٧)].

---

(١) ص (٨٦-٨٧).

(٢) ذكره البخاري في صحيحه تعليقا بصيغة التمريض (٦/ ١٢٢)، ووصله أحمد (٢/ ٥٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣١٣) وحسن إسناده الشيخ الألباني في الإرواء (٥/ ١٠٩) من حديث ابن عمر ﵄.

(٣) فتح الباري (١/ ٣٧٠).

(٤) الفتح الرباني (١٩/ ٩٨).

(٥) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧٠).

(٦) آل عمران: الآية (١٧٣).

(٧) البخاري (٨/ ٢٨٩/ ٤٥٦٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٦/ ١١٠٨١).

* عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول اللَّه ﷺ يوما فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل اللَّه، وإذا استعنت فاستعن باللَّه. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف**»[١].

★ **فوائد الحديثين:**

قال في تيسير العزيز الحميد: «قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا فلا نتوكل إلا عليه كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٢].

قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: نعم الموكول إليه المتوكل عليه كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[٣]، فقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة التوكل على اللَّه والالتجاء إليه. قال ابن القيم: وهو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه، واستنصر به، وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه تولاه، وحفظه، وحرسه، وصانه، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع. قوله: «قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار»، في رواية عن ابن عباس قال: «كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل» رواه البخاري[٤]، وقد ذكر اللَّه القصة في سورة الأنبياء عليهم السلام.

قوله: «وقالها محمد ﷺ» إلى آخره، وذلك بعدما كان من أمر أحد ما كان بلغ النبي ﷺ وأصحابه إن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم فخرج النبي ﷺ ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وسعد، وطلحة، وعبد الرحمن

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣)، والترمذي (٤/ ٥٧٥-٥٧٦/ ٢٥١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
(٢) الزمر: الآية (٣٦).
(٣) الحج: الآية (٧٨).
(٤) (٨/ ٢٨٩-٢٩٠/ ٤٥٦٤).

ابن عوف، وحذيفة بن اليمان، وعبد اللّه بن مسعود، وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين راكبا حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثلاثة أميال، ثم ألقى اللّه الرعب في قلب أبي سفيان فرجع إلى مكة، ومر به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد المدينة. قال: فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها إليه؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول اللّه ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقال: حسبنا اللّه ونعم الوكيل. والقصة مشهورة في السير والتفاسير[١]. ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام في الشدائد.. وأن القيام بالأسباب مع التوكل على اللّه لا يتنافيان؛ بل يجب على العبد القيام بهما كما فعل الخليلان عليهما الصلاة والسلام»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واللّه فرض على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٣]، وقال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[٤]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٥].. والمقصود: أن اللّه لم يأمر بالتوكل فقط؛ بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر وترك ما حذر، فمن ظن أنه يرضي ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به كان ضالا، كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضي اللّه عليه دون التوكل كان ضالا؛ بل فعل العبادة التي أمر اللّه بها فرض. وإذا أطلق لفظ العبادة دخل فيها التوكل، وإذا قرن أحدهما بالآخر كان للتوكل اسم يخصه، كما في نظائر ذلك مثل التقوى وطاعة الرسول؛ فإن «التقوى» إذا أطلقت دخل فيها طاعة الرسول، وقد يعطف

---

(١) قصة «حمراء الأسد» أخرجها: النسائي في الكبرى (٦/ ٣١٧/ ١١٠٨٣)، والطبراني (١١/ ٢٤٧/ ١١٦٣٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢٤) وقال بعد عزوه للطبراني: «ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة». وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٨٩): «ورجاله رجال الصحيح، إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس. ومن الطريق المرسلة أخرجه ابن أبي حاتم وغيره».

(٢) ص (٥١٧-٥١٨).

(٣) هود: الآية (١٢٣).

(٤) المزمل: الآيتان (٨و٩).

(٥) الطلاق: الآيتان (٢و٣).

أحدهما على الآخر كقول نوح عليه السلام: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وكذلك قوله: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾[١] وأمثال ذلك. وقد جمع اللّه بين عبادته والتوكل عليه في مواضع كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[٢] وقول شعيب ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٣] فإن الإنابة إلى اللّه والمتاب هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته، وطاعة رسوله، والعبد لا يكون مطيعا لله ورسوله فضلا أن يكون من خواص أوليائه المتقين- إلا بفعل ما أمر به وترك ما نهي عنه، ويدخل في ذلك التوكل. وأما من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره اللّه.

وهذه المسألة مما سئل عنها رسول اللّه ﷺ كما في الصحيحين عنه ﷺ قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة والنار**». فقيل: يا رسول اللّه، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: «**لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[٤]، وكذلك في الصحيحين عنه أنه قيل له: «أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون أفيما جفت الأقلام وطويت الصحف؟»[٥]، ولما قيل له: أفلا نتكل على الكتاب؟ قال: «**لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، وبين ﷺ أن الأسباب المخلوقة والمشروعة هي من القدر فقيل له: أرأيت رقى نسترقي بها؟ وتقى نتقي بها؟ وأدوية نتداوى بها هل ترد من قدر اللّه شيئا؟ فقال: «**هي من قدر الله**»[٦].

فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع؛ فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على اللّه لا على سبب من الأسباب، واللّه ييسر له من

---

(١) الأحزاب: الآية (٧٠). (٢) الرعد: الآية (٣٠).

(٣) هود: الآية (٨٨).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ١٣٢-١٣٣)، والبخاري (٨/ ٩١٩/ ٤٩٤٩)، ومسلم (٤/ ٣٠٣٩/ ٢٦٤٧)، وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤)، والترمذي (٤/ ٣٨٨/ ٢١٣٦)، وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨) من حديث علي رضي الله عنه.

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٤١/ ٢٦٥٠) من طريق أبي الأسود الدئلي عن عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٦) أخرجه: من طرق عن ابن أبي خزامة عن أبيه: أحمد (٣/ ٤٢١)، والترمذي (٤/ ٣٤٩/ ٢٠٦٥) وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه (٢/ ١١٣٧/ ٣٤٣٧)، وحسنه الشيخ الألباني في تخريج أحاديث مشكلة الفقر ص (١٣-١٥).

الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على اللَّه كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح، ويلبس جنة الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن باللَّه، ولا تعجزن؛ وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر اللَّه وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»**[1]، وفي سنن أبي داود «أن رجلين تحاكما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما، فقال المقضي عليه: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، فقال ﷺ: **إن اللَّه يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس؛ فإن غلبك أمر فقل: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل**»[2]. وقد تكلم الناس في حمل الزاد في الحج وغيره من الأسفار، فالذي مضت عليه سنة رسول اللَّه ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان، وأكابر المشايخ هو حمل الزاد، لما في ذلك من طاعة اللَّه ورسوله وانتفاع الحامل ونفعه للناس. وزعمت «طائفة» أن من تمام التوكل ألا يحمل الزاد، وقد رد الأكابر هذا القول كما رده الحارث المحاسبي في (كتاب التوكل)، وحكاه عن شقيق البلخي، وبالغ في الرد على من قال بذلك، وذكر من الحجج عليهم ما يبين به غلطهم، وأنهم غالطون في معرفة حقيقة التوكل، وأنهم عاصون لله بما يتركون من طاعته، وقد حكي لأحمد بن حنبل أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان إذا وضع له الطعام لم يمد يده حتى يوضع في فمه، وإذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا فيه الطعام، فأنكر ذلك أشد الإنكار، ومن هؤلاء من حرم المكاسب، وهذا وأمثاله من قلة العلم بسنة اللَّه في خلقه وأمره؛ فإن اللَّه خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسبابًا ينالون بها مغفرته ورحمته

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٢/ ٢٦٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٩/ ١٠٤٥٧) وابن ماجه (١/ ٣١/ ٧٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٤و٢٥)، وأبو داود (٤/ ٤٤-٤٥/ ٣٦٢٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٦٠/ ١٠٤٦٢) من حديث عوف بن مالك ﷺ؛ وإسناده ضعيف؛ لأن فيه بقية بن الوليد وهو ضعيف، وسيفا الشامي وهو مجهول، فقد تفرد بالرواية عنه خالد بن معدان قال النسائي: لا أعرفه، وكذا قال الذهبي في الميزان: لا يعرف.

وثوابه في الدنيا والآخرة، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره اللَّه به من الأسباب يحصل مطلوبه، وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها اللَّه أسبابا لها فهو غالط، فاللَّه سبحانه وإن كان قد ضمن للعبد رزقه وهو لا بد أن يرزقه ما عمر فهذا لا يمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب تحصل من فعل العبد وغير فعله. وأيضا فقد يرزقه حلالا وحراما، فإذا فعل ما أمره به رزقه حلالا، وإذا ترك ما أمره به فقد يرزقه من حرام. ومن هذا الباب الدعاء والتوكل، فقد ظن بعض الناس أن ذلك لا تأثير له في حصول مطلوب ولا دفع مرهوب ولكنه عبادة محضة ولكن ما حصل به حصل بدونه. وظن آخرون أن ذلك مجرد علامة.

والصواب الذي عليه السلف والأئمة والجمهور أن ذلك من أعظم الأسباب التي تنال بها سعادة الدنيا والآخرة. وما قدره اللَّه بالدعاء والتوكل والكسب وغير ذلك من الأسباب إذا قال القائل: فلو لم يكن السبب ماذا يكون بمنزلة من يقول: هذا المقتول لو لم يقتل هل كان يعيش؟ وقد ظن بعض القدرية أنه كان يعيش، وظن بعض المنتسبين إلى السنة أنه كان يموت.

والصواب أن هذا تقدير لأمر علم اللَّه أنه يكون، فاللَّه قدر موته بهذا السبب فلا يموت إلا به كما قدر اللَّه سعادة هذا في الدنيا والآخرة بعبادته، ودعائه، وتوكله، وعمله الصالح، وكسبه، فلا يحصل إلا به، وإذا قدر عدم هذا السبب لم يعلم ما يكون المقدر، وبتقدير عدمه فقد يكون المقدر حينئذ أنه يموت وقد يكون المقدر أنه يحيى والجزم بأحدهما خطأ. ولو قال القائل: أنا لا آكل ولا أشرب فإن كان اللَّه قدر حياتي فهو يحييني بدون الأكل والشرب كان أحمق، كمن قال: أنا لا أطأ امرأتي فإن كان اللَّه قدر لي ولدا تحمل من غير ذكر»[1].

قال ابن القيم: «والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق، وظلمهم، وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك؛ فإن اللَّه حسبه أي كافيه، ومن كان اللَّه كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر، والبرد، والجوع، والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٦-٥٣١).

إحسان إليه وإضرار بنفسه وبين الضرر الذي يتشفى به منه. قال بعض السلف: جعل الله تعالى لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال؛ بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجا من ذلك، وكفاه ونصره»[2].

وقد تقدم الكلام على هذا الحديث عند قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[3].

* * *

(١) الطلاق: الآية (٣).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٩-٢٤٠).
(٣) الآية (٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾

★ غريب الآية:

ارتبتم: شككتم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «لما بين أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض، وكانوا قد عرفوا عدة ذوات الأقراء، عرفهم في هذه السورة عدة التي لا ترى الدم»[1].

وقال السعدي: «لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء، ذكر العدة، فقال: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يرج رجوعه، فعدتهن ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر مقابلة حيضة. ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ أي: الصغار، اللائي لم يأتهن الحيض بعد، والبالغات اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن كالآيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللائي يحضن، فذكر اللَّه عدتهن في قوله: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾[2]»[3].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مبيّنا لعدة الآيسة وهي التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها، أنها ثلاثة أشهر عوضًا عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة، وكذلك الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر، ولهذا قال: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾.

وقوله: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ فيه قولان: أحدهما: وهو قول طائفة من السلف كمجاهد، والزهري، وابن زيد أي: إن رأين دمًا وشككتم في كونه حيضًا، أو

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٦٢).

(٢) البقرة: الآية (٢٢٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٢).

استحاضة وارتبتم فيه.

والقول الثاني: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر، وهذا مروي عن سعيد بن جبير وهو اختيار ابن جرير وهو أظهر في المعنى، واحتج عليه بما رواه عن أبي كريب وأبي السائب[١] »[٢].

قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال: عني بذلك: إن ارتبتم فلم تدروا ما الحكم فيهن، وذلك أن معنى ذلك لو كان كما قاله من قال: إن ارتبتم بدمائهن فلم تدروا أدمٌ حيض أو استحاضة؟ لقيل: إن ارتبتن؛ لأنهن إذا أشكل الدماء عليهن فهن المرتبات بدماء أنفسهن لا غيرهن، وفي قوله: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ وخطابه الرجال بذلك دون النساء الدليل الواضح على صحة ما قلنا من أن معناه: إن ارتبتم أيها الرجال بالحكم فيهن، وأخرى وهو أنه -جل ثناؤه- قال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ واليائسة من المحيض هي التي لا ترجو محيضًا للكبر، ومحال أن يقال: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾ ثم يقال: ﴿ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ بيأسهن لأن اليأس هو انقطاع الرجاء، والمرتاب بيأسها مرجو لها، وغير جائز ارتفاع الرجاء ووجوده في وقت واحد، فإذا كان الصواب من القول في ذلك ما قلنا، فبينٌ أن تأويل الآية: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ بالحكم فيهن وفي عددهن فلم تدروا ما هن، فإن حكم عِددهن إذا طلقن وهن ممن دخل بهن أزواجهن فعدتهن ثلاثة أشهر. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ يقول: وكذلك عدد اللائي لم يحضن من الجواري لصغر إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول»[٣].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ -يعني الصغيرة- فعدتهن ثلاثة أشهر، فأضمر الخبر. وإنما كانت عدتها بالأشهر لعدم الإقراء فيها عادة، والأحكام إنما أجراها اللّه تعالى على العادات، فهي تعتد بالأشهر.

فإذا رأت الدم في زمن احتماله عند النساء انتقلت إلى الدم لوجود الأصل، وإذا وجد الأصل لم يبق للبدل حكم، كما أن المسنة إذا اعتدت بالدم ثم ارتفع عادت إلى

---

(١) يعني حديث الباب (حديث أبي بن كعب) الآتي ذكره.
(٢) التفسير (٨/ ١٧٥).
(٣) جامع البيان (٢٨/ ١٤١-١٤٢).

الأشهر، وهذا إجماع»[١].

قال محمد المكي الناصري: «يقتضي أن المرأة إذا يئست من الحيض لكبرها وانقطاع الحيض عنها فإن عدتها إذا طلقها زوجها تنحصر في ثلاثة أشهر، وذلك بدلا من (الثلاثة قروء) المقررة في حق المرأة التي تحيض، حسبما سبق في سورة البقرة (٢٢٨)، كما أن المرأة الصغيرة التي لم تبلغ سن الحيض إذا كانت متزوجة وفارقها زوجها فإن عدتها تنحصر في ثلاثة أشهر أيضا مثل عدة الكبيرة الآيسة سواء بسواء.

وقوله تعالى هنا: ﴿ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ معناه: إن ارتبتم في حكم عدتهن ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن أبي بن كعب ﷺ قال: لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد من عدد النساء قالوا: قد بقي عدد من عدد النساء لم يذكرن: الصغار والكبار، ولا من انقطعت عنهن الحيض، وذوات الأحمال، فأنزل اللَّه ﷻ الآية التي في سورة النساء: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ ﴾[٣].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٠٩).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٥٦).

(٣) أخرجه: ابن جرير في التفسير (٢٨/ ١٤١)، والحاكم (٢/ ٤٩٢-٤٩٣) وصححه ووافقه الذهبي. والبيهقي (٧/ ٤٢٠).

قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾ وضع الحمل، وإن كان ظاهرا في المطلقة لأنه عليها عطف وإليها رجع عقب الكلام، فإنه في المتوفى عنها زوجها كذلك، لعموم الآية وحديث سبيعة»[1].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يقول تعالى: ومن كانت حاملا فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوَاق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية. وقد رُوي عن علي، وابن عباس، ﷺ أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر، عملا بهذه الآية الكريمة، والتي في سورة «البقرة»[2].

وقال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك أنه عامّ في المطلقات والمتوفى عنهنّ، لأن اللَّه جلّ وعزّ عمّ بقوله بذلك فقال: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ولم يخصص بذلك الخبر عن مطلقة دون متوفى عنها، بل عمّ الخبر به عن جميع أولات الأحمال، إن ظنّ ظانّ أن قوله: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ في سياق الخبر عن أحكام المطلقات دون المتوفى عنهنّ، فهو بالخبر عن حكم المطلقة أولى بالخبر عنهنّ، وعن المتوفى عنهنّ، فإن الأمر بخلاف ما ظنّ، وذلك أن ذلك وإن كان في سياق الخبر عن أحكام المطلقات، فإنه منقطع عن الخبر عن أحكام المطلقات، بل هو خبر مبتدأ عن أحكام عدد جميع أولات الأحمال المطلقات منهنّ وغير المطلقات، ولا دلالة على أنه مراد به بعض الحوامل دون بعض من خبر ولا عقل، فهو على عمومه لما بيّنا»[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٠٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٥).

(٣) جامع البيان (٢٨/ ١٤٤).

وقال السعدي: «وقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي: عدتهن ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها»[١].

قال عطية محمد سالم: «قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيه إطلاق لوضع الحمل على أي صفة كان هو، وأجمع العلماء على أن يصدق بوضعه حيا أو ميتا، ولكن اشترط فيه أن يكون قد ظهرت فيه خلقة الإنسان لا مضغة ولا علقة، كما أن فيه إطلاق الأجل سواء للمطلقة أو المتوفى عنها من أنه ينقضي أجل الحوامل بوضع الحمل»[٢].

قال ابن عاشور: «جعلت عدة المطلقة الحامل منهَّاة بوضع الحمل لأنه لا أدل على براءة الرحم منه، إذ الغرض الأول من العدة تحقق براءة الرحم من ولدٍ للمطلِّق أو ظهور اشتغال الرحم بجنين له. وضمّ إلى ذلك غرض آخر هو ترقب ندم المطلق وتمكينه من تدارك أمره بالمراجعة، فلما حصل الأهم أُلغي ما عداه رعْيًا لحق المرأة في الانطلاق من حرج الانتظار، على أن وضع الحمل قد يحصل بالقرب من الطلاق فألغي قصد الانتظار تعليلًا بالغالب دون النادر، خلافًا لمن قال في المتوفى عنها: عليها أقصى الأجلين وهو منسوب إلى علي بن أبي طالب وابن عباس.

وبهذا التفسير لا تتعارض هذه الآية مع آية عدة المتوفى عنها التي في سورة ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[٣] لأن تلك في وادٍ وهذه في وادٍ، تلك في شأن المتوفى عنهن وهذه في شأن المطلقات. ولكن لما كان أجل أربعة أشهر وعشر للمتوفى عنها منحصرةً حكمتُه في تحقق براءة رحم امرأة المتوفى من ولدٍ له إذ له فائدة فيه غيرَ ذلك (ولا يتوهم أن الشريعة جعلت ذلك لغرض الحزن على الزوج المتوفى للقطع بأن هذا مقصد جاهلي)، وقد دلت الشريعة في مواضع على إبطاله والنهي عنه في تصاريف كثيرة كما بينّاه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ الخ في سورة البقرة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٢).

(٢) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٦٤و٣٦٥).

(٣) البقرة: الآية (٢٣٤).

وقد علمنا أن وضع الحمل غاية لحصول هذا المقصد نجم من جهة المعنى أن المتوفى عنها الحاملَ إذا وضعت حملها تخرج من عدة وفاة زوجها ولا تقضي أربعة أشهر وعشرًا كما أنها لو كان أمد حملها أكثر من أربعة أشهر وعشر لا تقتصر على الأربعة الأشهر وعشر إذ لا حكمة في ذلك. من أجْل ذلك كانت الآية دالة على أن عدة الحامل وضع حملها سواء كانت معتدة من طلاق أم كانت معتدة من وفاة.

ومن أجل ذلك قال جمهور أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم: إن عدة الحامل المتوفّى عنها كعدتها من الطلاق وضع حملها غير أن أقوالهم تدل على أن بينهم من كانوا يرون في تعارض العمومين أن العامّ المتأخر منهما ينسخ العامّ الآخر وهي طريقة المتقدمين..

واختلف المتأخرون من أهل الأصول في وجه العمل في تعارض عمومين كل واحد منهما عام من وجه مثل هاتين الآيتين، فالجمهور درجوا على ترجيح أحدهما بمُرجح، والحنفية جعلوا المتأخِر من العمومين ناسخًا للمتقدم. فقوله: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ لأن الموصول من صيغ العموم فيعم كل حامل معتدة سواء كانت في عدة طلاق أو في عدة وفاة، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ تَعمّ كلّ امرأة تركها الميت سواء كانت حاملًا أو غير حامل، لأن ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ نكرة وقعت مفعولَ الصلة وهي ﴿وَيَذَرُونَ﴾ المشتملة على ضمير المَوصول الذي هو عام فمفعوله تبع له في عمومه فيشمل المتوفى عنهن الحوامل وهن ممن شملهن عموم ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ فتعارض العمومان كل من وجه، فآية ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ اقتضت أن الحوامل كلهن تنتهي عدتهن بالوضع وقد يكون الوضع قبل الأربعة الأشهر والعشر، وآية البقرة يقتضي عمومها أن المتوفّى عنهن يتربصن أربعة أشهر وعشرًا. وقد يتأخر هذا الأجل عن وضع الحمل. فذهب الجمهور إلى ترجيح عموم ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ على عموم ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ من وجوه:

أحدها: أن عموم ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ حاصل بذات اللفظ لأن الموصول مع صلته من صيغ العموم، وأما قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ فإن ﴿ أَزْوَٰجًا ﴾ نكرة في سياق الإثبات فلا عموم لها في لفظها وإنما عرض لها العموم تبعًا لعموم الموصول العامل فيها وما كان عمومه بالذات أرجح مما كان عمومه بالعرض.

وثانيها: أن الحكم في عموم ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ علق بمدلول صلة الموصول وهي مشتق، وتعليق الحكم بالمشتق يؤذن بتعليل ما اشتق منه بخلاف العموم الذي في سورة البقرة، فما كان عمومه معلَّلًا بالوصف أرجح في العمل مما عمومه غير معلل.

وثالثها: قضاء رسول اللَّه ﷺ في عدّة سُبَيْعة الأسلمية. وذهب الحنفية إلى أن عموم ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ ﴾ ناسخ لعموم قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾[(١)] في مقدار ما تعارضا فيه.

ومآل الرأيين واحد هو أن عدة الحامل وضعُ حملها سواء كانت معتدة من طلاق أم من وفاة زوجها.

والصحيح أن آية البقرة لم يرتفع حكمها، وشذ القائلون بأن المتوفّى عنها إن لم تكن حاملًا ووضعت حملها يجب عليها عدة أربعة أشهر وعشر.

وقال قليل من أهل العلم بالجمع بين الآيتين بما يحقق العمل بهما معًا فأوجبوا على الحامل المتوفّى عنها زوجها الاعتداد بالأقصى من الأجلين أجل الأربعة الأشهر والعشر. وأجل وضع الحمل، وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس. وقصدهم من ذلك الاحتياط لأنه قد تأتّى لهم هنا إذ كان التعارض في مقدار زمنين فأمكن العمل بأوسعهما الذي يتحقق فيه الآخَر وزيادة فيصير معنى هذه الآية: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ما لم تكن عدة وفاة، ويكون معنى آية سورة البقرة وأزواج المتوفَّيْن يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرًا ما لم تكنَّ حوامل فيزدْن تربّصًا إلى وضع الحمل. ولا يجوز تخصيص عموم ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[(٢)] بما في آية ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ من خصوص بالنظر إلى الحوامل المتوفَّى عنهن، إذ لا يجوز أن تنتهي عدة الحامل المتوفّى عنها التي مضت عليها أربعة أشهر وعشر قبل وضع حملها من عِدة زوجها، وهي في حالة حمل لأن ذلك مقرر بطلانه من عدة أدلة في الشريعة لا خلاف فيها وإلى هذا ذهب ابن أبي ليلى»[(٣)].

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٤). (٢) البقرة: الآية (٢٣٤).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٢٠-٣٢٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الحامل إذا وضعت حملها فقد انقضت عدتها

* عن محمد بن سيرين قال: جلست إلى مجلس فيه عظم من الأنصار، وفيهم عبد الرحمن بن أبي ليلى، فذكرت حديث عبد اللّه بن عتبة في شأن سبيعة بنت الحارث، فقال عبد الرحمن: ولكن عمه كان لا يقول ذلك، فقلت: إني لجريء إن كذبت على رجل في جانب الكوفة، ورفع صوته، قال: ثم خرجت فلقيت مالك بن عامر -أو مالك بن عوف- قلت: كيف كان قول ابن مسعود في المتوفى عنها زوجها وهي حامل؟ فقال: قال ابن مسعود: أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون لها الرخصة؟ لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى[1].

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «قوله: (لكن عمه) أي عبد اللّه بن مسعود (لا يقول ذلك) بل يقول بأبعد الأجلين، فالظاهر أن ابن العم يتبعه، وهذا الذي نقلت منه غير ثابت عنه، ولهذا أنكر عليه محمد فقال: (إني لجريء) بحذف همزة الاستفهام، (قال: قال) أي: ابن مسعود (أتجعلون عليها التغليظ) أي: أبعد الأجلين، وهذا من ابن مسعود إنكار لما نقل عنه ابن أبي ليلى، فعلم أن ما نقل عنه ابن أبي ليلى غير ثابت. (لأنزلت. الخ) يريد أن قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ ﴾ بعد ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ فالعمل على المتأخرة لأنها ناسخة للمتقدمة»[2].

قال الخطابي: «يريد سورة الطلاق؛ إذ إن نزول هذه السورة كان بعد نزول البقرة فقال في الطلاق ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾، وفي البقرة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[3] الآية، فظاهر كلامه يدل على أنه حمله على النسخ. فذهب إلى أن ما في سورة الطلاق ناسخ لما في

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٢٤٤-٢٤٥/ ٤٥٣٢) واللفظ له، والنسائي (٦/ ٥٠٧-٥٠٨/ ٣٥٢١)، وأخرجه: أبو داود (٢/ ٧٣٠/ ٢٣٠٧)، وابن ماجه (١/ ٦٥٤/ ٢٠٣٠) واقتصرا على قول ابن مسعود: «من شاء لاعنته لأنزلت سورة النساء القصرى بعد الأربعة الأشهر وعشرًا».

(٢) حاشية النسائي (٦/ ٥٠٧-٥٠٨).

(٣) البقرة: الآية (٢٣٤).

سورة البقرة، وعامة العلماء لا يحملونه على النسخ؛ بل يرتبون إحدى الآيتين على الأخرى فيجعلون التي في سورة البقرة في عدد الحوابل وهذه في الحوامل»[1].

قال الحافظ: «ومراد ابن مسعود إن كان هناك نسخ فالمتأخر هو الناسخ. وإلا فالتحقيق أن لا نسخ هناك؛ بل عموم آية البقرة مخصوص بآية الطلاق»[2].

* عن يحيى قال: أخبرني أبو سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس، وأبو هريرة جالس عنده، فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة؟ فقال ابن عباس: آخر الأجلين، قلت أنا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي، يعني أبا سلمة، فأرسل ابن عباس غلامه كريبًا إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها[3].

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر في «التمهيد»: «هذا حديث صحيح جاء من طرق شتى كثيرة ثابتة كلها من رواية الحجازيين والعراقيين. وأجمع العلماء على القول به إلا ما روي عن ابن عباس في هذا الحديث وغيره، وروي مثله عن علي بن أبي طالب من وجه منقطع أنه قال في الحامل المتوفى عنها زوجها: «عدتها آخر الأجلين»، يعني إن كان الحمل أكثر من أربعة أشهر وعشر اعتدت بوضعه، وإن وضعت قبل أربعة أشهر وعشر أكملت أربعة أشهر وعشرا. فهذا مذهب ابن عباس وعلي بن أبي طالب على أنه قد روي عن ابن عباس رجوعه إلى حديث أم سلمة في قصة سبيعة، ومما يصحح هذا عنه أن أصحابه عكرمة وعطاء وطاوس وغيرهم على القول بأن المتوفى عنها الحامل، عدتها أن تضع حملها على حديث سبيعة وكذلك سائر العلماء من الصحابة والتابعين وسائر أهل العلم أجمعين كلهم يقول: عدة الحامل المتوفى عنها أن تضع ما في بطنها من أجل حديث سبيعة هذا، وأما مذهب علي وابن عباس

(١) معالم السنن (٣/ ٢٤٩).

(٢) الفتح (٨/ ٨٤٦)، وانظر إعلام الموقعين (١/ ٣٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣١١-٣١٢)، والبخاري (٨/ ٨٤٣/ ٤٩٠٩) واللفظ له، ومسلم (٢/ ١١٢٢-١١٢٣/ ١٤٨٥)، والترمذي (٣/ ٤٩٩/ ١١٩٤)، والنسائي (٦/ ٥٠٣-٥٠٤/ ٣٥١١).

في هذه المسألة فمعناه الأخذ باليقين لمعارضة عموم قوله ﷻ في المتوفى عنهن: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ولم يخص حاملا من غير حامل، وعموم قوله ﷻ: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ولم يخص متوفى عنها من غيرها، فمن لم يبلغه حديث سبيعة لزمه الأخذ باليقين في عدة المتوفى عنها الحامل، ولا يقين في ذلك لمن جهل السنة في سبيعة إلا الاعتداد بآخر الأجلين»[١].

وقال أيضًا: «لما كان عموم الآيتين معارضًا أعني قول اللَّه ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وقوله ﷻ: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ لم يكن بد من بيان رسول اللَّه ﷺ لمراد اللَّه منهما على ما أمره اللَّه ﷻ بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[٢] فبيّن رسول اللَّه ﷺ مراد اللَّه من ذلك بما أفتى به سبيعة الأسلمية فكل ما خالف ذلك فلا معنى له من جهة الحجة، وباللَّه التوفيق»[٣].

وقال القرطبي: «وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس روي عن علي واختاره سحنون من أصحابنا. وقال جمهور العلماء من السلف وأئمة الفتوى: إنها تحلّ بوضع الحمل وإن لم تنقض عدة الوفاة، وقد روي أن ابن عباس رجع إلى هذا. والكل متفقون على أنها إذا انقضت لها عدة الوفاة ولم تضع لم تحلّ حتى تضع، والذي حمل الفريق الأول على ذلك روم الجمع بين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وبين قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وذلك أنها إذا قعدت أقصى الأجلين فقد عملت بمقتضى الآيتين، وإن اعتدت بوضع الحمل فقد تركت العمل بآية عدة الوفاة، والجمع أولى من الترجيح باتفاق أهل الأصول. وهذا نظر حسن لولا حديث سبيعة هذا، فإنه نصّ في أنها تحل بوضع الحمل، ومبيّن أن قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ محمول على عمومه في المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن، وأن عدة الوفاة مختصة بالحامل من الصنفين، ويعتضد هذا بقول ابن مسعود: إن آية

---

(١) التمهيد (١٠/ ٥٩١-٥٩٢ فتح البر).

(٢) النحل: الآية (٤٤).

(٣) التمهيد (١٠/ ٥٩٤-٥٩٥ فتح البر).

سورة النساء القصرى نزلت بعد آية عدة الوفاة، وظاهر كلامه أنها ناسخة لها وليس مراده والله أعلم، وإنما يعني أنها مخصصة لها، فإنها أخرجت منها بعض متناولاتها وكذلك حديث سبيعة متأخر عن عدة الوفاة؛ لأن قصة سبيعة كانت بعد حجة الوداع، وزوجها هو سعد بن خولة، توفي بمكة حينئذ، وهو الذي رثى له رسول الله ﷺ أن مات بمكة، والله تعالى أعلم»[١].

وقال النووي: «قال العلماء من أصحابنا وغيرهم: سواء كان حملها ولدا أو أكثر، كامل الخلقة أو ناقصها، أو علقة أو مضغة، فتنقضي العدة بوضعه إذا كان فيه صورة خلق آدمي، سواء كانت صورة خفية تختص النساء بمعرفتها، أو جلية يعرفها كل أحد، ودليله إطلاق سبيعة من غير سؤال عن صفة حملها»[٢].

* * *

(١) المفهم (٤/ ٢٨٠-٢٨١).
(٢) شرح مسلم (١٠/ ٩٣).

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ يقول -جل ثناؤه-: ومن يخف اللَّه فرهبه، فاجتنب معاصيه، وأدّى فرائضه، ولم يخالف إذنه في طلاق امرأته، فإنه يجعل اللَّه له من طلاقه ذلك يسرًا، وهو أن يسهل عليه إن أراد الرخصة لاتباع نفسه إياها الرجعة ما دامت في عدتها وإن انقضت عدتها، ثم دعته نفسه إليها قدر على خطبتها.

.. يقول -تعالى ذكره-: هذا الذي بيَّنت لكم من حكم الطلاق والرجعة والعدّة أمر اللَّه الذي أمركم به، أنزله إليكم أيها الناس، لتأتمروا له، وتعملوا به.

وقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ يقول: ومن يخف اللَّه فيتقه باجتناب معاصيه، وأداء فرائضه، يمح اللَّه عنه ذنوبه وسيئات أعماله ﴿ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ يقول: ويجزل له الثواب على عمله ذلك وتقواه، ومن إعظامه له الأجر عليه أن يدُخله جنته، فيخلده فيها»[1].

وقال ابن كثير: «ثم قال: ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ ﴾ أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول اللَّه ﷺ، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير»[2].

وقال السعدي: « ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب»[3].

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٤٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٣).

قال ابن القيم: «التقوى وهي: اجتناب ما نهى اللَّه عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى، وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا فلو اتقى اللَّه لكان تيسيرها عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر اللَّه له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش ونعيم القلب ولذة الروح وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ فأخبر أنه ييسر على المتقي مالا ييسر على غيره وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[1] وهذا أيضا ييسر عليه بتقواه، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه وإعطائه ما يحبه ويرضاه، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾[2] وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[3] والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر، وقال تعالى: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾[4] فضمن لهم سبحانه بالتوقي ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته: نصيبًا في الدنيا ونصيبًا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نورا يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سببا لكل يسر، وترك التقوى سببا لكل عسر»[5].

* * *

---

(١) الطلاق: الآيتان (٢و٣).
(٢) الأنفال: الآية (٢٩).
(٣) البقرة: الآية (١٨٩).
(٤) الحديد: الآية (٢٨).
(٥) التبيان (٤٢).

قوله تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

تعاسرتم: أي: أصابتكم العسرة. وهي الضيق والشدة والتشاحن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: اسكنوا مطلقات نسائكم من الموضع الذي سكنتم ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾: يقول: من سعتكم التي تجدون؛ وإنما أمر الرجال أن يعطوهنّ مسكنًا يسكنه مما يجدونه، حتى يقضين عِدَدَهنّ»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده إذا طلّق أحدُهم المرأة أن يُسكنَها في منزل حتى تنقضي عدتها، فقال: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ أي: عندكم، ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعني سَعَتكم. حتى قال قتادة: إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه»[٢].

وقال السعدي: «تقدم أن اللّٰه نهى عن إخراج المطلقات من البيوت وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره»[٣].

وقال ابن جرير: «وقوله: يقول -جل ثناؤه-: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في المسكن الذي تسكنونهنّ فيه، وأنتم تجدون سعة من المنازل أن تطلبوا التضييق عليهنّ، فذلك قوله: ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ يعني: لتضيقوا عليهنّ في المسكن مع وجودكم السعة»[٤].

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٤٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣١٣).
(٤) جامع البيان (٢٨/ ١٤٥).

وقوله: ﴿ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ ﴾ **قال السعدي**: «أي: لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن على وجه لا يحصل عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف»[١].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل وكنّ بائنات منكم، فأنفقوا عليهنّ في عدتهنّ منكم حتى يضعن حملهنّ. .

وقال آخرون: عُنِيَ بقوله: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ ﴾ كلّ مطلقة، ملك زوجُها رجْعَتَهَا أو لم يملك. .

والصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبثوثة إلا أن تكون حاملا؛ لأن اللَّه -جل ثناؤه- جعل النفقة بقوله: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ ﴾ للحوامل دون غيرهنّ من البائنات من أزواجهن، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهنّ من النفقة على أزواجهنّ سواء، لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم، إذ هنّ وغيرهنّ في ذلك سواء، وفي خصوصهن بالذكر دون غيرهنّ أدل الدليل على أن لا نفقة لبائن إلا أن تكون حاملا. وبالذي قلنا في ذلك صحّ الخبر عن رسول اللَّه ﷺ»[٢].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس، وطائفة من السلف، وجماعات من الخلف: هذه في البائن، إن كانت حاملا أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملا أو حائلا.

وقال آخرون: بل السياق كله في الرجعيات، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية؛ لأن الحمل تطول مدته غالبا، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٣).

(٢) جامع البيان (٢٨/ ١٤٦-١٤٧).

واختلف العلماء: هل النفقة لها بواسطة الحمل، أم للحمل وحده؟ على قولين منصوصين عن الشافعي وغيره»(١).

قال السعدي: «ذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بائنًا، ولها ولحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة إلى وضع الحمل»(٢).

قال القاسمي: «قال في الإكليل: وفي الآية وجوب السكنى للمطلقات كلهن، وللبوائن، لتقدم سكنى الرجعيات، ولقوله بعده ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ فإنه خاص بالبوائن. وفيه أن الإسكان يعتبر بحال الزوج، وتحريم المضارة بها، وإلجائها إلى الخروج.. وفيها وجوب الإنفاق على البائن الحامل حتى تنقضي عدتها. ومفهومه أن غير الحامل لا نفقة لها. واستدل بعموم الآية من أوجبها للحامل المتوفى عنها»(٣).

قال ابن جرير: «قوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يقول -جل ثناؤه-: فإن أرضع لكم نساؤكم البوائن منكم أولادهنّ الأطفال منكم بأجرة، فآتوهنّ أجورهن على رضاعهنّ إياهم»(٤).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق، فقد بنَّ بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ -وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للولد غالبًا إلا به- فإن أرضعت استحقت أجر مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾»(٥).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ -يعني المطلقات- أولادكم منهن فعلى الآباء أن يعطوهن أجرة إرضاعهن.

وللرجل أن يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر أجنبية، ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبن. ويجوز عند الشافعي»(٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٣-٤١٤).
(٣) محاسن التأويل (١٦/ ٢٠١-٢٠٣).
(٤) جامع البيان (٢٨/ ١٤٧).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٩).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٦٨-١٦٩).

«وفي الآية أن الأم إذا طلبت إرضاعه بأجرة مثل، وجب على الأب دفعها إليها، وليس له أن يسترضع غيرها. وفيه دليل على أن الأم أولى بالحضانة»(١).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وليقبل بعضكم أيها الناس من بعض ما أمركم بعضكم به بعضا من معروف»(٢).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات، أي وليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل. والجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة. والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع. وقيل: ائتمروا في رضاع الولد فيما بينكم بمعروف حتى لا يلحق الولد إضرار. وقيل: هو الكسوة والدثار. وقيل: معناه: ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ﴾(٣) »(٤).

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ يقول: وإن تعاسر الرجل والمرأة في رضاع ولدها منه، فامتنعت من رضاعه، فلا سبيل له عليها، وليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأجر للصبيّ مرضعة غير أمه البائنة منه»(٥).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ أي في أجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي الأم رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها، وليستأجر مرضعة غير أمه. وقيل: معناه: وإن تضايقتم وتشاكستم فليسترضع لولده غيرها، وهو خبر في معنى الأمر. وقال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر»(٦).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ أي: وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة أجرة الرضاع كثيرًا ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلا ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها. فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهي أحق بولدها»(٧).

---

(١) انظر محاسن التأويل (١٦/ ٢٠٤).
(٢) جامع البيان (٢٨/ ١٤٨).
(٣) البقرة: الآية (٢٣٣).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٦٩).
(٥) جامع البيان (٢٨/ ١٤٨).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٦٩).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٩).

وقال السعدي: « ﴿ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ ﴾ بأن لم يتفق الزوجان على رضاعها لولدها، فسترضع له أخرى غيرها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾[1] وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه، عين تعالى على وليه النفقة، فلما ولد وكان يتمكن أن يتقوت من أمه ومن غيرها أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقًا لقوته»[2].

قال القاسمي: «قال الناصر: وخص الأمر بالمعاتبة، لأن المبذل من جهتها هو لبنها لولدها، وهو غير متمول ولا مضنون به في العرف، وخصوصا في الأم على الولد، وكذلك المبذول من جهة الأب، فإنه المال المضنون به عادة. فالأم إذا أجدى باللوم، وأحق بالعتب. انتهى.

وفيه أيضا إشارة إلى معاتبة الأب أيضا، كما حققه بعضهم، وذلك أن الأب لما أسقط عن درجة الخطاب، وبين أن معاسرته لا تجدي، إذ لا بد من مرضعة أخرى بأجر، وهذه أشفق منها، كان في حكم المعاتب المذكور في الجواب. وبه يندفع ما يقال: إن المعاسرة فعل الأب والأم، فكيف يخص الأم بالذكر في الجواب. وبه يندفع ما يقال: إن المعاسرة فعل الأب والأم، فكيف يخص الأم بالذكر في الجزاء. وحاصلة أنهما مذكوران فيه، إلا أن الأم مصرح بها، والأب مرموز إليه»[3].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٤-٤١٥).

(٣) محاسن التأويل (١٦/ ٢٠٤).

قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾

★غريب الآية:

ذو سعة: ذو غنىً وطاقة.

قدر عليه: ضيقَ وقُتِرَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ يقول -تعالى ذكره-: لينفق الذي بانت منه امرأته إذا كان ذا سعة من المال، وغني من سعة ماله وغناه على امرأته البائنة في أجر رضاع ولده منها، وعلى ولده الصغير ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ﴾ يقول: ومن ضيق عليه رزقه فلم يوسع عليه، فلينفق مما أعطاه اللَّه على قدر ماله، وما أعطى منه»(١).

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ﴾ أي لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وسعه حتى يوسع عليهما إذا كان موسعا عليه. ومن كان فقيرا فعلى قدر ذلك. فتقدر النفقة بحسب الحالة من المنفِق والحاجة من المنفَق عليه بالاجتهاد على مجرى حياة العادة، فينظر المفتي إلى قدر حاجة المنفَق عليه ثم ينظر إلى حالة المنفِق، فإن احتملت الحالة أمضاها عليه، فإن اقتصرت حالته على حاجة المنفَق عليه ردها إلى قدر احتماله. وقال الإمام الشافعي ﷺ وأصحابه: النفقة مقدرة محددة، ولا اجتهاد لحاكم ولا لمفت فيها. وتقديرها هو بحال الزوج وحده من يسره وعسره، ولا يعتبر بحالها وكفايتها. قالوا: فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس. فإن كان الزوج موسرا لزمه مدان، وإن كان متوسطا فمد ونصف، وإن كان معسرا فمد. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ الآية.

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٤٨).

فجعل الاعتبار بالزوج في اليسر والعسر دونها، ولأن الاعتبار بكفايتها لا سبيل إلى علمه للحاكم ولا لغيره، فيؤدي إلى الخصومة؛ لأن الزوج يدعي أنها تلتمس فوق كفايتها، وهي تزعم أن الذي تطلب تطلبه قدر كفايتها، فجعلناها مقدرة قطعًا للخصومة. والأصل في هذا عندهم قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ -كما ذكرنا وقوله: ﴿ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾[1].

والجواب أن هذه الآية لا تعطي أكثر من فرق بين نفقة الغني والفقير، وإنها تختلف بعسر الزوج ويسره. وهذا مسلم. فأما إنه لا اعتبار بحال الزوجة على وجهه فليس فيه، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[2]، وذلك يقتضي تعلق المعروف في حقهما؛ لأنه لم يخص في ذلك واحدا منهما. وليس من المعروف أن يكون كفاية الغنية مثل نفقة الفقيرة، وقد قال رسول اللَّه ﷺ لهند: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[3]. فأحالها على الكفاية حين علم السعة من حال أبي سفيان الواجب عليه بطلبها، ولم يقل لها لا اعتبار بكفايتك وأن الواجب لك شيء مقدر، بل ردها إلى ما يعلمه من قدر كفايتها ولم يعلقه بمقدار معلوم. ثم ما ذكروه من التحديد يحتاج إلى توقيف، والآية لا تقتضيه»[4].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ يقول: لا يكلف اللَّه أحدا من النفقة على من تلزمه نفقته بالقرابة والرحم إلا ما أعطاه، إن كان ذا سعة فمن سعته، وإن كان مقدورًا على رزقه فمما رزقه اللَّه على قدر طاقته، لا يُكلف الفقير نفقة الغنيّ، ولا أحد من خلقه إلا فرضه الذي أوجبه عليه..

﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ ﴾ للمقلّ من المال المقدور عليه رزقه ﴿ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ يقول: من بعد شدّة رخاء، ومن بعد ضيق سعة، ومن بعد فقر غنى»[5].

---

(١) البقرة: الآية (٢٣٦).

(٢) البقرة: الآية (٢٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٩)، والبخاري (٤/ ٥١٠/ ٢٢١١)، ومسلم (٣/ ١٣٣٨/ ١٤١٧)، وأبو داود (٣/ ٨٠٢-٨٠٤/ ٣٥٣٢)، والنسائي (٨/ ٦٣٨/ ٥٤٣٥)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٩/ ٢٢٩٣) من حديث عائشة ﵂.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٧٠-١٧١).

(٥) جامع البيان (٢٨/ ١٤٩-١٥٠) بتصرف.

وقال ابن كثير: «قوله: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ أي: لينفق على المولود والده، أو وليه، بحسب قدرته، ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ ﴾ كقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾[١]..

وقوله: ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ وعد منه تعالى، ووعده حق، لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[٢] »[٣].

قال صديق حسن خان: « ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ أي بعد ضيق وشدة سعة وغنى، وهذا وعد لذي العسر باليسر، وقد صدق الله وعده فيمن كانوا موجودين عند نزول الآية، ففتح عليهم جزيرة العرب، ثم فارس والروم، حتى صاروا أغنى الناس، وصدق الآية دائم غير أنه في الصحابة أتم؛ لأن إيمانهم أقوى من غيرهم»[٤].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٢٨٦).

(٢) الشرح: الآيتان (٥و٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٩-١٨٠).

(٤) فتح البيان (١٤/ ١٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾

★ غريب الآية:

نكرًا: أي: منكرًا شنيعًا وفظيعًا.

خسرًا: أي: خسرانًا وهلاكًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية والقرون المكذبة للرسل، وأن كثرتهم وقوتهم لم تغن عنهم شيئًا حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن اللَّه أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة. ومع عذاب الدنيا فإن اللَّه أعد لهم في الآخرة عذابا شديدًا، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: يا ذوي العقول التي تفهم عن اللَّه آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين. ثم ذكر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ليخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة، فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن به، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ من الواجبات والمستحبات. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ

﴿أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»[1].

وقال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكأين من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وعن أمر رسل ربهم، فتمادوا في طغيانهم وعتّوهم، ولجوا في كفرهم..

وقيل: إنهم كانوا قومًا خالفوا أمر ربهم في الطلاق، فتوعد الله بالخبر عنهم هذه الأمة أن يفعل بهم فعله بهم إن خالفوا أمره في ذلك..

وقوله: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: فحاسبناها على نعمتنا عندها وشكرها حسابًا شديدًا، يقول: حسابًا استقصينا فيه عليهم، لم نعف لهم فيه عن شيء، ولم نتجاوز فيه عنهم..

قوله: ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ يقول: وعذبناها عذابًا عظيمًا منكرًا، وذلك عذاب جهنم.

وقوله: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ يقول: فذاقت هذه القرية التي عتت عن أمر ربها ورسله، عاقبة ما عملت وأتت من معاصي الله والكفر به..

وقوله: ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكان الذي أعقب أمرهم، وذلك كفرهم بالله وعصيانهم إياه ﴿خُسْرًا﴾: يعني غَبْنا، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله..

وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: أعد الله لهؤلاء القوم الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله عذابًا شديدًا، وذلك عذاب النار الذي أعدّه لهم في القيامة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول -تعالى ذكره- : فخافوا الله، واحذروا سخطه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه يا أولي العقول..

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يقول: الذين صدقوا الله ورسوله، وقوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا﴾ اختلف أهل التأويل في المعني بالذكر والرسول في هذا الموضع. فقال بعضهم: الذكر هو القرآن، والرسول محمد ﷺ..

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٦-٤١٧).

وقال آخرون: الذكر هو الرسول.

والصواب من القول في ذلك أن الرسول ترجمة عن الذكر، وذلك نصب لأنه مردود عليه على البيان عنه والترجمة.

فتأويل الكلام إذن: قد أنزل اللَّه إليكم يا أولي الألباب ذكرًا من اللَّه لكم يذكركم به، وينبهكم على حظكم من الإيمان باللَّه، والعمل بطاعته، رسولا يتلو عليكم آيات اللَّه التي أنزلها عليه ﴿ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ يقول: مبينات لمن سمعها وتدبرها أنها من عند اللَّه.

وقوله: ﴿ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ﴿ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾ كي يخرج الذين صدّقوا اللَّه ورسوله: ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ يقول: وعملوا بما أمرهم اللَّه به وأطاعوه ﴿ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ يعني من الكفر وهي الظلمات، إلى النور يعني إلى الإيمان.

وقوله: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ يقول: ومن يصدّق باللَّه ويعمل بطاعته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ يقول: يُدخله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ يقول: ماكثين مقيمين في البساتين التي تجري من تحتها الأنهار أبدًا، لا يموتون، ولا يخرجون منها أبدًا.

وقوله: ﴿ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ يقول: قد وسع اللَّه له في الجنات رزقًا، يعني بالرزق: ما رزقه فيها من المطاعم والمشارب، وسائر ما أعدّ لأوليائه فيها، فطيبه لهم»[1].

قال عطية محمد سالم: «قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ﴾ الآية.

ذكر الشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء- أن (كَـأَيِّــنْ) بمعنى: كم، فهي إخبار بعدد كثير، وذكر إعرابها، والمعنى كثير من قرية عتت عن أمر ربها أي تكبرت وطغت وتقدم تفصيله للمعنى بالأمثلة والشواهد عند قوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا ﴾[2] في سورة الحج.

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٥٠-١٥٣) بتصرف.

(٢) الحج: الآية (٤٥).

ومما قدمه رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه، ومن قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ﴾[١] بيان لأصحاب الرئاسة ورجال السياسة أن هلاك الدنيا بفساد الدين، وأن أمن القرى وطمأنينة العالم بالحفاظ على الدين. ومن هنا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عامة الناس للحفاظ على دينهم وسلامة دنياهم، فحمل الشارع مهمته للأمة كلها كل بحسبه باليد أو باللسان أو القلب، وهذا الأخير أضعف الإيمان، ومع ضعفه ففيه الإبقاء على دوام الإحساس بوجود المنكر إلى أن يقدر هو أو غيره على تغييره.

قد بين اللَّه تعالى هذا المفهوم ببيان حال الذين مكنهم في الأرض بنصره في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[٢] ثم ذكر تعالى الأمم التي كذبت وعتت من قوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وأصحاب مدين. ثم قال: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[٣] »[٤].

* * *

(١) الكهف: الآية (٥٩).
(٢) الحج: الآية (٤١).
(٣) الحج: الآية (٤٥).
(٤) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٦٦-٣٦٧).

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ لا ما يعبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تقدر على خلق شيء.

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ يقول: وخلق من الأرض مثلهنّ لما في كلّ واحدة منهنّ مثل ما في السموات من الخلق»[١].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ دل على كمال قدرته، وأنه يقدر على البعث والمحاسبة. ولا خلاف في السموات أنها سبع بعضها فوق بعض، دل على ذلك حديث الإسراء وغيره. ثم قال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ يعني سبعا.

واختلف فيهن على قولين: أحدهما -وهو قول الجمهور- أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء، وفي كل أرض سكان من خلق الله.

وقال الضحاك: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أي سبعا من الأرضين، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. والأول أصح؛ لأن الأخبار دالة عليه»[٢].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن قدرته التامة، وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثًا على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ كقوله تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[٤]. وقوله: ﴿ وَمِنَ

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٥٣)

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٧٤-١٧٥).

(٣) نوح: الآية (١٥).

(٤) الإسراء: الآية (٤٤).

﴿ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ أي سبعا أيضا كما ثبت في الصحيحين»[١].

قال عطية محمد سالم: «جاء في بيان السماوات أنها سبع طباق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[٢]. وبين الحديث في الإسراء أن ما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وجاء لفظ السماء مفردًا وجمعًا، فالمفرد كما في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾[٣]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[٤] أما الأرض فلم يأت لفظها إلا مفردًا، ولم يأت تفصيلها كتفصيل السماء سبعًا طباقًا، فاختلف في المثلية فجاء عن ابن عباس أنها مثلية تامة عددًا وطباقًا وخلقًا. وقيل: عددًا وأقاليم يفصلها البحار، وقيل عددًا طباقًا متراكمة كطبقات البصلة مثلًا، وقد تقدم للشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه في المقدمة أن من أوجه البيان إذا لم يوجد الكتاب ووجد في السنة فإنه يبين بها لأنها وحي، وقد جاء في السنة أن الأرض سبع أرضين كما في حديث: «**من اغتصب أرضًا أو من أخذ شبرًا من الأرض طوقه من سبع أرضين**» متفق عليه..

ومما يؤيد ثبوت العدد على سبيل الإجمال أن مثلية الأرض للسماء لم تذكر إلا عند ذكر السماء مجملة مع ذكر العدد، ولم يذكر عند تفصيلها بطباق مما يشعر أن المراد من المثلية العدد، وقيل إن هذا لا يتنافى مع أفراد اللفظ لأن جمعه شاذ.

كما قال ابن مالك:

وأرضــــون شـــذ والـســـنــــون

وقد أشار تعالى إلى أن هناك من حالات الأرض والسماء ما لم يعلمه الخلق في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾[٥]، وهم لا يزالون عاجزين عن كيفية خلق أنفسهم إلا تفصيلات جزئية، والمهم من السياق والغرض الأساسي تنبيه الخلق على عظم قدرة اللَّه تعالى في قوله تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[٦]»[٧].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٨٢).
(٢) الملك: الآية (٣).
(٣) الشمس: الآية (٥).
(٤) البقرة: الآية (٢٢).
(٥) الكهف: الآية (٥١).
(٦) الطلاق: الآية (١٢).
(٧) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٦٧-٣٦٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات سبع أرضين

* عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: أنه خاصمته أروى -في حق زعمت أنه انتقصه لها- إلى مروان فقال سعيد: أنا أنتقص من حقها شيئا؟ أشهد لسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من أخذ شبرًا من الأرض ظلما؛ فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»(١).

* عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «**من أخذ شيئًا من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**»(٢).

* عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وكانت بينه وبين أناس خصومة في أرض، فدخل على عائشة فذكر لها ذلك، فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض فإن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين**»(٣).

⋆ غريب الأحاديث:

طُوّقه: الطوق معروف، وطوّقته الشيء جعلته طوقه، ويعبر به عن التكليف، وطوق كل شيء ما استدار به.

⋆ فوائد الأحاديث:

قال عطية سالم: «هذه أحاديث صحيحة أثبتت أن الأرضين سبع، ولم يأت تفصيل للكيفية ولا للهيئة، فثبت عندنا العدد ولم يثبت غيره، فنثبته ونكل غيره لعلم اللَّه تعالى»(٤).

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الأحاديث كالمتواترة في إثبات سبع أرضين، والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى والتي تحتها في وسطها عند أهل الهيئة حتى ينتهي الأمر إلى السابعة وهي صماء لا جوف لها، وفي وسطها المركز وهي نقطة مقدرة

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٨٨)، والبخاري (٦/ ٣٦٠/ ٣١٩٨)، ومسلم (٣/ ١٢٣٠/ ١٦١٠)، والترمذي (٤/ ٢٠-٢١/ ١٤١٨)، وأخرجه: النسائي (٧/ ١٣١/ ٤١٠١) مختصرا من طرق عن سعيد بن زيد.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٩٩)، والبخاري (٦/ ٣٦٠/ ٣١٩٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٩-٢٥٢)، والبخاري (٦/ ٣٥٩-٣٦٠/ ٣١٩٥)، ومسلم (٣/ ١٢٣١-١٢٣٢/ ١٦١٢).

(٤) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٦٦).

متوهمة، وهو محطّ الأثقال، إليه ينتهي ما يهبط من كل جانب إذا لم يعاوقه مانع»[١].

قال النووي: «قال العلماء: هذا تصريح بأن الأرضين سبع طبقات، وهو موافق لقول اللَّه تعالى: ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ وأما تأويل المماثلة على الهيئة والشكل فخلاف الظاهر، وكذا قول من قال: المراد بالحديث سبع أرضين من سبع أقاليم؛ لأن الأرضين سبع طباق. وهذا تأويل باطل أبطله العلماء؛ بأنه لو كان كذلك لم يطوق الظالم بشبر من هذا الإقليم شيئا من إقليم آخر بخلاف طباق الأرض؛ فإنها تابعة لهذا الشبر في الملك. فمن ملك شيئا من هذه الأرض ملكه وما تحته من الطباق»[٢].

قال ابن كثير: «ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند»[٣].

وقال في «البداية والنهاية»: «وأما ما ذهب إليه بعض المتكلمين على حديث: «**طوقه من سبع أرضين**» أنها سبعة أقاليم، فهو قول يخالف ظاهر الآية والحديث الصحيح وصريح كثير من ألفاظه مما يعتمد من الحديث.. ثم إنه حمل الحديث والآية على خلاف ظاهرهما بلا مستند ولا دليل واللَّه أعلم، وهكذا ما يذكره كثير من أهل الكتاب وتلقاه عنهم طائفة من علمائنا من أن هذه الأرض من تراب والتي تحتها من حديد، والأخرى من حجارة من كبريت، والأخرى من كذا، فكل هذا إذا لم يخبر به ويصح سنده إلى معصوم فهو مردود على قائله»[٤].

قال الخطابي: «قوله: «طُوِّقه» يتأول على وجهين: أحدهما: أن يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر، فيكون ذلك كالطوق في عنقه، وقد روي معنى ذلك في بعض الحديث. والوجه الآخر: أن يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين، وقد رواه أبو عبد اللَّه مسندًا»[٥].

* * *

(١) البداية والنهاية (١/ ١٧).
(٢) شرح مسلم (١١/ ٤٠-٤١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٨٣).
(٤) (١/ ١٧-١٨).
(٥) أعلام الحديث (٢/ ١٢١٩).

قوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

وقال ابن جرير: «﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يقول -تعالى ذكره-: يتنزل أمر اللَّه بين السماء السابعة والأرض السابعة..

وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ينزل قضاء اللَّه وأمره بين ذلك كي تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه؛ وأنه لا يتعذّر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه أمر شاءه؛ ولكنه على ما يشاء قدير، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ يقول -جل ثناؤه-: ولتعلموا أيها الناس أن اللَّه بكل شيء من خلقه محيط علمًا، لا يعزُب عنه مثقالُ ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر: يقول -جل ثناؤه- فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم عقوبته؛ فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع، وهو على ذلك قادر، ومحيط أيضًا بأعمالكم، فلا يخفى عليه منها خاف، وهو محصيها عليكم، ليجازيكم بها، يوم تجزى كلّ نفس ما كسبت»[(١)].

قال السعدي: «أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض، ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر وهو: الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد، ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء. فإذا عرفوه بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدسة عبدوه، وأحبوه، وقاموا بحقه، فهذه هي الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة اللَّه وعبادته. فقام بذلك الموفقون من عباد اللَّه الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٥٤-١٥٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٤).



سورة التحريم

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «ما تضمنه سبب نزولها أن أحدا لا يحرم على نفسه ما أحل اللَّه له لإرضاء أحد؛ إذ ليس ذلك بمصلحة له ولا للذي يسترضيه، فلا ينبغي أن يجعل كالنذر إذ لا قربة فيه وما هو بطلاق؛ لأن التي حرمها جارية ليست بزوجة فإنما صلاح كل جانب فيما يعود بنفع على نفسه أو ينفع به غيره نفعا مرضيا عند اللَّه.

وتنبيه نساء النبي ﷺ إلى أن غيرة اللَّه على نبيه أعظم من غيرتهن عليه وأسمى مقصدا.

وأن اللَّه يطلعه على ما يخصه من الحادثات.

وأن من حلف على يمين فرأى حنثها خيرا من برها أن يكفر عنها ويفعل الذي هو خير. وقد ورد التصريح بذلك في حديث وفد عبد القيس عن رواية أبي موسى الأشعري وتقدم في سورة براءة.

وتعليم الأزواج أن لا يكثرن من مضايقة أزواجهن فإنها ربما أدت إلى الملال فالكراهية فالفراق.

وموعظة الناس بتربية بعض الأهل بعضًا، ووعظ بعضهم بعضًا.

وأتبع ذلك بوصف عذاب الآخرة ونعيمها وما يفضي إلى كليهما من أعمال الناس صالحاتها وسيئاتها.

وذيل ذلك بضرب مثلين من صالحات النساء وضدهن لما في ذلك من العظمة لنساء المؤمنين ولأمهاتهم»[1].

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٤٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾

★ غريب الآية:

تبتغي: تطلب وتريد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: يا أيها النبيّ المحرّم على نفسه ما أحلّ اللَّه له، يبتغي بذلك مرضاة أزواجه، لم تحرّم على نفسك الحلال الذي أحله اللَّه لك، تلتمس بتحريمك ذلك مرضاة أزواجك.

واختلف أهل العلم في الحلال الذي كان اللَّه -جل ثناؤه- أحله لرسوله، فحرّمه على نفسه ابتغاء مرضاة أزواجه، فقال بعضهم: كان ذلك مارية مملوكته القبطية، حرمها على نفسه بيمين أنه لا يقربها طلبًا بذلك رضاء حفصة بنت عمر زوجته، لأنها كانت غارت بأن خلا بها رسول اللَّه ﷺ في يومها وفي حجرتها..

وقال آخرون: بل حرم رسول اللَّه ﷺ جاريته، فجعل اللَّه ﷻ تحريمه إياها بمنزلة اليمين، فأوجب فيها من الكفارة مثل ما أوجب في اليمين إذا حنث فيها صاحبها..

وقال آخرون: كان ذلك شرابًا يشربه، كان يعجبه ذلك..

والصواب من القول في ذلك أن يقال: كان الذي حرّمه النبيّ ﷺ على نفسه شيئًا كان اللَّه قد أحله له، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون كان شرابًا من الأشربة، وجائز أن يكون كان غير ذلك، غير أنه أيّ ذلك كان، فإنه كان تحريم شيء كان له حلالا فعاتبه اللَّه على تحريمه على نفسه ما كان له قد أحله، وبين له تحلة يمينه في يمين كان حلف بها مع تحريمه ما حرّم على نفسه.

فإن قائل قائل: وما برهانك على أنه ﷺ كان حلف مع تحريمه ما حرم، فقد

علمت قول من قال: لم يكن من النبيّ ﷺ في ذلك غير التحريم، وأن التحريم هو اليمين؟ قيل: البرهان على ذلك واضح، وهو أنه لا يعقل في لغة عربية ولا عجمية أن قول القائل لجاريته، أو لطعام أو شراب، هذا عليّ حرام يمين، فإذا كان ذلك غير معقول، فمعلوم أن اليمين غير قول القائل للشيء الحلال له: هو عليّ حرام. وإذا كان ذلك كذلك صحّ ما قلنا، وفسد ما خالفه. وبعد، فجائز أن يكون تحريم النبيّ ﷺ ما حرم على نفسه من الحلال الذي كان اللّه -تعالى ذكره-، أحله له بيمين، فيكون قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معنا: لم تحلف على الشيء الذي قد أحله اللّه أن لا تقربه، فتحرّمه على نفسك باليمين..

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: واللّه غفور يا محمد لذنوب التائبين من عباده من ذنوبهم، وقد غفر لك تحريمك على نفسك ما أحله اللّه لك، رحيم بعباده أن يعاقبهم على ما قد تابوا منه من الذنوب بعد التوبة»[١].

قال شيخ الإسلام: «هذا الاستفهام استفهام إنكار يتضمن النهي؛ فإن اللّه لا يستفهم لطلب الفهم والعلم فإنه بكل شيء عليم؛ ولكن مثل هذا يسميه أهل العربية «استفهام إنكار»، واستفهام الإنكار يكون بتضمن الإنكار مضمون الجملة: إما إنكار نفي إن كان مضمونها خبرا وإما إنكار نهي إن كان مضمونها إنشاء. والكلام إما خبر وإما إنشاء. وهذا كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٢] وقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٣] ونحو ذلك. فاللّه تعالى نهى نبيه عن تحريم الحلال كما نهى المؤمنين، وأخبر أنه فرض لهم تحلة أيمانهم كما ذكر كفارة اليمين بعد النهي عن تحريم الحلال في سورة المائدة. وقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[٤] هو ما ذكره في سورة المائدة. وكان سبب نزول التحريم تحريم النبي ﷺ الحلال: إما أمته مارية القبطية، وإما العسل؛ وإما كلاهما. وكذلك آية المائدة، فإن طائفة من المسلمين كانوا قد حرموا الطيبات إما تبتلا وترهبا كما عزم على ذلك عثمان بن مظعون ومن وافقه من الصحابة حتى نهاهم النبي ﷺ عن ذلك؛ وإما غير ذلك. وبين اللّه لهم أن اللّه جعل لمن حرم الحلال من هذه الأمة مخرجا؛

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٥٥-١٥٩).
(٢) التوبة: الآية (٤٣).
(٣) الصف: الآية (٢).
(٤) التحريم: الآية (٢).

وأن اليمين المتضمنة تحريمه للحلال له منها مخرج بالكفارة التي شرعها الله»[١].

قال عطية سالم: «تقدم في أول السورة قبلها بيان علاقة الأمة بالخطاب الخاص به ﷺ، وقد اختلف في تحريم ما أحل اللّه له بين كونه العسل أو هو مارية جاريته ﷺ، وسيأتي زيادة إيضاحه عند الكلام على حكمه.

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ ظاهر فيه معنى العتاب، كما في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾[٢] وكلاهما له علاقة بالجانب الشخصي سواء ابتغاء مرضاة الأزواج، أو استرضاء صناديد قريش، وهذا مما يدل على أن التشريع الإسلامي لا مدخل للأغراض الشخصية فيه..

ومحل الاستدلال هو أن من ليس له حق في تحريم ما أحل اللّه له ابتغاء مرضاة أزواجه لا يحل له إحلال، وتجويز ما لا يجوز ابتغاء مرضاتهن، وهذا ظاهر بين ولله الحمد»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن أنس رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ كانت له أمة يطأها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما، فأنزل اللّه هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخر الآية[٤].

* عن عبيد بن حنين: أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يحدث أنه قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجا فخرجت معه، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت له حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت له: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٢) عبس: الآيات (١-٣).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٤) أخرجه: النسائي (٧/ ٨٣/ ٣٩٦٩)، والحاكم (٢/ ٤٩٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ في الفتح (٩/ ٤٧٠).

على النبي ﷺ من أزواجه، فقال: تلك حفصة وعائشة، قال: فقلت: واللَّه إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة، فما أستطيع هيبة لك، قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فاسألني، فإن كان لي علم خبرتك به..[1]

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول اللَّه ﷺ يشرب عسلا عند زينب ابنة جحش، ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: «**لا، ولكني كنت أشرب عسلًا عند زينب ابنة جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدًا**»[2].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول اللَّه ﷺ يحب العسل والحلوى، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فغرت، فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي ﷺ منه شربة، فقلت: أما واللَّه لنحتالن له، فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير، فإنه سيقول لك: لا، فقولي له: ما هذه الريح التي أجد منك؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقولي له: جرست نحله العرفط، وسأقول ذلك. وقولي أنت يا صفية ذاك. قالت: تقول سودة: فواللَّه ما هو إلا أن قام على الباب فأردت أن أبادئه بما أمرتني به فرقا منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول اللَّه، أكلت مغافير قال: «**لا**»، قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: «**سقتني حفصة شربة عسل**»، فقالت: جرست نحله العرفط، فلما دار إلي قلت له نحو ذلك. فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك. فلما دار إلى حفصة قالت: يا رسول اللَّه ألا أسقيك منه؟ قال: «**لا حاجة لي فيه**»، قالت: تقول سودة: واللَّه لقد حرمناه، قلت لها: اسكتي»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣ و٣٤)، والبخاري (٨/ ٨٤٨-٨٤٩/ ٤٩١٣)، ومسلم (٢/ ١١٠٨-١١٠٩/ ١٤٧٩[٣١])، والترمذي (٥/ ٣٩١-٣٩٤/ ٣٣١٨)، والنسائي (٤/ ٤٤٣-٤٤٤/ ٢١٣١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٠-١٣٩١/ ٤١٥٣) دون ذكر محل موضع الشاهد من طرق عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٢١)، والبخاري (٨/ ٨٤٧/ ٤٩١٢) واللفظ له، ومسلم (٢/ ١١٠٠-١١٠١/ ١٤٧٤[٢٠])، وأبو داود (٤/ ١٠٥-١٠٦/ ٣٧١٤)، والنسائي (٦/ ٤٦٣/ ٣٤٢١).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٩)، والبخاري (٩/ ٤٦٨-٤٦٩/ ٥٢٦٨)، ومسلم (٢/ ١١٠١-١١٠٢/ ١٤٧٤[٢١]).

★ **غريب الأحاديث:**

واطأت: توافقت على الأمر.

مغافير: جمع مغفور، وهو: صِمغ حلوٌ له رائحة كريهة يخرجه شجر العرفط، وذكر البخاري أن المغفور شبيه بالصمغ يكون في الرِّمث بكسر الراء وسكون الميم بعدها مثلثة، وهو من الشجر التي ترعاها الإبل، وهو من الحمص.

العُرفط: من شجر العضاه وهو كل شجر له شوك، وقيل: تشبه رائحته رائحة النبيذ، وقيل: إذا رعته الإبل خبثت رائحة ألبانها، حتى يتأذى بها الناس.

احتبس: أقام.

جرست: أكلت. يقال: جرست النحل تجرس جرسا: إذا أكلت لتعسل، ويقال للنحل: جوارس أي أواكل.

العُكة: أصغر من القِربة.

فرقًا: خوفًا.

★ **فوائد الأحاديث:**

اختلاف في سبب النزول:

قوله: «بل شربت عسلا عند زينب، ولن أعود» قال القرطبي: «زاد البخاري هنا: «وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدًا» وذلك لئلا يبلغ الأخرى الخبر، وأنه فعله ابتغاء مرضات أزواجه، فيتغير قلبها. وقيل: كان ذلك في قصة مارية واستكتامه ﷺ حفصة ألا تخبري بذلك عائشة. وقيل: أسر إلى حفصة أن الخليفة بعده أبو بكر ثم عمر. والصحيح أنه في العسل»[١].

وقال ابن كثير: «والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن خالته عائشة. وفي طريق ابن جريج عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة أن زينب بنت جَحش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه، فاللَّه أعلم. وقد يقال: إنهما واقعتان،

---

(١) المفهم (٤/ ٢٤٧).

ولا بُعْدَ في ذلك، إلا أن كونَهما سببًا لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم»[١].

وقال الحافظ: «يحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معا»[٢].

وقال أيضا: «والراجح من الأقوال كلها قصة مارية، لاختصاص عائشة وحفصة بها، بخلاف العسل؛ فإنه اجتمع فيه جماعة منهن كما سيأتي، ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت فأشير إلى أهمها، ويؤيد شمول الحلف للجميع، ولو كان مثلا في قصة مارية فقط لاختصّ بحفصة وعائشة»[٣].

قال أيضًا: «ثم ذكر المصنف[٤] حديث عائشة في قصة شرب النبي ﷺ العسل عند بعض نسائه فأورده من وجهين: أحدهما من طريق عبيد بن عمير عن عائشة، وفيه أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش. والثاني من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وفيه أن شرب العسل كان عند حفصة بنت عمر. فهذا ما في الصحيحين، وأخرج ابن مردويه من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس أن شرب العسل كان عند سودة وأن عائشة وحفصة هما اللتان تواطأتا على وفق ما في رواية عبيد بن عمير، وإن اختلفا في صاحبة العسل، وطريق الجمع بين هذا الاختلاف الحمل على التعدد، فلا يمتنع تعدد السبب للأمر الواحد، فإن جنح إلى الترجيح فرواية عبيد بن عمير أثبت لموافقة ابن عباس لها على أن المتظاهرتين حفصة وعائشة على ما تقدم في التفسير، وفي الطلاق من جزم عمر بذلك، فلو كانت حفصة صاحبة العسل لم تقرن في التظاهر بعائشة، لكن يمكن تعدد القصة في شرب العسل وتحريمه واختصاص النزول بالقصة التي فيها أن عائشة وحفصة هما المتظاهرتان، ويمكن أن تكون القصة التي وقع فيها شرب العسل عند حفصة كانت سابقة، ويؤيد هذا الحمل أنه لم يقع في طريق هشام بن عروة التي فيها أن شرب العسل كان عند حفصة تعرض للآية، ولا لذكر سبب النزول، والراجح أيضا أن صاحبة العسل زينب لا سودة لأن طريق عبيد بن عمير أثبت من طريق ابن أبي مليكة بكثير، ولا جائز أن تتحد بطريق هشام بن عروة لأن فيها أن سودة كانت ممن وافق

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٣٧).

(٢) فتح الباري (٨/ ٨٤٨).

(٣) الفتح (٩/ ٣٦٢).

(٤) أي البخاري.

عائشة على قولها: «أجد ريح مغافير»، ويرجحه أيضا ما مضى في كتاب الهبة[1] عن عائشة أن نساء النبي ﷺ كن حزبين أنا وسودة وحفصة وصفية في حزب، وزينب بنت جحش وأم سلمة والباقيات في حزب، فهذا يرجح أن زينب هي صاحبة العسل، ولهذا غارت عائشة منها لكونها من غير حزبها والله أعلم»[2].

وقال الشوكاني: «اختلف في سبب نزول الآية على أقوال:

الأوّل: قول أكثر المفسرين. قال الواحدي: قال المفسرون: كان النبيّ ﷺ في بيت حفصة، فزارت أباها، فلما رجعت أبصرت مارية في بيتها مع النبيّ ﷺ، فلم تدخل حتى خرجت مارية ثم دخلت، فلما رأى النبيّ ﷺ في وجه حفصة الغيرة والكآبة قال لها: لا تخبري عائشة، ولك عليّ أن لا أقربها أبدًا، فأخبرت حفصة عائشة، وكانتا متصافيتين، فغضبت عائشة، ولم تزل بالنبيّ ﷺ حتى حلف أن لا يقرب مارية. فأنزل الله هذه السورة. قال القرطبي: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة، وذكر القصة. وقيل: السبب أنه كان ﷺ يشرب عسلًا عند زينب بنت جحش، فتواطأت عائشة وحفصة أن تقولا له إذا دخل عليهما: إنا نجد منك ريح مغافير. وقيل: السبب المرأة التي وهبت نفسها للنبيّ. وسيأتي دليل هذه الأقوال آخر البحث إن شاء الله، وستعرف كيفية الجمع بينهما»[3].

ثم قال بعد ذكر الأدلة التي وعد بها: «فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعًا، وفي كل واحد منهما أنه أسرّ الحديث إلى بعض أزواجه.

وأما ما قيل: من أن السبب هو تحريم المرأة التي وهبت نفسها، فليس في ذلك إلاّ ما روى ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ في المرأة التي وهبت نفسها للنبيّ ﷺ. قال السيوطي: وسنده ضعيف. ويردّ هذا أيضًا أن النبيّ ﷺ لم يقبل تلك الواهبة

(١) (٥/ ٢٥٦-٢٥٧/ ٢٥٨١)، وأخرجه دون موضع الشاهد: مسلم (٤/ ١٨٩١-١٨٩٢/ ٢٤٤٢)، والنسائي (٧/ ٧٥-٧٦/ ٣٩٥٤).

(٢) الفتح (٩/ ٤٧٠-٤٧١).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣٥٤-٣٥٥).

لنفسها، فكيف يصحّ أن يقال: إنه نزل في شأنها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ فإن من ردّ ما وهب له لم يصحّ أن يقال: إنه حرّمه على نفسه، وأيضًا لا ينطبق على هذا السبب قوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾[1] إلى آخر ما حكاه اللَّه. وأما ما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن ابن عباس سأل عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول اللَّه ﷺ، فأخبره أنهما عائشة وحفصة، ثم ذكر قصة الإيلاء، كما في الحديث الطويل، فليس في هذا نفي لكون السبب هو ما قدّمنا من قصة العسل، وقصة السرية؛ لأنه إنما أخبره بالمتظاهرتين، وذكر فيه أن أزواج النبيّ ﷺ يراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، وأن ذلك سبب الاعتزال لا سبب نزول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾[2]. ويؤيد هذا ما قدّمنا عن ابن عباس أنه قال لعمر: من المرأتان اللتان تظاهرتا؟ فأخبره بأنهما حفصة وعائشة، وبيّن له أن السبب قصة مارية. هذا ما تيسر من تلخيص سبب نزول الآية، ودفع الاختلاف في شأنه، فاشدد عليه يديك؛ لتنجو به من الخبط والخلط الذي وقع للمفسرين»[3].

* * *

---

(١) التحريم: الآية (٣).
(٢) التحريم: الآية (١).
(٣) فتح القدير (٥/ ٣٥٨-٣٥٩).

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾

★ **غريب الآية:**

تحلة: تحليل اليمين بالكفارة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قد بين اللَّه ﷻ لكم تحلة أيمانكم، وحدّها لكم أيها الناس ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يتولاكم بنصره أيها المؤمنون ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحكم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره إياكم، وصرفكم فيما هو أعلم به»(١).

وقال السعدي: «وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧﴾(٢) إلى أن قال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾(٣).

فكل من حرم حلالا عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يمينًا باللَّه، على فعل أو ترك، ثم حنث وأراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٥٩).
(٢) المائدة: الآية (٨٧).
(٣) المائدة: الآية (٨٩).

ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم»[١].

قال شيخ الإسلام: «هذا نص عام في كل يمين يحلف بها المسلمون أن الله قد فرض لها تحلة، وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة بعد تقدم الخطاب بصيغة الإفراد للنبي ﷺ مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة لكان مخالفا للآية كيف وهذا عام لم تخص منه صورة واحدة لا بنص ولا بإجماع؛ بل هو عام عموما معنويا مع عمومه اللفظي؛ فإن اليمين معقودة توجب منع المكلف من الفعل فشرع التحلة لهذه العقدة مناسب لما فيه من التخفيف والتوسعة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قول الرجل لامرأته: أنت علي حرام، أو محرمة أو نحو ذلك

* عن ابن عباس ﷺ قال في الحرام يكفر، وقال ابن عباس: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣][٤].

* عن ابن عباس يقول: إذا حرّم امرأته ليس بشيء، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٥]»[٦].

★ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «(إذا حرم امرأته ليس بشيء) كذا للكشميهني وللأكثر: (ليست) أي الكلمة، وهي قوله: أنت عليّ حرام، أو محرمة، أو نحو ذلك»[٧].

قال القرطبي: «وقد اختلف السلف ومن بعدهم في تحريم الزوجة اختلافًا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤١٧-٤١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٦٨).

(٣) الأحزاب: الآية (٢١).

(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٨٤٧/ ٤٩١١)، ومسلم (٢/ ١١٠٠/ ١٤٧٣)، وابن ماجه (١/ ٦٧٠/ ٢٠٧٣).

(٥) الأحزاب: الآية (٢١).

(٦) أخرجه: البخاري (٩/ ٤٦٨/ ٥٢٦٦)، ومسلم (٢/ ١١٠٠/ ١٤٧٣ [١٩])، والنسائي (٧/ ٤٦٢/ ٣٤٢٠).

(٧) الفتح (٩/ ٤٦٩).

كثيرا، مجموعه فيما بلغنا أربعة عشر قولًا :

أحدها : لا شيء عليه . وبه قال الشعبي، ومسروق، وأبو سلمة، وأصبغ، وهو عندكم كتحريم الماء والطعام .

وثانيها : هي ظهار، ففيها كفّارة ظهار . قاله إسحاق .

وثالثها : كفارة يمين . قاله ابن عباس وبعض التابعين .

ورابعها : إن نوى الطلاق، فواحدة بائنة، إلا أن ينوي ثلاثًا ، فإن نوى اثنتين فواحدة، فإن لم ينوِ شيئًا ؛ فهي يمين . وهو قول قاله أبو حنيفة، وأصحابه . وبمثله قال زفر، إلا أنه قال : إذا نوى اثنتين ألزمناه .

وخامسها : إن نوى الطلاق ؛ فما أراد من أعداده . وإن نوى واحدة ؛ فهي رجعية . وهو قول الشافعي . وروي مثله عن أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة والتابعين .

وسادسها : إن نوى ثلاثًا فثلاث، وإن نوى واحدةً فواحدةً، وإن نوى يمينًا فهي يمين، وإن لم ينوِ شيئًا، فلا شيء عليه . وهو قول سفيان . وبمثله قاله الأوزاعي وأبو ثور إلا أنهما قالا : إن لم ينو شيئًا ؛ فهي واحدة .

وسابعها : له نيته، ولا يكون أقل من واحدة . قاله ابن شهاب .

وثامنها : هي في المدخول بها ثلاث، وينوى في غير المدخول بها . وهو قول علي بن زيد، والحكم، والحسن . وهو مشهور مذهب مالك .

وتاسعها : لا ينوى في أقل وإن لم يدخل بها . قاله عبد الملك في «المبسوط» . وبه قال ابن أبي ليلى .

وعاشرها : هي لمن لم يدخل بها واحدة، وفي المدخول بها ثلاث . قاله أبو مصعب، ومحمد بن الحكم .

وحادي عشرها : هي واحدة بائنة وإن كانت مدخولا بها . حكاه ابن خويز منداد عن مالك .

وثاني عشرها : هي واحدة رجعية . حكاه ابن سحنون عن عبد العزيز ابن سلمة . وقد تداخل في العدد الذي ذكرنا قولا زفر والأوزاعي . فالأقوال أربعة عشر .

وسبب هذا الاختلاف العظيم: أنه ليس في كتاب اللّه الكريم، ولا سنة رسوله ﷺ نصّ، ولا ظاهر صحيح يعتمد عليه في هذه المسألة، فتجاذبها الفقهاء لذلك. فمن متمسّك بالبراءة الأصلية، فقال: لا حكم، فلا يلزم بها شيء. ومن مُلحق لهذه الكلمة بأصل يعتمده. فواحدة يلحقها بالظهار، وآخر يلحقها بالنذر المطلق. وآخر يرى أنها قابلة للنية مطلقًا، أو في غير المدخول بها. وأصحابنا يحتجون لمشهور مذهبهم بعرف ثبت عندهم صيّرها من كنايات الطلاق الظاهرة. واللّه تعالى أعلم. وهذا كله في الزوجة»[1].

قال الحافظ: «تنبيه: زعم ابن بطال أن البخاري يرى أن التحريم يتنزل منزلة الطلاق الثلاث، وشرح كلامه على ذلك فقال بعد أن ساق الاختلاف في المسألة: وفي قول مسروق: ما أبالي حرمت امرأتي أو جفنة ثريد. وقول الشعبي: أنت عليّ حرام أهون من فعلي. هذا القول شذوذ وعليه رد البخاري قال: واحتج من ذهب أن من حرم زوجته أنها ثلاث تطليقات بالإجماع على أن من طلق امرأته ثلاثا أنها تحرم عليه، قال: فلما كانت الثلاث تحرمها كان التحريم ثلاثا. قال: وإلى هذه الحجة أشار البخاري بإيراد حديث رفاعة لأنه طلق امرأته ثلاثا فلم تحل له مراجعتها إلا بعد زوج، فكذلك من حرم على نفسه امرأته فهو كمن طلقها اهـ.

وفيما قاله نظر، والذي يظهر من مذهب البخاري أن الحرام ينصرف إلى نية القائل، ولذلك صدر الباب بقول الحسن البصري، وهذه عادته في موضع الاختلاف مهما صدّر به من النقل عن صحابي أو تابعي فهو اختياره. وحاشا البخاري أن يستدل بكون الثلاث تحرّم أن كل تحريم له حكم الثلاث مع ظهور منع الحصر، لأن الطلقة الواحدة تُحرّم غير المدخول بها مطلقا، والبائن تحرّم المدخول بها إلا بعد عقد جديد، وكذلك الرجعية إذا انقضت عدتها فلم ينحصر التحريم في الثلاث، وأيضا فالتحريم أعم من التطليق ثلاثا فكيف يستدل بالأعم على الأخص، ومما يؤيد ما اخترناه أولا تعقيب البخاري الباب بترجمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ وساق فيه قول ابن عباس: (إذا حرم امرأته فليس شيء)»[2].

---

(١) المفهم (٤/ ٢٤٨-٢٥٠).

(٢) الفتح (٩/ ٤٦٧-٤٦٨).

قال القرطبي: «وأما في الأمة: فلا يلزم فيها شيء من ذلك كله إلا أن ينوي به العتق عند مالك. وذهب عامة العلماء: إلى أن عليه كفارة يمين، وكأنهم تمسّكوا بحديث أنس المتقدم. وقال أبو حنيفة: إذا قال ذلك حرم عليه كل ما حرّم على نفسه من طعام، أو شراب، أو أمَة. ولا شيء عليه حتى إذا تناوله لزمه كفارة يمين. وأم الولد كالأمة على ما تقدم»[1].

* * *

(١) المفهم (٤/ ٢٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ③﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد ﷺ ﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾، وهو في قول ابن عباس، وقتادة، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن بن زيد، والشعبي، والضَّحاك بن مزاحم: حَفْصةُ. وقد ذكرنا الرواية في ذلك قبل.

وقوله: ﴿حَدِيثًا﴾ والحديث الذي أسرّ إليها في قول هؤلاء هو قوله لمن أسرّ إليه ذلك من أزواجه تحريم فتاته، أو ما حرّم على نفسه مما كان اللَّه -جل ثناؤه- قد أحله له، وحلفه على ذلك وقوله: «لا تذكري ذلك لأحد».

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فلما أخبرت بالحديث الذي أسرّ إليها رسول اللَّه ﷺ صاحبتها ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يقول: وأظهر اللَّه نبيه محمدًا ﷺ على أنها قد أنبأت بذلك صاحبتها..

وقوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ يقول: وترك أن يخبرها ببعض..

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ يقول: فلما خبر حفصة نبيّ اللَّه ﷺ بما أظهره اللَّه عليه من إفشائها سرّ رسول اللَّه ﷺ إلى عائشة ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ يقول: قالت حفصةُ لرسول اللَّه ﷺ: من أنبأك هذا الخبر وأخبرك به ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال محمد نبيّ اللَّه لحفصة: خبرني به العليم بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، الخبير بأمورهم، الذي لا يخفى عنه شيء»[1].

وقال السعدي: «وقوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثًا، وأمر أن لا تخبر

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٥٩-١٦٠).

به أحدًا، فحدثت به عائشة رضي الله عنها، وأخبره اللَّه بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ، ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرمًا منه ﷺ، وحلما، فـ ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا﴾ الخبر الذي لم يخرج منا؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى»[١].

قال ابن عاشور: «و﴿أَسَرَّ﴾أخبر بما يراد كتمانه عن غير المخبر أو سأله عدم إفشاء شيء وقع بينهما وإن لم يكن إخبارًا، وذلك إذا كان الخبر أو الفعل يراد عدم فشوّه فيقوله صاحبه سرًّا والسرّ ضد الجهر، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[٢] فصار ﴿أَسَرَّ﴾ يطلق بمعنى الوصاية بعدم الإفشاء، أي عدم الإظهار قال تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾[٣] و﴿أَسَرَّ﴾: فعل مشتق من السرّ فإن الهمزة فيه للجعل، أي جعله ذا سرّ، يقال: أسرّ في نفسه، إذا كتم سرّه. ويقال: أسرّ إليه، إذا حدثه بسرّ فكأنه أنهاه إليه، ويقال: أسرّ له إذا أسرّ أمرًا لأجله، وذلك في إضمار الشر غالبًا وأسرّ بكذا، أي أخبر بخبر سرّ، وأسرّ، إذا وضع شيئًا خفيًا. وفي المثَل «يُسِرّ حَسْوًا في ارتغاء».

و﴿بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾هي حفصة بنت عمر بن الخطاب. وعدل عن ذكر اسمها ترفعًا عن أن يكون القصد معرفة الأعيان وإنما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها مما يجتنب مثله أو يقتدى به. وكذلك طي تعيين المنبَّأة بالحديث وهي عائشة. وذكرت حفصة بعنوان بعض أزواجه للإشارة إلى أن النبي ﷺ وضع سِرّه في موضعه، لأن أولى الناس بمعرفة سرّ الرجل زوجهُ. وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سرّه، لأن واجب المرأة أن تحفظ سرّ زوجها إذا أمرها بحفظه أو كان مثله مما يجب حفظه..

وإعراض الرسول ﷺ عن تعريف زوجه ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه ﷺ في معاتبة المفشية وتأديبها إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعضَ ما أفشته فتوقن أن اللَّه يغار عليه. قال سفيان: ما زَال التغافل من فعل الكرام، وقال الحسن: ما استقصى كريمٌ قط، وما زاد على المقصود بقلب العتاب من عتاب إلى تقريع»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٢٠).
(٢) التغابن: الآية (٤).
(٣) يوسف: الآية (٧٧).
(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٥١-٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾

★ **غريب الآية:**

صغت: مالت عن الحق وزاغت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن تتوبا إلى اللَّه أيتها المرأتان فقد مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول اللَّه ﷺ من اجتنابه جاريته، وتحريمها على نفسه، أو تحريم ما كان له حلالا مما حرّمه على نفسه بسبب حفصة»[1].

قال السعدي: «وقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ الخطاب للزوجتين الكريمتين عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سببًا لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض اللَّه عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه»[2].

قال ابن عاشور: «التفات من ذكر القصتين إلى موعظة من تعلقت بهما فهو استئناف خطاب وجهه اللَّه إلى حفصة وعائشة لأن إنباء النبي ﷺ بعلمه بما أفشته القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلى رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها. وإذ قد كان ذلك إثمًا لأنه إضاعة لحقوق الزوج وخاصة بإفشاء سرّه ذكَّرها بواجب التوبة منه.

وخطاب التّثنية عائدة إلى المنبئة والمنبأة، فأمّا المنبئة فمعادها مذكور في الكلام بقوله: ﴿إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾[3] وأما المنبَّأة فمعادها ضمنيّ، لأن فعل ﴿نَبَّأَتۡ﴾ يقتضيه، فأما المنبِّئة فأمرها بالتوبة ظاهر. وأما المُذاع إليها فلأنها شريكة

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٦١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٠).
(٣) التحريم: الآية (٣).

لها في تلقي الخبر السر، ولأن المذيعة ما أذاعت به إليها إلا لعلمها بأنها ترغب في تطلع مثل ذلك فهاتان موعظتان لمذيع السرّ ومشاركة المذاع إليه في ذلك وكان عليها أن تنهاها عن ذلك أو أن تخبر زوجها بما أذاعته عنه ضرتها.

و﴿صَغَتْ﴾: مالت، أي مالت إلى الخير وحق المعاشرة مع الزوج، ومنه سمي سماع الكلام إصغاء، لأن المستمع يُميل سمعه إلى من يكلمه، وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1]. وفيه إيماء إلى أن فيما فعَلَتَاه انحرافًا عن أدب المعاشرة الذي أمر اللَّه به وأن عليهما أن تتوبا مما صنعتاه ليقع بذلك صلاح ما فسد من قلوبهما»[2].

قال عطية محمد سالم: «أطلق التوبة هنا وقيدت في الآية بعدها بأنها توبة نصوح، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[3]»[4].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١١٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٥٦).
(٣) التحريم: الآية (٨).
(٤) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾

★ غريب الآية:

تظاهرا: تعاونا. والظهير: المعين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ يقول -تعالى ذكره- للتي أسرّ إليها رسول اللَّه ﷺ حديثه، والتي أفشت إليها حديثه، وهما عائشة وحفصة ﵄. .

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ يقول: فإن اللَّه هو وليه وناصره، وصالح المؤمنين، وخيار المؤمنين أيضًا مولاه وناصره.

وقيل: عني بصالح المؤمنين في هذا الموضع: أبو بكر، وعمر ﵄. .

وقال آخرون: عُني بصالح المؤمنين: الأنبياء صلوات اللَّه عليهم. .

والصواب من القول في ذلك عندي: أن قوله: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى الجميع، وهو بمعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾[1] فالإنسان وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى الجميع، وهو نظير قول الرجل: لا تقْريَنّ إلا قارئ القرآن، يقال: قارئ القرآن، وإن كان في اللفظ واحدًا، فمعناه الجمع، لأنه قد أذن لكل قارئ القرآن أن يقريه، واحدًا كان أو جماعة.

وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ يقول: والملائكة مع جبريل، وصالح المؤمنين لرسول اللَّه ﷺ أعوان على من آذاه، وأراد مساءته. والظهير في هذا الموضع بلفظ واحد في معنى جمع. ولو أخرج بلفظ الجميع لقيل: والملائكة بعد ذلك ظهراء.»[2].

---

(١) العصر: الآية (٢).

(٢) جامع البيان (٢٨/ ١٦١-١٦٣).

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ هو ضد ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ أي: وإن تصرّا على العود إلى تألبكما عليه فإن اللَّه مولاه الخ.

والمظاهرة: التعاون، يقال: ظاهره، أي: أيده وأعانه. قال تعالى: ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾[1]. ولعلّ أفعال المظاهر ووصف ظهير كلها مشتقة من الاسم الجامد، وهو الظَّهر لأن المعين والمؤيد كأنه يشد ظَهر من يعينه ولذلك لم يسمع لهذه الأفعال الفرعية والأوصاف المتفرعة عنها فعل مجرد. وقريب من هذا فعل عَضَد لأنهم قالوا: شَد عضده..

وضمير الفصل في قوله: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ يفيد القصر على تقدير حصول الشرط، أي إن تظاهرتما متناصرتين عليه فإن اللَّه هو ناصره لا أنتما، أي: وبطل نصركما الذي هو واجبكما إذْ أخللتما به على هذا التقدير. وفي هذا تعريف بأن اللَّه ناصر رسولَه ﷺ لئلا يقع أحد من بعد في محاولة التقصير من نصره..

وفائدة ذكر الملائكة بعد ذكر تأييد اللَّه وجبريل وصالح والمؤمنين أن المذكورين قبلهم ظاهره آثار تأييدهم بوحي اللَّه للنبي ﷺ بواسطة جبريل ونصره إياه بواسطة المؤمنين، فنبه اللَّه المرأتين على تأييد آخر غيرِ ظاهرة آثاره وهو تأييد الملائكة بالنصر في يوم بدر وغير النصر من الاستغفار في السماوات، فلا يتوهم أحد أن هذا يقتضي تفضيل نصرة الملائكة على نصرة جبريل بَلْه نصرة اللَّه تعالى»[2].

وقال السعدي: «وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه الكريمة، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضا، بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن»[3].

قال عطية محمد سالم: «قال أبو حيان: الوقف على «مولاه»، وتكون الولاية خاصة باللَّه، ويكون «جبريل» مبتدأ وما بعده عطف عليه، و«ظهير» خبر، وعليه يكون «جبريل» ذكر مرتين بالخصوص أولًا وبالعموم ثانيًا.

وقيل: الوقف على «وجبريل» معطوفًا على لفظ الجلالة في الولاية، ثم ابتدئ

---

(١) التوبة: الآية (٤).
(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٥٧-٣٥٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٨٧٣).

بـ«صالح المؤمنين» وعطف عليهم «الملائكة»، ويدخل فيهم «جبريل» ضمنًا اهـ.

فعلى الوقف الأول يكون درج «صالح المؤمنين» بين «جبريل» وبين «الملائكة» تنبيهًا على علو منزلة «صالح المؤمنين»، وبيان منزلتهم من عموم «الملائكة» بعد «جبريل»، وعلى الوقف الثاني فيه عطف «جبريل» على لفظ الجلالة في الولاية بالواو، وليس فيه ما يوهم التعارض مع الحديث في بثُم إذ محل العطف هو الولاية، وهي قدر ممكن من الخلق ومن اللَّه تعالى كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] لأن النصر يكون من اللَّه ويكون من العباد، من باب الأخذ بالأسباب ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾[2]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[3]، وقوله: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[4] بخلاف سياق الحديث، فقد كان في موضع المشيئة حينما قال الأعرابي: ما شاء اللَّه وشئت. فقال له ﷺ: «**أجعلتني لله ندا؟ قل ما شاء اللَّه وحده**»[5] لأن حقيقة المشيئة لله تعالى وحده كما في قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[6]. وكقوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[7]. وكقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[8].

ومن اللطائف في قوله تعالى: «﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ إلى آخر، ما سمعته من الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه، أنه قال: إن المتظاهرتين على رسول اللَّه ﷺ امرأتان فقط تآمرتا عليه فيما بينهما، فجاء بيان الموالين له ضدهما كل من ذكر في الآية، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ما يدل على عظم كيدهن وضعف الرجال أمامهن، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[9]، بينما قال في كيد الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[10] وقد عبر الشاعر عن ذلك بقوله:

---

(١) الأنفال: الآية (٦٢).
(٢) التوبة: الآية (٤٠).
(٣) الحشر: الآية (٨).
(٤) آل عمران: الآية (٥٢).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٤٥/ ١٠٨٢٥)، وابن ماجه (١/ ٦٨٤/ ٢١١٧). وحسنه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء (٣/ ١٦٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر الصحيحة رقم (١٣٩).
(٦) التكوير: الآية (٢٩).
(٧) الرعد: الآية (٣١).
(٨) الروم: الآية (٤).
(٩) يوسف: الآية (٢٨).
(١٠) النساء: الآية (٧٦).

مـا استـعـظـم الإلـه كـيـدهـنـه إلا لأنَّـهـن هـن هـنـه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في موالاة المؤمنين، ومقاطعة غيرهم، والبراءة منهم

* عن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي ﷺ -جهارًا غير سر- يقول: «**إن آل أبي** -قال عمرو في كتاب محمد بن جعفر: بياض- **ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله، وصالح المؤمنين**» زاد عنبسة بن عبد الواحد، عن بيان، عن قيس، عن عمرو بن العاص قال: سمعت النبي ﷺ: «**ولكن لهم رحم أبلها ببلالها**»، **يعني أصلها بصلتها**.[٢]

★ غريب الحديث:

البِلال: جمع بَلل وهو النداوة، وأطلق ذلك على الصلة كما أطلق اليبس على القطيعة؛ لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها وتأليفه، بخلاف اليبس فمن شأنه التفريق وقال الخطابي: «بلْلت الرّحم بلاً وبللا أي: ندّيتها بالصلة»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «قوله: (جهارا) فمعناه علانية لم يخفه بل باح به وأظهره وأشاعه، ففيه التبرؤ من المخالفين، وموالاة الصالحين، والإعلان بذلك مالم يخف ترتب فتنة عليه، والله أعلم»[٤].

قال القاضي عياض: «قوله: «إنما وليي الله وصالح المؤمنين» أفاد أن أولياءه صالح المؤمنين وإن بعد نسبهم منه، وأن من ليس بمؤمن ولا صالح ليس له بولي وإن قرُب نسبه منه، ودل الحديث أن الولاية في الإسلام إنما هي بالموافقة فيه بخصال الديانة وزمام الشريعة، لا بامتشاج النسب وشجنة الرحم»[٥].

---

(١) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٧٥-٣٧٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٣)، والبخاري (١٠/ ٥١٣/ ٥٩٩٠)، ومسلم (١/ ١٩٧/ ٢١٥).

(٣) الفتح (١٠/ ٥١٧-٥١٨).

(٤) شرح مسلم (٣/ ٧٤).

(٥) الإكمال (١/ ٦٠٠).

قال التوربشتي: «المعنى أني لا أوالي أحدًا بالقرابة وإنما أحب اللَّه سبحانه لما يحقّ له على العباد، وأحب صالحي المؤمنين لوجه اللَّه سبحانه، وأوالي من أوالي بالإيمان والصلاح، وأراعي لذوي الرحمن حقهم بصلة الرحم»[1].

قال ابن بطال: «قال المهلب: **«إن آل أبي ليسوا بأوليائي إنما وليي اللَّه وصالح المؤمنين»** فأوجب ﷺ الولاية بالدين، ونفاها عن أهل رحمه إذ لم يكونوا من أهل دينه، فدل ذلك على أن النسب محتاج إلى الولاية التي بها تقع الوراثة بين المتناسبين والأقارب، فإن لم يكن لهم دين يجمعهم لم تكن ولاية ولا موارثة، ودل هذا أن الرحم التي تضمن اللَّه أن يصل من وصلها ويقطع من قطعها، إنما ذلك إذا كان في اللَّه وفيما شرع، وأما من قطعها في اللَّه وفيما شرع فقد وصل اللَّه والشريعة واستحق صله اللَّه بقطعه من قطع اللَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾[3] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾[4] فكيف بمن لم يؤمن»[5].

قال الحافظ معقبًا على كلام ابن بطال: «ويتعقب كلامه في موضعين: أحدهما: يشاركه فيه كلام غيره وهو قصره النفي على من ليس على الدين، وظاهر الحديث أن من كان غير صالح في أعمال الدين دخل في النفي أيضا لتقييده الولاية بقوله: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. والثاني: أن صلة الرحم الكافر ينبغي تقييدها بما إذا أيس منه رجوعا عن الكفر، أو رجى أن يخرج من صلبه مسلم كما في الصورة التي استدل بها وهي دعاء النبي ﷺ لقريش بالخصب، وعلل بنحو ذلك فيحتاج من يترخص في صلة رحمه الكافر أن يقصد إلى شيء من ذلك، وأما من كان على الدين ولكنه مقصر في الأعمال مثلا فلا يشارك الكافر في ذلك»[6].

* * *

(١) الكاشف (١٠/ ٣١٥٦).
(٢) الممتحنة: الآية (١).
(٣) التوبة: الآية (٢٣).
(٤) الأنفال: الآية (٧٢).
(٥) شرح البخاري (٩/ ٢٠٦-٢٠٧).
(٦) الفتح (١٠/ ٥١٦).

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

سائحات: جمع سائحة. والسياحة: الذهاب في الأرض.

ثيبات: جمع ثيب، وهي التي دخل بها.

أبكارا: جمع بكر، وهي المرأة العذراء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: عسى ربّ محمد إن طلقكنّ يا معشر أزواج محمد ﷺ أن يبدله منكنّ أزواجًا خيرًا منكن.

وقيل: إن هذه الآية نزلت على رسول اللّه ﷺ تحذيرًا من اللّه نساءه لما اجتمعن عليه في الغيرة..

وقوله: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ يقول: خاضعات لله بالطاعة ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ يعني مصدّقات باللّه ورسوله.

وقوله: ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ يقول: مطيعات لله..

وقوله: ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ يقول: راجعات إلى ما يحبه اللّه منهنّ من طاعته عما يكرهه منهنّ.

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ يقول: متذللات لله بطاعته.

وقوله: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ يقول: صائمات.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: صائمات..

وقال آخرون: السائحات: المهاجرات..

وقد بيَّنا الصواب من القول في معنى السائحين فيما مضى قبل بشواهده مع ذكرنا أقوال المختلفين فيه، وكرهنا إعادته.

وكان بعض أهل العربية يقول: نرى أن الصائم إنما سمي سائحًا، لأن السائح لا زاد معه، وإنما يأكل حيث يجد الطعام، فكأنه أُخذ من ذلك.

وقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾ وهن اللواتي قد افترعن وذهبت عذرتهنّ ﴿وَأَبْكَارًا﴾ وهنّ اللواتي لم يجامعن، ولم يفترعن»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: صائمات، قاله أبو هريرة، وعائشة، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، ومحمد ابن كعب القرظي، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو مالك، وإبراهيم النخعي، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسُدّيّ، وغيرهم. وتقدم فيه حديث مرفوع عند قوله: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ من سورة براءة.

وقال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ أي: مهاجرات، وتلا عبد الرحمن: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ أي: المهاجرون. والقول الأول أولى، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكارا، ليكون ذلك أشهى إلى النفوس، فإن التنوع يبسُط النفسَ؛ ولهذا قال: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾»[2].

وقال السعدي: «﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ أي: فلا تترفعن عليه، فإنه لو طلقكن لا يضيق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيجد ويبدله اللَّه أزواجًا خيرًا منكن دينا وجمالا، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذكره اللَّه من هذه الأزواج الفاضلات، ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ جامعات بين الإسلام، وهو: القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب. ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ القنوت: هو دوام الطاعة واستمرارها. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عما يكرهه اللَّه. فوصفهن بالقيام بما يحبه اللَّه، والتوبة عما يكرهه اللَّه، ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﷺ فيما يحب، فلما سمعن -رضي اللَّه عنهن- هذا

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٦٣-١٦٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩٣).

التخويف والتأديب بادرن إلى رضا رسول اللَّه ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين»[١].

قال عطية محمد سالم: «﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ فيه بيان أن الخيرية التي يختارها اللَّه لرسوله ﷺ في النساء هي تلك الصفات من الإيمان والصلاح. وجاء الحديث «**فعليك بذات الدين تربت يمينك**»[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾[٣]. وفي تقديم الثيبات على الأبكار هنا في معرض التخيير ما يشعر بأوليتهن، مع أن الحديث «**هلا بكرًا تداعبك وتداعبها**»[٤]، ونساء الجنة لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، ففيه أولوية الأبكار. وقد أجاب المفسرون بأن هذا للتنويع فقط، وأن الثيبات في الدنيا والأبكار في الجنة كمريم ابنة عمران، والذي يظهر واللَّه تعالى أعلم: أنه لما كان في مقام الانتصار لرسول اللَّه ﷺ وتنبيههن لما يليق بمقامه عندهن ذكر من الصفات العالية دينًا وخلقًا، وقدم الثيبات ليبين أن الخيرية فيهن بحسب العشرة ومحاسن الأخلاق.

وقوله تعالى: «﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ لم يبين هل طلقهن أم لا؟ مع أن عسى من اللَّه للتحقيق[٥]، ولكنه لم يقع طلاقهن كما بينه تعالى في سورة الأحزاب، بأنه تعالى خيرهن بين اللَّه ورسوله، وبين الحياة الدنيا وزينتها، فاخترن اللَّه ورسوله والدار الآخرة فلم يطلقهن، ولم يبدله أزواجًا خيرًا منهن.

وقد بين الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه هذه المسألة، وإحلال الزواج إليه، وتحريم النساء بعدهن عليه عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾[٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤٢١-٤٢٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٨)، والبخاري (٣/ ١٦٣-١٦٤/ ٥٠٩٠)، ومسلم (٢/ ١٠٨٦/ ١٤٦٦)، وأبو داود (٢/ ٥٣٩-٥٤٠/ ٢٠٤٧)، والنسائي (٦/ ٣٧٦/ ٣٢٣٠)، وابن ماجه (١/ ٥٩٧/ ١٨٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) البقرة: الآية (٢٢١).

(٤) أخرجه: البخاري (٧/ ٣٥٧/ ٤٠٥٢)، ومسلم (٢/ ١٠٨٧-١٠٨٨/ ٧١٥)، وأبو داود (٢/ ٥٤٠-٥٤١/ ٢٠٤٨)، والترمذي (٣/ ٤٠٦/ ١١٠٠)، والنسائي (٦/ ٣٦٩-٣٧٠/ ٣٢١٩-٣٢٢٠)، وابن ماجه (١/ ٥٩٨/ ١٨٦٠) من حديث جابر ﷺ.

(٥) انظر القرطبي (١٨/ ١٢٦).

(٦) الأحزاب: الآية (٥٠).

وقوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾[1] وقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾[2] الآية. وبين الناسخ من المنسوخ في ذلك في دفع إياهم الاضطراب عن آيات الكتاب»[3].

قال القرطبي: «قيل: كل ﴿عَسَى﴾ في القرآن واجب إلا هذا. وقيل: هو واجب، ولكن الله ﷻ علقه بشرط وهو التطليق ولم يطلقهن»[4].

قال ابن عاشور: «و﴿عَسَى﴾ هنا مستعملة في التحقيق وإيثارها هنا لأن هذا التبديل مجرد فرض وليس بالواقع، لأنهن لا يظن بهن عدم الارعواء عما حذرن منه، وفي قوله: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ تذكير لهن بأنهن ما اكتسبن التفضيل على النساء إلا من فضل زوجهن عند الله وإجراء الأوصاف المفصلة بعد الوصف المجمل وهو ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ للتنبيه على أن أصول التفضيل موجودة فيهن فيكمل اللاء يتزوجهن النبي ﷺ فضل على بقية النساء بأنهن صرن أزواجًا للنبيء ﷺ»[5].

وقال أيضًا: «وهذه الصفات انتصبت على أنها نعوت لـ«أزواجًا»، ولم يعطف بعضُها على بعض الواو، لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن، ولو عطفت بالواو لاحتمل أن تكون الواو للتقسيم، أي تقسيم الأزواج إلى من يثبت لهن بعض تلك الصفات دون بعض، ألا ترى أنه لما أريدت إفادة ثبوت إحدى صفتين دون أخرى من النعتين الواقعين بعد ذلك كيف عطف بالواو قوله: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ لأن الثّيبات لا يوصفن بأبكار. والأبكار لا يوصفن بالثيّبات. قُلت: وفي قوله تعالى: ﴿مُسْلِمَاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿سَائِحَاتٍ﴾ مُحسن الكلام المتزن إذْ يَلتئم من ذلك بيت من بحر الرمل التام:

فاعلاتن فاعلاتن فاعلتن ... فاعلاتن فاعلاتن فاعلتن

ووجه هذا التفصيل في الزوجات المقدرات لأن كلتا الصفتين محاسنها عند الرجال؛ فالثيب أرعى لواجبات الزوج، وأميل مع أهوائه، وأقوم على بيته، وأحسن لِعابًا، وأبهى زينة، وأحلى غنجًا.

---

(١) الأحزاب: الآية (٥١).
(٢) الأحزاب: الآية (٥٢).
(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٧٧-٣٧٨).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٢٦).
(٥) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٦٠).

والبكر أشد حياء وأكثر غرارة ودلًا وفي ذلك مجلبة للنفس، والبكر لا تعرف رجلًا قبل زوجها ففي نفوس الرجال خلق من التنافس في المرأة التي لم يسبق إليها غيرهم.

فما اعتزت واحدة من أزواج النبي ﷺ بمزية إلا وقد أنبأها الله بأن سيبدله خيرًا منها في تلك المزية أيضًا»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن أنس قال: قال عمر رضي الله عنه: «اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن فنزلت هذه الآية»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «فيه بيان لسبب النزول»[٣].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤و٣٦-٣٧)، والبخاري (٨/ ٨٥٢/ ٤٩١٦)، وأخرجه مختصرا: الترمذي (٥/ ١٨٩-١٩٠/ ٢٩٥٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٩٨٢-٠٩٢/ ٨٩٩٠١)، وابن ماجه (١/ ٢٢٣/ ٩٠٠١).

(٣) عمدة القاري (١٣/ ٤٢٧).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ يقول: علموا بعضكم بعضا ما تقون به من تعلمونه النار، وتدفعونها عنه إذا عمل به من طاعة اللَّه، واعملوا بطاعة اللَّه.

وقوله: ﴿وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: وعلموا أهليكم من العمل بطاعة اللَّه ما يقون به أنفسهم من النار»[(١)].

وقال السعدي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يا من منَّ اللَّه عليهم بالإيمان قوموا بلوازمه وشروطه. فـ ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر اللَّه امتثالا ونهيه اجتنابًا، والتوبة عما يسخط اللَّه ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر اللَّه، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر اللَّه به في نفسه، وفيمن تحت ولايته وتصرفه»[(٢)].

وقال ابن كثير: «عن علي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: أدبوهم، عَلموهم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: اعملوا بطاعة اللَّه، واتقوا معاصي اللَّه، ومُروا أهليكم بالذكر، ينجيكم اللَّه من النار.

وقال مجاهد: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ قال: اتقوا اللَّه، وأوصوا أهليكم بتقوى اللَّه.

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٦٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٢).

وقال قتادة: يأمرهم بطاعة اللَّه، وينهاهم عن معصية اللَّه، وأن يقومَ عليهم بأمر اللَّه، ويأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية، قَدعتهم عنها وزجرتهم عنها.

وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله، من قرابته وإمائه وعبيده، ما فرض اللَّه عليهم، وما نهاهم اللَّه عنه»[1].

قال ابن كثير: «قال الفقهاء: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينا له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة، والطاعة، ومجانبة المعصية، وترك المنكر، واللَّه الموفق»[2].

قال المكي الناصري: «فيما يخص المثل الأعلى لتربية النفس والأهل والأولاد دعا كتاب اللَّه الجميع إلى أن يجعلوا بينهم وبين ما يوجب عقاب اللَّه وعذابه في الدنيا والآخرة وقاية فعالة وحجابا منيعا: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، والأهل يشمل الزوجة والأولاد وما ألحق بهم، والوقاية السابقة خير من العلاج اللاحق، ووقاية النفس تكون بالسلوك الحسن الذي يقيها من الزلات والعثرات، ووقاية الأهل تكون بحسن توجيههم وتقويم اعوجاجهم، ووقاية الأولاد تكون بحسن تربيتهم، والعمل المتواصل على إعدادهم للحياة الصالحة دينا ودنيا منذ الطفولة الأولى.
قال أبو بكر (ابن العربي) المعافري: «فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي للرعية، وكما يؤدب ولده في مصلحتهم يؤدب أهله فيما يصلحه ويصلحهم أدبا خفيفا». وقال أبو بكر الرازي الجصاص: «وهذا يدل على أن علينا تعليم أولادنا وأهلينا الدين والخير، وما لا يستغنى عنه من الآداب، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾[3]، ونحو قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[4]، ويدل على أن للأقرب فالأقرب منا مزية في لزومنا تعليمهم، وأمرهم بطاعة اللَّه تعالى، ويشهد له قول النبي ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»، ومعلوم أن الراعي كما عليه حفظ من استُرعي وحمايتُه والتماس مصالحه

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٥٢).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٥٢).
(٣) طه: الآية (١٣٢).
(٤) الشعراء: الآية (٢١٤).

فكذلك عليه تأديبه وتعليمه. وبذلك يكون الأزواج والآباء (قوامين) بالمسؤولية الدينية والاجتماعية الملقاة على عواتقهم خير قيام، وتكون حياتهم الشخصية والعائلية في مأمن من الهزات والأزمات، وإلا حقت عليهم وعلى من يقع تحت ولايتهم كلمة العذاب في الدنيا قبل الآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مسألة كل راع عما استرعى

* عن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسؤول، فالإمام راع وهو مسؤول، والرجل راع على أهله وهو مسؤول والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول»**[(٣)].

★ غريب الحديث:

راع: الراعي: هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره.

★ فوائد الحديث:

قال القاضي: «فيه أن كل من تولى من أمر أحدٍ شيئًا فهو مطالب بالعدل فيه، وأداء الحق الواجب، والقيام بمصلحة ما تولاه، كالرجل في أهل بيته، والمرأة فيما تتولاه من بيتها ومال زوجها وولده، والعبد فيما يتولاه ويتصرف فيه من مال سيده»[(٤)].

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه أن الأمة على شبيه الشجرة، وصلاح كل أصل منها سبب لصلاح من بعده، فالإمام راع لجميع الأمة وهو مسؤول عن

---

(١) طه: الآية (١٢٤).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٥-٥٥-١١١-١٢١)، والبخاري (٩/ ٣١٦/ ٥١٨٨) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٤٥٩/ ١٨٢٩)، وأبو داود (٣/ ٣٤٢-٣٤٣/ ٢٩٢٨)، والترمذي (٤/ ١٨٠-١٨١/ ١٧٠٥) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٤/ ٩١٧٣).

(٤) الإكمال (٦/ ٢٣٠).

رعيته، وهذا السؤال يتناول كل ما يقتضي السؤال عنه من أمر دينه ودنياه، ومن مفهوم الخطاب ما يدل على أن الرعية مسؤولة عن إمامها، عن كل ما يتعلق بهم من أمره من دين ودنيا، والرجل مسؤول عن رعيته، من تعليم أهله ما يجب عليهم تعلمه، وصونهم عن البذلة، والغيرة على النساء منهم، ومن تربية الأطفال وحفظهم فيما في أيديهم من مال»[١].

قال القرطبي: «وكل من ذكر في هذا الحديث قد كُلف ضبط ما أسند إليه من رعيته، واؤتمن عليه، فيجب عليه أن يجتهد في ذلك، وينصح ولا يفرط في شيء من ذلك، فإن وفّى ما عليه من الرعاية حصل له الحظ الأوفر، والأجر الأكبر، وإن كان غير ذلك طالبه كلّ واحد من رعيته بحقه، فكثر مطالبوه، وناقشه محاسبوه»[٢].

قال المهلب: «هذا الحديث مفسر للآية التي ترجم بها[٣]؛ لأنه أخبر ﷺ أن الرجل مسؤول عن أهله، وإذا كان كذلك فواجب عليه أن يعلمهم ما يقيهم به النار»[٤].

قال الحافظ: «ومطابقته ظاهرة؛ لأن أهل المرء ونفسه من جملة رعيته، وهو مسؤول عنهم لأنه أمر أن يحرص على وقايتهم من النار، وامتثال أوامر اللَّه واجتناب مناهيه»[٥].

قال ابن أبي جمرة: «قوله ﷺ: «**والرجل راع في أهله، ومسؤول عن رعيته**» الأهل هنا مبهم، فما يعنى به؟ لأن الأهل ينطبق على الزوجة كما قال أسامة -رضي اللَّه تعالى عنه- حين سأله رسول اللَّه ﷺ في حديث الإفك: فقال: «أهلك يا رسول الله»[٦] عنى به عائشة ﵂. واحتمل أن يريد بالأهل من يلزم الرجل نفقته شرعًا، كقول نوح ﵇: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾[٧] وكقول مولانا ﷻ في قصة أيوب ﵇ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾[٨] وكانوا زوجه وبنيه، والعبد أيضًا داخل في

(١) الإفصاح (٤/ ١٨-١٩).
(٢) المفهم (٤/ ٢٧-٢٨).
(٣) يعني البخاري.
(٤) شرح ابن بطال (٧/ ٢٩٦).
(٥) فتح الباري (٩/ ٣١٦).
(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٩-٦٠)، والبخاري (٨/ ٨٧٥/ ٢٥٧٤)، ومسلم (٤/ ٢١٢٩/ ٢٧٧٠)، والترمذي (٥/ ٣١٠/ ٣١٨٠)، من حديث عائشة ﵂.
(٧) هود: الآية (٤٥).
(٨) ص: الآية (٤٣).

الأهل لأنه من جملة الرعية بدليل قوله ﷺ في سلمان: «هو من أهل البيت»[١] وكان عبدًا، ولأنه مما أبيح له النظر إلى زينة سيدته، كما أبيح لذوي المحارم لقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾[٢] احتمل الوجهين معا، لكن الأظهر أن يكون الأعم منهما، فإن الفائدة فيه أعم، ولأنه ﷺ قال في آخر الحديث: «والرجل راع في مال أبيه»[٣] ولم يذكر أن الأب راع في مال ابنه، فلما كان الابن من جميع من دخل في قوله ﷺ: «أهله» لم يعد ذكره، ومثل ذلك في العبد والزوجة، وذكرهم ﷺ لنعلم أنه وإن كان صاحب البيت مسؤولًا عنهم فإن كل واحد منهم مسؤول أيضًا على قدر ما يخصه على ما يذكر بعد.

فأما ما يجب على الرجل من الحق في زوجه وولده وعبيده فمنه ما عند الناس كلهم عالمهم وجاهلهم، كالكسوة والنفقة والسكنى لا خفاء به، وهذا بعض من كلّ، فإن الذي يجب عليه زائدًا على ذلك حفظهم في دينهم حتى يحملهم عليه فرضه وندبه كل على وجهه، وهو آكد من النفقة، والكسوة بدليل أن الكسوة والنفقة قد تسقط عنه بالعسر. والإرشاد إلى الدين وتعليمه لا يسقط عنه بوجه، وما لا يسقط آكد ضرورة مما يسقط، لكن لما رأى الناس الحكام يحكمون في النفقة والكسوة وما يتعلق بالأمور الدنيوية ولم يحكموا في غيرها على الرعاة، لم يبقوا يجعلون الواجب إلا ما حكم فيه ليس إلا.

وغاية الذين ينسبون إلى العلم والخير في الأغلب منهم ينسبون ما زاد على ما حكم به أن الكلام فيه من قبيل المندوب الذي إذا فعلوه كانوا مأجورين، وإن لم يفعلوه لم يأثموا، وهذا جهل محض، وغلط ظاهر بدليل الكتاب والسنة وقول الأئمة»[٤].

---

(١) أخرجه: الطبراني في الكبير (٦/ ٢١٢-٢١٣/ ٦٠٤٠)، والحاكم (٣/ ٥٩٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٣٠) وقال: «فيه كثير بن عبد الله المزني وقد ضعفه الجمهور وحسن الترمذي حديثه وبقية رجاله ثقات». والحديث قال عنه الألباني في الضعيفة (٨/ ١٧٦/ ٣٧٠٤): «ضعيف جدا.. نعم قد صح الحديث موقوفا على علي ﷺ من طرق عنه» ثم ذكرها.

(٢) النور: الآية (٣١).

(٣) طرف من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ٥)، والبخاري (٥/ ٢٢٢-٢٢٣/ ٢٥٥٤)، ومسلم (٣/ ١٤٥٩/ ١٨٢٩)، وأبو داود (٣/ ٣٤٢-٣٤٣/ ٢٩٢٨)، والترمذي (٤/ ١٨٠-١٨١/ ١٧٠٥) من حديث ابن عمر.

(٤) بهجة النفوس (٢/ ٤٦-٤٧).

«وقال غيره دخل في هذا العموم المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد، فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه حتى يعمل المأمورات، ويجتنب المنهيات فعلًا، ونطقًا، واعتقادًا، فجوارحه وقواه وحواسه رعيته، ولا يلزم من الاتصاف بكونه راعيا ألا يكون مرعيا باعتبار آخر»[(١)].

* عن سبرة بن معبد الجهني قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين. وإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها»**[(٢)].

★ فوائد الحديث:

قال الطيبِي: «إذا بلغ أولادكم سبع سنين فأمروهم بأداء الصلاة ليعتادوها ويستأنسوا بها، فإذا بلغوا عشرًا ضربوا على تركها وفرقوا بين الأخ والأخت مثلا في المضاجع لئلا يقعوا فيما لا ينبغي، لأن بلوغ العشر مظنة الشهوة وإن كن أخوات. أقول: إنما جمع بين الأمر بالصلاة والفرق بينهم في المضاجع في الطفولة تأديبًا ومحافظة لأمر اللَّه كله؛ لأن الصلاة أصلها وأسبقها، وتعليمًا لهم بين الخلق، وأن لا يقفوا مواقف التهم فيتجنبوا محارم اللَّه كلها»[(٣)].

قال البنا معلقا على قوله: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين» «أي: عند تمامها إذا ميزوا وإلا فعند التمييز، وإنما قيد بالسبع لأن التمييز يحصل بعدها في الغالب، وقوله: «واضربوهم الخ» أي: على تركها عقب تمام العشر ضربًا غير مبرح، واعتمد جماعة الشافعية أن الضرب يجب بالشروع في العاشرة، وذلك ليتمرنوا عليها ليعتادوها بعد البلوغ، وأخر الضرب للعشرة لأنه عقوبة، والعشر زمن احتمال البلوغ بالاحتلام مع كونه حينئذ يقوى ويحتمله غالبًا»[(٤)].

قال النووي: «واعلم أن قوله ﷺ: **«مروا أولادكم بالصلاة»**[(٥)] ليس أمرًا منه ﷺ للصبي، وإنما هو أمر للولي، فأوجب على الولي أن يأمر الصبي، وهذه قاعدة

---

(١) الفتح (١٣/ ١٤٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٠٤)، وأبو داود (١/ ٣٣٢-٣٣٣/ ٤٩٤)، والترمذي (٢/ ٢٥٩/ ٤٠٧) وقال: «حديث حسن صحيح»، الحاكم (١/ ٢٥٨)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٣) شرح الطيبي (٣/ ٨٧٠-٨٧١).

(٤) الفتح الرباني (٢/ ٢٣٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٧)، وأبو داود (١/ ٣٣٤/ ٤٩٦)، وصححه الحاكم (١/ ١٩٧) من حديث عبد اللَّه بن عمرو ﵄.

معروفة في الأصول أن الأمر بالأمر بالشيء ليس أمرًا بالشيء، ما لم يدل عليه دليل كقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾[1].

أما حكم المسألة فمن لا تلزمه الصلاة لا يؤمر بفعلها لا إيجابًا ولا ندبًا إلا الصبيّ والصبيّة، فيؤمران بها ندبًا إذا بلغ سبع سنين وهما مميزان، ويضربان على تركها إذا بلغا عشر سنين، فإن لم يكونا مميزين لم يؤمرا لأنها لا تصح من غير مميز، وقد اقتصر المصنف[2] على الصبيّ ولو قال: الصبي والصبية لكان أولى، وأنه لا فرق بينهما بلا خلاف، صرح به أصحابنا، لحديث عمرو بن شعيب الذي ذكرناه، وهذا الأمر والضرب واجب على الولي سواء كان أبًا أو جدًّا أو وصيًّا أو قيمًا من جهة القاضي، صرح به أصحابنا، منهم صاحب الشامل والعدة وآخرون، ذكره صاحب العدة في آخر باب موقف الإمام والمأموم هناك، وذكره المزني عن الشافعي في المختصر، ودليل هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وقوله ﷺ: «**وإن لولدك عليك حقا**» رواه مسلم في صحيحه في كتاب الصيام، من رواية عمرو بن العاص[4]. وقوله ﷺ: «**كلكم راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته**» رواه البخاري ومسلم.

قال الشافعي في المختصر: «وعلى الآباء والأمهات أن يؤدبوا أولادهم ويعلموهم الطهارة والصلاة ويضربوهم على ذلك إذا عقلوا».

قال أصحابنا: ويأمره الولي بحضور الصلاة في الجماعة وبالسواك وسائر الوظائف الدينية، ويعرّفه تحريم الزنى واللواط والخمر والكذب والغيبة وشبهها. قال الرافعي: قال الأئمة: يجب على الآباء والأمهات تعليم أولادهم الطهارة والصلاة والشرائع بعد سبع سنين، وضربهم على تركها بعد عشر سنين، وأجرة

---

(١) التوبة: الآية (١٠٣).

(٢) يقصد الشيرازي صاحب المهذب رحم الله الجميع.

(٣) طه: الآية (١٣٢).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٢/ ٨١٤/ ١١٥٩ [١٨٣]) وهو طرف من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ١٩٧)، والبخاري (٤/ ٢٧٦/ ١٥٧٦)، ومسلم (٢/ ٨١٣/ ١١٥٩[١٨٢])، وأبو داود (٢/ ٨٠٩/ ٢٤٢٧)، والنسائي (٤/ ٥٢٧/ ٢٣٩٠).

تعليم الفرائض في مال الصبيّ، فإن لم يكن له مال فعلى الأب، فإن لم يكن فعلى الأم. وهل يجوز أن يعطى أجرة تعليم ما سوى الفاتحة والفرائض من مال الصبيّ؟ فيه وجهان أصحهما يجوز»[١].

* عن عبد اللّه بن عبيد اللّه بن أبي مليكة قال: توفيت ابنة لعثمان رضي الله عنه بمكة وجئنا لنشهدها، وحضرها ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم، وإني لجالس بينهما -أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي- فقال عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما لعمرو بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول اللّه ﷺ قال: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال البخاري: «باب قول النبي ﷺ: «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه**» إذا كان النوح من سنته، لقول اللّه تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ وقال النبي ﷺ: «**كلكم راع ومسؤول عن رعيته**»، فإذا لم يكن من سنته فهو كما قالت عائشة رضي الله عنها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ وهو كقوله: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ﴾ -ذنوبا- ﴿إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ﴾[٣] وما يرخص من البكاء من غير نوح. وقال النبي ﷺ: «**لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها**»[٤]، وذلك لأنه أول من سن القتل»[٥].

قال الحافظ معلقا على ترجمة البخاري: «حاصل ما بحثه المصنف في هذه الترجمة أن الشخص لا يعذب بفعل غيره إلا إذا كان له فيه تسبب، فمن أثبت تعذيب شخص بفعل غيره فمراده هذا، ومن نفاه فمراده ما إذا لم يكن له فيه تسبب أصلا، واللّه أعلم»[٦].

---

(١) المجموع (٣/ ١١).

(٢) أخرجه: البخاري (٣/ ١٩٤/ ١٢٨٦)، ومسلم (٢/ ٦٤٠/ ٩٢٨)، والنسائي (٤/ ٣١٧/ ٢٨٥٧).

(٣) فاطر: الآية (١٨).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٣)، والبخاري (٦/ ٤٤٨/ ٣٣٣٥)، ومسلم (٣/ ١٣٠٣-١٣٠٤/ ١٦٧٧)، والترمذي (٥/ ٤١/ ٢٦٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٤/ ١١١٤٢)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٣/ ٢٦١٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٥) الفتح (٣/ ١٩٣).

(٦) فتح الباري (٣/ ١٩٧).

وقال العيني: «فإن قلت: ما وجه المناسبة بين الآية والحديث وهو مقيّد والآية مطلقة؟ قلت: الآية بظاهرها وإن دلت على العموم، ولكن خص منها من لم يكن له علم بما يفعله أهله من الشر، ومن نهاهم عنه فلم ينتهوا فلا مؤاخذة ههنا، ولهذا قال عبد اللّٰه بن المبارك: إذا كان ينهاهم في حياته ففعلوا شيئا من ذلك بعد وفاته لم يكن عليه شيء»[(١)].

قال النووي: «قوله ﷺ: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه»، وفي رواية: «ببعض بكاء أهله عليه»، وفي رواية: «ببكاء الحي»، وفي رواية: «يعذب في قبره بما نيح عليه»، وفي رواية: «من يبك عليه يعذب»، وهذه الروايات من رواية عمر ابن الخطاب وابنه عبد اللّٰه رضي الله عنهما، وأنكرت عائشة، ونسبتها إلى النسيان والاشتباه عليهما، وأنكرت أن يكون النبي قال ذلك، واحتجت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(٢)]، قالت: وإنما قال النبي ﷺ في يهودية أنها تعذب وهم يبكون عليها[(٣)]، يعني: تعذب بكفرها في حال بكاء أهلها لا بسبب البكاء.

واختلف العلماء في هذه الأحاديث، فتأولها الجمهور على من وصى بأن يبكي عليه ويناح بعد موته فنفذت وصيته. فهذا يعذب ببكاء أهله عليه ونوحهم؛ لأنه بسببه ومنسوب إليه، قالوا: فأما من بكى عليه أهله وناحوا من غير وصية منه فلا يعذب لقول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(٤)]، قالوا: وكان من عادة العرب الوصية بذلك، ومنه قول طرفة بن العبد:

إذا مت فانعيني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد

قالوا: فخرج الحديث مطلقا حملا على ما كان معتادا لهم.

وقالت طائفة: هو محمول على من أوصى بالبكاء والنوح أو لم يوص بتركهما، فمن أوصى بهما أو أهمل الوصية بتركهما يعذب بهما لتفريطه بإهمال الوصية

(١) عمدة القاري (٦/ ٩٧).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٤).
(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ١٠٧)، والبخاري (٣/ ١٩٥/ ١٢٨٩)، ومسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢[٢٧])، وأبو داود (٣/ ٤٩٤-٤٩٥/ ٣١٢٩)، والترمذي (٣/ ٣٢٨-٣٢٩/ ١٠٠٦)، والنسائي (٤/ ٣١٦-٣١٧/ ١٨٥٥)، وابن ماجه (١/ ٥٠٨-٥٠٩/ ١٥٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) الأنعام: الآية (١٦٤).

بتركهما، فأما من وصى بتركهما فلا يعذب بهما إذ لا صنع له فيهما ولا تفريط منه، وحاصل هذا القول إيجاب الوصية بتركهما ومن أهملهما عذب بهما.

وقالت طائفة: معنى الأحاديث أنهم كانوا ينوحون على الميت ويندبونه بتعديد شمائله ومحاسنه في زعمهم، وتلك الشمائل قبائح في الشرع يعذب بها كما كانوا يقولون: يا مؤيد النسوان، ومؤتم الولدان، ومخرب العمران، ومفرق الأخدان، ونحو ذلك مما يرونه شجاعة وفخرا وهو حرام شرعا.

وقالت طائفة: معناه أنه يعذب بسماعه بكاء أهله ويرق لهم، وإلى هذا ذهب محمد بن جرير الطبري وغيره، وقال القاضي عياض: وهو أولى الأقوال، واحتجوا بحديث فيه أن النبي ﷺ زجر امرأة عن البكاء على أبيها وقال: «**إن أحدكم إذا بكى استعبر له صويحبه فيا عباد اللَّه لا تعذبوا إخوانكم**»[1]، وقالت عائشة ﵂: معنى الحديث أن الكافر أو غيره من أصحاب الذنوب يعذب في حال بكاء أهله عليه بذنبه لا ببكائهم. والصحيح من هذه الأقوال ما قدمناه عن الجمهور وأجمعوا كلهم على اختلاف مذاهبهم على أن المراد بالبكاء هنا البكاء بصوت ونياحة لا مجرد دمع العين»[2].

قال الحافظ: «ويحتمل أن يجمع بين هذه التوجيهات فينزل على اختلاف الأشخاص بأن يقال مثلا: من كانت طريقته النوح فمشى أهله على طريقته أو بالغ بذلك عذب بصنعه، ومن كان ظالما فندب بأفعاله الجائرة عذب بما ندب به، ومن كان يعرف من أهله النياحة فأهمل نهيهم عنها فإن كان راضيا بذلك التحق بالأول، وإن كان غير راض عذب بالتوبيخ كيف أهمل النهي، ومن سلم من ذلك كله واحتاط فنهى أهله عن المعصية ثم خالفوه وفعلوا ذلك كان تعذيبه تألمه بما يراه منهم من مخالفة أمره وإقدامهم على معصية ربهم. واللَّه تعالى أعلم بالصواب»[3].

وقال أيضًا: «ومنهم من أول قوله: «ببكاء أهل عليه» على أن الباء للحال، أي: أن مبدأ عذاب الميت يقع عند بكاء أهله عليه، وذلك أن شدة بكائهم غالبا إنما تقع

---

(١) طرف من حديث أخرجه: الطبراني في الكبير (٢٥/ ٧-١١/ ١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٠-١٢) وقال: رجاله ثقات.

(٢) شرح مسلم (٦/ ٢٠٢-٢٠٤).

(٣) فتح الباري (٣/ ١٩٩-٢٠٠).

عند دفنه، وفي تلك الحالة يسأل ويبتدأ به عذاب القبر، فكأن معنى الحديث أن الميت يعذب حالة بكاء أهله عليه، ولا يلزم من ذلك أن يكون بكاؤهم سببًا لتعذيبه. حكاه الخطابي ولا يخفى ما فيه من التكلف»[١].

قال ابن هبيرة: «والعرب قد تسمي النوح بكاء، ولفظ الحديث: «**بما نيح عليه**»، فالنياحة من عمل الجاهلية، وقد يخاف على المسلم إذا أخلّ بالوصية لأهله أن يتجنبوا النياحة عليه -إن كان لا يركن من أهله ونسائه إلى متانة دين، وأهمل الوصية حتى نيح عليه يخاف عليه- أن يلحقه من ذلك أذى من العذاب من حيث إهمال الوصية بالواجب، ولا أرى عمر ذكر هذا الحديث لابنته حفصة قبل موته إلا مخرجا له إخراج تأديب وتعليم.

فأما من وصّى أهله بألا يتجاوزوا في أمره بعد موته ما شرع اللَّه ﷻ -قبلوا ذلك أم لم يقبلوا- فإنه لا حرج عليه بعد ذلك، وعلى أن البكاء على الميت من غير نوح، ولا خمش خدّ، ولا تخريق ثوب مباح[٢]، وقد بكى رسول اللَّه ﷺ ابنه إبراهيم وقال: «**هذه رحمة**»[٣]، وقد بكى الصحابة على رسول اللَّه ﷺ»[٤].

قال القاضي عياض: «وذهب دواد وطائفة إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذب بنوحهم عليه، لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته، وتأديبهم بذلك فيعذب بتفريطه في ذلك، وترك ما أمره اللَّه به من قوله: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾، فيندفع عنه الاعتراض بالآية على هذا، لكن في حق من أهمل ذلك وجهله من يخلفه»[٥].

---

(١) فتح الباري (٣/ ١٩٧).

(٢) إباحة البكاء على الميت من غير نوح، ولا خمش، ولا شق جيب مقيدة بثلاثة أيام كما صح عنه ﷺ أنه أمهل آل جعفر ثلاثة أيام ثم جاءهم فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم» أخرجه: أحمد (١/ ٢٠٤)، وأبو داود (٤/ ٤٠٩-٤١٠/ ٤١٩٢)، والنسائي (٨/ ٥٦٤/ ٥٢٤٢)من حديث عبد اللَّه بن جعفر ﷺ، وصحح إسناده الحاكم (١/ ٣٧٢) ووافقه الذهبي، وصحح إسناده على شرط مسلم الشيخ الألباني انظر أحكام الجنائز ص (٢٠٩). انظر أحكام الجنائز للشيخ الألباني ص (٣١-٣٢).

(٣) أخرجه: الترمذي (٣/ ٣٢٨/ ١٠٠٥) وحسنه من حديث جابر ﷺ، وانظر الصحيحة (٢١٥٧).

وأخرج قصة بكائه ﷺ على ابنه: أحمد (٣/ ١٩٤)، والبخاري (٣/ ٢٢٢/ ١٣٠٣)، ومسلم (٤/ ١٨٠٧-١٨٠٨/ ٢٣١٥)، وأبو داود (٣/ ٤٩٣/ ٣١٢٦) من حديث أنس ﷺ.

(٤) الإفصاح (١/ ١٠٩-١١٠).

(٥) الإكمال (٣/ ٣٧٢).

قال ابن عبد البر بعد ذكر أحاديث في تحريم النياحة، وأنها من خلال الجاهلية : «فذكروا هذه الأحاديث ومثلها، وقالوا: قد نهى رسول اللَّه ﷺ عن النياحة، وحرمها، ولعن النائحة والمستمعة. قالوا: وقد قال اللَّه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾[1] فواجب على كل مسلم أن يعلم أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، ويأمرهم به، وواجب عليه أن ينهاهم عن كل ما لا يحل لهم، ويوقفهم عليه، ويمنعهم منه، ويعلمهم ذلك كله، لقول اللَّه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، قالوا: فإذا علم الرجل المسلم ما جاء عن رسول اللَّه ﷺ في النياحة على الميت، والنهي عنها، والتشديد فيها، ولم ينه عن ذلك أهله، ونيح عليه بعد ذلك فإنما يعذب بما نيح عليه؛ لأنه لم يفعل ما أمر به من نهي أهله عن ذلك، وأمره إياهم بالكف عنه، وإذا كان ذلك كذلك، فإنما يعذب بفعل نفسه وذنبه لا بذنب غيره، وليس في ذلك ما يعارض قول اللَّه ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2] وكان ما رواه عمر، وابن عمر، والمغيرة، وغيرهم، صحيح المعنى غير مدفوع، وباللَّه التوفيق»[3].

وقال أيضًا: «ليس إنكار عائشة بشيء، وقد وقف ابن عمر على مثل ما نزعت به عائشة فلم يرجع، وثبت على ما سمع، وهو الواجب كان عليه.. عن ابن سيرين قال: قال ابن عمر: أن المعول عليه يعذب، فقال رجل: إن اللَّه أضحك وأبكى، ولا تزر وازرة وزر أخرى، قال: فقال ابن عمر: قد قال رسول اللَّه ﷺ.

قال أبو عمر: فهذا يبين لك أن ابن عمر قد أثبت ما حفظ عن رسول اللَّه ﷺ في ذلك ولم ينس، ومن حفظ فهو حجة على من لم يحفظ، وليس يسوغ عند جماعة أهل العلم الاعتراض على السنن بظاهر القرآن، إذا كان لها مخرج ووجه صحيح؛ لأن السنة مبينة للقرآن، قاضية عليه، غير مدافعة له، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]»[5].

* * *

(١) طه: الآية (١٣٢).
(٢) الأنعام: الآية (١٦٤).
(٣) التمهيد [فتح البر (٦/ ٣٧٤)].
(٤) النحل: الآية (٤٤).
(٥) المصدر السابق (٦/ ٣٦٨).

قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ يقول: حطبها الذي يوقد على هذه النار بنو آدم وحجارة الكبريت.

وقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ يقول: على هذه النار ملائكة من ملائكة اللَّه، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾يقول: لا يخالفون اللَّه في أمره الذي يأمرهم به ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾يقول: وينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم»(١).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾أي: حطبها الذي يلقى فيها جُثث بني آدم. ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾قيل: المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾(٢) وقال ابن مسعود، ومجاهد، وأبو جعفر الباقر، والسدي: هي حجارة من كبريت -زاد مجاهد: أنتن من الجيفة..

وقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أي: طباعهم غليظة، قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين باللَّه، ﴿شِدَادٌ﴾ أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج..

وقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه. وهؤلاء هم الزبانية عياذًا باللَّه منهم»(٣).

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٦٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٩٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩٥).

وقال السعدي: «وصف اللَّه النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره فقال: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾[1].

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أي: غليظة أخلاقهم، شديد انتصارهم، يفزعون بأصواتهم، ويزعجون بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، وينفذون فيهم أمر اللَّه الذي حتم عليهم بالعذاب، وأوجب عليهم شدة العقاب.

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا فيه أيضًا مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر اللَّه، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به»[2].

قال ابن عاشور: «وتنكير (نار) للتعظيم، وأجرى عليها وصف بجملة ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ زيادة في التحذير لئلا يكونوا من وقود النار. وتذكرا بحال المشركين الذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[3].

.. وجملة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ ثناء عليهم أعقب به وصفهم بأنهم غلاظ شداد تعديلا لما تقتضيانه من كراهية نفوس الناس إياهم، وهذا مؤذن بأنهم مأمورون بالغلظة والشدة في تعذيب أهل النار.

وأما قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فهو تصريح بمفهوم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ دعا إليه مقام الإطناب في الثناء عليهم مع ما في هذا التصريح من استحضار الصورة البديعة في امتثالهم لما يؤمرون به. وقد عطف هذا التأكيد عطفا يقتضي المغايرة تنويها بهذه الفضيلة، لأن فعل المأمور أوضح في الطاعة من عدم العصيان واعتبار لمغايرة المعنيين وإن كان قالها واحد، ولك أن تجعل مرجع ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ أنهم لا يعصون فيما يكلفون به من أعمالهم الخاصة بهم ومرجع ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ إلى ما كلفوا بعمله في العصاة في جهنم»[4].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٩٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٣) الأنبياء: الآية (٩٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٦٥-٣٦٦).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيله يوم القيامة للذين جحدوا وحدانيته في الدنيا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ اللّه ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يقول: يقال لهم: إنما تثابون اليوم، وذلك يوم القيامة، وتعطون جزاء أعمالكم التي كنتم في الدنيا تعملون، فلا تطلبوا المعاذير منها»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾ أي: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم»[٢].

وقال السعدي: «يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ فيقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر باللّه، والتكذيب بآياته، ومحاربة رسله وأوليائه»[٣].

قال عطية محمد سالم: «لم يبيّن هنا نوع الاعتذار الذي نهوا عنه، ولا سبب النهي عنه لماذا؟ ولا زمنه، وقد بين تعالى نوع اعتذارهم في مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾[٤]، وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ۝٢٣ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾[٥]، وكقوله بعدها: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٧﴾[٦] فهذا غاية في الاعتذار، ولكنهم نهوا عنه

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٦٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٣٢٣).
(٤) الأعراف: الآية (٣٨).
(٥) الأنعام: الآيتان (٢٣-٢٤).
(٦) الأنعام: الآية (٢٧).

وذلك يوم القيامة، كما في قوله: ﴿إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾أي إلى الدنيا، وقد نهوا عن هذا الاعتذار؛ لأنه لا ينفعهم كما في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾[١]، وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) الروم: الآية (٥٧).

(٢) غافر: الآية (٥٢).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٧٩).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾

★ **غريب الآية:**

نصوحًا: خالصة صادقة. من قولك: نصحت العسل: إذا خلصته مما يشوبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يقول: ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة اللَّه، وإلى ما يرضيه عنكم ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ يقول: رجوعا لا تعودون فيها أبدا»[1].

وقال ابن كثير: «أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

قال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد، حدثنا شعبة، عن سِمَاك بن حَرب: سمعت النعمان بن بشير يخطب: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ، يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه.

وقال الثوري عن سِماك، عن النعمان، عن عمر قال: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، أو لا يعود فيه.

وقال أبو الأحوص وغيره، عن سماك، عن النعمان، سُئِل عمر عن التوبة النصوح، فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيئ، ثم لا يعود إليه أبدًا.

وقال الأعمش، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله: ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ قال: يتوب ثم لا يعود. وقد روي هذا مرفوعًا. وهو ضعيف، والموقوف أصح، واللَّه أعلم.

ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو: أن يُقلعَ عن الذنب في الحاضر، ويندمَ

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٦٧).

على ما سلف منه في الماضي، ويعزِم على ألا يفعل في المستقبل. ثم إن كان الحق لآدمي ردّه إليه بطريقه»[(١)].

وقال السعدي: «قد أمر اللَّه بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار التي تعطى المنافقين، ويسألون اللَّه أن يتم لهم نورهم فيستجيب اللَّه دعوتهم، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب كلها التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله»[(٢)].

قال المكي الناصري: «دعا كتاب اللَّه جميع المؤمنين إلى التوبة مما اقترفوه من الذنوب (توبة نصوحا)، مبينا لهم أن باب التوبة مفتوح على مصراعيه في وجوههم دون واسطة أي مخلوق، فما عليهم إذا أغراهم الشيطان وانخدعت له النفس الأمارة بالسوء إلا أن يبادروا إلى ذكر اللَّه واستحضاره، والإنابة إليه واستغفاره ليستأنفوا حياتهم الأولى حياة الطاعة والتقوى والخشوع والإنابة»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في كون الندم توبة، وأن الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج

* عن ابن معقل قال: دخلت مع أبي على عبد اللَّه فسمعته يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الندم توبة**»، فقال له أبي: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: «**الندم توبة**»؟ قال: نعم[(٤)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩٥-١٩٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٦٧).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٠/ ٤٢٥٢) واللفظ له، والحاكم (٤/ ٢٤٣) وصححه ووافقه الذهبي. من حديث عبد اللَّه بن مسعود.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «أصل التوبة في اللغة: الرجوع، يقال: تاب وثاب بالمثلثة، وآب بمعنى: رجع، والمراد بالتوبة هنا: الرجوع عن الذنب. .

واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور، لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة. والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل، والله ﷻ يقبلها كرما وفضلا، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع خلافا لهم. وإذا تاب من ذنب ثم ذكره هل يجب تجديد الندم فيه؟ خلاف لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة، قال ابن الأنباري: يجب. وقال إمام الحرمين: لا يجب. وتصح التوبة من ذنب وإن كان مصرا على ذنب آخر، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاود ذلك الذنب كتب عليه ذلك الذنب الثاني، ولم تبطل توبته هذا مذهب أهل السنة في المسألتين»[1].

وفي معنى قوله ﷺ: «الندم توبة» قال المناوي: «أي: هو معظم أركانها؛ لأن الندم وحده كاف فيها من قبيل: «**الحجّ عرفة**»[2]، وإنما كان أعظم أركانها لأن الندم شيء متعلق بالقلب والجوارح تبع له، فإذا ندم القلب انقطع عن المعاصي فرجعت برجوعه الجوارح. . قال الغزالي: إنما نص على أن الندم توبة ولم يذكر جميع شروطها ومقدماتها لأن الندم غير مقدور للعبد، فإنه قد يندم على أمر وهو يريد ألا يكون، والتوبة مقدورة له مأمور بها، فعلم أن في هذا الخبر معنى لا يفهم من ظاهره، وهو أن الندم لتعظيم الله وخوف عقابه مما يبعث على التوبة النصوح، فإذا ذكر مقدمات التوبة الثلاث وهي ذكر غاية قبح الذنوب، وذكر شدة عقوبة الله وأليم غضبه، وذكر ضعف العبد وقلة حيلته، يندم ويحمله الندم على ترك اختيار الذنب، وتبقى ندامته بقلبه في المستقبل فتحمله على الابتهال والتضرع، ويجزم بعدم العود

(١) شرح مسلم (١٧/ ٥٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٩-٣١٠)، وأبوداود (٢/ ٤٨٥-٤٨٦/ ١٩٤٩)، والترمذي (٥/ ١٩٨/ ٢٩٧٥) وقال: حسن صحيح. والنسائي (٥/ ٢٩٢/ ٣٠٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٣/ ٣٠١٥)، وصححه ابن خزيمة (٤/ ٢٥٧/ ٢٨٢٢)، وابن حبان (٩/ ٢٠٣/ ٣٨٩٢-الإحسان-)، والحاكم (٢/ ٢٧٨) وقال «حسن صحيح» وسكت عنه الذهبي من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي ﷺ.

إليه، وبذلك تتم شروط التوبة الأربعة، فلما كان الندم من أسباب التوبة سماه باسمها»[١].

قال القرطبي: «الذنوب إما كفر وإما غيره، فتوبة الكفر عند موته مقطوع بقبولها، وما عداها فمقبولة إن شاء اللَّه بوعده الصدق، وقوله الحق وأعني بالقبول الخلاص من ضرر الذنوب حتى يرجع كمن لم يعمل ذنبًا، كما قال ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[٢]، ثم إن الذنب الذي يتاب منه إما حق اللَّه تعالى، وإما حق لغيره، فحق اللَّه تعالى يكفي في التوبة منه الترك الذي ذكرناه، غير أن منها ما لم يكتف الشرع منه بمجرد الترك بل أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحنث في الأيمان والظهار وغير ذلك، فلا يرتفع ضرر ذلك الذنب إلا بتركه وفعل ما أمره اللَّه تعالى به من القضاء والكفارة، وأما حقوق الآدميين فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم توصل إلى أربابها لم يتخلص من ضرر ذلك الذنب إلا بتركه وفعل ما أمره اللَّه به، ومن اجتهد في الخروج عن الحقوق فلم يقدر على الخروج منها فعفو اللَّه مأمول، وفضله مبذول، وكم ضمن من التبعات، وكم بدل من السيئات بالحسنات، وتفصيل ما أجملناه موجود في كتب مشايخ الإسلام رحمهم الله»[٣].

* عن ابن شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت، فبكى طويلا، وحول وجهه إلى الجدار. فجعل ابنه يقول: يا أبتاه أما بشّرك رسول اللَّه ﷺ بكذا؟ أما بشّرك رسول اللَّه ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نعد شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدا رسول اللَّه. إني قد كنت على أطباق ثلاث، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول اللَّه ﷺ مني،

---

(١) فيض القدير (٦/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٤١٩-١٤٢٠/ ٤٢٥٠)، والطبراني (١٠/ ١٥٠)، وغيرهم. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٠): «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه». والحديث حسنه الحافظ ابن حجر لشواهده كما حكاه عنه تلميذه السخاوي في المقاصد الحسنة. وحسنه الألباني بمجموع طرقه في الضعيفة (٢/ ٨٣)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

تنبيه: الحديث ذكره الهيثمي وهو ليس من شرطه لرواية ابن ماجه له، فتنبه.

(٣) المفهم (٧/ ٧١).

ولا أحب إلي أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل اللَّه الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه. قال: فقبضت يدي. قال: «**مالك يا عمرو؟**» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «**تشترط بماذا؟**» قلت: أن يغفر لي. قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**» وما كان أحد أحب إلي من رسول اللَّه ﷺ ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها. فإذا أنا مت، فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور، ويقسم لحمها؛ حتى أستأنس بكم؛ وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي[1].

★ **غريب الحديث:**

سياقة الموت: حال حضور الموت.

أطباق: منازل وأحوال.

شنوا علي التراب شنا: قال القاضي عياض: «بالسين والشين معا، وهو الصب، وقيل: بالمهملة الصب في سهولة، وبالمعجمة التفريق»[2].

أراجع به: من راجعه الكلام يراجعه ورجاعا: حاوره إياه، وما أرجع إليه كلاما أي: ما أجابه.

* عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رجل يا رسول اللَّه أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٠٥)، ومسلم (١/ ١١٢-١١٣/ ١٢١) واللفظ له.

(٢) إكمال المعلم (١/ ٤١١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٩)، والبخاري (١٢/ ٣٢٨/ ٦٩٢١) واللفظ له، ومسلم (١/ ١١١/ ١٢٠)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٧/ ٤٢٤٢).

★ **فوائد الحديثين:**

قال النووي: «وأما معنى الحديث فالصحيح فيه ما قاله جماعة من المحققين أن المراد بالإحسان هنا: الدخول في الإسلام بالظاهر والباطن جميعًا، وأن يكون مسلمًا حقيقيًا، فهذا يغفر له ما سلف في الكفر بنصّ القرآن العزيز، والحديث الصحيح: «الإسلام يهدم ما قبله»، وبإجماع المسلمين، والمراد بالإساءة: عدم الدخول في الإسلام بقلبه، بل يكون منقادًا في الظاهر مظهرًا للشهادتين غير معتقد للإسلام بقلبه، فهذا منافق باق على كفره بإجماع المسلمين، فيؤاخذ بما عمل في الجاهلية قبل إظهار صورة الإسلام، وبما عمل بعد إظهارها؛ لأنه مستمرّ على كفره، وهذا معروف في استعمال الشرع، يقولون: حسن إسلام فلان إذا دخل فيه حقيقة بإخلاص، وساء إسلامه أو لم يحسن إسلامه إذا لم يكن كذلك، والله أعلم»[(١)].

قال الخطابي: «ظاهر هذا الحكم خلاف ما أجمعت عليه الأمة من أن الإسلام يجبّ ما قبله، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[(٢)]، ووجه هذا الحديث وتأويله: أنه إذا أسلم مرة لم يؤاخذ بما كان سلف من كفره ولم يعاقب عليه، وإن أساء في الإسلام غاية الإساءة وركب أشد ما يكون من المعاصي ما دام ثابتًا على إسلامه، وإنما يؤخذ بما جناه في الإسلام من المعصية، ويعيّر بما كان منه في الكفر، ويبكت به كأنه يقال له: أليس قد فعلت كيت وكيت وأنت كافر، فهلا منعك إسلامك من معاودة مثله إذا أسلمت، ثم يعاقب على قدر ما يستحقه من المعصية التي اكتسبها في الإسلام، ولا يجوز أن يعاقب عقوبة الكفار، لأن المسلم لا يخلد في النار، والكافر مخلد فيها أبدًا»[(٣)].

قال الحافظ معلقا عليه: «وحاصله أنه أول المؤاخذة في الأول بالتبكيت وفي الآخر بالعقوبة، والأولى قول غيره: إن المراد بالإساءة الكفر لأنه غاية الإساءة وأشد المعاصي، فإذا ارتد ومات على كفره كان كمن لم يسلم فيعاقب على جميع ما

---

(١) شرح مسلم (٢/ ١١٧).

(٢) الأنفال: الآية (٣٨).

(٣) أعلام الحديث (٤/ ٢٣١١-٢٣١٢).

قدمه، وإلى ذلك أشار البخاري بإيراد هذا الحديث بعد حديث «أكبر الكبائر الشرك» وأورد كلا في أبواب المرتدين»[1].

وقال أيضًا: «ثم وجدت في (كتاب السنة) لعبد العزيز بن جعفر، وهو من رءوس الحنابلة، ما يدفع دعوة الخطابي وابن بطال الإجماع الذي نقلاه؛ وهو ما نقل عن الميموني عن أحمد أنه قال: بلغني أن أبا حنيفة يقول: أن من أسلم لا يؤاخذ بما كان في الجاهلية، ثم رد عليه بحديث ابن مسعود، ففيه أن الذنوب التي كان الكافر يفعلها في جاهليته إذا أصر عليها في الإسلام فإنه يؤاخذ بها لأنه بإصراره لا يكون تاب منها وإنما تاب من الكفر، فلا يسقط عنه ذنب تلك المعصية لإصراره عليها، وإلى هذا ذهب الحليمي من الشافعية، وتأول بعض الحنابلة قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[2] على أن المراد ما سلف مما انتهوا عنه، قال والاختلاف في هذه المسألة مبني على أن التوبة هي الندم على الذنب مع الإقلاع عنه، والعزم على عدم العود إليه، والكافر إذا تاب من الكفر ولم يعزم على عدم العود إلى الفاحشة لا يكون تائبا منها فلا تسقط عنه المطالبة بها، والجواب عن الجمهور أن هذا خاص بالمسلم، وأما الكافر فإنه يكون بإسلامه كيوم ولدته أمه، والأخبار دالة على ذلك كحديث أسامة لما أنكر عليه النبي ﷺ قتل الذي قال: لا إله إلا اللّه حتى قال في آخره: «حتى تمنيت أنني كنت أسلمت يومئذ»[3]»[4].

وقد تقدم الكلام على هذا المعنى مستوفى عند الآية (٥٣) والآية (٦٥) من سورة الزمر، فالحمد لله على توفيقه.

* * *

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٢) الأنفال: الآية (٣٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٧)، والبخاري (٧/ ٦٥٨/ ٤٢٦٩)، ومسلم (١/ ٩٦-٩٧/ ٣٦)، وأبو داود (٥/ ١٠٢-١٠٣/ ٢٦٤٣)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٧٦-١٧٧/ ٨٥٩٥).

(٤) فتح الباري (١٢/ ٣٣٠).

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يقول: عسى ربكم أيها المؤمنون أن يمحو سيئات أعمالكم التي سلفت منكم ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ يقول: وأن يدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ محمدًا ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ يقول: يسعى نورهم أمامهم ﴿وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ يقول: وبأيمانهم كتابهم..

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ يقول -جل ثناؤه- مخبرًا عن قيل المؤمنين يوم القيامة: يقولون ربنا أتمم لنا نورنا، يسألون ربهم أن يبقي لهم نورهم، فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط، وذلك حين يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[(١)]..

وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ يقول: واستر علينا ذنوبنا، ولا تفضحنا بها بعقوبتك إيانا عليها ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: إنك على إتمام نورنا لنا، وغفران ذنوبنا، وغير ذلك من الأشياء ذو قدرة»[(٢)].

وقال القرطبي: «عسى من الله واجبة، وهو معنى قوله ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[(٣)]»[(٤)].

---

(١) الحديد: الآية (١٣).

(٢) جامع البيان (٢٨/ ١٦٨-١٦٩).

(٣) سبق تخريجه في الآية السابقة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٠٠).

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ و﴿عَسَىٰ﴾ من اللَّه موجبة، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾أي: ولا يخزيهم معه يعني: يوم القيامة، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ كما تقدم في سورة الحديد. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال مجاهد، والضحاك، والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يَرَون يوم القيامة نورَ المنافقين قد طفِئ»[1].

قال المكي الناصري: «هذا وعد صادق من اللَّه لنبيه وللمؤمنين، وامتنان عليهم بالنور الإلهي الذي سيشع عليهم، فيعرفون به من بين الأمم، ويهتدون به وسط الزحام الرهيب يوم الحشر إلى مقرهم في جنة الخلد، متميزين بذلك عن بقية الخلائق والأمم»[2].

قال ابن عاشور: «(يوم) ظرف متعلق بـ ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ وهو تعليق تخلص إلى الثناء على الرسول ﷺ والمؤمنين معه. وهو يوم القيامة، وهذا الثناء عليهم بانتفاء خزي اللَّه عنهم تعريض بأن الذين لم يؤمنوا معه يخزيهم اللَّه يوم القيامة، وذكر النبي ﷺ مع الذين آمنوا لتشريف المؤمنين ولا علاقة له بالتعريض.

والخزي: هو عذاب النار، وحكى اللَّه تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[3] على أن انتفاء الخزي يومئذ يستلزم الكرامة إذ لا واسطة بينهما كما أشعر به قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[4] وفي صلة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ إيذان بأن سبب انتفاء الخزي عنهم هو إيمانهم.

ومعية المؤمنين مع النبي ﷺ صحبتهم النبي ﷺ.

و (مع) يجوز تعلقها بمحذوف حال من ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: حال كونهم مع الشيء في انتفاء خزي اللَّه عنهم فيكون عموم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مخصوصًا بغير الذين يتحقق فيهم خزي الكفر وهم الذين ارتدوا وماتوا على الكفر.

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩٧).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٦٧-٢٦٨).

(٣) الشعراء: الآية (٨٧).

(٤) آل عمران: الآية (١٨٥).

وفي هذه الآية دليل على المغفرة لجميع أصحاب النبي ﷺ.

ويجوز تعلق (مع) بفعل ﴿ءَامَنُوا﴾ أي: الذين آمنوا به وصحبوه فيكون مرادا به أصحاب النبي ﷺ الذين آمنوا به ولم يرتدوا بعده فتكون الآية مؤذنة مفصلة للصحابة. وضمير ﴿نُورُهُمْ﴾ عائد إلى النبي ﷺ والذين آمنوا معه.

وإضافة نور إلى ضمير هم مع أنه لم يسبق إخبار عنهم بنور لهم ليست إضافة تعريف، إذ ليس المقصود تعريف النور وتعيينه ولكن الإضافة مستعملة هنا في لازم معناها وهو اختصاص النور بهم في ذلك اليوم بحيث يميزه الناس من بين الأنوار يومئذ.

وسعي النور: امتداده وانتشاره. شبه ذلك باشتداد مشي الماشي وذلك أنه يحف بهم حيثما انتقلوا تنويها بشأنهم كما تنشر الأعلام بين يدي الأمير والقائد وكما تساق الجياد بين يدي الخليفة. وإنما خص بالذكر من الجهات الأمام واليمين لأن النور إذا كان بين أيديهم تمتعوا بمشاهدته وشعروا بأنه كرامة لهم، ولأن الأيدي هي التي تمسك بها الأمور النفيسة وبها بايعوا النبي ﷺ على الإيمان والنصر. وهذا النور نور حقيقي يجعله اللَّه للمؤمنين يوم القيامة»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٧٠-٣٧١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

اغلظ: شدد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالوعيد واللسان. وكان قتادة يقول في ذلك.. أمر الله نبيه -عليه الصلاة والسلام- أن يجاهد الكفار بالسيف، ويغلظ على المنافقين بالحدود ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: وأشدد عليهم في ذات الله ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يقول: ومكثهم جهنم، ومصيرهم الذي يصيرون إليه نار جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قال: وبئس الموضع الذي يصيرون إليه جهنم»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم، ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: في الآخرة»[2].

وقال القرطبي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فيه مسألة واحدة: وهو التشديد في دين الله. فأمره أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى الله. والمنافقين بالغلظة وإقامة الحجة؛ وأن يعرفهم أحوالهم في الآخرة، وأنهم لا نور لهم يجوزون به الصراط مع المؤمنين. وقال الحسن: أي جاهدهم بإقامة الحدود عليهم؛ فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود. وكانت الحدود تقام عليهم. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يرجع إلى الصنفين. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٦٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩٨).

أي: المرجع»[١].

وقال السعدي: «يأمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة اللَّه وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ عليه، وأما المرتبة الأولى فتكون بالتي هي أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا بتسليط اللَّه لرسوله وحزبه عليهم، وعلى جهادهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير الذي يصير إليها كل شقي خاسر»[٢].

قال عطية محمد سالم: «فيه الأمر بقتال الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، ومعلوم أن النبي ﷺ قاتل الكفار، ولم يعلم أنه قاتل المنافقين قتاله للكفار، فما نوع قتاله ﷺ للمنافقين؟

وبينه واللَّه تعالى أعلم قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: بالقرآن؛ لقوله قبله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[٣]. ومعلوم أن المنافقين كافرون، فكان جهاده ﷺ للكفار بالسيف ومع المنافقين بالقرآن. كما جاء عنه ﷺ في عدم قتلهم، لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، ولكن كان جهادهم بالقرآن لا يقل شدة عليهم من السيف؛ لأنهم أصبحوا في خوف وذعر يحسبون كل صيحة عليهم، وأصبحت قلوبهم خاوية كأنهم خشب مسندة، وهذا أشد عليهم من الملاقاة بالسيف. والعلم عند اللَّه تعالى»[٤].

قال ابن عاشور: «لما أبلغ الكفار ما سيحل بهم في الآخرة تصريحا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ وتعريضا بقوله: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أمر رسوله ﷺ بمسمع منهم بأن يجاهدهم ويجاهد المستترين لكفرهم بظاهر الإيمان نفاقا حتى إذا لم تؤثر فيهم الموعظة بعقاب الآخرة يخشون أن يسلط

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٠١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٧).

(٣) الفرقان: الآيات (٥٠-٥٢).

(٤) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٨٠-٣٨١).

عليهم عذاب السيف في العاجلة فيقلعوا عن الكفر فيصلح نفوسهم، وإنما أمر رسوله ﷺ بذلك لأن الكفار تألبوا مع المنافقين بعد هجرة النبي ﷺ فاتخذوهم عيونا لهم وأيدي يدسون بها الأذى للنبي ﷺ وللمؤمنين.

فهذا نداء ثان للنبي ﷺ يأمره بإقامة صلاح عموم الأمة بتطهيرها من الخبثاء بعد أن أمره بإفاقة من عليهما الغفلة عن شيء من واجب حسن المعاشرة مع الزوج.

وجهاد الكفر ظاهر، وأما عطف (المنافقين) على (الكفار) المفعول ل (جاهد) فيقتضي أن النبي ﷺ مأمور بجهاد المنافقين، وكان حال المنافقين ملتبسا إذ لم يكن أحد من المنافقين معلنا بالكفر ولا شهد على أحد منهم بذلك، ولم يعين اللَّه لرسوله ﷺ منافقا يوقن بنفاقه وكفره أو أطلعه خاصا ولم يأمره بإعلانه بين المسلمين كما يؤخذ ذلك من أخبار كثيرة في الآثار، فتعين تأويل عطف (المنافقين) على (الكفار)..

وعندي أن الأقرب في تأويل هذا العطف أن يكون المراد منه إلقاء الرعب في قلوب المنافقين ليشعروا بأن النبي ﷺ والمؤمنين بالمرصاد منهم فلو بدت من أحدهم بادرة يعلم منها نفاقه عومل معاملة الكافر في الجهاد بالقتل والأسر فيحذروا ويكفوا عن الكيد للمسلمين خشية الافضاح فتكون هذه الآية من قبيل قوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾[1]»[2].

* * *

(١) الأحزاب: الآية (٦٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٧١-٣٧٢).

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: مَثَّل اللَّه مثلا للذين كفروا من الناس وسائر الخلق امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا، وهما نوح ولوط فخانتاهما.

ذُكر أن خيانة امرأة نوح زوجها أنها كانت كافرة، وكانت تقول للناس: إنه مجنون. وأن خيانة امرأة لوط، أن لوطًا كان يُسِرّ الضيف، وتَدُلّ عليه..

وقوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ يقول: فلم يغن نوح ولوط عن امرأتيهما من اللَّه لما عاقبهما على خيانتهما أزواجهما شيئًا، ولم ينفعهما أن كانت أزواجهما أنبياء.. وقوله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ قال اللَّه لهما يوم القيامة: ادخلا أيتها المرأتان نار جهنم مع الداخلين فيها»[1].

وقال القرطبي: «ضرب اللَّه تعالى هذا المثل تنبيها على أنه لا يغني أحد في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرق بينهما الدين.. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال عكرمة والضحاك: بالكفر.

وقال سليمان بن رقية عن ابن عباس: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون. وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه. وعنه: ما بغت امرأة نبي قط. وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيري. إنما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين.

وقيل: كانتا منافقتين.

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٦٩-١٧١).

وقيل: خيانتهما النميمة إذا أوحى اللَّه إليهما شيئا أفشتاه إلى المشركين، قاله الضحاك.

وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف، لما كانوا عليه من إتيان الرجال.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على اللَّه تعالى عن زوجتيهما -لما عصتا- شيئا من عذاب اللَّه، تنبيها بذلك على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة.

ويقال: إن كفار مكة استهزءوا وقالوا: إن محمدًا ﷺ يشفع لنا، فبين اللَّه تعالى أن شفاعته لا تنفع كفار مكة وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته، مع قربهما لهما لكفرهما.

وقيل لهما: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾: في الآخرة، كما يقال لكفار مكة وغيرهم»[1].

وقال ابن كثير: « ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئًا ولا ينفعهم عند اللَّه، إن لم يكن الإيمان حاصلا في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ أي: نبيين رسولين عندهما في صحبتها ليلا ونهارًا، يؤاكلانهما، ويضاجعانهما، ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط، ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يُجْد ذلك كلّه شيئًا، ولا دفع عنهما محذورا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لكفرهما، ﴿وَقِيلَ﴾ أي: للمرأتين: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ وليس المراد: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصوماتٌ[2] عن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) معنى كلامه رحمه الله أن اللَّه سبحانه لم يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك، أما هذا الأمر في حد نفسه فممكن الوقوع، ولا أدل على ذلك من قصة الإفك، فإن كل حوادث القصة وكلام الشراح عليها يدندن على ذلك، ولا ينافي ذلك قول الحافظ ابن كثير، لأن المقصود بالعصمة الواردة في كلامه رحمه الله- وما في معناها: إنما هي العصمة التي دل عليها الوحي، الذي لولاه لوجب البقاء على الأصل، وهو الإمكان المشار إليه، فهي بالمعنى الذي أراده النبي ﷺ بقوله: «فالمعصوم من عصمه الله» -أخرجه: أحمد (٣/ ٣٩)، والبخاري=

الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء»[(١)].

قال عطية محمد سالم: «أجمع المفسرون هنا على أن الخيانة ليست زوجية. وقال ابن عباس: نساء الأنبياء معصومات، ولكنها خيانة دينية بعدم إسلامهن وإخبار أقوامهن بمن يؤمن مع أزواجهن اهـ.

وقد يستأنس لقول ابن عباس هذا بتحريم التزوج من نساء النَّبي ﷺ بعده، والتعليل له بأن ذلك يؤذيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[(٢)].

فإذا كان تساؤلهنّ بدون حجاب يؤذيه، والزواج بهنّ من بعده عند اللَّه عظيم، فكيف إذا كان غير التساؤل وبغير الزواج؟ إن مكانة الأنبياء عند اللَّه أعظم من ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فيه بيان أن العلاقة الزوجية لا تنفع شيئًا مع الكفر، وقد بين تعالى ما هو أهم من ذلك في عموم القرابات كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾[(٣)]وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾[(٤)] الآية. وجعل اللَّه هاتين المرأتين مثلًا للذين كفروا، وهو شامل لجميع الأقارب كما قدمنا.

وقد سمعت من الشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه في معرض محاضرة له الاستطراد في ذلك، وذكر قصة هاتين المرأتين، وقصة إبراهيم مع أبيه، ونوح مع ولده، فاستكمل جهات القرابات زوجة مع زوجها، وولد مع والده، ووالد مع ولده. وذكر حديث «**يا فاطمة اعملي فإني لا أغني عنك من اللَّه شيئًا**»[(٥)]. ثم قال: ليعلم المسلم أن أحدًا لا يملك نفع أحد يوم القيامة، ولو كان أقرب قريب إلا بواسطة الإيمان باللَّه وبما يكرم اللَّه به من شاء بالشفاعة، كما في قوله تعالى:

= (١٣/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٧١٩٨)، والنسائي (٧/ ١٧٨/ ٤٢١٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ- في حديث أخرجه البخاري وغيره، وليس المراد بها العصمة الخاصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي التي تنافي الإمكان المذكور، فالقول بهذه في غير الأنبياء إنما هو من القول على اللَّه بغير علم» انظر الصحيحة (٦/ ٢٧-٢٨).

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩٨).
(٢) الأحزاب: الآية (٥٣).
(٣) الشعراء: الآية (٨٨).
(٤) عبس: الآيتان (٣٤و٣٥).
(٥) طرف من حديث أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٠)، والبخاري (٥/ ٤٨٠/ ٢٧٥٣)، ومسلم (١/ ١٩٢/ ٢٠٤-٢٠٦)، والترمذي (٥/ ٣١٦-٣١٧/ ٣١٨٥)، والنسائي (٦/ ٥٥٨-٥٦٠/ ٣٦٤٦-٣٦٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾[1]الآية»[2].

قال ابن عاشور: «أعقب جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾[3] الآية المقصود منها تهديدهم بعذاب السيف في الدنيا، وإنذارهم بعذاب الآخرة وما قارن ذلك من مقابلة حالهم بحال المؤمنين بأن ضرب مثلين للفريقين بنظرين في حاليهما لتزداد الموعظة وضوحا، ويزداد التنويه بالمؤمنين استنارة. وقد تقدمت فائدة ذكر الأمثال في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا﴾[4] في سورة البقرة.

وضرب المثل: إلقاؤه وإيضاحه، وتقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾[5]في سورة البقرة.

فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وهذا المثل لا يخلوا من تعريض بحث زوجي النبي ﷺ على طاعته، وبأن رضى اللَّه تعالى يتبع رضى رسله. فقد كان الحديث عن زوجتي النبي ﷺ قريبا وكان عملهما ما فيه بارقة من مخالفة وكان في المثلين ما فيه إشعار بالحالين. وتعدية ضرب اللام الدال على العلة تفيد أن إلقاء المثل لأجل مدخول اللام. فمعنى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾أنه ألقى هذا التنظير لأجلهم أي: اعتبارهم بهم، وقياس حالهم على حال المثل به، فإذا قيل: ضرب لفلان مثلا كان المعنى: أنه قصده به وأعلمه إياه كقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾[6] ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾[7] ونحو ذلك، وتقديم المجرور باللام على المفعولين للاهتمام بإيقاظ الذين كفروا فمعنى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾أن اللَّه جعل حالة هاتين المرأتين عظة وتنبيها للذين كفروا أي: ليذكرهم بأن اللَّه لا يصرفه عن وعيده صارف، فلا يحبسوا أن لهم شفعاء عند اللَّه ولا أن مكانهم من جوار بينه وعمارة مسجده وسقاية حجيجه تصرف غضب اللَّه عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيد بالنظر في دلائل دعوة القرآن وصدق الرسول ﷺ فلو كان صارف

(١) الطور: الآية (٢١).
(٢) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٨١-٣٨٢).
(٣) التوبة: الآية (٧٣).
(٤) البقرة: الآية (١٧).
(٥) البقرة: الآية (٢٦).
(٦) الزخرف: الآية (٥٨).
(٧) الروم: الآية (٥٨).

يصرف اللَّه عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيها رسولي رب العالمين.

ومناسبة ضرب المثل بامرأة لوط دون غيرها من قرابة الأنبياء نحو أبي إبراهيم وابن نوح عليهما السلام لأن ذكر هاتين المرأتين لم يتقدم. وقد تقدم ذكر أبي إبراهيم وابن نوح لتكون في ذكرهما فائدة مستجدة، وليكون في ذكرهما عقب ما سبق من تملوء أمي المؤمنين على زوجها ﷺ تعريض لطيف بالتحذير من خاطر الاعتزاز بغناء الصلة الشريفة عنهما في الوفاء بحق ما يجب من الإخلاص للنبي ﷺ ليكون الشبه في التمثيل وأقوى..

المراد بالعبدين نوح ولوط وإنما خصا بوصف «عبدين صالحين» مع أن وصف النبوة من وصف الصلاح تنويها بوصف الصلاح، وإيماء إلى أن النبوة صلاح ليعظم شأن الصالحين كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾[1]. ولتكون الموعظة سارية إلى نساء المسلمين في معاملتهن أزواجهن، فإن وصف النبوة قد انتهى بالنسبة للأمة الإسلامية، مع ما في ذلك من تهويل الأذى لعباد اللَّه الصالحين، وعناية ربهم بهم، ومدافعته عنهم»[2].

* * *

(١) الصافات: الآية (١١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣٧٣-٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

⋆ غريب الآية:

أحصنت: عفت: صانت نفسها عن القبيح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وضرب اللَّه مثلا للذين صدقوا اللَّه ووحدوه، امرأة فرعون التي آمنت باللَّه ووحدته، وصدّقت رسوله موسى، وهي تحت عدوّ من أعداء اللَّه كافر، فلم يضرّها كفر زوجها، إذ كانت مؤمنة باللَّه، وكان من قضاء اللَّه في خلقه أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن لكلّ نفس ما كسبت، إذ قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾، فاستجاب اللَّه لها فبنى لها بيتًا في الجنة..

وقوله: ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ وتقول: وأنقذني من عذاب فرعون، ومن أن أعمل عمله، وذلك كفره باللَّه.

وقوله: ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تقول: وأخلصني، وأنقذني من عمل القوم الكافرين بك، ومن عذابهم»[(١)].

وقال ابن كثير: «وهذا مَثَلٌ ضربه اللَّه للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[(٢)]. قال

---

(١) جامع البيان (٢٨/ ١٧١-١٧٢).

(٢) آل عمران: الآية (٢٨).

قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم فواللَّه ما ضر امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن اللَّه حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه..

فقولها: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار..

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم، ﵂»[1].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ واسمها آسية بنت مزاحم. قال يحيى بن سلام: قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾مثل ضربه اللَّه يحذر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول اللَّه ﷺ، ثم ضرب لهما مثلا بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران، ترغيبا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين، وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة، أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون. وكانت آسية آمنت بموسى.

وقيل: هي عمة موسى آمنت به.

قال أبو العالية: اطلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ فقال لهم: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها. فقال لهم: إنها تعبد ربا غيري. فقالوا له: اقتلها. فأوتد لها أوتادا وشد يديها ورجليها فقالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾.. ولما قالت: ﴿وَنَجِّنِي﴾ نجاها اللَّه أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتنعم.

ومعنى ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾: تعني بالعمل الكفر. وقيل: من عمله: من عذابه وظلمه وشماتته. وقال ابن عباس: الجماع.

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال الكلبي: أهل مصر. مقاتل: القبط. قال الحسن وابن كيسان: نجاها اللَّه أكرم نجاة، ورفعها إلى الجنة، فهي فيها تأكل وتشرب»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٩٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٠٢-٢٠٣).

وقال السعدي: «فوصفها اللَّه بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها أجل المطالب؛ وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب اللَّه لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»[(١)]»[(٢)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي حفظته وصانته. الإحصان: هو العفاف والحرية، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: بواسطة المَلَك؛ وهو جبريل، فإن اللَّه بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سَوي، وأمره اللَّه تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام، ولهذا قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: بقدره وشرعه ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾»[(٣)].

وقال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿مَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يقول: التي منعت جيب درعها جبريل عليه السلام، وكلّ ما كان في الدرع من خرق أو فتق فإنه يسمى فَرْجًا، وكذلك كلّ صدع وشقّ في حائط، أو فرج سقف فهو فرج.

وقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ يقول: فنفخنا فيه في جيب درعها، وذلك فرجها، من روحنا من جبرئيل، وهو الروح. .

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ يقول: وكانت من القوم المطيعين»[(٤)].

وقال السعدي: «﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة؛ فإن التصديق بكلمات اللَّه يشمل كلماته الدينية والقدرية، والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: المداومين على طاعة اللَّه بخشية وخشوع، وهذا وصف

---

(١) سيأتي تخريجه قريبا.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٠).

(٤) جامع البيان (٢٨/ ١٧٢).

لها بكمال العمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل»[1].

قال عطية محمد سالم: «بين تعالى المراد بالروح بأنه جبريل عليه السلام في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[2] وهو جبريل، كما في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾[3] أي: نزل جبريل بالقرآن، وفي هذه الآية رد على النصارى استدلالهم بها على أن عيسى عليه السلام ابن الله ومن روحه تعالى، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا، وبيان هذا الرد أن قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾تعدية أرسل بنفسه يدل على أن الذي أرسل يمكن إرساله بنفسه، وهو فرق عند أهل اللغة، بينما يرسل نفسه وما يرسل مع غيره كالرسالة، والهدية، فيقال فيه: أرسلت إليه بكذا، كما في قوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾[4] الآية. فالهدية لا ترسل بنفسها، ومثله بعثت، تقول: بعثت البعير من مكانه، وبعثت مبعوثًا، وبعثت برسالة.

ثانيًا قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[5] لفظ الروح مؤنث، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾[6] أنث الفعل في بلغت، وهنا الضمير مذكر عائد لجبريل. وقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، ولو أنه من روح الله على ما ذهب إليه النصارى لما كان في حاجة إلى هذا التمثيل.

ثالثًا قوله لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾[7] ورسول ربها هو جبريل عليه السلام، وليس روحه تعالى.

رابعًا: قوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾[8]ولم يقل لأهب لك روحًا من الله. ومن هذا أيضًا قوله تعالى للملائكة﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[9] يعني: آدم عليه السلام ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[10] أي نفخت فيه الروح التي بها الحياة، ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[11]. فلو أن الروح من الله لكان آدم أولى من عيسى؛ لأنه لم يذكر إرسال رسول له، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٧-٤٢٨).
(٢) مريم: الآية (١٧).
(٣) الشعراء: الآية (١٩٣).
(٤) النمل: الآية (٣٥).
(٥) مريم: الآية (١٧).
(٦) الواقعة: الآيتان (٨٣و٨٤).
(٧) مريم: الآية (١٩).
(٨) مريم: الآية (١٩).
(٩) ص: الآية (٧١).
(١٠) ص: الآية (٧٢).
(١١) ص: الآية (٧٢).

لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[١]، فكذلك عيسى عليه السلام لما بشرتها به الملائكة، ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾[٢]، فكل من آدم وعيسى قال له تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ والله تعالى أعلم»[٣].

قال المكي الناصري: «ولعل في هذه الأمثال التي ضربها كتاب الله بالنوع الأول والنوع الثاني من النساء بالخصوص في هذه السورة بالذات، تنبيها لأمهات المؤمنين، فضلا عن غيرهن إلى ما يجب عليهن من مزيد التفاني في طاعة الله ورسوله، وما يلزمهن من البعد كل البعد عن كل ما ينغص عليه العيش أو يجلب له الأذى، حيث أن مجرد القرب من الأنبياء لا يغني عن القيام بالواجب نحوهم، ولا يشفع في إهمال أي حق من حقوقهم، والله ﷻ أعلم»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل المرأة الصالحة آسية بنت مزاحم هي وأخواتها من النساء الصالحات

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن فرعون أوتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها، ورجليها، فكان إذا تفرقوا عنها ظللتها الملائكة فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «من فضائل آسية امرأة فرعون أنها اختارت القتل على الملك، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه، وكانت فراستها في موسى عليه السلام

---

(١) آل عمران: الآية (٥٩). (٢) آل عمران: الآية (٤٧).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣٨٣-٣٨٤).

(٤) التيسير (٦/ ٢٦٩).

(٥) أخرجه: أبو يعلى (١١/ ٣١٦/ ٦٤٣١)، وقال السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٢٢٩) أخرجه: أبو يعلى والبيهقي بسند صحيح. وقال الحافظ في المطالب العالية (٣/ ٣٩٠): صحيح موقوف. وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢١٨): «ورجاله رجال الصحيح». ويشهد له حديث سلمان رضي الله عنه قال: «كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس..» أخرجه: الطبري (٢٨/ ١٧١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٤٤/ ١٦٣٧)، والحاكم (٢/ ٤٩٦) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

صادقة حين قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾[(١)]»[(٢)].

* عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**[(٣)].

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «لفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما، فإن كلا منهما كفلت نبيا في حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبد اللَّه ورسوله، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة، وفاطمة. فخديجة خدمت رسول اللَّه ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها ﵄ وأرضاها، وأما فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها؛ لأنها أصيبت برسول اللَّه ﷺ، وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ، وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول اللَّه ﷺ إليه، ولم يتزوج بكرا غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم، وقد غار اللَّه لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فأنزل براءتها من فوق سبع سموات، وقد عُمِّرت بعد رسول اللَّه ﷺ قريبا من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة، وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين، وهي أشرف أمهات المؤمنين حتى خديجة بنت خويلد أم البنات والبنين في قول طائفة من العلماء السابقين واللاحقين، والأحسن الوقف فيهما ﵄؛ وما ذاك إلا لأن قوله ﷺ: «وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» يحتمل أن يكون عاما بالنسبة إلى المذكورات وغيرهن، ويحتمل أن يكون عاما بالنسبة إلى ما عدى المذكورات واللَّه أعلم»[(٤)].

---

(١) القصص: الآية (٩). (٢) الفتح (٦/ ٥٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٤)، والبخاري (٦/ ٥٥١/ ٣٤١١)، ومسلم (٤/ ١٨٨٦-١٨٨٧/ ٢٤٣١)، والترمذي (٤/ ٢٤٢/ ١٨٣٤)، والنسائي (٧/ ٧٨/ ٣٩٥٧) مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد، وابن ماجه (٢/ ١٠٩١/ ٣٢٨٠).

(٤) البداية والنهاية (٢/ ٥٦-٥٧).

قال الحافظ: «استدل بهذا الحصر على أنهما نبيّتان؛ لأن أكمل النوع الإنساني الأنبياء ثم الأولياء والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين للزم أن لا يكون في النساء وليّة ولا صديقة ولا شهيدة، والواقع أن هذه الصفات في كثير منهن موجودة، فكأنه قال: ولم ينبأ من النساء إلا فلانة وفلانة، ولو قال: لم تثبت صفة الصدّيقية أو الولاية أو الشهادة إلا لفلانة وفلانة لم يصحّ لوجود ذلك في غيرهن، إلا أن يكون المراد في الحديث كمال غير الأنبياء، فلا يتم الدليل على ذلك لأجل ذلك، واللَّه أعلم. وعلى هذا فالمراد من تقدم زمانه ﷺ، ولم يتعرض لأحد من نساء زمانه إلا لعائشة، وليس فيه تصريح بأفضلية عائشة رضي الله عنها على غيرها؛ لأن فضل الثريد على غيره من الطعام إنما هو لما فيه من تيسير المؤنة وسهولة الإساغة، وكان أجل أطعمتهم يومئذ، وكل هذه الخصال لا تستلزم ثبوت الأفضلية له من كل جهة، فقد يكون مفضولا بالنسبة لغيره من جهات أخرى»[1].

قال النووي: «قوله ﷺ: «**وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» قال العلماء: معناه أن الثريد من كل الطعام أفضل من المرق، فثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد، وثريد ما لا لحم فيه أفضل من مرقه، والمراد بالفضيلة نفعه، والشبع منه، وسهولة مساغه، والالتذاذ به، وتيسر تناوله، وتمكن الإنسان من أخذ كفايته منه بسرعة، وغير ذلك، فهو أفضل من المرق كله، ومن سائر الأطعمة، وفضل عائشة على النساء زائد كزيادة فضل الثريد على غيره من الأطعمة. وليس في هذا تصريح بتفضيلها على مريم وآسية؛ لاحتمال أن المراد تفضيلها على نساء هذه الأمة»[2].

قال ابن بطال: «فإن قال قائل: فقد شهد النبي ﷺ بالكمال لمريم وآسية، ثم قال: «**وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**» ولا يبين في ظاهر هذا اللفظ تفضيل مريم وآسية على عائشة، ولا فضل عائشة عليهما.

فالجواب في ذلك أن التفضيل لا يدرك بالرأي، وإنما يؤخذ بالتوقيف، فإذا عدم التوقيف بالقطع في ذلك رجع إلى الدلائل، وقد اختلفت الدلائل في ذلك

(١) فتح الباري (٦/ ٥٥٢).
(٢) شرح مسلم (١٥/ ١٦١).

لاحتمال اللفظ للتأويل.

فمما استدل به من فضل مريم على عائشة قوله تعالى لمريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾[١] أي: اختارك وطهرك من الكفر، عن مجاهد والحسن. وقيل: وطهرك من الأدناس: الحيض والنفاس، عن الزجاج وغيره. وقوله: ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢] يدل على تفضيلها على جميع نساء الدنيا؛ لأن العالمين جمع عالم، ألا ترى أن اللّه جعلها وابنها آية أن ولدت من غير فحل، وهذا شيء لم يخص به غيرها من نساء الدنيا، وجاءها جبريل ولم يأت غيرها من النساء قال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[٣].

وقال ابن وهب صاحب مالك: بنبوتها، واختاره أبو إسحاق الزجاج وهو إمام سنة، وهو قول أبي بكر بن اللباد فقيه المغرب، وقول أبي محمد بن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، وعلى هذا القول يكون أول الحديث على العموم في مريم وآسية، وآخره على الخصوص في عائشة، ويكون المعنى: فضل مريم وآسية على جميع نساء كل عالم، وفضل عائشة على نساء عالمها خاصة. وأبى هذا طائفة أخرى، وقالوا: بفضل عائشة على جميع النساء، ولم يقولوا بنبوة مريم ولا أحد من النساء، وحملوا آخر الحديث على العموم، وأوله على الخصوص، وقالوا: قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني عالم زمانها، وهو قول الحسن وابن جريج، ويكون قوله: «فضل عائشة» على نساء الدنيا كلها، ومن حجتهم على ذلك قوله ﷻ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[٤]، فعلم بهذا الخطاب أن المسلمين أفضل جميع الأمم، ألا ترى قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[٥] والوسط: العدل عند أهل التأويل، فدل هذا كله أن من شهد له النبي بالفضل من أمته وعينه فهو أفضل ممن شهد له بالفضل من الأمم الخالية، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[٦] فدل عموم هذا اللفظ على فضل أزواجه على كل من قبلهن وبعدهن، وأجمعت

---

(١) آل عمران: الآية (٤٢).
(٢) آل عمران: الآية (٤٢).
(٣) مريم: الآيات (١٧-١٩).
(٤) آل عمران: الآية (١١٠).
(٥) البقرة: الآية (١٤٣).
(٦) الأحزاب: الآية (٣٢).

الأمة أن نبينا محمدًا أفضل من جميع الأنبياء، فكذلك نساؤه لهن من الفضل على سائر نساء الدنيا ما للنبي على سائر الأنبياء، وقد صح أن نساءه معه في الجنة، ومريم مع ابنها، وابنها في الجنة، ودرجة محمد في الجنة فوق درجة هؤلاء كلهم. واللَّه أعلم بحقيقة الفضل في ذلك.»[١].

قال القاضي عياض: «وقوله: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران»: يستدل به من يقول بنبوة النساء ونبوة آسية ومريم، والأكثر على أنهما صديقتان ووليتان من أولياء اللَّه تعالى، والكمال المتناهي للشيء وتمامه في بابه. والمراد ههنا: التناهي في جو الفضائل وخصال البر والتقوى. يقال منه: كمَل وكمُل، بالفتح والضم، وليس يشعر الحديث بأنه لم يكمل ولا يكمل ممن يكون في هذه الأمة غيرهما. فإذا قلنا بنبوتهما أو سلمنا ذلك لقائله، فلا شك أنه لا يلحق درجتهما في النبوة غيرهما، وإذا قلنا: إنهما صديقتان، لم يمنع أن يكمل من هذه الأمة غيرهما»[٢].

قال النووي -معلقا على كلام القاضي-: «وهذا الذي نقله من القول بنبوتهما غريب ضعيف، وقد نقل جماعة الإجماع على عدمها، واللَّه أعلم»[٣].

قال الكرماني: «ولا يلزم من لفظ الكمال نبوتهما؛ إذ هو يطلق لتمام الشيء وتناهيه في بابه، فالمراد تناهيهما في جميع الفضائل التي للنساء، وقد نقل الإجماع على عدم النبوة لهن»[٤].

قال الحافظ: «كذا قال، وقد نقل عن الأشعري أن من النساء من نبئ وهن ست: حواء، وسارة، وأم موسى، وهاجر، وآسية، ومريم، والضابط عنده أن من جاءه الملك عن اللَّه بحكم من أمر، أو نهي، أو بإعلام مما سيأتي فهو نبي، وقد ثبت مجيء الملك لهؤلاء بأمور شتى من ذلك من عند اللَّه ﷻ، ووقع التصريح بالإيحاء لبعضهن في القرآن. وذكر ابن حزم في «الملل والنحل» أن هذه المسألة لم يحدث التنازع فيها إلا في عصره بقرطبة، وحكى عنهم أقوالا، ثالثها الوقف، قال: وحجة

---

(١) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٨٥-٤٨٧) وانظر البداية والنهاية: (٢/ ٦١)..

(٢) إكمال المعلم (٧/ ٤٤٠-٤٤١).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٥/ ١٦١).

(٤) شرح البخاري (١٤/ ٦٠).

المانعين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾[١]، قال: وهذا لا حجة فيه؛ فإن أحدا لم يدع فيهن الرسالة، وإنما الكلام في النبوة فقط. قال: وأصرح ما ورد في ذلك قصة مريم، وفي قصة أم موسى ما يدل على ثبوت ذلك لها من مبادرتها بإلقاء ولدها في البحر بمجرد الوحي إليها بذلك، قال: وقد قال اللّٰه تعالى بعد أن ذكر مريم والأنبياء بعدها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[٢]فدخلت في عمومه، واللّٰه أعلم»[٣].

قلت: القول بعدم نبوتهما هو الذي عليه أكثر أهل العلم والمحققون منهم، أما ما نقله الحافظ عن أبي محمد بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ فقد قال شيخ الإسلام: «وأبو محمد مع كثرة علمه وتبحره وما يأتي به من الفوائد العظيمة، له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة، وهذا كقوله: إن مريم نبية؛ وإن آسية نبية؛ وإن أم موسى نبية. وقد ذكر القاضي أبو بكر، والقاضي أبو يعلى، وأبو المعالي وغيرهم: الإجماع على أنه ليس في النساء نبية، والقرآن والسنة دلا على ذلك: كما في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾[٤]وقوله: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾[٥]ذكر أن غاية ما انتهت إليه أمه: الصديقية، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع»[٦].

تقدم البحث في هذه المسألة في سورة آل عمران الآية (٤٢).

* عن ابن عباس قال: «خط رسول اللّٰه ﷺ في الأرض أربعة خطوط، قال: **«تدرون ما هذا؟»** فقالوا: اللّٰه ورسوله أعلم، فقال رسول اللّٰه ﷺ: **«أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران -رضي اللّٰه عنهن أجمعين-»**[٧].

---

(١) النحل: الآية (٤٣).
(٢) مريم: الآية (٥٨).
(٣) فتح الباري (٦/ ٥٥٣).
(٤) يوسف: الآية (١٠٩).
(٥) المائدة: الآية (٧٥).
(٦) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٦).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣)، وأبو يعلى (٥/ ١١٠/ ٢٧٢٢)، والطبراني (١١/ ٣٣٦/ ١١٩٢٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٣/ ٨٣٥٧)، قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٣): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجالهم رجال الصحيح». وصححه الحاكم (٢/ ٤٩٧/ ٣٨٣٦) ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «قوله: «**أفضل نساء أهل الجنة**» فائدة ذكره الإيذان بأن هؤلاء الأربعة أفضل حتى من الحور العين، ولو قال النساء فقط لتُوهم أن المراد نساء الدنيا فقط»[1].

قال البنا: «أما آسية بنت مزاحم امرأة فرعون فمن أعظم مناقبها ذكرها في كتاب اللَّه ﷻ بالثناء عليها، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ومنها أنه لم يؤمن من نساء فرعون سواها وماشطة ابنة فرعون.. ومنها أنها ذبّت عن نبي اللَّه موسى بن عمران بكل قواها، وكانت سببًا في عدم ذبحه كغيره من الصبيان»[2].

* * *

(١) الفيض (٢/ ٥٣).

(٢) الفتح الرباني (٢٠/ ١٣٣).



سورة الملك

أغراض السورة

قال محمد المكي الناصري: «وسورة (الملك) تدعو إلى التأمل في الحياة والموت وما وراءهما، وتبعث على التفكير في العالم العلوي، والتملي من مظاهر الإبداع الإلهي، المبثوثة في آفاقه الواسعة، وتحدو أسراء الحس إلى استبطان دخائل نفوسهم، والاهتمام بمراقبة ضمائرهم، علاوة على ضبط حواسهم، وتحض على التفكير في مصدر الرزق، وما يتعرض له من سعة وضيق، وإمساك وإطلاق، وهي إلى جانب هذا كله تصف حال المؤمنين وحال الكافرين، ومصير المهتدين ومصير الضالين.

وقد تفرعت آيات هذه السورة كلها عن فاتحتها المتضمنة لحقيقة (الملك) وحقيقة (القدرة)»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة الملك

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»**[2].

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«سورة من القرآن ما هي**

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٩ و٣٢١) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ١١٩-١٢٠/ ١٤٠٠)، والترمذي (٥/ ١٥١/ ٢٨٩١) وقال: «حديث حسن»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٦/ ١١٦١٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٤/ ٣٧٨٦)، والحاكم (٢/ ٤٩٧-٤٩٨) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وصححه أيضا ابن حبان [٣/ ٦٧/ ٧٨٧] الإحسان.

إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة، وهي سورة ﴿تَبَارَكَ﴾»[١].

★ **فوائد الحديثين:**

قال المناوي: «وفي الإبهام أولا ثم البيان بقوله: «وهي تبارك» نوع تفخيم وتعظيم لشأنها، إذ لو قيل: «إن سورة تبارك شفعت الخ»، لم تكن بهذه المثابة.. وهذا حث لكل أحد على مواظبة قراءتها لينال شفاعتها»[٢].

* عن جابر ﷺ قال: «كان رسول اللَّه ﷺ لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائد هذا الحديث عند ذكر فضائل سورة السجدة.

* عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: «يؤتى الرجل في قبره فتؤتى رجلاه، فتقول رجلاه: ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقوم يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى من قبل صدره -أو قال بطنه- فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى رأسه فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك قال: فهي المانعة تمنع من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطنب»[٤][٥].

* * *

(١) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٤/ ٣٩١/ ٣٦٦٧) واللفظ له، والصغير (٤٨١). وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٧) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح»، وصحح إسناده ابن حجر في التلخيص (١/ ٢٣٤).

(٢) الفيض (٢/ ٤٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٩)، والترمذي (٥/ ١٥٢/ ٢٨٩٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٨/ ١٠٥٤٢-١٠٥٤٥)، وصححه الحاكم (٢/ ٤١٢) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) كذا في رواية الحاكم وفي بعض الروايات: «وأطيب».

(٥) أخرجه: عبد الرزاق (٣/ ٣٧٩-٣٨٠/ ٦٠٢٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٩/ ١٠٥٤٧) مختصرا. والطبراني (٩/ ١٣١/ ٨٦٥١)، والحاكم (٢/ ٤٩٨) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٧-١٢٨) وقال: «رواه الطبراني وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح»، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٥).

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

★ غريب الآية:

تبارك: أي: تعالى وتعاظم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -تعالى ذكره-: ﴿تَبَارَكَ﴾: تعاظم وتعالى ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ بيده ملك الدنيا والآخرة وسُلطانهما نافذ فيهما أمره وقضاؤه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة لا يمنعه من فعله مانع، ولا يحول بينه وبينه عجز»[1].

قال ابن كثير: «يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك أي: المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾»[2].

قال صديق حسن خان: «تبارك تفاعل من البركة، والبركة النماء والزيادة، وقيل: تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين، وقيل: دام فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه، وقال الحسن: تبارك تقدس، وصيغة تفاعل للمبالغة، واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء عند المتكلمة، وصفة من صفاته عند المحدثين وهو الأولى.

والملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء، وقيل: المراد بالملك ملك النبوة، وقيل: الملك الأمر والنهي والسلطان أي: التمكن من سائر الموجودات يتصرف فيها كيفما أراد، قال الرازي: الملك تمام القدرة واستحكامها، والأول أولى، لأن الحمل

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٣).

على العموم أكثر مدحا، وأبلغ ثناء ولا وجه للتخصيص.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: بليغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء، يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام، ورفع ووضع، وإعطاء ومنع»[(١)].

قال السعدي: «أي: تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية التابعة لحكمته، ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة كالسماوات والأرض»[(٢)].

قال محمد المكي الناصري: «فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ تذكير لكافة الخلائق، ولا سيما الإنسان، بأن اللَّه تعالى هو وحده الذي يملك -على وجه التحقيق- التصرف الكامل الشامل، في جميع أجزاء الكون، بكل ما فيه، من رقاب ومنافع، وناطق وأعجم، وحي وجامد، وشاهد وغائب، وهو الذي له الملك الحقيقي في الدنيا، والمنفرد بالملك في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذكير لكافة الخلائق، ولا سيما الإنسان، بأن اللَّه تعالى هو وحده الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه سبحانه قادر على أن يرفع الإنسان إلى أعلى عليين إذا ائتمر بأمره وانتهى بنهيه، وقادر على أن يرده أسفل سافلين إذا خالف عن أمره وأعرض عن وحيه»[(٣)].

* * *

---

(١) فتح البيان (١٤/ ٢٢٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٨).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٧٤-٢٧٥).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فأمات من شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يقول: ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع»[1].

قال الشوكاني: «الموت: انقطاع تعلق الرّوح بالبدن ومفارقته له، والحياة تعلق الرّوح بالبدن واتصاله به. وقيل: هي ما يصح بوجوده الإحساس. وقيل: ما يوجب كون الشيء حيًا. وقيل: المراد الموت في الدنيا، والحياة في الآخرة. وقدّم الموت على الحياة؛ لأن أصل الأشياء عدم الحياة، والحياة عارضة لها. وقيل: لأن الموت أقرب إلى القهر»[2].

قال القرطبي: «قدم الموت على الحياة؛ لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم؛ لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم»[3].

قال الرازي: «اعلم أن الحياة هي الأصل في النعم، ولولاها لم يتنعم أحد في الدنيا، وهي الأصل أيضًا في نعم الآخرة ولولاها لم يثبت الثواب الدائم، والموت أيضًا نعمة على ما شرحنا الحال فيه في مواضع من هذا الكتاب، وكيف لا وهو الفاصل بين حال التكليف وحال المجازاة وهو نعمة من هذا الوجه»[4].

وقال: «اعلم أنا فسرنا الموت والحياة بالموت حال كونه نطفة وعلقة ومضغة، والحياة بعد ذلك فوجه الابتلاء على هذا الوجه أن يعلم أنه تعالى هو الذي نقله من الموت إلى الحياة وكما فعل ذلك فلا بد وأن يكون قادرًا على أن ينقله من الحياة إلى الموت فيحذر مجيء الموت الذي به ينقطع استدراك ما فات ويستوي فيه الفقير

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١).
(٢) فتح القدير (٥/ ٣٦٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٠٦).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٥٦).

والغني والمولى والعبد، وأما إن فسرناهما بالموت في الدنيا وبالحياة في القيامة فالابتلاء فيهما أتم، لأن الخوف من الموت في الدنيا حاصل وأشد منه الخوف من تبعات الحياة في القيامة، والمراد من الابتلاء أنه هل ينزجر عن القبائح بسبب هذا الخوف أم لا؟»[(١)].

وقال: «ذكروا في تفسير ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ وجوهًا: أحدها: أن يكون أخلص الأعمال وأصوبها، لأن العمل إذا كان خالصًا غير صواب لم يقبل، وكذلك إذا كان صوابًا غير خالص، فالخالص أن يكون لوجه اللَّه، والصواب أن يكون على السنة. وثانيها: قال قتادة: سألت رسول اللَّه ﷺ فقال: «**يقول أيكم أحسن عقلًا**»[(٢)] ثم قال: «أتمكم عقلًا أشدكم لله خوفًا، وأحسنكم فيما أمر اللَّه به ونهى عنه نظرا»، وإنما جاز أن يفسر حسن العمل بتمام العقل لأنه يترتب على العقل، فمن كان أتم عقلًا كان أحسن عملًا على ما ذكر في حديث قتادة. وثالثها: روي عن الحسن: أيكم أزهد في الدنيا وأشد تركًا لها، واعلم أنه لما ذكر حديث الابتلاء قال بعده: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ أي: وهو العزيز الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل، الغفور لمن تاب من أهل الإساءة»[(٣)].

قال السعدي: «أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم؛ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ أي: أخلصه وأصوبه، وذلك أن اللَّه خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر اللَّه أحسن اللَّه له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر اللَّه، فله شر الجزاء.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات. ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصًا إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر ذنوبهم ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم ولو كانت ملء الدنيا»[(٤)].

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٥٧).

(٢) رواه الحارث في مسنده (بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ١/ ٢٥٦/ ٨٢٨) وقال ابن حجر في المطالب العالية (٣/ ١٦/ ٢٧٥١): «موضوع».

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٥٧).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٨-٤٢٩).

قال محمد مكي الناصري: «قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، تأكيد لما له سبحانه من سلطان شامل كامل على خلقه، وتصرف حر مطلق العدم، وينفخ فيهم روح الحياة متى شاء، وهو سبحانه وحده الذي يوقف فيهم تيار الحياة، ويطفئ مصابيحها في اللحظة التي يريد ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[2]، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾[3]. وما دام الإنسان غير قادر على أن يقدم موعد قدومه إلى عالم الأحياء، وغير قادر على أن يؤخر موعد سفره من هذا العالم إلى الوقت الذي يشاء، فهو عاجز كل العجز، ومقهور كامل القهر، وإن ادعى من القدرة والسطوة لنفسه أكبر نصيب.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، بيان لحكمة اللَّه في خلق الإنسان، وفي تزويده بمَلَكة العقل والتمييز والاختيار. ذلك أن اللَّه تعالى يريد أن يبرز لكل إنسان ما في نفسه من طاقات كامنة، ومن استعدادات للخير والشر، ومن قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال، والإنسان لا يكتشف نفسه على حقيقتها إلا عندما تكون وسائل العمل حاضرة بين يديه، وأجهزة التنفيذ متوافرة لديه، وإذ ذاك يتضح اختياره، وتنكشف أسراره، ويتحمل مسؤولية عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فاللَّه تعالى لم يخلق الإنسان عبثا، ولم يتركه سدى، وإنما خلقه ليقوم بدور مرسوم له في هذه الأرض، وهذا الدور هو الخلافة عن اللَّه في عمارتها وصلاحها، وإقامة شريعة العدل والحق بين أهلها، ومجال السباق فيها مفتوح على مصراعيه أمام المتسابقين ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، إشارة إلى أن الحق سبحانه وإن كان عزيزا غالبا، منيع الجناب، فإنه سبحانه يصفح عن الذنوب ويغفر الخطايا لمن تاب إليه وأناب»[5].

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٢٣).
(٢) الطلاق: الآية (٣).
(٣) المنافقون: الآية (١١).
(٤) الأعراف: الآية (١٢٨).
(٥) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٧٥-٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

طباقا: أي بعضها فوق بعض.

تفاوت: اختلاف وعدم تناسب.

فطور: شقوق وصدوع، من فطر الشيء: إذا شقه. قال الشاعر:

بنى لكم بلا عمد سماء وسواها فما فيها فطور

خاسئا: ذليلا، صاغرا.

حسير: كليل. يقال: حسر البعير: إذا أعيا وتعب. قال الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى فعاد إلي الطرف وهو حسير

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: طبقة بعد طبقة، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهم على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء؟ فيه قولان، أصحهما الثاني، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره.

وقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي: بل هو مصطحب مستو، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة، ولا نقص ولا عيب ولا خلل؛ ولهذا قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيبًا، أو نقصًا، أو خللا، أو فطورًا؟»[١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٣).

قال الرازي: «قوله: ﴿طِبَاقًا﴾ صفة للسموات، وقوله بعد ذلك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ صفة أخرى للسموات والتقدير خلق سبع سموات طباقًا ما ترى فيهن من تفاوت إلا أنه وضع مكان الضمير قوله: ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تعظيمًا لخلقهن وتنبيهًا على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنه خلق الرحمن وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب»[(١)].

قال السعدي: «أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي: خلل ونقص. وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلومًا، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها، فقال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي: أعده إليها، ناظرًا معتبرًا ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: نقص واختلال.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ المراد بذلك: كثرة التكرار ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: عاجزًا عن أن يرى خللا أو فطورًا، ولو حرص غاية الحرص»[(٢)].

قال محمد المكي الناصري: «انتقل كتاب اللّٰه إلى التحدث عن آثار قدرته، ومظاهر حكمته، فأشار إلى ما خلقه اللّٰه من السبع الطباق، وما تميزت به من الضبط الذي لا خلل معه، والنظام الذي لا فوضى بعده، ووجه كتاب اللّٰه الدعوة مكررة إلى الإنسان، ليتذكر صنع اللّٰه في السماوات، ويرى هل يكتشف في صنعه بعض النقائص والآفات، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: طبقات على أبعاد متفاوتة، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ أي: هل ترى من شقوق وخروق، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرتين، مرة بعد أخرى، ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليل من الإعياء بعد تكرار النظر، دون اكتشاف أي نقص»[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٥٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم، وجعلها مصابيح لإضاءتها، وكذلك الصبح إنما قيل له صبح للضوء الذي يضيء للناس من النهار ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ يقول: وجعلنا المصابيح التي زيَّنا بها السماء الدنيا رجوما للشياطين تُرْجم بها»[1].

قال ابن كثير: «لما نفى عنها في خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ عاد الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ على جنس المصابيح لا على عينها؛ لأنه لا يرمي بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى، كما قال: في أول الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾[2].

قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٣).

(٢) الصافات: الآيات (٦-١٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٤).

قال الرازي: «اعلم أن منافع النجوم كثيرة، منها: أن اللَّه تعالى زين السماء بها، ومنها: أنه يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء، ولذلك فإنه إذا تكاثف السحاب في الليل عظمت الظلمة، وذلك بسبب أن السحاب يحجب أنوارها، ومنها: أنه يحصل بسببها تفاوت في أحوال الفصول الأربعة، فإنها أجسام عظيمة نورانية، فإذا قارنت الشمس كوكبًا مسخنًا في الصيف، صار الصيف أقوى حرًا، وهو مثل نار تضم إلى نار أخرى، فإنه لا شك أن يكون الأثر الحاصل من المجموع أقوى، ومنها: أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، على ما قال تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾[1]، ومنها: أنه تعالى جعلها رجومًا للشياطين الذين يخرجون الناس من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر، يروى أن السبب في ذلك أن الجن كانت تتسمع لخبر السماء، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء، ورصدت الشياطين، فمن جاء منهم مسترقًا للسمع رمي بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخلط على النبي أمره ويرتاب الناس بخبره، فهذا هو السبب في انقضاض الشهب، وهو المراد من قوله: ﴿وَجَعَلۡنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِۖ﴾»[2].

قال السعدي: «أي: ولقد جملنا ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بِمَصَـٰبِيحَ﴾ وهي: النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكانت سقفًا مظلمًا، لا حسن فيه ولا جمال. ولكن جعل اللَّه هذه النجوم زينة للسماء، وجمالا، ونورًا وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع؛ فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿وَجَعَلۡنَـٰهَا﴾ أي: المصابيح ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِۖ﴾ الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل اللَّه هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبارها إلى الأرض، فهذه الشهب التي ترمى من النجوم أعدها اللَّه في الدنيا للشياطين، ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ لأنهم تمردوا على اللَّه، وأضلوا عباده»[3].

---

(١) النحل: الآية (١٦). (٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٦١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٠-٤٣١).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۞﴾

★ غريب الآية:

شهيقا: الشهيق: رد النفس. والمعنى: سمعوا لها صوتا شديدا.

تفور: تغلي، والفوران: الغليان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله -تعالى ذكره-: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ الذي خلقهم في الدنيا ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ يقول: وبئس المصير عذاب جهنم.

وقوله: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ يعني إذا ألقي الكافرون في جهنم ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ يعني لجهنم ﴿شَهِيقًا﴾ يعني بالشهيق: الصوت الذي يخرج من الجوف بشدّة كصوت الحمار، كما قال رؤبة في صفة حمار:

حشرج في الجوف سحيلا أو شهق حتى يقال ناهق وما نهق

وقوله: ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ يقول: تَغْلِي»[1].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى بين في أول السورة أنه قادر على جميع الممكنات، ثم ذكر بعده أنه وإن كان قادرًا على الكل إلا أنه إنما خلق ما خلق لا للعبث والباطل بل لأجل الابتلاء والامتحان، وبين أن المقصود من ذلك الابتلاء أن يكون عزيزًا في حق المصرين على الإساءة غفورًا في حق التائبين، ومن ذلك كان كونه عزيزًا وغفورًا لا يثبتان إلا إذا ثبت كونه تعالى كاملًا في القدرة والعلم بين ذلك بالدلائل المذكورة، وحينئذ ثبت كونه قادرًا على تعذيب العصاة

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٤).

فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم، ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك، وقرئ: (عَذَابَ جَهَنَّمَ) بالنصب عطف بيان على قوله: ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ ثم إنه تعالى وصف ذلك العذاب بصفات كثيرة.

الصفة الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ .

﴿أُلْقُوا﴾ طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به فيها، ومثله قوله: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1]، وفي قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ وجوه أحدها: قال مقاتل: سمعوا لجهنم شهيقًا، ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق، قال الزجاج: سمع الكفار للنار شهيقًا، وهو أقبح الأصوات، وهو كصوت الحمار، وقال المبرد: هو والله أعلم تنفس كتنفس المتغيظ، وثانيها: قال عطاء: سمعوا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها شهيقًا، وثالثها: سمعوا من أنفسهم شهيقًا، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾[2] والقول هو الأول.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ قال الليث: كل شيء جاش فقد فار، وهو فور القدر والدخان والغضب والماء من العين، قال ابن عباس: تغلي بهم كغلي المرجل، وقال مجاهد: تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل، ويجوز أن يكون هذا من فور الغضب، قال المبرد: يقال تركت فلانًا يفور غضبًا»[3].

قال البقاعي: «ولما أخبر سبحانه عن تهيئته العذاب لهم بالخصوص، أخبر أيضًا عن تهيئته لكل عامل بأعمالهم على وجه اندرجوا هم فيه فقال حاثًا على التفكر في عظيم انتقامه الخارج عن العادة في عدم الانطفاء، لكونه ليس بسيف ولا عصا، ولا بسوط ونحوه بل النار الخارجة عن العادة في عدم الانطفاء، ولا للمعذب من الخلاص منها مسلك ولا رجاء بل كلما طال الزمان تلقته بالشدة والامتداد، بئس الجامعة للمذام في كل انتقام مع الإهانة والاحتقار. ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أوقعوا التغطية لما من حقه أن يظهر ويشهر من الإذعان للإله، فقال صارفًا القول عن مقام العظمة إلى صفة الإحسان الخاصة بالتربية تنبيهًا على ما في إنكاره من عظيم

---

(١) الأنبياء: الآية (٩٨).

(٢) هود: الآية (١٠٦).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٦٣-٦٤).

الكفران: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ أي: الذي تفرد بإيجادهم والإحسان إليهم فأنكروا إيجاده لهم بعد الموت، وذلك كفرًا منهم بما شاهدوا من اختراعه لهم من العدم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي: الدركة النارية التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة والغضب.

ولما كان التقدير: هي مصيرهم، قال دالًا على عدم خلاصهم منها أصلًا أزلًا وأبدًا: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: هي.

ولما عبر عن ذمها بمجمع المذام، أتبعه الوصف لبعض تجهمها على وجه التعليل، فقال دالًا بالإلقاء على خساستهم وحقارتهم معبرًا بأداة التحقيق دلالة على أنه أمر لا بد منه، وبالبناء للمفعول على أن إلقاءهم في غاية السهولة على كل من يؤمر به: ﴿إِذَا أُلْقُوا﴾ أي: طرح الذين كفروا والأخساء من أي طارح أمرناه بطرحهم ﴿فِيهَا﴾ حين تعتلهم الملائكة فتطرحهم كما تطرح الحطب في النار ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي: جهنم نفسها ﴿شَهِيقًا﴾ أي: صوتًا هائلًا أشد نكارة من أول صوت الحمار لشدة توقدها وغليانها، أو لأهلها -على حذف مضاف ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: تغلي بهم كغلي المرجل بما فيه من شدة التلهب والتسعر، فهم لا يزالون فيها صاعدين هابطين كالحب إذا كان الماء يغلي به-، لا قرار لهم أصلًا»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٣٣-٢٣٤).

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تميز: أي: تنفصل وتنقطع من شدة غيظها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿تَكَادُ﴾ جهنم ﴿تَمَيَّزُ﴾ يقول: تفرّق وتتقطع ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ على أهلها..

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ يقول -جل ثناؤه-: كلما ألقي في جهنم جماعة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يقول: سأل الفوجَ خزنة جهنم، فقالوا لهم: ألم يأتكم في الدنيا نذير ينذركم هذا العذاب الذي أنتم فيه؟ فأجابهم المساكين ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ ينذرنا هذا، ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا﴾ له ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾ يقول: في ذهاب عن الحقّ بعيد»[(١)].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: تكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم، ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[(٣)]»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٥).

(٢) الإسراء: الآية (١٥).

(٣) الزمر: الآية (٧١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٥).

قال ابن عاشور: «أُتبع وصف ما يجده أهل النار عند إلقائهم فيها من فظائع أهوالها بوصف ما يتلقاهم به خزنة النار.

فالجملة استئناف بياني أثاره وصف النار عند إلقاء أهل النار فيها إذ يَتساءل السامع عن سبب وقوع أهل النار فيها فجاء بيانه بأنه تكذيبهم رسل اللَّه الذين أرسلوا إليهم، مع ما انضمّ إلى ذلك من وصف ندامة أهل النار على ما فرط منهم من تكذيب رسل اللَّه، وعلى إهمالهم النظر في دعوة الرسل والتدبر فيما جاءوهم به»[١].

قال السعدي: «﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟ ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تخبروا عنها، ولم تحذركم النذر منها.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل اللَّه، ولم يكفهم ذلك حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال؛ بل جعلوا ضلالهم ضلالًا كبيرًا، فأي عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟»[٢].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾

★ غريب الآية:

سحقا: بعدا. يقال: أسحقه اللَّه أي: أبعده من رحمته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال الفوج الذي ألقي في النار للخزنة: ﴿لَوْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ من النذر ما جاءونا به من النصيحة، أو نعقل عنهم ما كانوا يدعوننا إليه ﴿مَا كُنَّا﴾ اليوم ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يعني: أهل النار.

وقوله: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ يقول: فأقرّوا بذنبهم ووحّد الذنب، وقد أضيف إلى الجمع لأن فيه معنى فعل، فأدى الواحد عن الجميع، كما يقال: خرج عطاء الناس، وأعطية الناس ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يقول: فبُعدا لأهل النار»[1].

قال ابن كثير: «أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله اللَّه من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر باللَّه والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، قال اللَّه تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾»[2].

قال السعدي: «﴿وَقَالُوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل اللَّه، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع لهم ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٥).

بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند اللَّه، وجاء به رسول اللَّه علمًا ومعرفة وعملا. والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم -في الإيمان- بحسب ما من اللَّه عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير. قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ أي: بعدًا لهم وخسارة وشقاء. فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب اللَّه، وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم!»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الناس لن يهلكوا حتى يعذروا من أنفسهم

* عن أبي البختري الطائي قال: أخبرني من سمعه من رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم**»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قال القاضي البيضاوي: «حتى يعذروا»: «قيل: إنه من «أعذر فلان»: إذا كثر ذنبه، فكأنه سلب عذره بكثرة اقتراف الذنوب، أو من «أعذر غيره»: إذا جعله معذورا، فكأنهم أعذروا من يعاقبهم بكثرة ذنوبهم، أو من «أعذر»: أي صار ذا عذر.

والمعنى: حتى يذنبوا فيعذرون أنفسهم بتأويلات زائغة وأعذار فاسدة من قبل أنفسهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا.

أقول: والوجه الثالث أنسب بباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كأن الناهي ينكر عليه ذنبه وهو يتبرأ من الذنب ويعذر لنفسه ولإقدامه عليه»[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٢-٤٣٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٠) و(٥/ ٢٩٣)، وأبو داود (٤/ ٥١٥/ ٤٣٤٧)، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح الجامع (٥٢٣١).

(٣) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٦٧).

قال السندي: «والمعنى: لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم فيستوجبون العقوبة، ويكون لمعذبهم عذر كأنهم قاموا بعذرهم فيه»[(١)].

* * *

(١) حاشية المسند (٣٠/ ٢٢٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين يخافون ربهم بالغيب يقول: وهم لم يروه ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ يقول: لهم عفو من اللّٰه عن ذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ يقول: وثواب من اللّٰه لهم على خشيتهم إياه بالغيب جزيل»[(١)].

قال ابن عطية: «وصف تعالى أهل الإيمان وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾، وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي أخبروا به من الحشر، والصراط، والميزان، والجنة والنار، فآمنوا بذلك، وخشوا ربهم فيه، ونحا إلى هذا قتادة.

والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي: في خلواتهم، ومنه تقول العرب: فلان سالم الغيب، أي: لا يضر، فالمعنى: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعباداتهم، وانفرادهم، فالاحتمال الأول: مدح بالإخلاص والإيمان، والثاني: مدح بالأعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أحرى أن يعملوها علانية»[(٢)].

قال الشوكاني: «لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنة، و﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول، أي: غائبين عنه، أو غائبًا عنهم، والمعنى: أنهم يخشون عذابه، ولم يروه، فيؤمنون به خوفًا من عذابه، ويجوز أن يكون المعنى: يخشون ربهم حال كونهم غائبين عن أعين الناس، وذلك في خلواتهم، أو المراد ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ كون العذاب غائبًا عنهم لأنهم في الدنيا، وهو إنما يكون يوم القيامة، فتكون الباء على هذا سببية ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة يغفر اللّٰه بها ذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وهو الجنة، ومثل هذه الآية قوله: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٦).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٣٤٠).

بِٱلْغَيْبِ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن عاشور: «اعتراض يفيد استئنافًا بيانيًا جاء على سنن أساليب القرآن من تعقيب الرهبة بالرغبة، فلما ذكر ما أعد للكافرين المعرضين عن خشية اللَّه أعقبه بما أعد للذين يخشون ربهم بالغيب من المغفرة والثواب للعلم بأنهم يترقبون ما يميزهم عن أحوال المشركين.

وقدم المغفرة تطمينًا لقلوبهم لأنهم يخشون المؤاخذة على ما فرط منهم من الكفر قبل الإسلام ومن اللمم ونحوه، ثم أعقبت بالبشارة بالأجر العظيم، فكان الكلام جاريًا على قانون تقديم التخلية على التحْلية، أو تقديم دفع الضر على جلب النفع، والوصف بالكبير بمعنى العظيم نظير ما تقدم آنفًا في قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾[(٣)].

وتنكير ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ للتعظيم بقرينة مقارنته بـ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وبقرينة التقديم.

وتقديم المسند على المسند إليه في جملة ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ليتأتى تنكير المبتدأ، ولإفادة الاهتمام، وللرعاية على الفاصلة وهي نُكت كثيرة»[(٤)].

قال السعدي: «لما ذكر حالة الأشقياء الفجار ذكر حالة السعداء الأبرار فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا اللَّه، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون عما أمرهم به ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، وإذا غفر اللَّه ذنوبهم وقاهم شرها، ووقاهم عذاب الجحيم، ولهم ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو ما أعده لهم في الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات المتواصلات، والمشتهيات، والقصور والمنازل العاليات، والحور الحسان، والخدم والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر رضا الرحمن، الذي يحله اللَّه على أهل الجنان»[(٥)].

قال عطية سالم: «الخشية: شدة الخوف، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾[(٦)] وبين تعالى محل تلك الخشية في قوله:

---

(١) ق: الآية (٣٣).
(٢) فتح القدير (٥/ ٣٧٢).
(٣) الملك: الآية (٩).
(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٩).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٤).
(٦) الأنبياء: الآية (٤٩).

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[١] لأنهم يعرفون حق اللَّه تعالى ويراقبونه.

وقد بين تعالى حقيقة خشية الله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[٢] وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[٣] فالذين يخشون ربهم بالغيب هم الذين يعرفون حق اللَّه عليهم، ومراقبته إياهم في السر والعلن، ويعلمون أنه مطلع عليهم مهما تخسفوا وتستروا وهم دائمًا منيبون إلى اللَّه، كما في قوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾[٤]، وهذه أعلى درجات السلوك مع اللَّه تعالى، كما بين أنها منزلة العلماء.

وقد عاب تعالى أولئك الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من اللَّه، ويخشون الناس ولا يخشون اللَّه، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥]. وإفراد اللَّه بالخشية منزلة الأنبياء، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾[٦].

قال الشيخ -رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه-: والعرب تمدح من يكون في خلوته كمشهده مع الناس. ومنه قول مسلم بن الوليد:

يتجنب الهفوات في خلواته عف السريرة غيبه كالمشهد

والواقع أن هذه الصفة، وهي خشية اللَّه بالغيب والإيمان بالغيب أساس عمل المسلم كله، ومعاملاته، لأنه بإيمانه بالغيب سيعمل كل خير طمعًا في ثواب اللَّه، كما في مستهل المصحف ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[٧] الآية.

وبمخافة اللَّه بالغيب سيتجنب كل سوء، فيسلم ويتحصل له ما قال اللَّه تعالى عنهم: ﴿مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، مغفرة من ذنوبه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على أعماله، رزقنا اللَّه خشيته في السر والعلن.

---

(١) فاطر: الآية (٢٨).
(٢) البقرة: الآية (٧٤).
(٣) الحشر: الآية (٢١).
(٤) ق: الآيتان (٣٢و٣٣).
(٥) التوبة: الآية (١٣).
(٦) الأحزاب: الآية (٣٩).
(٧) البقرة: الآيات (١-٣).

وليعلم أن المراد بالغيب مما هو من جانب العبد لا سيده، كما في الحديث في الإحسان: «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)] وهذا الإحساس هو أقوى عامل على اكتساب خشية اللَّه سبحانه»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حقيقة خشية اللَّه ﷻ

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف اللَّه، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر اللَّه خاليا ففاضت عيناه**»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «الخوف مسبوق بالشعور والعلم، فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به. وله متعلقان: أحدهما: نفس المكروه المحذور وقوعه. والثاني: السبب والطريق المفضي إليه. فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف، وبقدر المخوف يكون خوفه. وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه. فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضي إلى محذور كذا لم يخف من ذلك السبب، ومن اعتقد أنه يفضي إلى مكروه ما ولم يعرف قدره لم يخف منه ذلك الخوف، فإذا عرف قدر المخوف، وتيقن إفضاء السبب إليه حصل له الخوف»[(٤)].

وقال: «والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء باللَّه قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[(٥)] فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ:

---

(١) جزء من حديث جبريل ﷺ أخرجه: أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨)، وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) تتمة أضواء البيان (٨/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٩)، والبخاري (٢/ ١٨٢/ ٦٦٠) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧١٥/ ١٠٣١)، والترمذي (٤/ ٥١٦/ ٢٣٩١)، والنسائي (٨/ ٦١٣-٦١٤/ ٥٣٩٥).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٥١٥). (٥) فاطر: الآية (٢٨).

«إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية»[١] فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون»[٢].

قال ابن بطال: «وأما الذي دعته امرأة ذات منصب إلى نفسها فقال: «إني أخاف الله» فهو رجل عصمه اللَّه، ومن عليه بفضله حتى خافه بالغيب فترك ما يهوى لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٣]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾[٤]»[٥].

وقال ابن رجب: «ويعني بالمنصب: النسب والشرف والرفعة فِي الدنيا، فإذا اجتمع ذَٰلِكَ مَعَ الجمال فَقَدْ كمل الأمر وقويت الرغبة، فإن كَانَتْ مَعَ ذَٰلِكَ هِيَ الطالبة الداعية إلى نفسها، كَانَ أعظم وأعظم، فإن الامتناع بعد ذَٰلِكَ كله دليل عَلَى تقديم خوف اللَّه عَلَى هوى النفس، وصاحبه داخل فِي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[٦]، وهذا كما جرى ليوسف عليه السلام.

قَالَ عُبَيْد بْن عمير: من صدق الإيمان وبره إسباغ الوضوء فِي المكاره، ومن صدق الإيمان وبره أن يخلو الرَّجُلُ بالمرأة الجميلة فيدعها، لا يدعها إلا لله عز وجل. ومثل هَذَا؛ إذا قَالَ: (إني أخاف الله) فهو صادق فِي قوله؛ لأن عمله مصدق لقوله، وقوله لها: (إني أخاف الله) موعظة لها، فربما تنْزجر عَن طلبها، وترجع عَن غيها. وقد وقع ذَٰلِكَ لغير واحدٍ»[٧].

قال ابن أبي جمرة: «قوله عليه السلام: «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله» فهذا لعظم قهر النفس عن هواها، والحامل على ذلك شدة الخوف من اللَّه، وهنا بحث وهو: لم قال عن المرأة مع هذين الوصفين اللذين فيها؟ لأن ذات المرأة وحدها من أكبر الفتن وقد قال ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة هي أضر على

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٥)، والبخاري (١٣/ ٢٧٦/ ٧٣٠١)، ومسلم (٤/ ١٨٢٩/ ٢٣٥٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٧/ ١٠٠٦٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) مدارج السالكين (١/ ٥١٢-٥١٣).
(٣) النازعات: الآيتان (٤٠و٤١).
(٤) الرحمن: الآية (٤٦).
(٥) شرح صحيح البخاري (٨/ ٤٢٧-٤٢٨).
(٦) النازعات: الآية (٤٠).
(٧) فتح الباري (٦/ ٤٨-٤٩).

الرجال من النساء»[١]. فذكر الوصفين كل واحد منهما من أقوى البواعث في شهوات الجماع والرغبة فيها، وقد قال ﷺ: «تتزوج المرأة لجمالها وحسبها»[٢]؛ لأن ما ترغب النفوس في واحد طبعا إذا اجتمع أكثر من واحد كان أشد في الرغبة فيه، وقوة الشهوة، فمن أجل ذلك عظم الأجر لتاركه»[٣].

قلت: وقد تقدم الكلام على غريب الحديث وفوائده في سورة الأحزاب عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾[٤]وانظر سورة ق عند قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الآيات (٣١-٣٥).

قال الباجي: «وقوله ﷺ: «ورجل ذكر اللَّه خاليا ففاضت عيناه» خص النبي ﷺ الخالي بذلك، فإنه أبعد من الرياء والسمعة وطلب الذكر، فما كان في حال الخلوة من ذكر اللَّه ﷻ واستشعار خشيته حتى تفيض عيناه فإنه خالص لله تعالى لا يشوبه غيره»[٥].

قال ابن رجب: «السابع: «رجل ذكر اللَّه خاليا ففاضت عيناه» فهذا رَجُل يخشى اللَّه فِي سره، ويراقبه فِي خلوته، وأفضلُ الأعمال خشية اللَّه فِي السر والعلانية، وخشية اللَّه فِي السر إنما تصدر عَن قوة إيمان ومجاهدةٍ للنفس والهوى، فإن الهوى يدعو فِي الخلوة إلى المعاصي، ولهذا قيل: إن من أعز الأشياء الورع فِي الخلوة.

وذكر اللَّه يشمل ذكر عظمته وبطشه وانتقامه وعقابه؛ والبكاء الناشئ عَن هَذَا هُوَ بكاء الخوف، ويشمل ذكر جماله وكماله وبره ولطفه وكرامته لأوليائه بأنواع البر والألطاف، لا سيما برؤيته فِي الجنة، والبكاء الناشئ عَن هَذَا هُوَ بكاء الشوق.

ويدخل فِيه -أيضًا-: رَجُل ذكر أن اللَّه مَعَهُ حيثما كَانَ، فتذكر معيته وقربه واطلاعه عَلَيهِ حيث كَانَ فيبكي حياء مِنْهُ، وَهُوَ من نوع الخوف أيضًا»[٦].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٠)، والبخاري (٩/ ١٧١/ ٥٠٩٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٧/ ٢٧٤٠)، والترمذي (٥/ ٩٥/ ٢٧٨٠)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٠٠/ ٩٢٧٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥/ ٣٩٩٨) عن أسامة بن زيد ﷺ.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٨)، والبخاري (٩/ ١٦٣-١٦٤/ ٥٠٩٠)، ومسلم (٢/ ١٠٨٦/ ١٤٦٦)، وأبو داود (٢/ ٥٣٩-٥٤٠/ ٢٠٤٧)، والنسائي (٦/ ٣٧٦/ ٣٢٣٠)، وابن ماجه (١/ ٥٩٧/ ١٨٥٨)، عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) بهجة النفوس (١/ ٢٢٩).

(٤) الأحزاب: الآية (٣٥).

(٥) المنتقى (٧/ ٢٧٣).

(٦) فتح الباري (٦/ ٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: وأخفوا قولكم وكلامكم أيها الناس أو أعلنوه وأظهروه ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يقول: إنه ذو علم بضمائر الصدور التي لم يُتَكَلَّم بها، فكيف بما نطق به وتكلم به، أخفى ذلك أو أعلن، لأن من لم تخف عليه ضمائر الصدور فغيرها أحرى أن لا يخفى عليه»[1].

قال الرازي: «وفيه وجهان: الوجه الأول: قال ابن عباس: كانوا ينالون من رسول اللَّه فيخبره جبريل فقال بعضهم لبعض: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ﴾ لئلا يسمع إله محمد، فأنزل اللَّه هذه الآية. القول الثاني: أنه خطاب عام لجميع الخلق في جميع الأعمال، والمراد أن قولكم وعملكم على أي سبيل وجد، فالحال واحد في علمه تعالى بهذا فاحذروا من المعاصي سرا كما تحترزون عنها جهرا، فإنه لا يتفاوت ذلك بالنسبة إلى علم اللَّه تعالى، وكما بين أنه تعالى عالم بالجهر وبالسر بين أنه عالم بخواطر القلوب»[2].

قال البقاعي: «لما كانت الخشية من الأفعال الباطنة، وكان كل أحد يدعي أنه يخشى اللَّه، قال مخوفًا لهم بعلمه نادبًا إلى مراقبته لئلا يغتروا بحلمه، عاطفًا على ما تقديره لإيجاب المراقبة: فأبطنوا أفعالهم وأظهروها: ﴿وَأَسِرُّوا﴾ أي: أيها الخلائق.

ولما كان إفراد الجنس دالًا على قليله وكثيره قال: ﴿قَوْلَكُمْ﴾ أي: خيرًا كان أو شرًا ﴿أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ فإنه يعلمه ويجازيكم به؛ لأن علمه لا يحتاج إلى سبب، وذلك أن المشركين كانوا يقولون: «أسروا وإلا يسمع إله محمد» ثم علل ذلك مؤكدًا لأجل ما للناس من استبعاد ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي ربكم ﴿عَلِيمٌۢ﴾ أي: بالغ العلم

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٦).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٦٧).

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بحقيقتها وكنهها وحالها وجبلتها وما يحدث عنها سواء كانت قد تخيلته ولم تعبر عنه، أو كان مما لم تتخيله بعد بدليل ما يخبر به ﷺ عنهم مما وقع وهم يخفونه، أو لم يقع بعد ثم يقع كما أخبر به سبحانه»[1].

قال السعدي: «هذا إخبار من اللَّه بسعة علمه، وشمول لطفه فقال: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، فـ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترى؟!»[2].

* * *

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ⑭﴾

★ **غريب الآية:**

اللطيف: الرفيق بعباده.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وهذا من أبلغ التقرير، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه، والصانع يعلم مصنوعه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟ وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها، ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه فأكفرهم السلف قاطبة.

وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين أعني تقدير أن تكون(من) محل رفع على الفاعلية وفي محل نصب على المفعولية، فعلى التقدير الأول: ألا يعلم الخالق الذي شأنه الخلق، وعلى التقدير الثاني: ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه.

ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها، فكيف يخفى على اللطيف الخبير ما تحويه الضمائر وتخفيه الصدور؟»[1].

وقال: «وقد اختلف في إعراب ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ هو النصب أو الرفع؟ فإن كان مرفوعا فهو استدلال على علمه بذلك لخلقه له، والتقدير أنه يعلم ما تضمنته الصدور وكيف لا يعلم الخالق ما خلقه؟ وهذا الاستدلال في غاية الظهور والصحة؛ فإن الخلق يستلزم حياة الخالق وقدرته وعلمه ومشيئته؛ وإن كان منصوبا فالمعنى: ألا يعلم مخلوقه؟ وذكر لفظة ﴿مَنْ﴾ تغليبا ليتناول العلم العاقل وصفاته

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩١-٤٩٢).

على التقديرين، فالآية دالة على ما في الصدور كما هي دالة على علمه سبحانه به، وأيضا فإنه سبحانه خلقه لما في الصدور دليلا على علمه بها فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: كيف يخفى عليه ما في الصدور وهو الذي خلقه؟ فلو كان ذلك غير مخلوق له لبطل الاستدلال به على العلم، فخلقه سبحانه للشيء من أعظم الأدلة على علمه به، فإذا انتفى الخلق انتفى دليل العلم فلم يبق ما يدل على علمه بما ينطوي عليه الصدر إذا كان غير خالق لذلك، وهذا من أعظم الكفر برب العالمين، وجحد لما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى آخرهم، وعلم بالضرورة أنهم ألقوه إلى الأمم كما ألقوا إليهم أنه إله واحد لا شريك له»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «المقصود هنا أن علمه بنفسه مستلزم لعلمه بخلقه فيمتنع أن يكون عالما بنفسه علما تاما بدون علمه بخلقه، وحينئذ فنحن نستدل بعلمه بنفسه على أنه عالم بخلقه، كما نستدل بكل ملزوم على لازمه، وإن كان هو سبحانه لا يحتاج إلى شيء من الاستدلالات»[(٢)].

وقال السعدي: «قال -مستدلا بدليل عقلي على علمه-: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا والخفايا والغيوب، وهو الذي ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[(٣)] ومن معاني اللطيف أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب، بأسباب لا تكون من العبد على بال، حتى إنه يذيقه المكاره ليتوصل بها إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أولاد المشركين

* عن ابن عباسٍ رضي اللَّه عنهما قال: سئل رسول اللَّه ﷺ عن أولاد المشركين فقال: **«اللَّه إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين»**[(٥)].

---

(١) شفاء العليل (١/ ١٥٩).
(٢) درء التعارض (١٠/ ١٢٤).
(٣) طه: الآية (٧).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٤-٤٣٥).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٤٠)، والبخاري (٣/ ٣١٤/ ١٣٨٣) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٤٩/ ٢٦٦٠)، وأبو داود (٥/ ٨٤-٨٥/ ٤٧١١)، والنسائي (٤/ ٣٦١/ ١٩٥٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله: «اللَّه إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين» معناه: اللَّه أعلم بما جبلهم عليه وطبعهم عليه»[١].

قال الخطابي: «في هذا إثبات علم اللَّه تعالى»[٢].

قال النووي: «فيه بيان لمذهب أهل الحق أن اللَّه علم ما كان، وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون»[٣].

قال العيني: «غرض البخاري من هذا الرد على الجهمية في قولهم: (إن اللَّه لا يعلم أفعال العباد حتى يعملوها) تعالى اللَّه عن ذلك القول، وأخبر الشارع في هذا الحديث أن اللَّه يعلم ما لا يكون أن لو كان كيف يكون. فأحرى أن يعلم ما يكون وما قدره وقضاه في كونه، وهذا يقوي ما ذهب إليه أهل السنة أن القدر هو علم اللَّه وغيبه الذي استأثر به، فلم يطلع عليه ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا»[٤].

* * *

---

(١) المفهم (٦/ ٦٧٨).
(٢) أعلام الحديث (١/ ٧١٨).
(٣) شرح مسلم (١٦/ ١٧٣).
(٤) عمدة القاري (١٥/ ٦٥٨).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ذلولا: سهلة ميسرة للعيش عليها.

مناكبها: أطرافها ونواحيها.

النشور: البعث بعد الموت. يقال: أنشر اللَّه الموتى: إذا أحياهم. قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا ... يا عجبا للميت الناشر

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى بين بالدلائل كونه عالمًا بما يسرون وما يعلنون، ثم ذكر بعده هذه الآية على سبيل التهديد، ونظيره من قال لعبده الذي أساء إلى مولاه في السر: يا فلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك، كل هذا الخير الذي هيأته لك ولا تأمن تأديبي، فإني إن شئت جعلت هذه الدار التي هي منزل أمنك ومركز سلامتك منشأ للآفات التي تتحير فيها ومنبعًا للمحن التي تهلك بسببها، فكذا ههنا، كأنه تعالى قال: أيها الكفار اعلموا أني عالم بسركم وجهركم، فكونوا خائفين مني محترزين من عقابي، فهذه الأرض التي تمشون في مناكبها، وتعتقدون أنها أبعد الأشياء عن الإضرار بكم، أنا الذي ذللتها إليكم وجعلتها سببًا لنفعكم، فامشوا في مناكبها، فإنني إن شئت خسفت بكم هذه الأرض، وأنزلت عليها من السماء أنواع المحن، فهذا هو الوجه في اتصال هذه الآية بما قبلها»(١).

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولا منقادة للوطء عليها،

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٦٩).

وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها، وأخبر سبحانه أنه جعلها مهادا وفراشا وبساطا وقرارا وكفاتا، وأخبر أنه دحاها وطحاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق، وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، ومن بركتها أن الحيوانات كلها وأرزاقها وأقواتها تخرج منها، ومن بركاتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان، ومن بركاتها أنها تحمل الأذى على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح، ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد، وفضلات بدنه وتواريها، وتضمه وتؤويه، وتخرج له طعامه وشرابه، فهي أحمل شيء للأذى وأعوده بالنفع، فلا كان من التراب خير منه، وأبعد من الأذى، وأقرب إلى الخير، والمقصود أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول الذي كيفما يقاد ينقاد، وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولا، فالماشي عليها يطأ على مناكبها وهو أعلى شيء فيها، ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان وهي أعاليه، قالوا: وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر. وقالت طائفة: بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه، والذي يظهر أن المراد بالمناكب الأعالي، وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له؛ فان سطح الكرة أعلاها والمشي إنما يقع في سطحها، وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول، ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها فذللها لهم، ووطأها، وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها، وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيها للساكن. ثم نبه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين؛ بل دخلناه عابري سبيل فلا يحسن أن نتخذه وطنا ومستقرا، وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار، فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن ومستقر، فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه وإحسانه، والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطنا ومستقرا؛ بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته، فللّه ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده، والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه،

والاستعداد للقائه، والقدوم عليه، والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحي أهلها بعد ما أماتهم وإليه النشور»[١].

قال ابن كثير: «أي: فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئًا إلا أن ييسره اللَّه لكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل»[٢].

قال صديق حسن خان: «امتن سبحانه على عباده فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: سهلة لينة مذللة تستقرون عليها، منقادة لما تريدون منها من مشي عليها، وزرع وحبوب وغرس وغير ذلك، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع عليكم السكون والمشي عليها، والذلول في الأصل هو المنقاد الذي يذل لك ولا يستصعب عليك، والمصدر الذل، وتقديم (لكم) على مفعولي الجعل مع أن حقه التأخر عنهما للاهتمام بما قدم والتشويق إلى ما أخر، فإن ما حقه التقديم إذا أخر، لاسيما عند كون المقدم مما يدل على كون المؤخر من منافع المخاطبين، تبقى النفس مترقبة لوروده فيتمكن لديها عند ذكره فضل تمكن.

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ استدلالا واسترزاقا، والفاء لترتيب الأمر بالمشي على الجعل المذكور والأمر للإباحة، قال مجاهد والكلبي ومقاتل: مناكبها: طرقها وأطرافها ونواحيها وجوانبها، وقال قتادة وشهر بن حوشب: مناكبها: جبالها، وقيل: فجاجها، وبه قال ابن عباس، وقال أيضا: أطرافها، وأصل المنكب الجانب، ومنه منكب الرجل، ومنه الريح النكباء، لأنها تأتي من جانب دون جانب.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: مما رزقكم وخلقه لكم، والتمسوا من نعم اللَّه تعالى. .

﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ من قبوركم للجزاء فيسألكم عن شكر ما أنعم عليكم، فبالغوا في شكر نعمه وآلائه، وفي هذا وعيد شديد»[٣].

قال السعدي: «أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لتدركوا منها كل ما

---

(١) الفوائد (٢٨-٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٦).

(٣) فتح البيان (١٤/ ٢٣٩).

تعلقت به حاجتكم، من غرس وبناء وحرث، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي: لطلب الرزق والمكاسب.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التي جعلها اللَّه امتحانًا، وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة، تبعثون بعد موتكم، وتحشرون إلى اللَّه ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حقيقة التوكل

* عن عمر بن الخطاب سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لو أنكم كنتم تتوكلون على اللَّه حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا**»[٢].

★ غريب الحديث:

خماصا: بكسر الخاء المعجمة جمع خميص أي: جياعا.

بطانا: بكسر الموحدة جمع بطين وهو عظيم البطن، والمراد شباعا.

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «هذا الحديثُ أصل في التوكُّل، وأنَّه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزقُ، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٣] وقد قرأ النَّبيُّ ﷺ هذه الآية على أبي ذرٍّ، وقال له: «**لو أنَّ الناسَ كُلَّهم أخَذوا بها لَكَفتهم**»[٤] يعني: لو أنهم حقَّقوا التَّقوى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠ و٥٢)، والترمذي (٤/ ٤٩٥/ ٢٣٤٤) واللفظ له وقال: «حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وعزاه المزي في التحفة (١٠٥٨٦) للنسائي في (الرقائق)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٤/ ٤١٦٤). وصححه ابن حبان (٢/ ٥٠٩/ ٧٣٠ الإحسان)، والحاكم (٤/ ٣١٨) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٣) الطلاق: الآيتان (٢و٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٨-١٧٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٤/ ١١٦٠٣)، وابن ماجه (٢/ ١٤١١/ ٤٢٢٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٥٣٤)، وابن حبان [الإحسان: (١٥/ ٥٣-٥٤/ ٦٦٦٩)]، قال البوصيري في الزوائد: «هذا الحديث رجاله ثقات، غير أنه منقطع، وأبو السليل لم يدرك أبا ذر، قاله في التهذيب». وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم: (٦٣٧).

والتوكل؛ لاكتَفَوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم»[١].

قال الطيبي: «قوله: «حق توكله» أن يعلم يقينا بأن لا فاعل إلا اللّٰه، وأن كل موجود من خلق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر، وغير ذلك مما يطلق عليه اسم الموجود من اللّٰه تعالى، ثم يسعى في الطلب على الوجه الجميل، يشهد لذلك تشبيهه بالطير؛ فإنها تغدو خماصا، ثم تسرح في طلب القوت فتروح بطانا»[٢].

قال ابن القيم: «أجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد»[٣].

وقال أيضا عند ذكره لدرجات التوكل: «الدرجة الثانية: إثبات في الأسباب والمسببات.

فإن من نفاها فتوكله مدخول، وهذا عكس ما يظهر في بدوات الرأي: أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل، وأن نفيها تمام التوكل.

فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله اللّٰه سببا في حصول المدعو به. فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه اللّٰه سببا، ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء، فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله: إن كان قد قدر حصل توكل أو لم يتوكل دعا أو لم يدع، وإن لم يقدر لم يحصل، توكل أيضا أو ترك التوكل.

وصرح هؤلاء: أن التوكل والدعاء عبودية محضة، لا فائدة لهما إلا ذلك، ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قدر له، ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان عديم الفائدة، إذ هو مضمون الحصول.

ورأيت بعض متعمقي هؤلاء في كتاب له لا يجوز الدعاء بهذا، وإنما يجوزه تلاوة لا دعاء. قال: لأن الدعاء به يتضمن الشك في وقوعه؛ لأن الداعي بين الخوف والرجاء. والشك في وقوع ذلك شك في خبر اللّٰه، فانظر إلى ما قاد إنكار الأسباب من العظائم، وتحريم الدعاء بما أثنى اللّٰه على عباده وأوليائه بالدعاء به

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٦-٤٩٧).

(٢) شرح الطيبي (١٠/ ٣٣٣٥).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١١٦).

وبطلبه. ولم يزل المسلمون من عهد نبيهم ﷺ وإلى الآن يدعون به في مقامات الدعاء، وهو من أفضل الدعوات.

وجواب هذا الوهم الباطل أن يقال: بقي قسم ثالث غير ما ذكرتم من القسمين لم تذكروه هو الواقع، وهو أن يكون قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب، وقضى اللَّه بحصوله إذا فعل العبد سببه. فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب، وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها، فإذا لم يجامع لم يخلق الولد، وقضى بحصول الشبع إذا أكل، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو، وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة. وقضى بدخول الجنة إذا أسلم وأتى بالأعمال الصالحة، فإذا ترك الإسلام ولم يعمل الصالحات لم يدخلها أبدا، وقضى بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته، وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض، وإلقاء البذر فيها، فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة.

فوازن ما قاله منكرو الأسباب: أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل، ويقول: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الولد، والشبع، والري، والحج ونحوها، فلابد أن يصل إلي، تحركت أو سكنت، وتزوجت أو تركت، سافرت أو قعدت، وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي أيضا، فعلت أو تركت. فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة. فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه باللَّه لا بها، وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة اللَّه وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولا يقوم ساق التوكل إلى على قدم العبودية، واللَّه ﷻ أعلم»[١].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٨-١٢٠).

وقال ابن الجوزي: «وقال ابن عقيل: يظن أقوام أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل، وإن التوكل هو إهمال العواقب واطراح التحفظ، وذلك عند العلماء هو العجز والتفريط الذي يقتضي من العقلاء التوبيخ والتهجين ولم يأمر اللّه بالتوكل إلا بعد التحرز واستفراغ الوسع في التحفظ. فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[١]فلو كان التعلق بالاحتياط قادحا في التوكل لما خص اللّه به نبيه حين قال له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، وهل المشاورة إلا استفادة الرأي الذي منه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو؟ ولم يقنع في الاحتياط بأن يكله إلى رأيهم واجتهادهم حتى نص عليه وجعله عملا في نفس الصلاة وهي أخص العبادات. فقال: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ وبين علة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾[٢]، ومن علم أن الاحتياط هكذا لا يقال أن التوكل عليه ترك ما علم. لكن التوكل التفويض فيما لا وسع فيه ولا طاقة. قال -عليه الصلاة والسلام-: «**اعقلها وتوكل**»[٣]، ولو كان التوكل ترك التحرز لخص به خير الخلق ﷺ في خير الأحوال وهي حالة الصلاة. وقد ذهب الشافعي رحمه الله إلى وجوب حمل السلاح حينئذ لقوله: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾[٤]، فالتوكل لا يمنع من الاحتياط والاحتراز فإن موسى عليه السلام لما قيل له: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾[٥] خرج. ونبينا ﷺ خرج من مكة لخوفه من المتآمرين عليه، ووقاه أبو بكر رضي الله عنه بسد أثقاب الغار، وأعطى القوم التحرز حقه ثم توكلوا، وقال ﷻ في باب الاحتياط ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾[٦] وقال: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾[٧] وقال: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ وهذا لأن الحركة للذب عن النفس استعمال لنعمة اللّه تعالى يريد إظهار نعمه المبداة، يريد إظهار ودائعه، فلا وجه لتعطيل ما أودع اعتمادا على ما جاد به. لكن يجب استعمال ما عندك ثم اطلب ما عنده، وقد جعل اللّه تعالى للطير والبهائم عدة

---

(١) آل عمران: الآية (١٥٩). (٢) النساء: الآية (١٠٢).

(٣) أخرجه: الحاكم (٣/ ٦٢٣)، وابن حبان [الإحسان: (٢/ ٥١٠/ ٧٣١)] من حديث عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه، قال الذهبي في التلخيص: «سنده جيد». وفي الباب عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) النساء: الآية (١٠٢). (٥) القصص: الآية (٢٠).

(٦) يوسف: الآية (٥).

(٧) يوسف: الآية (٦٧).

وأسلحة تدفع عنها الشرور كالمخلب، والظفر، والناب، وخلق للآدمي عقلا يقوده إلى حمل الأسلحة، ويهديه إلى التحصين بالأبنية، والدروع، ومن عطل نعمة اللَّه بترك الاحتراز فقد عطل حكمته كمن يترك الأغذية والأدوية، ثم يموت جوعا أو مرضا. ولا أبله ممن يدعي العقل والعلم، ويستسلم للبلاء إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب، وقلبه ساكن مفوض إلى الحق، منع أو أعطي؛ لأنه لا يرى إلا أن الحق ﷻ لا يتصرف إلا بحكمة ومصلحة. فمنعه عطاء في المعنى. وكم زين للعجزة عجزهم وسولت لهم أنفسهم أن التفريط توكل فصاروا في غرورهم بمثابة من اعتقد التهور شجاعة، والخور حزما. ومتى وضعت أسباب فأهملت كان ذلك جهلا بحكمة الواضع، مثل وضع الطعام سببا للشبع، والماء للري، والدواء للمرض. فإذا ترك الإنسان ذلك إهوانا بالسبب ثم دعا وسأل فربما قيل له قد جعلنا لعافيتك سببا فإذا لم تتناوله كان إهوانا لعطائنا فربما لم نعافك بغير سبب لإهوانك للسبب، وما هذا إلا بمثابة من بين قراحه وماء الساقية رفسه بمسحاة فأخذ يصلي صلاة الاستسقاء طلبا للمطر فإنه لا يستحسن منه ذلك شرعا ولا عقلا»[1].

وقال أيضًا -بعد أن ساق كلاما لبعض الصوفية في تركهم التكسب زعما منهم أنه من التوكل-: «قلت: هذا كلام قوم ما فهموا معنى التوكل وظنوا أنه ترك الكسب وتعطيل الجوارح عن العمل، وقد بينا أن التوكل فعل القلب فلا ينافي حركة الجوارح، ولو كان كل كاسب ليس بمتوكل لكان الأنبياء غير متوكلين.

فقد كان زكريا نجارا، وموسى ومحمد ﷺ من رعاة الغنم، فلما أغناه اللَّه بما فرض له من الخمس لم يحتج إلى الكسب.. لو قال رجل للصوفية: من أين أطعم عيالي؟ لقالوا: قد أشركت، ولو سئلوا عمن يخرج إلى التجارة لقالوا: ليس بمتوكل ولا موقن، وكل هذا لجهلهم بمعنى التوكل واليقين، ولو كان أحد يغلق عليه الباب ويتوكل، لقرب أمر دعواهم، لكنهم بين أمرين: أما الغالب من الناس فمنهم من يسعى إلى الدنيا مستجديا، ومنهم من يبعث غلامه فيدور بالزنبيل فيجمع له. وإما الجلوس في الرباط في هيئة المساكين، وقد علم أن الرباط لا يخلو من فتوح، كما لا تخلو الدكان من أن تقصد للبيع والشراء

(١) تلبيس إبليس (ص: ٣٤٢-٣٤٤).

وقال ابن عقيل : التسبب لا يقدح في التوكل ؛ لأن تعاطى رتبة ترقى على رتبة الأنبياء نقص في الدين . ولما قيل لموسى عليه السلام ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ خرج ، ولما جاع واحتاج إلى عفة نفسه أجر نفسه ثمان سنين . وقال اللّٰه تعالى : ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ وهذا لأن الحركة استعمال لنعمة اللّٰه وهي القوى فاستعمل ما عندك ثم اطلب ما عنده . وقد يطلب الإنسان من ربه وينسى ما له عنده من الذخائر ، فإذا تأخر عنه ما يطلبه يسخط . فترى بعضهم يملك عقارا أو أثاثا فإذا ضاق به القوت ، واجتمع عليه دين ، فقيل له : لو بعت عقارك . قال : كيف أفرط في عقاري وأسقط جاهي عند الناس . وإنما قعد أقوام عن الكسب استثقالا له فكانوا بين أمرين قبيحين : إما تضييع العيال ، فتركوا الفرائض ، أو التزين باسم أنه متوكل فيحن عليهم المكتسبون فضيقوا على عيالهم لأجلهم وأعطوهم . وهذه الرذيلة لم تدخل قط إلا على دنيء النفس الرذيلة ، وإلا فالرجل كل الرجل من لم يضيع جوهره الذي أودعه اللّٰه إيثارا للكسل أو لاسم يتزين به بين الجهال ؛ فإن اللّٰه تعالى قد يحرم الإنسان المال ويرزقه جوهرا يتسبب به إلى تحصيل الدنيا بقبول الناس عليه . وقد تشبث القاعدون عن التكسب بتعللات قبيحة ، منها : أنهم قالوا لابد من أن يصل إلينا رزقنا وهذا في غاية القبح ؛ فإن الإنسان لو ترك الطاعة وقال : لا أقدر بطاعتي أن أغير ما قضى اللّٰه علي فإن كنت من أهل الجنة فأنا إلى الجنة أو من أهل النار فأنا من أهل النار . قلنا له : هذا يرده الأوامر كلها ولو صح لأحد ذلك لم يخرج آدم من الجنة ؛ لأنه كان يقول : ما فعلت إلا ما قضى عليه . ومعلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر»[١] .

* * *

(١) تلبيس إبليس (٣٤٥-٣٥٠) بتصرف .

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾

★ **غريب الآية:**

تمور: أي تدور.

حاصبا: الحاصب: الحجارة التي ترمي بها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وهذا أيضًا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به، وعبادتهم معه غيره، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل، كما قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ۝٤٥﴾[(١)].

وقال هاهنا: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ أي: تذهب وتجيء وتضطرب، ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ أي: ريحا فيها حصباء تدمغكم، كما قال: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ۝٦٨﴾[(٢)]. وهكذا توعدهم هاهنا بقوله: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي: كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به»[(٣)].

قال صديق حسن خان: «خوف سبحانه الكفار فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قال الواحدي: قال المفسرون: يعني عقوبة من في السماء، وقيل: من في السماء: عرشه وقدرته وسلطانه أي: محل سلطانه ومحل قدرته، وهو العالم العلوي، وخص بالذكر وإن كان كل موجود محلا للتصرف فيه ومقدورا له تعالى، لأن العالم العلوي أعجب

(١) فاطر: الآية (٤٥).

(٢) الإسراء: الآية (٦٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٧).

وأغرب، فالتخويف به أشد من التخويف بغيره.

وقيل: الملائكة، وقيل: المراد جبريل، وقيل: هو اللَّه سبحانه وهو الحق؛ لأن ظاهر النظم القرآني يقتضي أن الباري تعالى فوق السماء و(في) بمعنى على، والمعنى من ثبت واستقر في السماء أي: على العالي وهو العرش، قرأ الجمهور ﴿ءَأَمِنتُم﴾ بهمزتين، وقرئ بالتخفيف وبقلب الأولى واوا.

وقوله: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ بدل اشتمال من الموصول، أي: أأمنتم خسفة أو على حذف (من) أي من أن يخسف، والمعنى يقلبها متلبسة بكم كما فعل بقارون بعد ما جعلها لكم ذلولا تمشون في مناكبها.

﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب وتتحرك بكم على خلاف ما كانت عليه من السكون والاطمئنان، وقيل: تهوي بهم، وقيل: تجيء وتذهب، والأول أولى»[1].

قال السعدي: «هذا تهديد ووعيد لمن استمر في طغيانه وتعديه، وعصيانه الموجب للنكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو اللَّه تعالى العالي على خلقه. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ بكم وتضطرب حتى تتلفكم وتهلككم. ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ أي: عذابًا من السماء يحصبكم، وينتقم اللَّه منكم. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب، فلا تحسبوا أن أمنكم من اللَّه أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعكم، فستجدون عاقبة أمركم، سواء طال عليكم الزمان أو قصر»[2].

* * *

(١) فتح البيان (١٤/ ٢٤٠-٢٤١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد كذّب الذين من قبل هؤلاء المشركين من قريش من الأمم الخالية رسلهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يقول: فكيف كان نكيري تكذيبهم إياهم»(١).

قال البقاعي: «ولما كان من المعلوم أن المأمور بإبلاغهم وإنذارهم هذا الإنذار ﷺ في غاية الرحمة لهم والشفقة عليهم، فهو بحيث يشق عليه غاية المشقة ما أفهمه هذا الكلام من إهلاكهم أن يصدقوا ويحب التأني بهم، لفت سبحانه الخطاب إليه عاطفًا على ما تقديره: فلقد طال إمهالنا لهم، وحلمنا عنهم، وتعريفنا لهم بعظيم قدرتنا وهم لا يرجعون، وكثر وعظنا لهم وتصريفنا القول بينهم على ألسنة رسلنا عليهم الصلاة والسلام وهم يتمادون ولا ينتهون، قوله مصورًا لهم ما توعدهم به في أمر محسوس؛ لأن الأمور المشاهدات أروع للإنسان لما له من التقيد بالوهم مؤكدًا للإشارة إلى أن التكذيب مع إقامة البراهين أمر يجب إنكاره فلا يكاد يصدق: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ﴾ وطغى وبغى وأعرض وتجبر وتمرد وولى بوجهه وقلبه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ولما كان هذا التكذيب لم يعم الماضين بعض فقال: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني كفار الأمم الماضية.

ولما كان سبحانه قد أملى لهم ثم أخذهم بعد طول الحلم أخذًا بقيت أخباره، ولم تندرس إلى الآن على تمادي الزمان آثاره، فكان بحيث يسأل عنه لعظم أحواله، وشدة زلازله وفظاعة أهواله، سبب عن ذلك قوله منبهًا على استحضار ذلك العذاب ولو بالسؤال عنه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب في تمكن كونه وهول أمره، فقد جمع إلى التسلية غاية التهديد»(٢).

قال ابن عاشور: «بعد أن وَجه اللَّه إليهم الخطاب تذكيرًا واستدلالًا وامتنانًا

(١) جامع البيان (٢٨/ ٨).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٢٥٠-٢٥١).

وتهديدًا وتهويلًا ابتداء من قوله: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾(١) التفتَ عن خطابهم إلى الإِخبار عنهم بحالة الغيبة، تعريضًا بالغضب عليهم بما أتوه من كل تكذيب الرسول ﷺ فكانوا جديرين بإبعادهم عِزّ الحضور للخطاب، فلذلك لم يقل ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ولم يقطع توجيه التذكير إليهم والوعيد لعلهم يتدبرون في أن اللَّه لم يدخرهم نصحًا.

فالجملة عطف على جملة ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾ لمناسبة أن مما عوقب به بعض الأمم المكذبين من خسف أو إرسال حجارة من السماء وهم قوم لوط، ومنهم من خُسف بهم مثل أصحاب الرس.

ولك أن تجعل الواو للحال، أي: كيف تأمنون ذلك عندما تكذبون الرسول في حال أنه قد كذب الذين من قبلكم فهل علمتم ما أصابهم على تكذيبهم الرسل.

ضرب اللَّه لهم مثلًا بأمم من قبلهم كذبوا الرسل فأصابهم من الاستئصال ما قد علموا أخباره لعلّهم أن يتّعظوا بقياس التمثيل إن كانت عقولهم لم تبلغ درجة الانتفاع بأقيسة الاستنتاج، فإن المشركين من العرب عرفوا آثار عاد وثمود، وتناقلوا أخبار قوم نوح وقوم لوط وأصحاب الرسّ وفرع ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهامًا تقريريًا وتنكيريًا وهو كناية عن تحقيق وقوعه وأنه وقع في حال فظاعة.

وقد أكد الخبر باللام و(قد) لتنزيل المعرّض بهم منزلة من يظن أن اللَّه عاقب الذين من قبلهم لغير جرم أو لجرم غير التكذيب. فهو مفرع على المؤكد، فالمعنى: لقد كذب الذين من قبلهم ولقد كان نكيري عليهم بتلك الكيفية.

و ﴿نَكِيرِ﴾ ؛ أصله نكيري بالإضافة إلى ياء المتكلم المحذوفة تخفيفًا، كما في قوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ ، والمعنى: كيف رأيتم أثر نكيري عليهم فاعلموا أن نكيري عليكم صائر بكم إلى مثل ما صار بهم نكيري عليهم»(٢).

قال صديق حسن خان: «أي: من قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس وقوم فرعون، والالتفات إلى الغيبة لإبراز الإعراض عنهم.

---

(١) الملك: الآية (١٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٦-٣٧).

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بما أصبتهم به من العذاب الفظيع، وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط، وفيه من المبالغة في تسلية رسول الله ﷺ وتشديد التهديد لقومه ما لا يخفى»[1].

* * *

(١) فتح البيان (١٤/ ٢٤١).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صافات ويقبضن: أي صافات أجنحتها وقابضاتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: أو لم ير هؤلاء المشركون إلى الطير فوقهم صافات أجنحتهنّ ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ يقول: ويقبضن أجنحتهنّ أحيانا. وإنما عُني بذلك أنها تصُفُّ أجنحتها أحيانا، وتقبض أحيانا..

وقوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ يقول: ما يمسك الطير الصافات فوقكم إلا الرحمن. يقول: فلهم بذلك مذكر إن ذكروا، ومعتبر إن اعتبروا، يعلمون به أن ربهم واحد لا شريك له ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يقول: إن اللَّه بكل شيء ذو بصر وخبرة، لا يدخل تدبيره خلل، ولا يرى في خلقه تفاوت»[1].

قال الرازي: «﴿صَافَّاتٍ﴾ أي: باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن. فإن قيل لم قال: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ولم يقل وقابضات، قلنا: لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارىء غير أصلي بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة، كما يكون من السابح.

ثم قال تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك اللَّه وحفظه»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٧٢).

قال السعدي: «وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير التي سخرها اللَّه، وسخر لها الجو والهواء، تصف فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران، فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٧).

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمشركين به من قريش: من هذا الذي هو جند لكم أيها الكافرون به، ينصركم من دون الرحمن إن أراد بكم سوءا، فيدفع عنكم ما أراد بكم من ذلك ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما الكافرون باللَّه إلا في غرور من ظنهم أن آلهتهم تقرّبهم إلى اللَّه زلفى، وأنها تنفع أو تضر»[(١)].

قال الرازي: «اعلم أن الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان، ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وكان تعويلهم على شيئين؛ أحدهما: القوة التي كانت حاصلة لهم بسبب مالهم وجندهم. والثاني: أنهم كانوا يقولون: هذه الأوثان، توصل إلينا جميع الخيرات، وتدفع عنا كل الآفات. وقد أبطل اللَّه عليهم كل واحد من هذين الوجهين، أما الأول فبقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ﴾ وهذا نسق على قوله: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾[(٢)]والمعنى: أم من يشار إليه من المجموع، ويقال: هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون اللَّه إن أرسل عذابه عليكم، ثم قال: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ أي: من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم»[(٣)].

قال صديق حسن خان: «الاستفهام للتقريع والتوبيخ، والالتفات عن الغيبة إلى الخطاب للتشديد في ذلك التبكيت، والمعنى أنه لا جند لكم يمنعكم من عذاب اللَّه، والجند: الحزب والمنعة. . والمعنى: بل من هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨).
(٢) الملك: الآية (١٧).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٧٣).

لكم متجاوزا نصر الرحمن.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ معترضة مقررة لما قبلها ناعية عليهم ما هم فيه من غاية الضلال، والالتفات عن الخطاب إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم، والإظهار في موضع الإضمار لذمهم بالكفر وتعليل غرورهم به، والمعنى ما الكافرون إلا في غرور عظيم من جهة الشيطان يغرهم به»[١].

قال السعدي: «يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ينصركم إذا أراد بكم الرحمن سوءًا، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق، لو اجتمعوا على نصر عبد، لم ينفعوه مثقال ذرة على أي عدو كان، فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن غرور وسفه»[٢].

* * *

---

(١) فتح البيان (١٤/ ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٧-٤٣٨).

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: من هذا الذي إذا قطع اللَّه رزقه عنكم يرزقكم بعده؟! أي: لا أحد يعطي، ويمنع، ويخلق، ويرزق، وينصر إلا اللَّه ﷻ وحده لا شريك له، أي: وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّجُّوا﴾ أي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: معاندة، واستكبارًا ونفورًا على أدبارهم عن الحق، أي لا يسمعون له ولا يتبعونه»[١].

قال صديق حسن خان: «الكلام في هذا كالكلام في الذي قبله، أي: من الذي يدر عليكم الرزق من المطر وغيره ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أي: أسباب رزقه التي ينشأ عنها كالمطر؛ بل لو كان الرزق موجودا كثيرا سهل التناول فوضع الآكل لقمة في فيه فأمسك اللَّه تعالى عنه قوة الازدراد لعجز أهل السموات والأرض عن أن يسوغوا تلك اللقمة. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: إن أمسك رزقه فمن يرزقكم غيره؟.

وقوله: ﴿بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ ينبئ عن مقدر يستدعيه المقام، كأنه قيل: اثر تمام التبكيت والتعجيز لم يتأثروا لذلك ولم يذعنوا للحق، بل تمادوا في عناد واستكبار عن الحق ونفور عنه، ولم يعتبروا ولا تفكروا»[٢].

قال البقاعي: «أشار إلى القرب بالعلم، والبعد بالعلو والعظمة بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ وأشار إلى معرفة كل أحد له بصفاته العلية التي تنشأ عنها أفعاله المحكمة السنية، فقال: ﴿الَّذِي﴾ وأسقط العائد لتحمل الفعل له ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: على سبيل التجدد والاستمرار، لا ينقطع معروفه أبدًا مع أنه قد وسع كل شيء ولا غفلة له عن شيء

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٨).

(٢) فتح البيان (١٤/ ٢٤٣).

﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك الأسباب التي تنشأ عنها ويكون وصوله إليكم منها كالمطر، ولو كان الرزق موجودًا أو كثيرًا وسهل التناول فوضع الأكلة في فمه فأمسك اللَّه عنه قوة الازدراء عجز أهل السموات والأرض عن أن يسوغوه تلك اللقمة.

ولما قامت بهذا دلائل قدرته وشمول علمه على سبيل العموم فالخصوص، فكان ذلك مظنة أن يرجع الجاحد ويخجل المعاند، ويعلم الجاهل ويتنبه الغافل، فكان موضع أن يقال: هل رجعوا عن تكذيبهم؟، عطف عليه قوله لافتًا الكلام إلى الغيبة إعراضًا عنهم تنبيهًا على سقوط منزلتهم وسوء أفهامهم وقوة غفلتهم: ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ أي: تمادوا سفاهة لا احتياطًا وشجاعة، قال الرازي في اللوامع: واللجاج: تقحم الأمر مع كثرة الصوارف عنه ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي: مظروفين لعناد وتكبر عن الحق، وخروج إلى فاحش الفساد ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي: شراد عن حسن النظر والاستماع دعا إليه الطباع، واستولى ذلك عليهم حتى أحاط بهم مع أنه لا قوة لأحد منهم في جلب سار ولا دفع ضار، والداعي إلى ذلك الشهوة والغضب»[1].

قال الرازي: «والمعنى: من الذي يرزقكم من آلهتكم إن أمسك اللَّه الرزق عنكم، وهذا أيضًا مما لا ينكره ذو عقل، وهذا أنه تعالى لو أمسك أسباب الرزق كالمطر والنبات وغيرهما لما وجد رازق سواه فعند وضوح هذا الأمر قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ والمراد أصروا وتشددوا مع وضوح الحق، ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي: في تمرد وتكبر ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي: تباعد عن الحق وإعراض عنه، فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا وهو إشارة إلى فساد القوة العملية، والنفور بسبب جهلهم، وهذا إشارة إلى فساد القوة النظرية»[2].

قال السعدي: «أي: الرزق كله من اللَّه، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرزاق المنعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ولكن الكافرون ﴿لَّجُّواْ﴾ أي: استمروا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ أي: شرود عن الحق»[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٥٥-٢٥٧).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٧٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٨).

قال عطية سالم: «يقول تعالى للمشركين: من هذا الذي غيره سبحانه يرزقكم، إن أمسك اللَّه عنكم رزقه؟.

والجواب: لا أحد يقدر على ذلك ولا يملكه إلا اللَّه. وقد صرح تعالى بهذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾[1]. أي: لا أحد سواه سبحانه لا إله إلا هو، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[2]. وذلك لأن الذي يقدر على الخلق هو الذي يملك القدرة على الرزق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾[3]. وكقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[4] وهذا من كمال القدرة على الإحياء والإماتة والرزق، وقد بين تعالى أن ذلك لمن بيده مقاليد الأمور سبحانه، وتدبير شؤون الخلق كما في قوله تعالى: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[5]. ثم قال: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[6] أي: يبسط ويقدر، يعلم لا عن نقص ولا حاجة، ولكن يعلم بمصالح عباده، ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾[7] أي: يعاملهم بلطفه وهو قوي على أن يرزق الجميع رزقا واسعا، وهو العزيز في ملكه، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، كما قال تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: بمقتضى اللطف والعلم ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[8].

ومن هذا كله يرد على أولئك الذين يطلبون عند غيره الرزق، كما في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾[9].

وقد جمع الأمرين توبيخهم وتوجيههم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ

---

(١) سبأ: الآية (٢٤).
(٢) فاطر: الآية (٣).
(٣) يونس: الآية (٣١).
(٤) الروم: الآية (٤٠).
(٥) الزمر: الآية (٦٣).
(٦) الشورى: الآية (١٢).
(٧) الشورى: الآية (١٩).
(٨) هود: الآية (٦).
(٩) النحل: الآية (٧٣).

ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [١]وقد بين تعالى قضية الخلق والرزق والعبادة كلها في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [٢].

قد بين تعالى في الآيات المتقدمة أنه يرزق العباد من السماوات والأرض جملة.

وبين في آيات أخرى كيفية هذا الرزق تفصيلا مما يعجز الخلق عن فعله، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [٣].

فجميع أنواع الرزق في ذلك ابتداء من إنزال الماء من السماء، ثم ينشأ عنه انشقاق الأرض عن النبات بأنواعه حبا وعنبا وزيتونا ونخلا وحدائق وفاكهة، وكلها للإنسان، وقضبا وأبا للأنعام، والأنعام أرزاق أيضا لحما ولبنا، وجميع ذلك قوامه إنزال الماء من السماء، ولا يقدر على شيء من ذلك كله إلا اللَّه.

فإذا أمسكه اللَّه عن الخلق لا يقوى مخلوق على إنزاله، فإذا علم المسلم أن الأرزاق بيد الخلاق، ومن بيده مقاليد السماوات والأرض لن يتجه برغبة ولا يتوجه بسؤال إلا إلى اللَّه تعالى، موقنا حق اليقين أنه هو سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين، وكما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [٤]»[٥].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (١٧).
(٢) الذاريات: الآيات (٥٦-٥٨).
(٣) عبس: الآيات (٢٤-٣٢).
(٤) الذاريات: الآيتان (٢٢و٢٣).
(٥) تتمة أضواء البيان (٨/ ٤١١-٤١٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مكبًّا: الكب: جعل الشيء على وجهه.

سويًّا: أي: منتصبا مستويا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «ذكروا في تفسير قوله: ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ وجوهًا: أحدها: معناه أن الذي يمشي في مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكبًا فحاله نقيض حال من يمشي سويًا أي: قائمًا سالمًا من العثور والخرور. وثانيها: أن المتعسف الذي يمشي هكذا وهكذا على الجهالة والحيرة لا يكون كمن يمشي إلى جهة معلومة مع العلم واليقين. وثالثها: أن الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المعلوم. ثم اختلفوا فمنهم من قال: هذا حكاية حال الكافر في الآخرة، قال قتادة: الكافر أكب على معاصي اللَّه فحشره اللَّه يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره اللَّه تعالى على الطريق السوي يوم القيامة، وقال آخرون: بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل في الدنيا، واختلفوا أيضًا فمنهم من قال: هذا عام في حق جميع المؤمنين والكفار، ومنهم من قال: بل المراد منه شخص معين، فقال مقاتل: المراد أبو جهل والنبي -عليه الصلاة والسلام-، وقال عطاء عن ابن عباس: المراد أبو جهل وحمزة بن عبد المطلب، وقال عكرمة هو أبو جهل وعمار بن ياسر»[1].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه اللَّه للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ٧٤).

كمثل من يمشي مُكبّا على وجهه، أي: يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة. فالمؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم، مُفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم، ﴿۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال البقاعي: «﴿أَفَمَن يَمْشِي﴾ أي: على وجه الاستمرار ﴿مُكِبًّا﴾ أي: داخلًا بنفسه في الكب وصارا إليه، وهو السقوط ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ وهو كناية عن السير على رسم مجهول وأثر معوج معلول، على غير عادة العقلاء لخلل في أعضائه، واضطراب في عقله ورأيه، فهو كل حين يعثر فيخر على وجهه، لأنه لعدم نظره يمشي في أصعب الأماكن لإمالة الهوى له عن المنهج المسلوك، وغلبة الجهل عليه، فهو بحيث لا يكون تكرار المشاق عليه زاجرًا له عن السبب الموقع له فيه، ولم يسم ﷻ ممشاه طريقًا لأنه لا يستحق ذلك.

ولما كان ربما صادف السهل لا عن بصيرة بل اتفاقًا قال: ﴿أَهْدَىٰ﴾ أي: أشد هداية ﴿أَمَّن يَمْشِي﴾ دائمًا مستمرًا ﴿سَوِيًّا﴾ قائمًا رافعًا رأسه ناصبًا وجهه سالمًا من العثار؛ لأنه لانتصابه يبصر ما أمامه وما عن يمينه وما عن شماله ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾ أي: طريق موطأ واسع مسلوك سهل قويم ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: هو في غاية القوم، هذا مثل من رضي باللَّه ربًا وبالإسلام دينًا فإنه يتبع الفطرة الأولى السليمة عن شهوة أو غضب أو شائبة حظ، والأول مثل الكافر حاله في سيره إلى اللَّه حال المكب أي: الذي كب نفسه بغاية الشهوة على وجهه، لا يرى ما حوله ولا يشعر بما أحاط به، ولا ينظر في الآيات ولا يعتبر بالمسموعات، فهو اليوم شيء باطن لظهر يوم القيامة فيحشر على وجهه إلى النار جزاء لرضاه بحالته هذه في هذه الدار فيظهر له سبحانه ما أبطن له اليوم، والمؤمن بخلاف ذلك فيهما، والآية من الاحتباك: ذكر الكب

---

(١) الصافات: الآيات (٢٢-٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٨).

أولًا دليلًا على ضده ثانيًا، والمستقيم ثانيًا دليلًا على المعوج أولًا، وسره أنه ذكر أنكأ ما للمجرم وأسر ما للمسلم»[١].

قال ابن عاشور: «هذا مثَل ضربه اللَّه للكافرين والمؤمنين أو لرجلين: كافر ومؤمن، لأنه جاء مفرعًا على قوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ وقوله: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ وما اتصل ذلك به من الكلام الذي سيق مساق الحجة عليهم بقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾، وذلك مما اتفق عليه المفسرون على اختلاف مناحيهم، ولكن لم يعرج أحد منهم على بيان كيف يتعين التمثيل الأول للكافرين والثاني للمؤمنين حتى يظهر وجه إلزام اللَّه المشركين بأنهم أهل المثل الأول مثَلِ السوء، فإذا لم يتعين ذلك من الهيئة المشبهة لم يتضح إلزام المشركين بأن حالهم حال التمثيل الأول، فيخال كل من الفريقين أن خصمه هو مضرب المثل السوء. ويتوهم أن الكلام ورد على طريقة الكلام المُنصِف نحو ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢] بذلك ينبو عنه المقام هنا؛ لأن الكلام هنا وارد في مقام المحاجة والاستدلال وهنالك في مقام المتاركة أو الاستنزال.

والذي انقدح لي: أن التمثيل جرى على تشبيه حال الكافر والمؤمن بحالة مشي إنسان مختلفة، وعلى تشبيه الدين بالطريق المسلوكة كما يقتضيه قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فلا بد من اعتبار مَشي المكبّ على وجهه مشيًا على صراط مُعْوجّ، وتعين أن يكون في قوله: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ استعارة أخرى بتشبيه حال السالك صراطًا معوجًا، في تأمله وترسُّمه آثار السير في الطريق غير المستقيم خشية أن يضلّ فيه، بحال المكِبّ على وجهه يتوسم حال الطريق، وقرينة ذلك مقابلته بقوله: ﴿سَوِيًّا﴾ المشعر بأن ﴿مُكِبًّا﴾ أطلق على غير السوي وهو المنحني المطاطىء يتوسم الآثار اللائحة من آثار السائرين لعله يعرف الطريق الموصلة إلى المقصود.

فالمشرك يتوجه بعبادته إلى آلهة كثيرة لا يدري لعل بعضها أقوى من بعض وأعطفُ على بعض القبائل من بعض، فقد كانت ثقيف يعبدون اللات، وكان

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) سبأ: الآية (٢٤).

الأوس والخزرج يعبدون مناة، ولكل قبيلة إله أو آلهة، فتقسموا الحاجات عندها، واستنصر كل قوم بآلهتهم، وطمعوا في غنائها عنهم، وهذه حالة يعرفونها فلا يمترون في أنهم مضرب المثل الأول، وكذلك حال أهل الإشراك في كل زمان، ألا تسمع ما حكاه اللَّه عن يوسف عليه السلام من قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾(١). ويُنَور هذا التفسير أنه يفسره قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(٢) وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾(٣)، فقابل في الآية الأولى الصراط المستقيم المشبه به الإسلام بالسُّبل المتفرقة المشبه بها تعداد الأصنام، وجعل في الآية الثانية الإسلام مشبهًا بالسبيل وسالكُه يدعو ببصيرة ثم قابل بينه وبين المشركين بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٤).

فالآية تشتمل على ثلاث استعارات تمثيلية فقوله: ﴿يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ تشبيه لحال المشرك، في تقسُّم أمره بين الآلهة طلبًا للذي ينفعه منها الشاكّ في انتفاعه بها، بحال السائر قاصدًا أرضًا معينة، ليست لها طريق جادة، فهو يتتبع بنيات الطريق الملتوية، وتلتبس عليه، ولا يوقن بالطريقة التي تبلُغ إلى مقصده، فيبقى حائرًا متوسمًا يتعرف آثار أقدام الناس وأخفاف الإبل، فيعلم بها أن الطريق مسلوكة أو متروكة.

وفي ضمن هذه التمثيلية تمثيلية أخرى مبنية عليها بقوله: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ بتشبيه حال المتحيّر المتطلب للآثار في الأرض بحال المكب على وجهه في شدة اقترابه من الأرض.

وقوله: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ تشبيه لحال الذي آمن بربّ واحد الواثق بنصر ربه وتأييده وبأنه مصادف للحق، بحال الماشي في طريق جادة واضحة لا ينظر إلاّ إلى اتجاه وجهه فهو مستو في سيره»(٥).

قال السعدي: «أي: أي الرجلين أهدى؟ من كان تائها في الضلال، غارقًا في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلا والباطل حقًا؟ ومن كان عالمًا

(١) يوسف: الآية (٣٩).
(٢) الأنعام: الآية (١٥٣).
(٣) يوسف: الآية (١٠٨).
(٤) يوسف: الآية (١٠٨).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٤-٤٥).

بالحق، مؤثرًا له، عاملا به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عقوبة الكافر يوم القيامة

* عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك ﷺ: أن رجلا قال: يا نبي اللَّه يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: **«أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟»** قال قتادة: بلى وعزة ربنا[٢].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: **«أليس الذي أمشاه.. إلخ»** ظاهر في أن المراد بالمشي حقيقته، فلذلك استغربوه حتى سألوا عن كيفيته، وزعم بعض المفسرين أنه مثل وأنه كقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ قال مجاهد: هذا مثل المؤمن والكافر. قلت: ولا يلزم من تفسير مجاهد لهذه الآية بهذا أن يفسر به الآية الأخرى، فالجواب الصادر عن النبي ﷺ ظاهر في تقرير المشي على حقيقته»[٣].

وقال: «والحكمة في حشر الكافر على وجهه أنه عوقب على عدم السجود لله في الدنيا بأن يسحب على وجهه في القيامة إظهارا لهوانه بحيث صار وجهه مكان يده ورجله في التوقي عن المؤذيات»[٤].

قلت: ما ذكره المفسرون في توجيه الآية كله يجتمع في الاستقامة على أمر اللَّه وطريقه الذي أوضحه في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه ورسله، ومن انحرف عن ذلك من دعاة الضلال والإفك والبهتان الذين دائمًا يصطادون في الماء العكر، ويختارون كل رذيلة وباطل في المعتقد والعبادة والسلوك، فكلما رأوا صنمًا سارعوا إليه،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٩)، والبخاري (٨/ ٦٣٠/ ٤٧٦٠)، ومسلم (٤/ ٢١٦١/ ٢٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٠/ ١١٣٦٧).

(٣) فتح الباري (١١/ ٤٦٥-٤٦٦).

(٤) فتح الباري (١١/ ٤٦٦).

وكلما رأوا بدعة ركضوا إليها، وكلما رأوا معصية استبقوا إليها، فكما وصفهم اللَّه تعالى مكبين على وجوههم لا يقر لهم قرار، ويعيشون الانفصام الشخصي والتذبذب والاضطراب في كل أعمالهم، والشهوات والدراهم والأهواء أحب إليهم من كل شيء. فهم يجرون وراء الباطل، ويضلون وتَضِلُّ بهم الأمم، حالهم كحال المنافقين الذين قال اللَّه عنهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[١]، وكما وصفهم الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «**كمثل الشاة العائرة بين الغنمين**»[٢]. فنرجو اللَّه أن يخلصنا من شرهم في كل زمان ومكان، وأن يجعلنا من أهل الصراط المستقيم الذي وصفه اللَّه في هذه الآية.

* * *

---

(١) النساء: الآية (١٤٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٢)، ومسلم (٤/ ٢١٤٦/ ٢٧٨٤)، والنسائي (٨/ ٤٩٩/ ٥٠٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أورد البرهان أولًا من حال سائر الحيوانات، وهو وقوف الطير في الهواء، أورد البرهان بعده من أحوال الناس وهو هذه الآية، وذكر من عجائب ما فيه حال السمع والبصر والفؤاد، ولقد تقدم شرح أحوال هذه الأمور الثلاثة في هذا الكتاب مرارًا فلا فائدة في الإعادة، واعلم أن في ذكرها ههنا تنبيهًا على دقيقة لطيفة، كأنه تعالى قال: أعطيتكم هذه الإعطاءات الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة، لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه، ولا تأملتم في عاقبة ما عقلتموه، فكأنكم ضيعتم هذه النعم وأفسدتم هذه المواهب، فلهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وذلك لأن شكر نعمة اللَّه تعالى هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلى طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمته ألبتة»[1].

قال ابن كثير: «أي: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ﴾ أي: العقول والإدراك، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قل ما تستعملون هذه القوى التي أنعم اللَّه بها عليكم في طاعته، وامتثال أوامره، وترك زواجره»[2].

قال صديق حسن خان: «﴿قُلْ﴾ لهم يا أشرف الخلق مذكرا لهم بما دفع عنه المولى من المفاسد، وجمع لهم من المصالح ليرجعوا إليه، ولا يعولوا في حال من الأحوال إلا عليه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ إنشاء بديعا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا به آيات اللَّه وتتمسكوا بما فيها من الأوامر والنواهي، وتتعظوا بمواعظها.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ٧٤-٧٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٨).

﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتبصروا بها الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون اللَّه ﷻ، ووجه إفراد السمع مع جمع الأبصار أنه مصدر يطلق على الكثير والقليل، وقد قدمنا بيان هذا في مواضع مع زيادة البيان. ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتفكروا بها في مخلوقات اللَّه، وآياته التنزيلية والتكوينية، وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة، وخصها بالذكر لأنها آلات العلم، وذكر اللَّه سبحانه ههنا أنه قد جعل لهم ما يدركون به المسموعات والمبصرات والمعقولات إيضاحا للحجة وقطعا للمعذرة وذما لهم على عدم شكر نعم اللَّه ولهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله من الأمور المذكورة، و﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمحذوف و﴿مَّا﴾ مزيدة لتأكيد التقليل أي: شكرا قليلا أو زمانا قليلا، فالقلة على ظاهرها، وقيل: أراد بقلة الشكر عدم وجوده منهم إن كان الخطاب للكفرة، قال مقاتل: يعني أنكم لا تشكرون رب هذه النعم فتوحدونه»[(١)].

قال السعدي: «يقول تعالى -مبينًا أنه المعبود وحده، وداعيًا عباده إلى شكره، وإفراده بالعبادة-: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أي: أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مظاهر، ولما أنشأكم كمل لكم الوجود بالسمع والأبصار والأفئدة، التي هي أنفع أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانية، ولكنه مع هذا الإنعام ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ اللَّه، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر»[(٢)].

* * *

(١) فتح البيان (١٤/ ٢٤٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٣٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ذرأكم: خلقكم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحلاكم وأشكالكم وصوركم، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم»[1].

قال صديق حسن خان: «أمر اللَّه سبحانه رسوله ﷺ بأن يخبرهم أن اللَّه هو الذي خلقهم في الأرض ونشرهم فيها وفرقهم على ظهرها وبثهم وأنشأهم بعدما كانوا كالذر، وأن حشرهم إليه للجزاء لا إلى غيره اشتراكا أو استقلالا فليبنوا أمورهم على ذلك»[2].

قال البقاعي: «﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: وحده ﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم وبثكم ونشركم وكثركم وأنشأكم بعد ما كنتم كالذر أطفالًا ضعفاء، ثم قواكم، ثم جعلكم شيبًا ضعفاء، وأسكنكم الغضب والذعر واللجاج الحامل لكم على الولوع بما يلجئ إليه الطباع المثيرة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي تقدم أنه ذللها لكم، ورزقكم منها النبات الذي تقدم أن إبداءه منها ثم رده إليها وإفنائه فيها ثم إعادته كما كان بعد أن صار رفاتًا وشيئا فانيًا مماتًا دليل على القدرة على البعث، لا فرق في ذلك بينه وبينكم أصلًا، فكان منه البدأ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُحْشَرُونَ﴾ شيئًا فشيئًا إلى البرزخ ودفعة واحدة يوم البعث على أيسر وجه بمن أراد من عباده كرهًا منكم كما كان أمركم في الدنيا؛ فإنه لم يكن إلى الإنسان منكم أحب من الدعة والسكون، فكأنه سبحانه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٨).

(٢) فتح البيان (١٤/ ٢٤٦).

يضطره بما أودعه من الطبائع المتضادة وأثار له من الأسباب في طلب رزقه وغير ذلك من أمره إلى السعي إلى حيث يكره، فكما أنه قدر على ذلك منكم في الابتداء فهو يقدر على مثله في الانتهاء، ليحكم بينكم ويجازي كلاً على عمله كما يفعل كل ملك برعيته، وكل إنسان منكم بجماعته»[١].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٦١-٢٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٥ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «لما لم تكن لهم معارضة للحجة التي في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ إلى ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ انحصر عنادهم في مضمون قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فإنهم قد جحدوا البعث وأعلنوا بجحده وتعجبوا من إنذار القرآن به، وقال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾[1] وكانوا يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] واستمروا على قوله، فلذلك حكاه اللَّه عنهم بصيغة المضارع المقتضية للتكرير»[3].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أمر محمدًا ﷺ بأن يخوفهم بعذاب اللَّه حكى عن الكفار شيئين؛ أحدهما: أنهم طالبوه بتعيين الوقت. وفيه مسائل:

المسألة الثانية: لعلهم كانوا يقولون ذلك على سبيل السخرية، ولعلهم كانوا يقولونها إيهامًا للضعفة أنه لما لم يتعجل فلا أصل له.

المسألة الثالثة: الوعد المسؤول عنه ما هو؟ فيه وجهان أحدهما: أنه القيامة، والثاني: أنه مطلق العذاب، وفائدة هذا الاختلاف تظهر بعد ذلك إن شاء اللَّه. ثم أجاب اللَّه عن هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[4].

والمراد أن العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع، فالعلم الأول حاصل عندي، وهو كاف في الإنذار والتحذير، أما العلم الثاني فليس إلا لله، ولا حاجة في كوني نذيرًا مبينًا إليه»[5].

---

(١) سبأ: الآيتان (٧و٨).
(٢) سبأ: الآية (٢٩).
(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٤٨).
(٤) الملك: الآية (٢٦).
(٥) تفسير الرازي (٣٠/ ٧٥).

قال ابن كثير: «قال مخبرًا عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا اللَّه ﷻ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه، ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإنما علي البلاغ، وقد أديته إليكم»[1].

قال الشوكاني: «ذكر سبحانه أنهم يستعجلون العذاب فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: متى هذا الوعد الذي تذكرونه لنا من الحشر، والقيامة، والنار، والعذاب إن كنتم صادقين في ذلك، والخطاب منهم للنبي ﷺ ولمن معه من المؤمنين، وجواب الشرط محذوف. والتقدير: إن كنتم صادقين فأخبرونا به أو فبينوه لنا؟ وهذا منهم استهزاء وسخرية، ثم لما قالوا هذا القول أمر اللَّه سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب عليهم، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إن وقت قيام الساعة علمه عند اللَّه لا يعلمه غيره، ومثله قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾[2]، ثم أخبرهم أنه مبعوث للإنذار لا للإخبار بالغيب فقال: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذركم وأخوفكم عاقبة كفركم، وأبين لكم ما أمرني اللَّه ببيانه»[3].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٨)

(٢) الأعراف: الآية (١٨٧).

(٣) فتح القدير (٥/ ٣٧٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

زلفة: قريبا، من أزلفته أي: قربته.

سيئت: أصابها ما يحزنها ويؤذيها. من السوء: وهو ما يغم المرء دنيا وآخرة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلما رأى هؤلاء المشركون عذاب اللَّه زلفة يقول: قريبا، وعاينوه، ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يقول: ساء اللَّه بذلك وجوه الكافرين..

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ يقول: وقال اللَّه لهم: هذا العذاب الذي كنتم به تذكرون ربكم أن يعجله لكم»[١].

قال ابن كثير: «أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريبا؛ لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر اللَّه ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾[٢]؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تستعجلون»[٣].

قال الشوكاني: «ذكر اللَّه سبحانه حالهم عند معاينة العذاب فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ يعني: رأوا العذاب قريبًا، وزلفة مصدر بمعنى الفاعل، أي: مزدلفًا، أو

(١) جامع البيان (٢٩/ ١١-١٢).
(٢) الزمر: الآيتان (٤٧ و٤٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٩).

حال من مفعول رأوا بتقدير مضاف، أي: ذا زلفة وقرب، أو ظرف، أي: رأوه في مكان ذي زلفة. قال مجاهد: أي: قريبًا. وقال الحسن: عيانًا. قال أكثر المفسرين: المراد عذاب يوم القيامة، وقال مجاهد: المراد عذاب بدر، وقيل: رأوا ما وعدوا به من الحشر قريبًا منهم، كما يدلّ عليه قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وقيل: لما رأوا عملهم السيء قريبًا ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: اسودّت وعلتها الكآبة وغشيتها الذلة، يقال: ساء الشيء يسوء، فهو سيء إذا قبح. قال الزجاج: المعنى تبين فيها السوء أي: ساءهم ذلك العذاب، فظهر عليهم بسببه في وجوههم ما يدلّ على كفرهم كقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[1]. قرأ الجمهور بكسر السين بدون إشمام، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وابن محيصن بالإشمام ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: قيل لهم توبيخًا وتقريعًا: هذا المشاهد الحاضر من العذاب، هو العذاب الذي كنتم به تدّعون في الدنيا أي: تطلبونه وتستعجلون به استهزاءً، على أن معنى ﴿تَدَّعُونَ﴾ الدعاء. قال الفراء: تدّعون تفتعلون من الدعاء، أي: تتمنون وتسألون، وبهذا قال الأكثر من المفسرين. وقال الزجاج: هذا الذي كنتم به تدّعون الأباطيل والأحاديث. وقيل: معنى ﴿تَدَّعُونَ﴾: تكذبون، وهذا على قراءة الجمهور: ﴿تَدَّعُونَ﴾ بالتشديد، فهو إما من الدعاء كما قال الأكثر، أو من الدعوى كما قال الزجاج ومن وافقه، والمعنى: أنهم كانوا يدّعون أنه لا بعث ولا حشر ولا جنة ولا نار. وقرأ قتادة، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، والضحاك: «تدعون» مخففًا، ومعناها ظاهر. قال قتادة: هو قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[2]. وقال الضحاك: هو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[3] الآية. قال النحاس: تدّعون وتدعون بمعنى واحد، كما تقول قدر واقتدر، وغدا واغتدى، إلاّ أنّ أفعل معناه مضى شيئًا بعد شيء، وفعل يقع على القليل والكثير»[4].

قال السعدي: «يعني أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا،

---

(١) آل عمران: الآية (١٠٦). (٢) ص: الآية (١٦).
(٣) الأنفال: الآية (٣٢).
(٤) فتح القدير (٥/ ٣٧٦-٣٧٧).

فإذا كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾ أي: قريبًا، ساءهم ذلك وأفظعهم، وقلقل أفئدتهم، فتغيرت لذلك وجوههم، ووبخوا على تكذيبهم، وقيل لهم هذا الذي كنتم به تكذبون، فاليوم رأيتموه عيانًا، وانجلى لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب، ولم يبق إلا مباشرة العذاب»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤٠).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين من قومك، ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ فأماتني ﴿وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأخّر في آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باللَّه ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ موجع مؤلم، وذلك عذاب النار. يقول: ليس ينجي الكفار من عذاب اللَّه موتُنا وحياتنا، فلا حاجة بكم إلى أن تستعجلوا قيام الساعة، ونزول العذاب، فإن ذلك غير نافعكم؛ بل ذلك بلاء عليكم عظيم»[1].

قال الرازي: «والمعنى قل لهم: إن اللَّه تعالى سواء أهلكني بالإماتة أو رحمني بتأخير الأجل، فأي راحة لكم في ذلك، وأي منفعة لكم فيه، ومن الذي يجيركم من عذاب اللَّه إذا نزل بكم، أتظنون أن الأصنام تجيركم أو غيرها، فإذا علمتم أن لا مجير لكم فهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب، وهو العلم بالتوحيد والنبوة والبعث»[2].

قال الشوكاني: «أي: أخبروني إن أهلكني اللَّه بموت أو قتل ومن معي من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير ذلك إلى أجل.

وقيل المعنى: إن أهلكني اللَّه ومن معي بالعذاب، أو رحمنا فلم يعذبنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: فمن يمنعهم ويؤمنهم من العذاب. والمعنى: أنه لا ينجيهم من ذلك أحد سواء أهلك اللَّه رسوله والمؤمنين معه، كما كان الكفار يتمنونه، أو أمهلهم. وقيل: المعنى إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء، فمن يجيركم مع كفركم من العذاب، ووضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٢).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٧٧).

بالكفر، وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم»[1].

قال السعدي: «ولما كان المكذبون للرسول ﷺ الذين يردون دعوته ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره اللَّه أن يقول لهم: أنتم وإن حصلت لكم أمانيكم وأهلكني اللَّه ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئًا، لأنكم كفرتم بآيات اللَّه، واستحققتم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذًا، تعبكم وحرصكم على هلاكي غير مفيد، ولا مجد عنكم شيئًا. ومن قولهم، إنهم على هدى والرسول على ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا»[2].

قال ابن عاشور: «كان من بَذاءة المشركين أن يجهروا بتمني هلاك رسول اللَّه ﷺ وهلاك من معه من المسلمين، وقد حكى القرآن عنهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾[3] وحكى عن بعضهم ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾[4]، وكانوا يتآمرون على قتله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾[5]، فأمره اللَّه بأن يعرفهم حقيقةً تدحض أمانيَّهم؛ وهي أن موت أحد أو حياته لا يغني عن غيره ما جره إليه عمله، وقد جرَّت إليهم أعمالهم غضب اللَّه ووعيده فهو نائلهم حَيي الرسول أو بادره المنون، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝٤٢﴾[6] وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[7] وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[8] أي المشركين، وقد تكرر هذا المعنى وما يقاربه في القرآن، وينسب إلى الشافعي:

تمنَّى رجال أن أموت فإنْ أمت ... فتلكَ سبيل لستُ فيها بأوْحَدِ

فقد يكون نزول هذه الآيات السابقة صادف مقالة من مقالاتهم هذه فنزلت الآية في أثنائها، وقد يكون نزولها لمناسبة حكاية قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بأن قارنه كلام بذي مثل أن يقولوا: أبَعْدَ هلاكك يأتي الوَعْد.

---

(١) فتح القدير (٥/ ٣٧٧).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤٠-٤٤١).
(٣) الطور: الآية (٣٠).
(٤) التوبة: الآية (٩٨).
(٥) الأنفال: الآية (٣٠).
(٦) الزخرف: الآيتان (٤١ و٤٢).
(٧) الأنبياء: الآية (٣٤).
(٨) الزمر: الآية (٣٠).

والإهلاك: الإماتة، ومقابلةُ ﴿أَهْلَكَنِيَ﴾ بـ ﴿رَحِمَنَا﴾ يدل على أن المراد: أو رحمنا بالحياة، فيفيد أن الحياة رحمة، وأن تأخير الأجل من النعم، وإنما لم يؤخر اللَّه أجل نبيئه ﷺ مع أنه أشرف الرسل لحِكَم أرادها كما دلّ عليه قوله: «**حياتي خيرٌ لكم وموْتي خيرٌ لكم**»[١]، ولعلّ حكمة ذلك أن اللَّه أكمل الدين الذي أراد إبلاغه، فكان إكماله يوم الحج الأكبر من سنة ثلاث وعشرين من البعثة، وكان استمرار نزول الوحي على النبي ﷺ خصِّيصية خصّه اللَّه بها من بين الأنبياء، فلما أتم اللَّه دينه رَباً برسوله ﷺ أن يبقى غير متصل بنزول الوحي فنقله اللَّه إلى الاتصال بالرفيق الأعلى مباشرة بلا واسطة، وقد أشارت إلى هذا سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[٢] من قوله: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾[٣]. ولله درَ عبد بني الحسحاس في عبرته بقوله:

رأيت لمنايا لم يدعْنَ محمدًا ولا باقيًا إلاَّ لَهْ الموتُ مُرْصَدًا

وقد عوضه اللَّه تعالى بحياة أعلى وأجل، إذ قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾[٤] وبالحياة الأبدية العاجلة وهي أنه يَرُدُّ عليه روحَه الزكية كلَّما سلّم عليه أحد فيردّ ﷺ كما ثبت بالحديث الصحيح.

وإنما سمَّى الحياة رحمة له ولمن معه؛ لأن في حياته نعمة له وللناس ما دام اللَّه مقدرًا حياته، وحياة المؤمن رحمة لأنه تكثر له فيها بركة الإيمان والأعمال الصالحة

والاستفهام بقوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الخ إنكاري، أي: لا يجيرهم منه مجير، أي: أظننتم أن تجدوا مجيرًا لكم إذا هَلَكنا فذلك متعذر، فماذا ينفعكم هلاكنا؟»[٥].

* * *

(١) أخرجه: الحارث في مسنده، انظر بغية الباحث للهيثمي (٩٥٧)، وإسماعيل القاضي في فضل الصلاة على النبي ﷺ (٢٥و٢٦) من حديث بكر بن عبد اللَّه المزني مرسلا، وانظر الضعيفة للشيخ الألباني (٩٧٥).
(٢) النصر: الآية (١).
(٣) النصر: الآيتان (٢و٣).
(٤) الشرح: الآية (٤).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٥١-٥٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد: ربنا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ يقول: صدّقنا به ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ يقول: وعليه اعتمدنا في أمورنا، وبه وثقنا فيها ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: فستعلمون أيها المشركون باللَّه الذي هو في ذهاب عن الحقّ، والذي هو على غير طريق مستقيم منا ومنكم إذا صرنا إليه، وحشرنا جميعا»(١).

قال الرازي: «والمعنى أنه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فيعلم أنه لا يقبل دعاءكم وأنتم أهل الكفر والعناد في حقنا، مع أنا آمنا به ولم نكفر به كما كفرتم، ثم قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره كما فعلتم أنتم حيث توكلتم على رجالكم وأموالكم، وقرىء ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ على المخاطبة، وقرىء بالياء ليكون على وفق قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢)»(٣).

قال السعدي: «أمر اللَّه نبيه أن يخبر عن حاله وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة، ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفة على التوكل خص اللَّه التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٤) فإذا كانت هذه حال الرسول وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان لهم ولا توكل، علم بذلك

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٣).
(٢) الملك: الآية (٢٨).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٧٧).
(٤) المائدة: الآية (٢٣).

من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبين»[١].

قال ابن عاشور: «وجاء هذا الأمر بقول يقوله لهم بمناسبة قوله:

﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فإنه بعد أن سوَّى بين فرض إهلاك المسلمين وإحيائهم في أن أيّ الحالين فُرض لا يجيرهم معه أحد من العذاب، أعقبه بأن المسلمين آمنوا بالرحمان، فهم مظنة أن تتعلق بهم هذه الصفة فيرحمهم اللّه في الدنيا والآخرة، فيعلم المشركون علم اليقين أيّ الفريقين في ضلال حين يرون أثر الرحمة على المسلمين وانتفاءه عن المشركين في الدنيا وخاصة في الآخرة.

وضميرُ ﴿هُوَ﴾ عائد إلى اللّه تعالى الواقع في الجملة قبله؛ أي: اللّه هو الذي وَصْفُه ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فهو يرحمنا، وأنكم أنكرتم هذا الاسم فأنتم أحرياء بأن تُحرَموا آثار رحمته. ونحن توكلنا عليه دون غيره، وأنتم غرّكم عزّكم، وجعلتم الأصنام معتمدكم ووكلاءكم.

وبهذه التوطئة يقع الإيماء إلى الجانب المهتدي والجانب الضالّ من قوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأنه يظهر بداءً تأمل أن الذين في ضلال مبين هم الذين جحدوا وصف (الرحمن) وتوكلوا على الأوثان»[٢].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٥٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

⋆ **غريب الآية:**

غورا: أي غائرا بمعنى: ذاهبا في الأرض لا ينال.

معين: أي جار، ظاهر، سهل التناول.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أيها القوم العادلون بالله ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ يقول: غائرا لا تناله الدلاء ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ يقول: فمن يجيئكم بماء معين، يعني بالمعين: الذي تراه العيون ظاهرا»[1].

قال الرازي: «اعلم أنه لما ذكر أنه يجب أن يتوكل عليه لا على غيره، ذكر الدليل عليه. والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر، أي: أخبروني إن صار ماؤكم ذاهبًا في الأرض فمن يأتيكم بماء معين، فلا بد وأن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلًا شريكًا له في المعبودية؟ وهو كقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾[2] وقوله: ﴿غَوْرًا﴾ أي: غائرًا ذاهبًا في الأرض، يقال: غار الماء يغور غورًا، إذا نضب وذهب في الأرض، والغور ههنا بمعنى الغائر، سمي بالمصدر كما يقال: رجل عدل ورضا، والمعين: الظاهر الذي تراه العيون فهو من مفعول العين كمبيع، وقيل: المعين الجاري من العيون من الإمعان في الجري كأنه قيل: ممعن في الجري»[3].

قال ابن كثير: «﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: ذاهبا

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٣).

(٢) الواقعة: الآيتان (٦٨و٦٩).

(٣) تفسير الرازي (٣٠/ ٧٧).

في الأرض إلى أسفل، فلا يُنَال بالفئوس الحداد، ولا السواعد الشداد، والغائر: عكس النابع؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: نابع سائح جار على وجه الأرض، لا يقدر على ذلك إلا اللَّه ﷻ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فلله الحمد والمنة»[1].

قال البقاعي: «لما افتتح سبحانه السورة بعظيم بركته وتمام قدرته وتفرده في مملكته، ودل على ذلك بتفرده بالإماتة والإحياء، ختم بمثل ذلك بالماء الذي وجوده هو سبب للحياة وعدمه سبب للموت، فقال قارعًا بالتنبيه، مشيرًا بتكرير الأمر إلى مزيد التوبيخ والزجر والتبكيت، دالًّا على تعيين ما أبهم من أهل الضلال، ومصرحًا بما لوح إليه من ذلك الإجمال. ﴿قُلْ﴾ أي: يا أعظم خلقنا وأعلمهم بنا: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني إخبارًا لا لبس فيه ولا خفاء، ولما كان شديد العناية بهذا النبي الكريم ﷺ سكن قلبه في وعيدهم بالإشارة إلى الرفق بهم لأجله فابتدأ الوعيد بحرف الشك فقال: ﴿إِنْ﴾ ، ولما كانت النعمة أشد ما يكون إذا كانت في الصباح الذي هو موضع ارتقاب الفلاح قال: ﴿أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ﴾ أي: الذي تعدونه في أيديكم، بما نبهت عليه الإضافة.

ولما كان المقصود المبالغة جعله نفس المصدر فقال: ﴿غَوْرًا﴾ أي: نازلًا في الأرض بحيث لا يمكن لكم نيله بنوع حيلة، بما دل على ذلك الوصف بالمصدر ﴿فَمَن يَأْتِيكُم﴾ على ضعفكم حينئذ وافتقاركم وانخلاع قلوبكم واضطراب أفكاركم ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: جار دائمًا لا ينقطع، أو ظاهرًا للأعين سهل المأخذ إلا اللَّه رب العالمين؛ فإنه هو القادر على ذلك، فقد رجع ذلك الآخر كما ترى على ذلك الأول، وعانقه على أحسن وجه وأكمل واللَّه أعلم»[2].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٠٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٢٧١-٢٧٢).



سورة القلم

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «جاء في هذه السورة بالإيماء بالحرف الذي في أولها إلى تحدي المعاندين بالتعجيز عن الإتيان بمثل سور القرآن، وهذا أول التحدي الواقع في القرآن إذ ليس في سورة العلق ولا في المزمل ولا في المدثر إشارة إلى التحدي ولا تصريح. وفيها إشارة إلى التحدي بمعجزة الأمية بقوله: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ .

وابتدئت بخطاب النبي ﷺ تأنيسا له وتسلية عما لقيه من أذى المشركين. وإبطال مطاعن المشركين في النبي ﷺ. وإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة، وهديه وضلال معانديه، وتثبيته، وأكد ذلك بالقسم بما هو من مظاهر حكمة اللّه تعالى في تعليم الإنسان الكتابة، فتضمن تشريف حروف الهجاء والكتابة والعلم لتهيئة الأمة لخلع دثار الأمية عنهم وإقبالهم على الكتابة والعلم لتكون الكتابة والعلم سببا لحفظ القرآن.

ثم أنحى على زعماء المشركين مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة بمذمات كثيرة، وتوعدهم بعذاب الآخرة وببلايا في الدنيا بأن ضرب لهم مثلا بمن غرهم عزهم وثراؤهم فأزال اللّه ذلك عنهم وأباد نعمتهم.

وقابل ذلك بحال المؤمنين المتقين وأن اللّه اجتباهم بالإسلام، وأن آلهتهم لا يغنون عنهم شيئا من العذاب في الدنيا ولا في الآخرة.

ووعظهم بأن ما هم فيه من النعمة استدراج وإملاء جزاء كيدهم. وأنهم لا معذرة لهم فيما قابلوا به دعوة النبي ﷺ من طغيانهم، ولا حرج عليهم في الإنصات إليها.

وأمر رسوله ﷺ بالصبر في تبليغ الدعوة وتلقي أذى قومه، وأن لا يضجر في ذلك ضجرا عاتب اللَّه عليه نبيه يونس عليه السلام»[١].

قال المراغي: «ومناسبتها لما قبلها: أنه ذكر في آخر (الملك) تهديد المشركين بتغوير الأرض، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك وهو ثمر البستان الذي طاف عليه طائف فأهلكه وأهلك أهله وهم نائمون.

أنه ذكر فيما قبل أحوال السعداء والأشقياء، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع، وأنه لو شاء لخسف بهم الأرض أو أرسل عليهم حاصبا، وكان ما أخبر به هو ما أوحى به إلى رسوله، وكان المشركون ينسبونه في ذلك مرة إلى الشعر، وأخرى إلى السحر، وثالثة إلى الجنون -فبرأه اللَّه في هذه السورة مما نسبوه إليه، وأعظم أجره على صبره على أذاهم، وأثنى على خلقه»[٢].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٥٨-٥٩).

(٢) تفسير المراغي (٢٩/ ٢٦).

قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾

★ **غريب الآية:**

يسطرون: يكتبون. يقال: سطر العلم أي: كتبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «الصحيح أن ﴿نٓۚ﴾ و﴿قٓۚ﴾ و﴿صٓۚ﴾ من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهي أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تجاوز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسما به، وإما مخبرا عنه ما خلا سورتين سورة ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ و﴿نٓۚ﴾، كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾[1]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[2]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾[3]، ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[4] وهكذا إلى آخره، ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها؛ إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده، وعرفهم بواسطتها نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعيده، ووعده، وعرفهم بها الخير والشر، والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلى المقصود، وأدله عليه. وهذا من أعظم نعمه عليهم، كما هو من أعظم آياته. ولهذا عاب سبحانه على من عبد إلها لا يتكلم. وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم. فكان في ذكره هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها من المخلوقات. فهي دالة أظهر دلالة

---

(١) البقرة: الآيتان (١ و٢).

(٢) آل عمران: الآيات (١-٣).

(٣) الأعراف: الآيتان (١ و٢).

(٤) الرعد: الآية (١).

على وحدانيته وقدرته، وحكمته وكماله وكلامه، وصدق رسله»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أقسم سبحانه بالقلم وما يسطرون؛ فإن القلم به يكون الكتاب الساطر للكلام المتضمن للأمر والنهي، والإرادة والعلم المحيط بكل شيء، فالإقسام وقع بقلم التقدير ومسطوره، فتضمن أمرين عظيمين تناسب المقسم عليه:

أحدهما: الإحاطة بالحوادث قبل كونها، وأن من علم بالشيء قبل كونه أبلغ ممن علمه بعد كونه، فإخباره عنه أحكم وأصدق.

الثاني: أن حصوله في الكتابة والتقدير يتضمن حصوله في الكلام والقول والعلم من غير عكس، فإقسامه بآخر المراتب العلمية يتضمن أولها من غير عكس، وذلك غاية المعرفة واستقرار العلم إذا صار مكتوبا، فليس كل معلوم مقولا ولا كل مقول مكتوبا، وهذا يبين لك حكمة الإخبار عن القدر السابق بالكتاب دون الكلام فقط، أو دون العلم فقط»[٢].

وقال ابن القيم: «ثم أقسم سبحانه ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه، وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة، وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه، وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظا تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيبا يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك، والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم. ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم، والأقلام نظام للأفهام، وكما أن اللسان يريد القلب فالقلم يريد اللسان، ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب، ورسوله، وترجمانه، ولسانه الصامت..

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٢٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٦٢).

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: أنه القلم الذي أقسم اللَّه به.

فصل: القلم الثاني: قلم الوحي: وهو الذي يكتب به وحي اللَّه إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والعالم خدم لهم، وإليهم الحل والعقد، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام: فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه اللَّه -تبارك وتعالى- من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

فصل: والقلم الثالث: قلم التوقيع عن اللَّه ورسوله: وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضا حاكم غير محكوم عليه، فإليه التحاكم في الدماء والأموال، والفروج والحقوق، وأصحابه مخبرون عن اللَّه بحكمه الذي حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام. وأقلام العالم خدم لهذا القلم»[١].

ثم ساق أنواعا أخرى من الأقلام ثم قال: «فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب اللَّه إلا به، وأن اللَّه سبحانه أقسم به في كتابه، وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر أول المخلوقات

* عن عبادة بن الصامت سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق اللَّه القلم، فقال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى الأبد**»[٣].

* عن ابن عباس قال: «إن أول شيء خلق اللَّه القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى من ذلك اليوم ما هو كائن إلى أن تقوم

(١) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٢٣-١٢٥).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٢٧-١٢٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (٥/ ٧٦/ ٤٧٠٠)، والترمذي (٥/ ٣٩٤-٣٩٥/ ٣٣١٩) وقال: «حديث حسن غريب» واللفظ له.

الساعة، ثم طوي الكتاب وارتفع القلم، وكان عرشه على الماء، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السماوات، ثم خلق النور فبسطت الأرض عليه، والأرض على ظهر النون، فاضطرب النون، فمادت الأرض فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة، ثم قرأ ابن عباس: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ①﴾»[1].

★ فوائد الحديثين:

قال شيخ الإسلام: «قد ذكرنا أن للسلف في العرش والقلم أيهما خلق قبل الآخر قولين، كما ذكر الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره:

أحدهما: أن القلم خلق أولا كما أطلق ذلك غير واحد، وذلك هو الذي يفهم في الظاهر في كتب من صنف في الأوائل، كالحافظ أبي عروبة بن أبي معشر الحراني وأبي القاسم الطبراني للحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن عبادة بن الصامت أنه قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق اللَّه القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»، يا بني سمعت رسول اللَّه يقول: «**من مات على غير هذا فليس مني**».

والثاني: أن العرش خلق أولا. قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في مصنفه في الرد على الجهمية[2]: حدثنا محمد بن كثير العبدي، حدثنا سفيان الثوري، حدثنا أبو هاشم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: «إن اللَّه كان على عرشه قبل أن يخلق شيئا، فكان أول ما خلق اللَّه القلم، فأمره أن يكتب ما هو كائن، وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه»، ورواه أيضا أبو القاسم اللالكائي في كتابه في شرح أصول السنة[3] من حديث يعلى، عن سفيان، عن أبي هاشم، عن مجاهد قال: «قيل لابن عباس: إن أناسا يقولون في القدر. قال: يكذبون بالكتاب، لئن أخذت

---

(١) أخرجه: ابن جرير (٢٩/ ١٤)، والحاكم (٢/ ٤٩٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى (٩/ ٣). وفي الأسماء والصفات (٤٨١)، وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٣٨٠).

(٢) ص (١٥-١٦).

(٣) (٤/ ٧٤١)، ورواه أيضا ابن جرير (٢٩/ ١٧)، وابن بطة في الإبانة (١/ ٨/ ٣٣٨/ ١٣٧١)، والآجري في الشريعة (١/ ٣٥٩-٣٦٠/ ٣٨٩).

بشعر أحدهم لأنصونه -أي لآخذن بناصيته-. إن اللَّه كان على عرشه قبل أن يخلق شيئا فخلق القلم فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، وإنما يجري الناس على أمر قد فرغ منه». وكذلك ذكر الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب الأسماء والصفات لما ذكر بدء الخلق فذكر حديث عبد اللَّه بن عمرو وعمران بن حصين وغيرهما، وسنذكر هذين الحديثين إن شاء اللَّه تعالى، ثم ذكر حديث الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير «أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1] على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح»[2].

وروى حديث القاسم بن أبي بزة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه كان يحدث أن رسول اللَّه قال: «**إن أول شيء خلقه اللَّه القلم، وأمره فكتب كل شيء يكون**»[3]. قال البيهقي[4]: ويروى ذلك عن عبادة بن الصامت مرفوعا. قال البيهقي: وإنما أراد واللَّه أعلم أول شيء خلقه بعد خلق الماء والريح والعرش القلم، وذلك بين في حديث عمران بن حصين ثم خلق السماوات والأرض. وفي حديث أبي ظبيان عن ابن عباس موقوفا عليه: «ثم خلق النون فدحا الأرض عليها».

وروى بإسناده الحديث المعروف عن وكيع، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس قال: «أول ما خلق اللَّه ﷻ من شيء القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب القدر. قال: فجرى بما هو كائن من ذلك إلى قيام الساعة. قال: ثم خلق النون فدحا الأرض عليها فارتفع بخار الماء، ففتق منه السموات، واضطربت النون فمادت الأرض فأثبتت بالجبال، وأن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة»[5].

---

(١) هود: الآية (٧).

(٢) رواه: ابن جرير (١٢/ ٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٣٧/ ٨٠٢)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٨/ ٥٨٤)، والحاكم (٢/ ٣٤١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي. وقال الشيخ الألباني رحمه الله في ظلال الجنة (١/ ٢٥٨): «إسناده جيد موقوف».

(٣) رواه: ابن جرير (٢٩/ ١٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٥٠/ ١٠٨)، والطبراني (١٢/ ٦٨-٦٩/ ١٢٥٠٠)، وأبو يعلى (٤/ ٢١٧/ ٢٣٢٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٣٧-٢٣٨/ ٨٠٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٨) وقال: «رواه البزار ورجاله ثقات». وانظر الصحيحة (١٣٣).

(٤) الأسماء والصفات (٢/ ٢٣٨-٢٣٩).

(٥) تقدم في أول الباب.

قلت: حديث عمران بن حصين الذي ذكره هو ما رواه البخاري من غير وجه، منها ما رواه في كتاب التوحيد في باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[1] ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[2]. قال أبو العالية: استوى إلى السماء: ارتفع. وقال مجاهد: استوى: علا على العرش. وذكر من حديث أبي حمزة عن الأعمش، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين قال: «إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم، فقال: **اقبلوا البشرى يا بني تميم**، فقالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن فقال: **اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم**، فقالوا: قبلنا، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: **كان اللّٰه، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء**، ثم أتاني رجل فقال: يا عمران أدرك ناقتك، فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها، فإذا السراب ينقطع دونها، وايم اللّٰه لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم»[3].

رواه البيهقي، كما رواه محمد بن هارون الروياني في مسنده، وعثمان بن سعيد الدارمي، وغيرهما من حديث الثقات المتفق على ثقتهم، عن أبي إسحاق الفزاري، عن الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين قال: أتيت النبي ﷺ فعقلت ناقتي بالباب، ثم دخلت فأتاه نفر من بني تميم، فقال: **اقبلوا البشرى يا بني تميم**. قالوا: بشرتنا فأعطنا، فجاءه نفر من أهل اليمن، فقال: **اقبلوا البشرى يا أهل اليمن؛ إذا لم يقبلها إخوانكم من بني تميم**، فقالوا: قبلنا يا رسول اللّٰه، أتيناك لنتفقه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: **كان اللّٰه ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض**. قال: ثم أتاني رجل، فقال: أدرك ناقتك فقد ذهبت، فخرجت فوجدتها ينقطع دونها السراب، وايم اللّٰه لوددت أني كنت تركتها» ففي الحديث الصحيح بيان أنه كتب في الذكر ما كتبه بعد أن كان عرشه على الماء وقبل أن يخلق السماوات والأرض، وأما حديث عبد اللّٰه بن عمرو فقد رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن وهب أخبرني أبو هانىء الخولاني، عن أبي عبد الرحمن

(١) هود: الآية (٧). (٢) التوبة: الآية (١٢٩).

(٣) رواه: أحمد (٤/ ٤٣١-٤٣٢)، والبخاري (٦/ ٣٥١-٣٥٢/ ٣١٩١)، والترمذي (٥/ ٦٨٨-٦٨٩/ ٣٩٥١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٣/ ١١٢٤٠).

الحبلي، عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**كتب اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**»[1]. ورواه مسلم أيضا من حديث حيوة ونافع بن يزيد كلاهما عن أبي هانىء الخولاني مثله، غير أنهما لم يذكرا «**وعرشه على الماء**»، وقد رواه البيهقي من حديث حيوة بن شريح أخبرني أبو هانئ الخولاني أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي أنه سمع عبد اللَّه بن عمرو بن العاص يقول: إنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**قدر اللَّه المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**»، ورواه البيهقي أيضا من حديث ابن أبي مريم حدثنا الليث ونافع بن يزيد قالا: حدثنا أبو هانئ، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**فرغ اللَّه من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة**»[2]، ففي هذا الحديث الصحيح ما في ذلك من أنه قدر المقادير وعرشه على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض، لكن بين فيه مقدار السبق؛ وأن ذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وقد ضبط هذه الزيادة الإمامان الفقيهان الليث بن سعد وعبد اللَّه بن وهب.
فقوله في الحديث: «**فرغ اللَّه من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة**» **يوافق حديث عبادة الذي في السنن؛ أنه لما خلق اللَّه القلم قال له: «اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة**»، وكذلك في حديث ابن عباس وغيره، وهذا يبين أنما أمره حينئذ أن يكتب مقدار هذا الخلق إلى قيام الساعة لم يكتب حينئذ ما يكون بعد ذلك، وهذا يؤيد حجة من جعله أول المخلوقات من هذا الخلق الذي أمره بكتابته؛ فإنه سبحانه كتبه وقدره قبل أن يخلقه بخمسين ألف سنة»[3].

وقال: «فهذا القلم خلقه لما أمره بالتقدير المكتوب قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان مخلوقا قبل خلق السموات والأرض، وهو أول

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٤/ ٢٦٥٣) بزيادة «وعرشه على الماء»، والترمذي (٤/ ٣٩٨-٣٩٩/ ٢١٥٦) وقال: «حسن صحيح غريب».
(٢) الأسماء والصفات (٢/ ٢٣٣-٢٣٤).
(٣) بغية المرتاد (ص: ٧٦-٧٩).

ما خلق من هذا العالم، وخلقه بعد العرش كما دلت عليه النصوص، وهو قول جمهور السلف»[١].

وقال ابن كثير عند ذكره لحديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «وقد دل هذا الحديث أن ذلك بعد خلق العرش، فثبت تقديم العرش على القلم الذي كتب به المقادير، كما ذهب إلى ذلك الجماهير. ويحمل حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم»[٢].

وقال ابن القيم: «والأقلام متفاوتة في الرتب، فأعلاها وأجلها قدرا قلم القدر السابق الذي كتب اللَّه به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن أول ما خلق اللَّه القلم فقال له: اكتب. قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**».

واختلف العلماء هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ على قولين ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني أصحهما: أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قدر اللَّه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وعرشه على الماء**»[٣] فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عبادة هذا، ولا يخلو قوله: «**إن أول ما خلق اللَّه القلم**» إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين؛ فإن كان جملة -وهو الصحيح- كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: اكتب، كما في لفظ «**أول ما خلق اللَّه القلم قال له: اكتب**» بنصب «أول والقلم»؛ فإن كانا جملتين؛ وهو مروي برفع «أول والقلم» فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان؛ إذ حديث عبد اللَّه بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلق اللَّه القلم قال له: اكتب»»[٤].

وقال في نونيته:

والناس مختلفون في القلم الذي ... كتب القضاء به من الديان

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢١٣).
(٢) البداية والنهاية (١/ ٧).
(٣) تقدم تخريجه.
(٤) التبيان في أقسام القرآن (١٢٤-١٢٥).

هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمداني
والحق أن العرش قبل لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت ... إيجاده من غير فصل زمان
لما براه اللَّه قال اكتب كذا ... فغدا بأمر اللَّه ذا جريان
فجرى بما هو كائن أبدا إلى ... يوم المعاد بقدرة الرحمن»[١].

قال الشيخ الألباني: «وفي الحديث إشارة إلى رد ما يتناقله الناس، حتى صار ذلك عقيدة راسخة في قلوب كثير منهم، وهو أن النور المحمدي هو أول ما خلق اللَّه -تبارك وتعالى-، وليس لذلك أساس من الصحة»[٢].

* * *

---

(١) الكافية الشافية (١/ ١٧٨).

(٢) الصحيحة (١/ ٢٥٧-٢٥٨).

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما كان المخاطَب بهذا ﷺ قد عاشر المرسل إليهم دهرًا طويلًا وزمنًا مديدًا أربعين سنة، وهو أعلاهم قدرًا، وأطهرهم خلائق، وأمتنهم عقلًا، وأحكمهم رأيًا، وأرأفهم وأرفعهم عن شوائب الأدناس همة، وأزكاهم نفسًا بحيث إنه لا يدعى بينهم إلا بالأمين، ولم يتجدد له شيء يستحق به أن يصفوه بسببه بالجنون الذي ينشأ عنه الضلال عن المقاصد المذكور آخر الملك في قوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] إلا النعمة التي ما نال أحد قط مثلها في دهر من الدهور ولا عصر من الأعصار، قال مجيبًا هذا القسم العظيم، رادًا عليهم بأجلى ما يكون وأدله على المراد، تأنيسًا له ﷺ مما أوجب افتراؤهم عليه له من الوحشة وشرحًا لصدره وتهدئة لسره: ﴿مَآ أَنتَ﴾ أي: يا أعلى المتأهلين لخطابنا ﴿بِنِعْمَةِ﴾ أي: بسبب إنعام ﴿رَبِّكَ﴾ المربي لك بمثل تلك الهمم العالية والسجايا الكاملة بأن خصك بالقرآن الذي هو جامع لكل علم وحكمة، وأكد النفي زيادة في شرفه ﷺ فقال: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ أي: بل الذي وصفك بهذا هو الحقيق باسم الجنون ومعناه فضلًا عن الضلال الذي ردد في آخر تلك بينك وبينهم فيه سلوكًا لسبيل الإنصاف لينظروا في تلك بالأدلة فيعلموا ضلالهم وهدايتك بالدليل القطعي بالنظر في الآثار المظهرة لذلك غاية الإظهار، فنفى عنه ﷺ الشقاوة التي سببها فساد العقل فثبتت السعادة التي سببها صلاح العقل ونعمة الرب له»[2].

قال الرازي: «نفى الجنون عنه، ثم إنه تعالى قرن بهذه الدعوى ما يكون كالدلالة القاطعة على صحتها وذلك لأن قوله: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ يدل على أن نعم اللَّه تعالى كانت ظاهرة في حقه من الفصاحة التامة، والعقل الكامل، والسيرة المرضية،

---

(١) الملك: الآية (٢٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٢٨٦-٢٨٧).

والبراءة من كل عيب، والاتصاف بكل مكرمة، وإذا كانت هذه النعم محسوسة ظاهرة فوجودها ينافي حصول الجنون، فالله تعالى نبه على هذه الدقيقة لتكون جارية مجرى الدلالة اليقينية على كونهم كاذبين في قولهم له: إنه مجنون»[١].

قال ابن القيم: «والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالا عليه أظهر دلالة وأبينها؛ فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم؟؛ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها ولاسيما من أمي لا يقرأ كتابا، ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة سليما من الاختلاف، بريًا من التناقض يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه؟ وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك؟.

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة، ولو أن رجلا أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضا، أو قال قصيدة كذلك، أو صنف كتابا كذلك لشهد له العقلاء بالعقل، ولما استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان بل وقوع- معارضتها ومشاكلتها والإتيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته؟ وعرفهم من الحق ما لا تهتدي عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان طائعة مختارة، وهي ترى عقولها أشد فقرا وحاجة إلى ما جاء به، ولا كمال لها إلا بما جاء به؟ فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي، ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق، وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ٨١).

بينها، ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب بالإيمان والتقوى، فكيف يكون متبوعهم مجنونا وهذا حال كتابه وهديه وسيرته وحال أتباعه؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة اللّٰه عليه وعليهم، فنفى عنه الجنون بنعمته عليه.

وقد اختلف في تقدير الآية: فقالت فرقة: الباء في ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ باء القسم فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما يقول: ما أنت باللّٰه بكاذب، وهذا التقدير ضعيف جدا؛ لأنه قد تقدم القسم الأول فكيف يقع القسم الثاني في جوابه؟ ولا يحسن أن تقول: واللّٰه ما أنت باللّٰه بقائم، وليس هذا من فصيح الكلام ولا عهد في كلامهم.

وقالت فرقة: العامل في ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أداة معنى النفي، أو معنى أنفي عنك الجنون بنعمة ربك. ورد أبو عمر ابن الحاجب وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها وإنما تعمل ألفاظها. وقال الزمخشري يتعلق ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ منفيا كما يتعلق بعاقل مثبتا في قولك: أنت بنعمة اللّٰه عاقل، يستويان في ذلك الإثبات والنفي استواءهما في قولك: ضرب زيد عمرا، وما ضرب زيد عمرا، يعمل الفعل مثبتا ومنفيا إعمالا واحدا، ومحله النصب على الحال أي: ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله لأنها زائدة لتأكيد النفي.

واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان: أحدهما: نفي ذلك المعمول فقط نحو قولك: ما زيد بذاهب مسرعا؛ فإنه ينتفي الإسراع دون القيام، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع، والثاني: ينفي المحكوم به فينتفي معموله بانتفائه فينتفي الذهاب في هذه الحال فينتفي الإسراع بانتفائه، فإذا جعل ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ معمولا لمجنون لزم أحد الأمرين وكلاهما منتف جزما، وهذا الاعتراض هنا فاسد؛ لأن المعنى إذا حصل ما أنت بمجنون منعما عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعا ولا يصح نفي المعمول، وثبوت العامل في هذا الكلام، ولا يفهم منه من له آلة الفهم، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة اللّٰه عليك، وانتفى عنا فهمه هذا المعترض

بنعمة اللَّه علينا»[١].

قال ابن عاشور: «أوثر القسم بالقلم والكتابة للإيماء إلى أن باعث الطاعنين على الرسول ﷺ واللامزين له بالجنون، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب.

والمقسم عليه نفي أن يكون النبي ﷺ مجنونا، والخطاب له بهذا تسلية له لئلا يحزنه قول المشركين لمّا دعاهم إلى الإسلام: هو مجنون، وذلك ما شافهوا به النبي ﷺ وحكاه اللَّه عنهم في آخر السورة ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾[٢]. وهكذا كل ما ورد فيه نفي صفة الجنون عنه فإنما هو رد على أقوال المشركين كقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾[٣]. وقد زل فيه صاحب الكشاف زلة لا تليق بعلمه.

والمقصود من نفي الجنون عنه إثبات ما قصد المشركون نفيه وهو أن يكون رسولا من الله؛ لأنهم لما نفوا عنه صفة الرسالة وضعوا موضعها صفة الجنون، فإذا نفي ما زعموه فقد ثبت ما ادعاه»[٤].

* * *

---

(١) التبيان ص (١٢٨-١٣٠).

(٢) القلم: الآية (٥١).

(٣) التكوير: الآية (٢٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٦١-٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

غير ممنون: غير مقطوع، وقيل: غير محسوب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن لك يا محمد لثوابا من اللّه عظيما على صبرك على أذى المشركين إياك غير منقوص ولا مقطوع، من قولهم: حبل منين: إذا كان ضعيفا، وقد ضعفت منّته: إذا ضعفت قوّته»[1].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وأخراه فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ أي: غير مقطوع؛ بل هو دائم مستمر، ونكر الأجر تنكير تعظيم كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾[2] و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾[3] و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾[4] و﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١﴾[5] و﴿إِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[6] وهو كثير، وإنما كان التنكير للتعظيم؛ لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ولا يناله التعبير»[7].

وقال البقاعي: «لما نفى سبحانه عنه ﷺ ما قالوه مما تواقحوا به، فثبت له ﷺ كمال العقل، وكان المجنون من لا يكون له عمل ينتظم ولا قول يرتبط، فلا يستعمله أحد في شيء ليكون له عليه أجر، أثبت له الأجر المستلزم للعقل فيتحقق إثباته من أحكم الحكماء على وجه أبلغ مما لو صرح به، فقال على وجه التأكيد لإنكارهم له بما ادعوا فيه من البهت: ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ أي: على ما تحملت من أثقال النبوة، وعلى صبرك عليهم بما يرمونك به؛ وهو تسلية له ﷺ ﴿لَأَجْرًا﴾ ولما

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٨).
(٢) آل عمران: الآية (١٣).
(٣) هود: الآية (١٠٣).
(٤) الزمر: الآية (٢١).
(٥) النبأ: الآية (٣١).
(٦) ص: الآية (٤٠).
(٧) التبيان (١٣٠).

أثبت له ما يلازم العقل ويصلح لأن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة دالّا بتنوينه وما أفهمه السياق من مدحه ﷺ على عظمته، وكان الأجر لا يستلزم الدوام، وقد يكون منغصًا بنوع منّة قال: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: مقطوع ولا منقوص في دنياك ولا في آخرتك، ولا لأحد من الناس عليك به صنيع يمتن به بأن يذكره على سبيل اللوم والتقريع، فهذا بيان السعادة، والأجر لا يكون إلا على العمل الصالح، والعمل رشح الأخلاق، فصالحه نتيجة الأخلاق الحسنة والعقل الراجح»[1].

قال ابن عاشور: «ولما ثبت اللَّه رسوله ﷺ فدفع بهتان أعدائه بإكرامه بأجر عظيم على ما لقيه من المشركين من أذى بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ بقرينة وقوعه عقب قوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾، مؤكدا ذلك بحرف إنَّ وبلام الابتداء وبتقديم المجرور وهو في قوله: «لك». وهذا الأجر هو ثواب اللَّه في الآخرة، وعناية اللَّه به، ونصره في الدنيا»[2].

قال عطية محمد سالم: «المن: القطع، أي: إن أجره ﷺ عند اللَّه غير منقطع. قال الشاعر:

لمقفر قهر تنازع شلوه عبس كواسب لا يمن طعامها

وقد بين تعالى دوام أجره دون انقطاع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾[3].

وصلوات اللَّه تعالى عليه وصلوات الملائكة والمؤمنين لا تنقطع ليلًا ولا نهارًا وهي من اللَّه تعالى رحمة، ومن الملائكة والمؤمنين دعاء. وفي سورتي: الضحى وألم نشرح بكاملها ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾[4]. وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾[5]. ومعلوم من السنة أن من دل على خير فله مثل من عمل به، فما من مسلم تكتب له حسنة في صحيفته إلا وللرسول ﷺ مثلها. وقد قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**»،

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩١-٢٩٢).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٢-٦٣).
(٣) الأحزاب: الآية (٥٦).
(٤) الضحى: الآيات (٣-٥).
(٥) الشرح: الآية (٤).

ومنها: «**أو علم ينتفع به**»[(١)] وأي علم أعم نفعا مما جاء به ﷺ وتركه في الأمة حتى قال: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدًا كتاب اللَّه وسنتي**»[(٢)] إلى غير ذلك من النصوص الدالة على دوام أجره. أما جزاؤه عند اللَّه فلا يقدر قدره إلا اللَّه تعالى»[(٣)].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٢)، ومسلم (٣/ ١٢٥٥/ ١٦٣١)، وأبو داود (٣/ ٣٠٠/ ٢٨٨٠)، والترمذي (٣/ ٦٦٠/ ١٣٧٦)، والنسائي (٦/ ٥٦١-٥٦٢/ ٣٦٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه: مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٩) بلاغا، ووصله الدارقطني (٤/ ٢٤٥) والبيهقي (١٠/ ١١٤)، والحاكم (١/ ٩٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه صالح بن موسى الطلحي وهو متروك. انظر التقريب. وله شواهد منها:

- حديث ابن عباس بلفظ: «إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ» أخرجه: الحاكم (١/ ٩٣) وصححه ووافقه الذهبي، وفيه ابن أبي أويس. قال عنه الحافظ في (هدي الساري): «لا يحتج بشيء من حديثه غير ما في الصحيح».

- حديث عمر بن عوف، ولفظه مثل لفظ أبي هريرة. أخرجه: ابن عبد البر في الجامع (٢/ ٩٧٩/ ١٨٦٦). وفيه «كثير بن عبد اللَّه بن عمرو بن عوف» قال عنه الحافظ: «ضعيف من السابعة، أفرط من نسبه إلى الكذب».

- حديث زيد بن أرقم وفيه: «وأهل بيتي أذكركم اللَّه في أهل بيتي» رواه مسلم (٤/ ١٨٧٣/ ٢٤٠٨).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٤٢٠-٤٢١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وإنك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه»[١].

قال ابن القيم: «وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته لمن منحه الله فهما، ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ فأجابت بما شفى وكفى فقالت: «كان خلقه القرآن»[٢]، فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئا بعد ذلك، ومن هذا قال ابن عباس وغيره: أي على دين عظيم، وسمى الدين خلقا؛ لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات فتكتسب النفس بها أخلاقا هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها، فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن. فكان كلامه مطابقا للقرآن تفصيلا له وتبيينا، وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره وتبليغه والجهاد في إقامته، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: «كان خلقه القرآن»، وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى فاكتفى به واشتفى.

فإذا كانت أخلاق العباد وعلومهم وإراداتهم وأعمالهم مستفادة من القلم وما يسطرون، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم إذ وصلوا به إلى ذلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٨).

(٢) سيأتي تخريجه.

الأخلاق، وأفضل العلوم، والأعمال، والإرادات التي لا تهتدي للقول على تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون هو أم هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم في البرزخ، وينكشف ويظهر كل الظهور في الآخرة بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به»[1].

قال الرازي: «اعلم أن هذا كالتفسير لما تقدم من قوله: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ وتعريف لمن رماه بالجنون بأن ذلك كذب، وخطأ وذلك لأن الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية كانت ظاهرة منه، ومن كان موصوفًا بتلك الأخلاق والأفعال لم يجز إضافة الجنون إليه؛ لأن أخلاق المجانين سيئة، ولما كانت أخلاقه الحميدة كاملة لا جرم وصفها اللَّه بأنها عظيمة»[2].

قال عطية محمد سالم: «أخذت قضية الأخلاق عامة، وأخلاقه ﷺ خاصة محل الصدارة من مباحث الباحثين وتقرير المرشدين، فهي بالنسبة للعموم أساس قوام الأمم، وعامل الحفاظ على بقائها، كما قيل:

إنَّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ ... فإنْ هم ذهبتْ أخلاقهم ذَهبوا

وقد أجمل ﷺ البعثة كلها في مكارم الأخلاق في قوله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[3].

وقد عني أصحاب رسول اللَّه ﷺ رضوان اللَّه تعالى عليهم بقضية أخلاقه بعد نزول هذه الآية، فسألوا عائشة ﵂ عن ذلك فقالت: «كان خلقه القرآن» وعني بها العلماء بالتأليف، كالشمائل للترمذي.

أما أقوال المفسرين في الخلق العظيم المعنى هنا فهي على قولين لا تعارض بينهما. منها: أنه الدين، قاله ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم. والآخر قول عائشة: «كان خلقه القرآن» والقرآن والدين مرتبطان. ولكن لم يزل الإجمال موجودًا. وإذا رجعنا إلى بعض الآيات في القرآن نجد بعض البيان لما كان عليه ﷺ

---

(١) التبيان (١٣٠-١٣١).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٨١).

(٣) سيأتي تخريجه.

من عظيم الخلق مثل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾[1]. وقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[2]. وقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾[3]. وقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[4].

ومثل ذلك من الآيات التي فيها التوجيه أو الوصف بما هو أعظم الأخلاق، وإذا كان خلقه ﷺ هو القرآن، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم»[5].

وقال السعدي: «أي: عاليًا به مستعليًا بخلقك الذي من اللَّه عليك به، وحاصل خلقه العظيم ما فسرته به أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- لمن سألها عنه فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[6]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[7] الآية، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[8] وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، والآيات الحاثات على الخلق العظيم، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلا لينا، قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة من استقضاه، جابرًا لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يرده خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة؛ بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ»[9].

---

(١) الأعراف: الآية (١٩٩).
(٢) التوبة: الآية (١٢٨).
(٣) آل عمران: الآية (١٥٩).
(٤) النحل: الآية (١٢٥).
(٥) تتمة أضواء البيان (٨/ ٢٤٨-٢٤٩).
(٦) الأعراف: الآية (١٩٩).
(٧) آل عمران: الآية (١٥٩).
(٨) التوبة: الآية (١٢٨).
(٩) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤٤-٤٤٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في خلق رسول اللَّه ﷺ

* عن سعد بن هشام بن عامر قال: قلت: يا أم المؤمنين! أي عائشة رضي الله عنها- أنبئيني عن خلق رسول اللَّه ﷺ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق نبي اللَّه ﷺ كان القرآن. قال فهممت أن أقوم، ولا أسأل أحدا عن شيء حتى أموت(١).

⋆ فوائد الحديث:

قال محمود محمد خطاب السبكي: «أي: أنه كان متمسكا بآدابه وأوامره واقفا عند حدوده معتبرا بأمثاله وقصصه، فكان عاملا بقول اللَّه تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(٢) وقوله تعالى حكاية عن لقمان: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾(٣) وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾(٤)، وغير ذلك متحليا بما حث عليه اللَّه تعالى بنحو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾(٥) وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(٦) وقوله ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾(٧) متجنبا ما نهى اللَّه عنه بنحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾(٨) الخ. وعلى الجملة فكل ما قص اللَّه تعالى في كتابه من مكارم الأخلاق أو حث عليه أو ندب إليه كان -صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم- متخلقا به، وكل ما نهى اللَّه عنه كان -صلى اللَّه تعالى عليه وعلى آله وسلم- لا يحوم حوله، ولذا أثنى اللَّه تعالى عليه بأعظم الثناء فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾»(٩).

قال القرطبي: «أي: كان يتخلق بما فيه من محمود الأوصاف، ويجتنب ما فيه

---

(١) أخرجه مطولا: أحمد (٦/ ٥٣-٥٤)، ومسلم (١/ ٥١٢-٥١٣/ ٧٤٦)، وأبو داود (٢/ ٨٧-٨٨/ ١٣٤٢)، والنسائي (٣/ ٢٢١-٢٢٢/ ١٦٥٥)، وابن ماجه (١/ ٣٧٦/ ١١٩١) دون ذكر موضع الشاهد.

(٢) الأعراف: الآية (١٩٩).

(٣) لقمان: الآية (١٧).

(٤) المائدة: الآية (١٣).

(٥) النحل: الآية (٩٠).

(٦) الشورى: الآية (٤٠).

(٧) الشورى: الآية (٤٣).

(٨) الحجرات: الآية (١١).

(٩) المنهل العذب المورود (٧/ ٢٧٣-٢٧٤).

من ممنوعها، ويحتمل أن تريد بقولها «القرآن»: الآيات التي اقتضت الثناء على رسول اللَّه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾، وكقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾[(١)] إلى آخرها، وما في معنى ذلك واللَّه أعلم»[(٢)].

وقال: «وكون سعد هم أن لا يسأل أحدا عن شيء حتى يموت: إنما كان ذلك منه استقصارا لفهمه؛ إذ لم يفهم ذلك من القرآن مع وضوح ذلك المعنى فيه، وإنهاضا لهمته للبحث عن معاني القرآن، واكتفاء بذلك عن سؤال أحد من أهل العلم»[(٣)].

قال القاضي عياض: «اكتفى بذلك واقتدى بالتخلق بأخلاق النبي ﷺ بالقرآن، ففيه المقنع من كل شيء، والهداية إلى كل رشد، والخلاء من كل شبهة»[(٤)].

* عن أبي عبد اللَّه الجدلي قال: سألت عائشة عن خلق رسول اللَّه ﷺ؟ قالت: «لم يكن فاحشًا، ولا متفاحشًا، ولا صخابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[(٥)].

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: **إن من خياركم أحسنكم أخلاقًا**»[(٦)].

⋆ غريب الحديثين:

الفاحش: من الفحش وهو: الزيادة على الحد في الكلام السيء.

المتفحش: الذي يتكلف ذلك ويتعمده.

الصخاب: الصخب والسخب بمعنى: الصياح.

⋆ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «برأ اللَّه تعالى نبيه ﷺ عن جميع ذلك ونزهه؛ فإنه كان رحيما

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٧).
(٢) المفهم (٢/ ٣٧٨).
(٣) المفهم (٢/ ٣٧٨).
(٤) الإكمال (٣/ ٩٥).
(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ١٧٤)، والترمذي (٤/ ٣٢٤/ ٢٠١٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦١)، والبخاري (٦/ ٧٠١-٧٠٢/ ٣٥٥٩)، ومسلم (٤/ ١٨١٠/ ٢٣٢١)، والترمذي (٤/ ٣٠٨/ ١٩٧٥).

رفيقا لطيفا سمحا متواضعا طلقا برا وصولا محبوبا؛ لا تقتحمه عين، ولا تمجه نفس، ولا يصدر عنه شيء يكره ﷺ وشرف وكرم»[(١)].

قال المناوي: ««في الأسواق» وإذا لم يكن فيها كذلك ففي غيرها أولى بالنفي؛ فإن قيل بناء فعال للتكثير الذي هو للمبالغة لا يلزم من نفيه نفي أصل الفعل، فالجواب أن هذا من قبيل المفهوم وهو هنا غير كاف لأنه وارد في سياق المدح، ولا يكتفى فيه بمثل ذلك، وهذه الصفات هي صفته في الكتب المنزلة، وروى البيهقي[(٢)] وأبو نعيم عن أم الدرداء قلت لكعب: كيف تجدون صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: كنا نجده موصوفا فيها محمد رسول الله، اسمه المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق». و«في» ظرفية، و«السوق» مؤنثة بدليل تصغيرها على سويقة وتأنيثها لإرادة البقعة، أو لأن الواضع الأول جاء بها مؤنثة، واشتقاقها من سوق الأرزاق إليها، أو من قيام الناس فيها على سوقهم، «ولا يجزئ» كيرمي، وفي رواية: «يدفع بالسيئة السيئة»؛ لأن خلقه القرآن، وفيه قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[(٣)]«ولكن» استدراك؛ لأن ما قبل «لكن» قد يوهم أنه ترك الجزاء عجزا فاستدركه لذلك. «يعفو» أي: يعامل الجاني معاملة المعافى بأن لا يذكر له شيئا مما تظهره تلك الجناية. «ويصفح» أي: يظهر له أنه لم يطلع على شيء من ذلك، أو المراد يعفو بباطنه ويصفح أي: يعرض بظاهره، وأصله من الإعراض بصفحة العنق عن الشيء كأنه لم يره، وذلك منه طبعا وامتثالا لقوله ﷻ ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾[(٤)]، وحسبك عفوه وصفحه عن أعدائه الذين حاربوه وبالغوا في إيذائه حتى كسروا رباعيته وشجوا وجهه، وما من حليم إلا وقد عرف له زلة أو هفوة تخدش في كمال حلمه إلا المصطفى؛ فإنه لا يزيده شدة الإيذاء له والجهل عليه إلا عفوا وصفحا»[(٥)].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي:

(١) المفهم (٦/ ١١٦).
(٢) دلائل النبوة (١/ ٣٧٦-٣٧٧).
(٣) الشورى: الآية (٤٠).
(٤) المائدة: الآية (١٣).
(٥) شرح الشمائل للترمذي بهامش جمع الوسائل (٢/ ١٥٦-١٥٧).

أف، ولا: لم صنعت؟ ولا ألا صنعت؟»[١].

★ **غريب الحديث:**

أف: الأف كلمة معناها التبرم، وهي اسم فعل وأتي بها في الكلام للاختصار والإيجاز؛ لأنك تستعمله للواحد والاثنين والمؤنث والمذكر بلفظ واحد ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[٢] وفيها لغات كثيرة، فإذا لم ينون فهو معرفة وإذا نون فهو نكرة، فمعنى المعرفة: لا تقل لهما القبيح من القول، (ومعنى النكرة: لا تقل لهما قبيحا من القول)، قال الهروي: يقال لكل ما يضجر منه ويستثقل: أفٌّ له، وقال بعضهم: معنى أف: الاحتقار والاستثقال، أخذ من الأفَفِ وهو القليل».

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «في هذا الحديث بيان كمال خلقه ﷺ وحسن عشرته، وحلمه وصفحه»[٣].

قال الحافظ: «ويستفاد من هذا ترك العتاب على ما فات، لأن هناك مندوحة عنه باستئناف الأمر به إذا احتيج إليه، وفائدة تنزيه اللسان عن الزجر والذم واستئلاف خاطر الخادم بترك معاتبته، وكل ذلك في الأمور التي تتعلق بحظ الإنسان، وأما الأمور اللازمة شرعا فلا يتسامح فيها لأنها من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٤].

وقال علي القاري: «وهذا من كمال خلقه وتفويض أمره وملاحظة تقدير ربه، وأما تجويز ابن حجر تبعا للحنفي وغيره أنه من كمال أدب أنس فبعيد جدا من سياق الحديث وعنوان الباب، ولعدم تصور ولد عمره عشر سنين يخدم عشر سنين لا يقع منه ما يوجب تأفيفه، ولا تقريعه، مع أن المقام يقتضي مدحه -عليه الصلاة والسلام- لا مدح نفسه في هذا الكلام، ثم اعلم أن ترك اعتراضه -عليه الصلاة والسلام- بالنسبة إلى أنس إنما هو لغرض فيما يتعلق بآداب خدمته ﷺ وحقوق

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٤ و٢٢٧ و٢٥٥)، والبخاري (١٠/ ٥٥٩/ ٦٠٣٨)، ومسلم (٤/ ١٨٠٤/ ٢٣٠٩)، وأبو داود (٥/ ١٣٣/ ٤٧٧٤)، والترمذي (٤/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٢٠١٥).

(٢) الإسراء: الآية (٢٣).

(٣) المنهاج (١٥/ ٥٨).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٥٦٥).

ملازمته بناء على حمله لا فيما يتعلق بالتكاليف الشرعية الموجبة للحقوق الربانية، ولا فيما يختص بحقوق غيره من الأفراد الإنسانية، واللَّه سبحانه أعلم»[١].

وقال المناوي: «وفيه فضيلة تامة لأنس حيث لم ينتهك من المحارم شيئا، ولم يرتكب في تلك السنين في خدمته ما يوجب المؤاخذة شرعا؛ لأن سكوته عن الاعتراض عليه يستلزم ذلك»[٢].

* عن البراء ﷺ قال: «كان رسول اللَّه ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسنه خلقًا، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «وأحسنه خلقا» بفتح المعجمة للأكثر، وضبطه ابن التين بضم أوله واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ ووقع في رواية الإسماعيلي بالشك «وأحسنه خلقا أو خلقا» ويؤيده قوله قبله «أحسن الناس وجها» فإن فيه إشارة إلى الحسن الحسي، فيكون في الثاني إشارة إلى الحسن المعنوي»[٤].

* عن أبي هريرة ﷺ قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وفي رواية: «**صالح الأخلاق**»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال فضل اللَّه الجيلاني: «لا يكون دين من الأديان خاليا من مكارم الأخلاق، لكن لم تكن الأخلاق الكريمة مجموعة كلها في دين من الأديان السابقة، حتى جمع اللَّه في دين الإسلام كل ما كان من أخلاق حسنة متفرقة في دين دين، فهذا معنى

---

(١) جمع الوسائل في شرح الشمائل (٢/ ١٥٣).

(٢) شرح الشمائل بهامش جمع الوسائل (٢/ ١٥٣).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ٧٠٠/ ٣٥٤٩)، ومسلم (٤/ ١٨١٩/ ٢٣٣٧[٩٣])، وأخرجه بنحوه: أحمد (٤/ ٢٩٠) وأبو داود (٤/ ٣٣٧-٣٣٨/ ٤٠٧٢)، والترمذي (٤/ ١٩١/ ١٧٢٤)، والنسائي (٨/ ٥٠٩/ ٥٠٧٧)، وابن ماجه (٢/ ١١٩٠/ ٣٥٩٩).

(٤) فتح الباري (٦/ ٧٠٨-٧٠٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، وقال: «حديث صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٨)، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(أتمم مكارم الأخلاق) أي أبلغ نهايتها، فمن أراد حياز الأخلاق الحسنة كلها فليلزم الإسلام فإنها لا توجد كاملة إلا فيه، وما لا يوجد في الإسلام فهو ليس بخلق حسن، وقد أتمها ﷺ في كيفياتها، وحث على الرسوخ فيها»[1].

قال ابن عبد البر: «ويدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كله، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل؛ فبذلك بعث ليتممه ﷺ، وقد قالت العلماء: إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله ﷻ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[2].

وروينا عن عائشة -ذكره ابن وهب وغيره- أنها قالت: «مكارم الأخلاق صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للصاحب، وقري الضيف، والحياء رأسها. قالت: وقد تكون مكارم الأخلاق في الرجل ولا تكون في ابنه، وتكون في ابنه ولا تكون فيه؛ وقد تكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها اللّٰه لمن أحب». وقد أحسن أبو العتاهية في قوله:

فليس دنيا إلا بدين ... وليس الدين إلا مكارم الأخلاق
إنما المكر والخديعة في النا ... ر هما من فروع أهل النفاق»[3].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول اللّٰه ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما؛ فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول اللّٰه ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة اللّٰه فينتقم بها لله»[4].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «قول عائشة: «ما خير رسول اللّٰه ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما؛ فإن كان إثما كان أبعد الناس منه»: فيه الأخذ بالأيسر

---

(١) فضل اللّٰه الصمد (١/ ٣٦٤).
(٢) النحل: الآية (٩٠).
(٣) التمهيد (فتح البر ١٠/ ٢٥٦).
(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٣٢ و١٨١-١٨٢)، والبخاري (١٠/ ٦٤٣/ ٦١٢٦)، ومسلم (٤/ ١٨١٣/ ٢٣٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٤٢/ ٤٧٨٥ و٤٧٨٦)، والترمذي في الشمائل (٣٠٠).

والأرفق، وترك التكلف وطلب المطاق، إلا فيما لا يحل الأخذ به كيف كان. ويحتمل أن يكون التخيير هنا من اللَّه تعالى مما فيه عقوبتان، أو فيما بينه وبين الكفار من القتال وأخذ الجزية، أو فيما يخبره فيه المنافقون من المواعدة والمحاربة، أو أمته من الشدة في العبادة أو القصد. وكان يذهب في كل هذا إلى الأيسر»[١].

وقال: «وقولها: «وما انتقم رسول اللَّه ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله»: فيه ما كان عليه ﷺ- من الحلم والصبر، وما كان ﷺ من القيام بالحق والصلابة فيه، وهذا هو الخلق الحسن المحمود، فإنه لو كان يترك ذلك كله في حق اللَّه تعالى وفي حق غيره كان ضعفا ومهانة، ولو كان ينتقم أيضا لنفسه في كل شيء لم يكن ثم صبر ولا حلم ولا احتمال، وكان هذا الخلق بطشا وانتقاما، فانتفى عنه الطرفان المذمان، وبقي وسطها، وخير الأمور أوسطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم»[٢].

وقال ابن عبد البر: «في هذا الحديث دليل على أن المرء ينبغي له ترك ما عسر عليه من أمور الدنيا والآخرة، وترك الإلحاح فيه إذا لم يضطر إليه، والميل إلى اليسر أبدا، فإن اليسر في الأمور كلها أحب إلى اللَّه وإلى رسوله، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٣] وفي معنى هذا الأخذ برخص اللَّه تعالى، ورخص رسوله ﷺ والأخذ برخص العلماء، ما لم يكن القول خطأ بينا»[٤].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا الحديث دليل على أن على العالم أن يتجافى عن الانتقام لنفسه، ويعفو، ويأخذ بالفضل إن أحب أن يتأسى بنبيه ﷺ، وإن لم يطق كلا فبعضا. وكذلك السلطان قال اللَّه ﷻ لنبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[٥]. قال المفسرون: كان خلقه ما قال الله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾[٦]. وعلى العالم أن يغضب عند المنكر ويغيره إذا لم يكن لنفسه، وفي معنى هذا الحديث أن لا يقضي الإنسان لنفسه، ولا يحكم لها، ولا لمن في ولايته. وهذا ما لا خلاف فيه، واللَّه أعلم»[٧].

---

(١) الإكمال (٧/ ٢٩١).
(٢) الإكمال (٧/ ٢٩٢).
(٣) البقرة: الآية (١٨٥).
(٤) التمهيد (١٠/ ٢٥٨ فتح البر).
(٥) القلم: الآية (٤).
(٦) الأعراف: الآية (١٩٩).
(٧) التمهيد (١٠/ ٢٥٨-٢٥٩ فتح البر).

* عن عبد اللَّه بن أبي أوفى قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة»[1].

★ **غريب الحديث:**

اللغو: السقط وما لا يعتد به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع.

لا يأنف: أي لا يستنكف.

★ **فوائد الحديث:**

قال السيوطي: «كان رسول اللَّه ﷺ يكثر الذكر ويقل اللغو» القلة هنا بمعنى العدم كقوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2]»[3].

وقال السندي: «أي: غالب كلامه جامع لمطالب جمة، وأما الكلام القاصر عن ذلك الحد فكان قليلا»[4].

وقال المناوي: «وفيه بروزه للناس وقربه منهم ليصل ذو الحق حقه، ويسترشد بأقواله وأفعاله وصبره على تحمل المشاق لأجل غيره، وغير ذلك»[5].

* * *

(١) أخرجه: النسائي (٣/ ١٢٠-١٢١/ ١٤١٣)، وصححه الحاكم (٢/ ٦١٤) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن حبان (١٤/ ٣٣٣/ ٦٤٢٣ الإحسان).

(٢) البقرة: الآية (٨٨).

(٣) حاشية النسائي (٣/ ١٢٠).

(٤) حاشية النسائي (٣/ ١٢٠-١٢١).

(٥) فيض القدير (٥/ ٢٤١).

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾

★ **غريب الآية:**

المفتون: المبتلى بتخبيل الرأي كالمجنون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فسترى يا محمد، ويرى مشركو قومك الذين يدعونك مجنونا ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾»[1].

وقال: «وقوله: ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: تأويله بأيكم المجنون، كأنه وجَّه معنى الباء في قوله: ﴿بِأَيِّكُمُ﴾ إلى معنى في. وإذا وجهت الباء إلى معنى في كان تأويل الكلام: ويبصرون في أيّ الفريقين المجنون في فريقك يا محمد أو فريقهم، ويكون المجنون اسما مرفوعا بالباء..

وقال آخرون: بل تأويل ذلك: بأيكم الجنون؛ وكأن الذين قالوا هذا القول وجهوا المفتون إلى معنى الفتنة أو المفتون، كما قيل: ليس له معقول ولا معقود: أي بمعنى ليس له عقل ولا عقد رأي فكذلك وضع المفتون موضع الفُتُون..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أيكم أولى بالشيطان؛ فالباء على قول هؤلاء زيادة دخولها وخروجها سواء،..

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معنى ذلك: بأيكم الجنون، ووجه المفتون إلى الفتون بمعنى المصدر؛ لأن ذلك أظهر معاني الكلام، إذا لم ينو إسقاط الباء، وجعلنا لدخولها وجها مفهوما. وقد بيَّنا أنه غير جائز أن يكون في القرآن شيء لا معنى له»[2].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٩).

(٢) جامع البيان (٢٩/ ١٩-٢٠).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما وصفه بأنه على خلق عظيم قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ أي: فسترى يا محمد ويرون -يعني المشركين-، وفيه قولان: منهم من حمل ذلك على أحوال الدنيا، يعني فستبصر ويبصرون في الدنيا أنه كيف يكون عاقبة أمرك وعاقبة أمرهم، فإنك تصير معظمًا في القلوب، ويصيرون ذليلين ملعونين، وتستولي عليهم بالقتل والنهب، قال مقاتل: هذا وعيد بالعذاب ببدر، ومنهم من حمله على أحوال الآخرة وهو كقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝٢٦﴾[(١)]»[(٢)].

وقال البقاعي: «ولما أقسم سبحانه على نفي ما بهتوه به، ودل على ما وهبه من كمال العقل، وتمام الشرف والنبل تصريحًا وتلويحًا فثبت غاية الثبات بإخبار العالم الحكيم، دل عليه بالمشاهدة على وجه هو من أعلام النبوة للحكم على المستقبل فقال مسببًا عن صادق هذا الإخبار: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ أي: ستعلم يا أعلى الخلق وأشرفهم وأكملهم عن قريب بوعد لا خلف فيه علمًا أنت في تحققه كالمبصر بالحس الباصر ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ أي: يعلم الذين رموك بالبهتان علمًا هو كذلك، ولما كان ﷺ هو ومن معه فريقًا والأعداء فريقًا، وقد أبهم آخر الملك الضال في الفريقين قال: ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ أي: في أي فريقيكم ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: بالضلال والجنون حتى صد عن الهدى ودين الحق، أو بأيكم الفتنة بالجنون وغيره على أن يكون مصدر فتن»[(٣)].

قال السعدي: «وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون قال: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾ وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس، وشر الناس للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد اللَّه، وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم اللَّه بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي»[(٤)].

* * *

(١) القمر: الآية (٢٦).
(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٨٣).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩٥).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن ربك يا محمد هو أعلم بمن ضل عن سبيله، كضلال كفار قريش عن دين اللّه، وطريق الهدى ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ يقول: وهو أعلم بمن اهتدى، فاتبع الحقّ، وأقرّ به، كما اهتديت أنت فاتبعت الحقّ، وهذا من معاريض الكلام. وإنما معنى الكلام: إن ربك هو أعلم يا محمد بك، وأنت المهتدي وبقومك من كفار قريش وأنهم الضالون عن سبيل الحقّ»[1].

قال الرازي: «فيه وجهان: الأول: هو أن يكون المعنى: إن ربك هو أعلم بالمجانين على الحقيقة؛ وهم الذي ضلوا عن سبيله، وهو أعلم بالعقلاء؛ وهم المهتدون. الثاني: أن يكون المعنى: إنهم رموك بالجنون ووصفوا أنفسهم بالعقل وهم كذبوا في ذلك، ولكنهم موصوفون بالضلال، وأنت موصوف بالهداية، والامتياز الحاصل بالهداية والضلال أولى بالرعاية من الامتياز الحاصل بسبب العقل والجنون؛ لأن ذاك ثمرته السعادة الأبدية أو الشقاوة، وهذا ثمرته السعادة أو الشقاوة في الدنيا»[2].

قال ابن عاشور: «﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ تعليل لجملة: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾[3] باعتبار ما تضمنته من التعريض بأن الجانب المفتون هو الجانب القائل له ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[4] وأن ضده بضده هو الراجع العقل أي الذي أخبرك بما كنّى عنه قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾[5] من أنهم المجانين هو الأعلم بالفريقين، وهو الذي أنبأك بأن سيتضح الحق

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٠-٢١).
(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٨٣-٨٤).
(٣) القلم: الآيتان (٥و٦).
(٤) الحجر: الآية (٦).
(٥) القلم: الآية (٥).

لأبصارهم، فتعين أن المفتون هو الفريق الذين وسموا النبي ﷺ بأنه مجنون المردودُ عليهم بقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾[1] إذ هم الضالون عن سبيل ربّ النبي ﷺ لا محالة، وينتظم بالتدرج من أول السورة إلى هنا أقيسَة مساواةٍ مندرج بعضها في بعض تقتضي مساواة حقيقة من ضل عن سبل رب النبي ﷺ بحقيقة المفتون، ومساواة حقيقة المفتون بحقيقة المجنون، فتُنتج أن فريق المشركين هم المتصفون بالجنون بقاعدة قياس المساواة أن مُساوِيَ المساوي لشيء مساوٍ لذلك الشيء»[2].

وقال السعدي: «وفي هذا تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة اللَّه، حيث كان يهدي من يصلح للهداية دون غيره»[3].

* * *

---

(١) القلم: الآية (٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٦٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر ما عليه الكفار في أمر الرسول ونسبته إلى الجنون مع الذي أنعم اللَّه به عليه من الكمال في أمر الدين والخلق، أتبعه بما يدعوه إلى التشدد مع قومه، وقوى قلبه بذلك مع قلة العدد وكثرة الكفار، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ يعني رؤساء أهل مكة، وذلك أنهم دعوه إلى دين آبائه فنهاه اللَّه أن يطيعهم، وهذا من اللَّه إلهاب وتهييج التشدد في مخالفتهم»(١).

وقال أيضا: «قال الليث: الإدهان اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام، قال المبرد: داهن الرجل في دينه وداهن في أمره إذا خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر، والمعنى تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض مالا ترضى فتلين لهم ويلينون لك، وروى عطاء عن ابن عباس: لو تكفر فيكفرون»(٢).

قال القرطبي: «نهاه عن ممايلة المشركين، وكانوا يدعونه إلى أن يكف عنهم ليكفوا عنه، فبين اللَّه تعالى أن ممايلتهم كفر. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾(٣) وقيل: أي: فلا تطع المكذبين فيما دعوك إليه من دينهم الخبيث. ونزلت في مشركي قريش حين دعوه إلى دين آبائه»(٤).

قال ابن العربي: «ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال، كلها دعاوى على اللغة والمعنى، أمثلها قولهم: ودوا لو تكذب فيكذبون. ودوا لو تكفر فيكفرون.

وقال أهل اللغة: الإدهان هو التلبيس، معناه: ودوا لو تلبس إليهم في عملهم

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ٨٤).
(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٨٤).
(٣) الإسراء: الآية (٧٤).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٥٠).

وعقدهم فيميلون إليك.

وحقيقة الإدهان إظهار المقاربة مع الاعتقاد للعداوة؛ فإن كانت المقاربة باللين فهي مداهنة، وإن كانت مع سلامة الدين فهي مداراة أي مدافعة. وقد ثبت في الصحيح عن عائشة أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: **«ائذنوا له، بئس أخو العشيرة هو، أو ابن العشيرة»** فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله؛ قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول، فقال لي: **«يا عائشة؛ إن شر الناس منزلة من تركه أو ودعه الناس اتقاء فحشه»**(١).

وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: **«مثل المداهن في حدود اللَّه والقائم عليها كمثل قوم استهموا في سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فأراد الذين في أسفلها أن يستقوا الماء على الذين في أعلاها فمنعوهم، فأرادوا أن يستقوا الماء في أسفل السفينة، فإن منعوهم نجوا، وإن تركوهم هلكوا جميعا»**(٢). وقد قال اللَّه تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١﴾(٣) قال المفسرون: يعني مكذبون، وحقيقته ما قدمناه أي: أفبهذا الحديث أنتم مقاربون في الظاهر مع إضمار الخلاف في الباطن، يقولون: اللَّه، اللَّه. ثم يقولون: مطرنا بنجم كذا، ونوء كذا، ولا ينزل المطر إلا اللَّه سبحانه غير مرتبط بنجم ولا مقترن بنوء»(٤).

قال الشوكاني: «نهاه سبحانه عن ممايلة المشركين، وهم رؤساء كفار مكة؛ لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه، فنهاه اللَّه عن طاعتهم، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة: مجرد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير، فنهاه اللَّه عن ذلك، كما يدلّ عليه قوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ فإن الإدهان هو الملاينة والمسامحة والمداراة»(٥).

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٨)، والبخاري (١٠/ ٥٧٧-٥٧٨/ ٦٠٥٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٠٢/ ٢٥٩١)، وأبو داود (٥/ ١٤٤-١٤٦/ ٤٧٩١-٤٧٩٢)، والترمذي (٤/ ٣١٦/ ١٩٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٨/ ١٠٠٦٦-١٠٠٦٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٨)، والبخاري (٥/ ٣٦٧/ ٢٦٨٦)، والترمذي (٤/ ٤٠٨/ ٢١٧٣) بلفظ: «مثل المدهن في حدود اللَّه والواقع فيها» من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) الواقعة: الآية (٨١).

(٤) أحكام القرآن (٤/ ١٨٥٥-١٨٥٦).

(٥) فتح القدير (٥/ ٣٨١).

وقال السعدي: «يقول اللَّه تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلا لأن يطاعوا؛ لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالمطيع لهم مقدم على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال: ﴿وَدُّوا۟﴾ أي: المشركون ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو الفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ ولكن اصدع بأمر اللَّه، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما يضاده، وعيب ما يناقضه»[1].

قال ابن عاشور: «﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ تفريع على جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى آخرها، باعتبار ما تضمنته من أنه على الهدى، وأن الجانب الآخر في ضلال السبيل، فإن ذلك يقتضي المشادة معهم وأن لا يلين لهم في شيء، فإن أذاهم إياه آل إلى محاربة الحق والهدى، وتَصلّب فيما هم عليه من الضلال عن سبيل اللَّه فلا يستأهلون به لِينًا ولكن يستأهلون إغلاظًا.

رُوي عن الكلبي وزيد بن أسلم والحسن -بألفاظ متقاربة- تحوم حول أن المشركين ودّوا أن يمسك النبي ﷺ عن مجاهرتهم بالتضليل والتحقير فيمسكوا عن أذاه، ويصانعَ بعضُهم بعضًا، فنهاه اللَّه عن إجابتهم لما وَدُّوا.

ومعنى ﴿وَدُّوا۟﴾: أحبوا. وليس المراد أنهم ودُّوا ذلك في نفوسهم فأطْلَع اللَّه عليه رسوله ﷺ لعدم مناسبته لقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ وورد في كتب السيرة أن المشركين تقدموا للنبي ﷺ بمثل هذا العرض، ووسطوا في ذلك عمه أبا طالب وعتبة بن ربيعة. فينتظم من هذا أن قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ نهي عن إجابتهم إلى شيء عرضوه عليه عندما قرعهم بأول هذه السورة، وبخاصة من وقْع معنى التعريض البديع الممزوج بالوعيد بسوء المستقبل من قوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[2] فلعلهم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤٥-٤٤٦).

(٢) القلم: الآيات (٥-٧).

تحدثوا أو أوعَزُوا إلى من يخبر الرسول ﷺ أو صارحوه بأنفسهم بأنه إن ساءه قولهم فيه ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾[١] فقد ساءهم منه تحقيرهم بصفات الذم، وتحقير أصنامهم وآبائهم من جانب الكفر، فإن أمسك عن ذلك أمسكوا عن أذاه، وكان الحال صلحًا بينهم، ويترك كلّ فريق فريقًا وما عبده»[٢].

* * *

(١) القلم: الآية (٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/٦٨-٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝﴾

★ **غريب الآية:**

مهين: ذليل وحقير من المهانة، وهي الذلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما نهاه عن طاعة المكذبين، وهذا يتناول النهي عن طاعة جميع الكفار إلا أنه أعاد النهي عن طاعة من كان من الكفار موصوفًا بصفات مذمومة وراء الكفر، وتلك الصفات هي هذه:

الصفة الأولى: كونه حلافًا، والحلاف من كان كثير الحلف في الحق والباطل، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف ومثله قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾[1].

الصفة الثانية: كونه مهينًا، قال الزجاج: هو فعيل من المهانة، ثم فيه وجهان: أحدهما: أن المهانة هي القلة والحقارة في الرأي والتمييز. والثاني: أنه إنما كان مهينًا لأن المراد الحلاف في الكذب، والكذاب حقير عند الناس. وأقول: كونه حلافًا يدل على أنه لا يعرف عظمة اللَّه تعالى وجلاله، إذ لو عرف ذلك لما أقدم في كل حين وأوان بسبب كل باطل على الاستشهاد باسمه وصفته، ومن لم يكن عالمًا بعظمة اللَّه وكان متعلق القلب بطلب الدنيا كان مهينًا، فهذا يدل على أن عزة النفس لا تحصل إلا لمن عرف نفسه بالعبودية، وأن مهانتها لا تحصل إلا لمن غفل عن سر العبودية»[2].

قال البقاعي: «ولما نهاه عن طاعة المكذب وعلله، وكان من الناس من يخفي تكذيبه، قال ناصبًا علامات المكذب: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ أي: في وقت من الأوقات منهم ولا من غيرهم ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي: مبالغ في الاجتراء على الأيمان وإن لم يظهر لك

---

(١) البقرة: الآية (٢٢٤).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٨٤-٨٥).

تكذيبه، وليس المراد النهي عن العموم بل عموم النهي، أي: انته عن كل حلاف، فالنهي أصل والكل وارد عليه، كما تقدم تخريج مثله في آخر البقرة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[1] وهذه الأوصاف متفرخة من الكذب وخبث السجية فهي كالتفصيل، فكثرة الحلف دالة على فساد القوة العلمية فنشأ عنها سقوط تعظيم الحق، فصار صاحبها لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، فلذلك يحلف صادقًا وكاذبًا كيفما اتفق ﴿مَّهِينٍ﴾ أي: حقير ضعيف وضيع سافل الهمة والمروءة سافل الرأي؛ لأن الإنسان لا يكثر الحلف إلا وهو يتصور في نفسه أنه لا يصدق إلا بذلك، لأنه ليس له من المهابة عند من يحدثه والجلالة ما يصدقه بسببه، وهو مؤثر للبطالة لما فيها من موافقة طبعه، وذلك هو الحقارة الكبرى»[2].

قال ابن عاشور: «إعادة فعل النهي عن الطاعة لمن هذه صفاتهم للاهتمام بهذا الأدب فلم يُكتفَ بدخول أصحاب هذه الأوصاف في عموم المكذبين، ولا بتخصيصهم بالذكر بمجرد عطف الخاص على العام بأن يقال: ولا كلِّ حلاف، بل جيء في جانبهم بصيغة نهي أخرى مماثلة للأولى. وليفيد تسليط الوعيد الخاص وهو في مضمون قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾[3] على أصحاب هذه الصفات الخاصة زيادة على وعيد المكذبين.

وقريب منه قول الحارث بن همام الشيباني:

أيا ابنَ زيَّابَةَ إنْ تلْقَنِي ... لاَ تلْقَنِي في النعَم العازب

وتلْقَنِي يَشْتَدُّ بي أجرد ... مُستقدِمُ البِرْكة كالراكب

فلم يكتف بعطفٍ: ب (بل) أو (لكنْ) بأن يقول: بل تلقني يشتد بي أجرد، أو لكن تلقني يشتد بي أجرد، وعَدَل عن ذلك فأعاد فعل (تلقني).

وكلمة ﴿كُلَّ﴾ موضوعة لإفادة الشمول والإحاطة لأفراد الاسم الذي تضاف هي إليه، فهي هنا تفيد النهي العام عن طاعة كل فرد من أفراد أصحاب هذه الصفات التي أضيف إليها ﴿كُلَّ﴾ بالمباشرة وبالنعوت»[4].

---

(١) البقرة: الآية (٢٧٦).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٣) القلم: الآية (١٦).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/ ٧٠).

وقال: «قال جمع من المفسرين المراد بالحَلاّف المَهين: الوليد بن المغيرة، وقال بعضهم: الأخنس بن شُرَيه، وقال آخرون: الأسودُ بن عبد يغوث، ومن المفسرين من قال المراد: أبو جهل، وإنما عنوا أن المراد التعريض بواحد من هؤلاء، وإلاّ فإن لفظ ﴿كُلَّ﴾ المفيد للعموم لا يسمح بأن يراد النهي عن واحد معين، أما هؤلاء فلعل أربعتهم اشتركوا في معظم هذه الأوصاف، فهم ممن أريد بالنهي عن إطاعته ومن كان على شاكلتهم من أمثالهم.

وليس المراد مَن جَمَع هذه الخلال بل من كانت له واحدة منها، والصفة الكبيرة منها هي التكذيب بالقرآن التي خُتم بها قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾[1]، لكن الذي قال في القرآن إنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هو الوليد بن المغيرة، فهو الذي اختلق هذا البهتان في قصة معلومة، فلما تلقف الآخَرون منه هذا البهتان وأُعجبوا به أخذوا يقولونه فكان جميعهم ممن يقوله، ولذلك أسند اللَّه إليهم هذا القول في آية ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2]

وذُكرت عشر خلال من مذامّهم التي تخلقوا بها:

الأولى: ﴿حَلَّافٍ﴾ والحَلاف: المكثر من الأيْمَان على وُعودِه وأخباره، وأحسب أنه أريد به الكناية عن عدم المبالاة بالكذب وبالأيمان الفاجرة، فجعلت صيغة المبالغة كناية عن تعمد الحنث، وإلاَّ لم يكن ذمه بهذه المثابة، ومن المفسرين من جعل ﴿مَّهِينٍ﴾ قيدًا لـ﴿حَلَّافٍ﴾ على جَعْل النهي عن طاعة صاحب الوصفين مجتمعين.

﴿مَّهِينٍ﴾ هذه خصلة ثانية وليست قيدًا لصفة ﴿حَلَّافٍ﴾»[3].

* * *

(١) القلم: الآية (١٥).

(٢) الفرقان: الآية (٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٧١-٧٢).

قوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما كان كل من اتصف بصفة أحب أن يشاركه الناس فيها أو يقاربوه، لا سيما إن كانت تلك الصفة دنية، ليسلم من العيب أو الانفراد به؛ ولأن الشيء لما داناه ألف قال: ﴿هَمَّازٍ﴾ أي: كثير العيب للناس في غيبتهم، وقال الحسن: هو الذي يغمز بأخيه في المجلس، أي: لأن الهمز العض والعصر والدفع من المهماز الذي يطعن به في بطون الدواب، وهو مخصوص بالغيبة، كما أن اللمز مخصوص بالمواجهة، ولما كانت النميمة- وهي نقل الحديث على وجه السعاية- أشد الهمز أفاد أنه يفعله ولا يقتصر على مجرد النقل بل يسعى به إلى غيره وإن بعد، فقال تعالى: ﴿مَّشَّآءِۭ﴾ أي: كثير المشي ﴿بِنَمِيمٍ﴾ أي: ينقل ما قاله الإنسان في آخر وأذاعه سرًا، لا يريد صاحبه إظهاره على وجه الإفساد للبين مبالغ في ذلك بغاية جهده»[1].

قال ابن عاشور: «الهمّاز كثير الهمزة. وأصل الهمز: الطعن بعود أو يد، وأطلق على الأذى بالقول في الغيبة على وجه الاستعارة، وشاع ذلك حتى صار كالحقيقة وفي التنزيل ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾[2] وصيغة المبالغة راجعة إلى قوة الصفة، فإذا كان أذى شديدًا فصاحبه هَمَّازٌ، وإذا تكرر الأذى فصاحبه هَمَّازٌ.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ المشاء بالنميم: الذي يَنِمّ بين الناس، ووصفه بالمشّاء للمبالغة. والقول في هذه المبالغة مثل القول في ﴿هَمَّازٍ﴾ وهذه رَابعَة المذامّ»[3].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٠).

(٢) الهمزة: الآية (١).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٧٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من موبقة النميمة

* عن حذيفة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة قتات**»[١].

* عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ: «أنه مر بقبرين يعذبان فقال: **إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها بنصفين ثم غرز في كل قبر واحدة**، فقالوا: يا رسول اللَّه لم صنعت هذا؟ فقال: **لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا**»[٢].

⋆ غريب الحديثين:

قتات: القتات هو النمام. يقال: قت الحديث يقته: إذا زوره وهيأه وسواه. وقيل: النمام: الذي يكون مع القوم يتحدثون فينم عليهم، والقتات: الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون ثم ينم، والقساس: الذي يسأل عن الأخبار ثم ينمها.

⋆ فوائد الحديثين:

قال النووي: «والمشي بالنميمة والسعي بالفساد من أقبح القبائح لا سيما مع قوله ﷺ: كان يمشي بلفظ «كان» التي للحالة المستمرة غالبا»[٣].

قال المنذري: «أجمعت الأمة على تحريم النميمة؛ وأنها من أعظم الذنوب عند اللَّه تعالى»[٤].

قال ابن الملقن: «وهي أي النميمة- محرمة بالنصوص والإجماع، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾[٥] وقال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١﴾[٦]. . أما إذا

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٨٢ و٣٨٩)، والبخاري (١٠/ ٥٧٩/ ٦٠٥٦)، ومسلم (١/ ١٠١/ ١٠٥)، وأبو داود (٥/ ١٩٠/ ٤٨٧١)، والترمذي (٤/ ٣٢٩/ ٢٠٢٦) وقال: «حسن صحيح»، النسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٦/ ١١٦١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٥)، والبخاري (٣/ ٢٨٥/ ١٣٦١)، ومسلم (١/ ٢٤٠-٢٤١/ ٢٩٢)، وأبو داود (١/ ٢٥/ ٢٠)، والترمذي (١/ ١٠٢/ ٧٠)، والنسائي (٤/ ٤١١-٤١٢/ ٢٠٦٧)، وابن ماجه (١/ ١٢٥/ ٣٤٧).

(٣) شرح مسلم (٣/ ١٧٢).

(٤) الترغيب والترهيب (٣/ ٤٩٨).

(٥) الهمزة: الآية (١).

(٦) القلم: الآية (١١).

كان فعلها نصيحة في ترك مفسدة أو دفع ضرر وإيصال خير يتعلق بالغير لم تكن محرمة ولا مكروهة بل قد تكون واجبة أو مستحبة، كما يقول في الغيبة إذا كانت نصيحة لدفع مفسدة أو تحصيل مصلحة شرعية، ولو كان شخصا اطلع من آخر على قول يقتضي إيقاع ضرر بإنسان وإذا نقل ذلك القول إليه احترز عنه وجب عليه ذكره له، ويقال من هذا: نمى، بالتخفيف، ومن الأول: نمّى، بالتشديد كما أسلفناه، ولا اختلاف في هذا كما قاله الهروي»[١].

وقال الغزالي: «وكل من حملت إليه النميمة وقيل له إن فلانا قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبر في إفساد أمرك، أو في ممالأة عدوك، أو تقبيح حالك، أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾[٢].

الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله قال اللَّه تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[٣].

الثالث: أن يبغضه في اللَّه تعالى فإنه بغيض عند اللَّه تعالى، ويجب بغض من يبغضه اللَّه تعالى.

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقوله اللَّه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾[٤].

الخامس: أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث للتحقق، اتباعا لقول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾[٥].

السادس: أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه، ولا تحكي نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا، فتكون به نماما ومغتابا وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت»[٦].

---

(١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١/ ٥٣٠-٥٣١).
(٢) الحجرات: الآية (٦).
(٣) لقمان: الآية (١٧).
(٤) الحجرات: الآية (١٢).
(٥) الحجرات: الآية (١٢).
(٦) إحياء علوم الدين (٣/ ١٥٦).

قال النووي: «وأما قوله «لا يدخل الجنة» ففيه التأويلان المتقدمان في نظائره: أحدهما: يحمل على المستحل بغير تأويل مع العلم بالتحريم. والثاني: لا يدخلها دخول الفائزين»[١].

وقد تقدم الكلام على هذا النفي نفي دخول الجنة- في سورة البقرة الآية (٣٤) عند قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**».

قال ابن الملقن: «يؤخذ من الحديث تحريم النميمة، إذ هي القاطعة بين المتواصلين والمباعدة بين المتقاربين وأنها سبب العذاب، وهو محمول على النميمة المحرمة كما سلف، وأنها من الكبائر لاسيما إذا تعددت كما يشعر به لفظ (كان)، وقال بعضهم: ليست من الكبائر، فيكون العذاب عليها تنبيها على التعذيب بالكبائر وأولى تحذيرا من الذنوب مطلقا، وقد أسلفنا ذلك.

فائدة: قال بعض العلماء: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر، ولترغيب الشارع في الإصلاح بين الناس أباح الكذب فيه، ولزجره على الإفساد حرم الصدق فيه.

فائدة ثانية: قال العلماء: لا يكون الشخص نماما إلا وفي نسبه شيء، فإن من جملة أوصافه في الآية ﴿زَنِيمٍ﴾ وهو الدِّعِّيُّ الذي لا يعرف من أبوه على أحد القولين، قال أبو موسى الأشعري: «لا يسعى على الناس إلا ولد بغي»[٢]. وسعى رجل إلى بلال بن أبي بردة برجل، وكان أمير البصرة فقال له: انصرف حتى أكشف عنك، فكشف عنه فإذا هو لغير رشده، يعني ولد زنا-»[٣].

* * *

(١) شرح مسلم (٢/ ٩٧).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٨٦/ ٦٦٧٥) من حديث بلال بن أبي بردة عن جده، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٦٠-٢٦١)، وقال: رواه الطبراني، وأبو الوليد القرشي لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع (١٤٤٦٣).

(٣) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١/ ٥٤٥-٥٤٦).

قوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿مُعْتَدٍ﴾ في تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: يتناول المحرمات»[١].

قال الرازي: «كونه مناعًا للخير وفيه قولان: أحدهما: أن المراد أنه بخيل، والخير: المال. والثاني: كان يمنع أهله من الخير وهو الإسلام، وهذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان له عشرة من البنين وكان يقول لهم وما قاربهم لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدًا فمنعهم الإسلام فهو الخير الذي منعهم، وعن ابن عباس أنه أبو جهل، وعن مجاهد: الأسود بن عبد يغوث، وعن السدي: الأخنس بن شريق.

الصفة السادسة: كونه معتديًا، قال مقاتل: معناه أنه ظلوم يتعدى الحق ويتجاوزه فيأتي بالظلم، ويمكن حمله على جميع الأخلاق الذميمة يعني أنه نهاية في جميع القبائح والفضائح.

الصفة السابعة: كونه أثيمًا، وهو مبالغة في الإثم»[٢].

قال البقاعي: «﴿مَّنَّاعٍ﴾ أي: كثير المنع شديده ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: كل خير من المال والإيمان وغيرهما من نفسه ومن غيره من الدين والدنيا -إلى غير ذلك. ولما كان من يفعل هذه المخازي من الناس ويقتصر في الهمز والنم على الواقع، وفي المنع على ما له منعه- لئيمًا، بين أنه لا يقنع بذلك، بل زاد عليه ببذل الجهد فيما يصير به ألأم فقال: ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: ثابت التجاوز للحدود في كل ذلك ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: مبالغ في ارتكاب ما يوجب الإثم فيترك الطيبات، ويأخذ الخبائث، ويرغب في المعاصي ويتطلبها، ويدع الطاعات ويزهد فيها»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢١٨).
(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٨٥).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠١).

قال ابن عاشور: «﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ هذه مذمة خامسة. ﴿مَنَّاعٍ﴾: شديد المنع. والخير: المال، أي: شحيح، والخير من أسماء المال قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾(١) وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾(٢)، وقد روعي تماثل الصيغة في هذه الصفات الأربع وهي: حلاف، هَمّازٍ، مشَّاءٍ، منَّاعٍ وهو ضرب من محسن الموازنة.

والمراد بمنع الخير: منعه عمن أسلَمَ من ذويهم وأقاربهم، يقول الواحد منهم لمن أسلم من أهله أو مواليه: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدًا، وهذه شنشنة عرفوا بها من بعد، قال اللّه تعالى في شأن المنافقين ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾(٣). وأيضًا فمِن منع الخير ما كان أهل الجاهلية يعطون العطاء للفخر والسمعة فلا يعطون الضعفاء وإنما يعطون في المجامع والقبائل قال تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾(٤). قيل: كان الوليد بن المغيرة ينفق في الحج في كل حجة عشرين ألفًا يطعم أهلَ مِنى، ولا يعطي المسكين درهمًا واحدًا.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ هما مذمتان سادسة وسابعة قرن بينهما لمناسبة الخصوص والعموم. والاعتداء: مبالغة في العُدوان، فالافتعال فيه للدلالة على الشدة. والأثيم: كثير الإثم، وهو فعيل من أمثلة المبالغة قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤﴾(٥). والمراد بالإثم هنا ما يعد خطيئة وفسادًا عند أهل العقول والمروءة وفي الأديان المعروفة»(٦).

* * *

(١) العاديات: الآية (٨).

(٢) البقرة: الآية (١٨٠).

(٣) المنافقون: الآية (٧).

(٤) الفجر: الآية (١٨).

(٥) الدخان: الآيتان (٤٣و٤٤).

(٦) التحرير والتنوير (٢٩/ ٧٣-٧٤).

قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

عتل: العتل: الجافي الغليظ. وأصله الدفع. يقال: عتله يعتله: إذا زعزعه بغلظة وجفاء.

زنيم: الزنيم: الدعي الملصق بالقوم، وليس منهم. قال الشاعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه   بغي الأم ذو حسب لئيم

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «الصفة الثامنة: العتل وأقوال المفسرين فيه كثيرة، وهي محصورة في أمرين أحدهما: أنه ذم في الخلق. والثاني: أنه ذم في الخلق، وهو مأخوذ من قولك: عتله إذا قاده بعنف وغلظة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾[1]، أما الذين حملوه على ذم الخلق فقال ابن عباس في رواية عطاء: يريد قوي ضخم. وقال مقاتل: واسع البطن، وثيق الخلق. وقال الحسن: الفاحش الخلق، اللئيم النفس. وقال عبيدة بن عمير: هو الأكول الشروب، القوي الشديد. وقال الزجاج: هو الغليظ الجافي. أما الذين حملوه على ذم الأخلاق، فقالوا: إنه الشديد الخصومة، الفظ العنيف.

الصفة التاسعة: قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الزنيم أقوال: الأول: قال الفراء: الزنيم هو الدعي الملصق بالقوم وليس منهم، قال حسان:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم   كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

والزنمة من كل شيء الزيادة، وزنمت الشاة أيضًا إذا شقت أذنها فاسترخت

---

(١) الدخان: الآية (٤٧).

ويبست وبقيت كالشيء المعلق، فالحاصل أن الزنيم هو ولد الزنا الملحق بالقوم في النسب وليس منهم، وكان الوليد دعيًا في قريش وليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة ليلة من مولده. وقيل: بغت أمه ولم يعرف حتى نزلت هذه الآية. والقول الثاني: قال الشعبي: هو الرجل يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها. والقول الثالث: روي عن عكرمة عن ابن عباس قال: معنى كونه زنيمًا أنه كانت له زنمة في عنقه يعرف بها، وقال مقاتل: كان في أصل أذنه مثل زنمة الشاة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه أنه بعدما عدَّ له من المثالب والنقائص فهو عتل زنيم، وهذا يدل على أن هذين الوصفين، وهو كونه عتلًا زنيمًا، أشد معايبه، لأنه إذا كان جافيًا غليظ الطبع قسا قلبه واجترأ على كل معصية، ولأن الغالب أن النطفة إذا خبثت خبث الولد، ولهذا قال -عليه الصلاة السلام-: «**لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا ولده ولا ولد ولده**»[(١)] وقيل: ههنا ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ نظير ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[(٢)] وقرأ الحسن ﴿عُتُلٍّ﴾ رفعًا على الذم»[(٣)].

قال البقاعي: «﴿عُتُلٍّ﴾ أي: أكول شديد الخصومة جاف غليظ في خلقه وخلقه ثقيل مر، كأنه قطعة جبل قد انقطع عن سائره لا ينجر إلى خير إلا بعسر وصعوبة وعنف، من عتله -إذا قاده بغلظة، فهو في غاية ما يكون من يبس الطباع وعدم الطواعية في الخير والانطباع. قال الرازي: وسئل عنه رسول اللّه ﷺ -أي عن العتل- فقال: «**هو الشديد الخلق الرحيب الجوف الأكول الشروب الظلوم**»[(٤)]، ونبه سبحانه على ثباته في تلك المخازي الموجب لاستغراق أوقاته وأحواله بها

---

(١) أخرجه: النسائي في الكبرى كما في التحفة (١٠/ ١٤٠/ ١٣٥٨٠)، والبخاري في تاريخه (٥/ ١٣٢/ ٣٩١)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠٧) من حديث أبي هريرة بلفظ: «لا يدخل الجنة ولد الزنا». ويشهد له حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أحمد (٢/ ٣١١)، وأبو داود (٤/ ٢٧١-٢٧٢/ ٣٩٦٣)، والحاكم (٢/ ٢١٤)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وانظر الصحيحة رقم (٦٧٢).

(٢) البلد: الآية (١٧).

(٣) تفسير الرازي (٣٠/ ٨٥-٨٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٧) من حديث عبد الرحمن بن غنم، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٨) وقال: رواه أحمد وفيه شهر، وثقه جماعة وفيه ضعف، وعبد الرحمن بن غنم ليس له صحبة على الصحيح.

بنزع الخافض فقال: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الخلق الجدير بتكلف الإبعاد عنه الذي تجمع من هذه الأوصاف التي بلغت نهاية القباحة حتى صارت كأنها خلق واحد ثابت راسخ لا حيلة له في مداواته، وعلى ذلك نبه قوله: ﴿زَنِيمٍ﴾ أي: صارت له علامة سوء وشر وثناء قبيح ولأمة بينة ومعرفة يعرف بها كما تعرف الشاة بزنمتها، وهي الجلدة التي تكون تحت حلقها مدلاة تنوس، والعبد بمعايبه وسفساف أخلاقه، وقيل: هو الذي يتشبه بقوم وليس منهم في شيء، ولا يخلو التعبير به من إشارة إلى أنه دعي ليس ثابت النسب إلى من ينتسب إليه، ليكون منقطعًا عن كل خير وإن كان ينسب إلى آباء كرام، أخذًا من زنمة البعير، وهي جلدة تقطع من أذنه فتترك معلقة، ولا يفعل ذلك إلا بكرام الإبل، وهذه الأفعال كلها تنافي الشجاعة المقتضية لإحسان صاحبها إلى كل أحد، وأن لا يحسب له حسابًا، ولا يوصل إليه أذى إلا بعد ظهور شره، فيعامله حينئذ بحسب العدل بما لا يرزىء بالمروءة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من سوء الخلق، وأنه من صفات المتكبرين

* عن حارثة بن وهب قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«ألا أخبركم بأهل الجنة، كل ضعيف متضعف لو أقسم على اللَّه لأبره، ألا أخبركم بأهل النار، كل عتل جواظ مستكبر»**[٢]. وفي رواية لمسلم: **«كل جواظ زنيم متكبر»**.

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أنه تلا هذه الآية ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«أهل النار كل جعظري، جواظ، مستكبر جماع، وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون»**[٣].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٢-٣٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٦)، والبخاري (٨/ ٨٥٥-٨٥٦/ ٤٩١٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٩٠/ ٢٨٥٣)، وأبوداود (٥/ ١٥١/ ٤٨٠١) مختصرا، والترمذي (٤/ ٦١٨/ ٢٦٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٨/ ٤١١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٤)، والحاكم (٢/ ٤٩٩) واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٩٣) وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

★ **غريب الحديثين:**

جواظ: الجواظ الكثير اللحم المختال في مشيته. وقيل: الأكول. وقيل: الفاجر.

جعظري: هو الفظ الغليظ المتكبر.

★ **فوائد الحديثين:**

قال النووي: «قوله ﷺ في أهل الجنة: «كل ضعيف متضعف»: ضبطوا قوله: «متضعف» بفتح العين وكسرها، المشهور الفتح، ولم يذكر الأكثرون غيره، ومعناه: يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا، يقال: تضعفه واستضعفه، وأما رواية الكسر فمعناها: متواضع متذلل خامل واضع من نفسه»[(١)].

قال القرطبي: «ويعني بذلك: أن الغالب على صفة أهل الجنة الضعيف عن نيل الدنيا، ومالها، وجاهها، ومناصبها، وإيثار الخمول والتواضع فيها، يلبسون زري الملابس، ولا يلتفتون إلى فاخر المراكب، ولا إلى صدور المجالس، علما منهم بأنهم على جادة سفر، وأن الدنيا ليست بمقر، فأحوالهم أحوال المسافرين المرملين»[(٢)].

وقال: «فإن قيل: كيف تكون هذه أوصاف أهل الجنة، وكيف تحمد هذه الأوصاف، وقد أمر الشرع بالنظافة والزينة في الجمع والأعياد والتطيب، وكان النبي ﷺ يتطيب ويتنظف، ويتزين للوفود وللجمع والأعياد. قلنا: لا تناقض بين هذا وبين ما وصف به النبي ﷺ أهل الجنة، فإنه ﷺ إنما وصف هؤلاء القوم بأغلب أحوالهم. وغالب أحوالهم: ملازمة الأسفار الشرعية من الحج والجهاد، والسياحة في الأرض، والفرار بأديانهم من الفتن. ومع ذلك كله فيتنظفون النظافة الشرعية، ويتزينون التزين الشرعي إذا حضر وقته، وأمكنهم ذلك، ويحضرون جماعات المسلمين وجمعاتهم. فهم مع الناس كائنون، وعنهم بائنون، داخلون في غمارهم، ومستترون بخمولهم وأطمارهم، وقد توجهوا إلى الحق، وأعرضوا عن

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٤).

(٢) المفهم (٧/ ١٦٩).

الخلق، وعلى الجملة فمقصود هذا الحديث أن أحوال أهل الجنة على النقيض من أحوال أهل النار»[١].

قال النووي: «والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء، كما أن معظم أهل النار القسم الآخر، وليس المراد الاستيعاب في الطرفين»[٢].

* عن ابن عباس في قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾ قال: «رجل من قريش كانت له زنمة مثل زنمة الشاة»[٣].

★ غريب الحديث:

زنمة: هي شيء يقطع من أذن الشاة، ويترك معلقا بها، وهي أيضا هنة مدلاة في حلق الشاة كالملحقة بها.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وأما الزنيم المذكور في الآية؛ فقيل: إنه رجل بعينه له زنمة كزنمة التيس، وهي الغديرة المتعلقة بعنقه. وقيل: هو الوليد وكان له زنمة تحت أذنه. وقيل: هو الملصق بالقوم وليس منهم، وقيل: هو الأخنس بن شريق، وكان حليفا ملحقا»[٤].

قال ابن كثير: «ومعنى هذا أنه كان مشهورا بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها»[٥].

* * *

---

(١) المفهم (٧/ ١٦٩).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١٥٤).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٨٥٥/ ٤٩١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٦).

(٤) المفهم (٧/ ١٧٠).

(٥) تفسير ابن كثير (٨/ ٢١٩).

قوله تعالى : ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي : «لما كان حطام هذه الدنيا كله عرضًا فانيًا، وظلًا متقلصًا زائلًا، لا يفتخر به؛ بل ولا يلتفت إليه إلا من كان بهذه الأوصاف، فإذا كان أكبر همه ومبلغ علمه أثمر له الترفع على الحقوق والتكبر على العباد قال: ﴿أَن﴾ أي: لأجل أن ﴿كَانَ﴾ هذا الموصوف ﴿ذَا مَالٍ﴾ أي: مذكور بالكثرة ﴿وَبَنِينَ﴾ أنعمنا عليه بهما فصار يطاع لأجلهما، فكان بحيث يجب عليه شكرنا بسببهما ﴿إِذَا تُتْلَىٰ﴾ أي: تذكر على سبيل المتابعة ﴿عَلَيْهِ﴾ ولو كان ذلك على سبيل الخصوص له ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ أي: العلامات الدالة دلالة في غاية الظهور على الملك الأعلى، وعلى ما له من صفات العظمة ﴿قَالَ﴾ أي: فاجأ هذا القول من غير تأمل ولا توقف عوضًا عن الشكر، فـ«أن» مع جاره متعلق بما دل عليه الكلام نحو: كذب لأجل كونه متمكنًا، ولا يتعلق بقال لأنه جزاء الشرط، ويجوز أن يتعلق بـ«لا تطع» أي: لا توجد طاعته لأجل أن كان كذا، وقرئ بالكسر على أنها شرطية، فيكون النهي عن طاعته لعلة الغنى مفهمًا للنهي عن طاعته عند الوصف بغيره من باب الأولى كالتعليل بإملاق في الوأد: ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمع سطور جمع سطر ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أشياء سطروها ودونوها، وفرغوا منها. فحمله دنيء طبعه على تكبره بالمال فورطه في التكذيب بأعظم ما يمكن سماعه فجعل الكفر موضع الشكر، ولم يستح من كونه يعرف كذبه كل من يسمعه، فأعرض عن الشكر ووضع موضعه الكفر، فكان هذا دليلًا على جميع تلك الصفات السابقة مع التعليل بالإسناد إلى ما هو عند العاقل أوهم وأوهى من بيت العنكبوت، والاستناد إليه وحده كاف في الاتصاف بالرسوخ في الدناءة»[1].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٣-٣٠٥).

قال ابن كثير: «هذا مقابلة ما أنعم اللَّه عليه من المال والبنين، كفر بآيات اللَّه وأعرض عنها، وزعم أنها كَذب مأخوذ من أساطير الأولين، كقوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ قال اللَّه تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال السعدي: «وهذه الآيات -وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره لقوله عنه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها- فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف؛ لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص؛ لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة»[(٣)].

* * *

(١) المدثر: الآيات (١١-٢٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤٧).

قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾

٭ غريب الآية:

نسمه: أي: نجعل له سمة، وهي العلامة.

الخرطوم: الأنف. وهو في الأصل: أنف الفيل، ذكر هنا تقبيحا لصاحبه. قال الفرزدق:

يا ظمي ويحك إني ذو محافظة أنمي إلى معشر شم الخراطيم

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «سنبين أمره بيانا واضحا حتى يعرفوه، فلا يخفى عليهم، كما لا تخفى السمة على الخرطوم»(١).

وقال الرازي: «فيه مسائل:

المسألة الأولى: الوسم أثر الكية وما يشبهها، يقال: وسمته فهو موسوم بسمة يعرف بها إما كية وإما قطع في أذن علامة له.

المسألة الثانية: قال المبرد: الخرطوم ههنا الأنف، وإنما ذكر هذا اللفظ على سبيل الاستخفاف به، لأن التعبير عن أعضاء الناس بالأسماء الموضوعة، لأشباه تلك الأعضاء من الحيوانات يكون استخفافًا، كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر، وعن أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر.

المسألة الثالثة: الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا: الأنف في الأنف وحمى أنفه، وفلان شامخ العرنين، وقالوا في الذليل: جدع أنفه، ورغم أنفه، فعبر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة، لأن السمة على الوجه شين، فكيف على أكرم موضع من الوجه.

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٢٨).

المسألة الرابعة: منهم من قال: هذا الوسم يحصل في الآخرة، ومنهم من قال: يحصل في الدنيا، أما على القول الأول: ففيه وجوه أولها: وهو قول مقاتل وأبي العالية واختيار الفراء: أن المراد أنه يسود وجهه قبل دخول النار، والخرطوم وإن كان قد خص بالسمة فإن المراد هو الوجه لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض. وثانيها: أن اللَّه تعالى سيجعل له في الآخرة العلم الذي يعرف به أهل القيامة، إنه كان غاليًا في عداوة الرسول، وفي إنكار الدين الحق. وثالثها: أن في الآية احتمالًا آخر عندي؛ وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية، فعبر عن هذا الاختصاص بقوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ١٦﴾، وأما على القول الثاني: وهو أن هذا الوسم إنما يحصل في الدنيا ففيه وجوه:

أحدها: قال ابن عباس: سنخطمه بالسيف فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش. وروي أنه قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال.

وثانيها: أن معنى هذا الوسم أنه يصير مشهورًا بالذكر الرديء والوصف القبيح في العالم، والمعنى سنلحق به شيئًا لا يفارقه، ونبين أمره بيانًا واضحًا حتى لا يخفى كما لا تخفى السمة على الخراطيم، تقول العرب للرجل الذي تسبه في مسبة قبيحة باقية فاحشة: قد وسمه ميسم سوء، والمراد أنه ألصق به عارًا لا يفارقه كما أن السمة لا تنمحي ولا تزول ألبتة، قال جرير:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي ... وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

يريد أنه وسم الفرزدق (والبعيث) وجدع أنف **الأخطل** بالهجاء أي ألقى عليه عارًا لا يزول، ولا شك أن هذه المبالغة العظيمة في مذمة الوليد بن المغيرة بقيت على وجه الدهر فكان ذلك كالموسم على الخرطوم، ومما يشهد لهذا الوجه قول من قال في ﴿زَنِيمٍ﴾ إنه يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها.

وثالثها: يروى عن النضر بن شميل أن الخرطوم هو الخمر وأنشد:

تظل يومك في لهو وفي طرب ... وأنت بالليل شراب الخراطيم

فعلى هذا معنى الآية: سنحده على شرب الخمر وهو تعسف، وقيل للخمر

الخرطوم كما يقال لها السلافة، وهي ما سلف من عصير العنب، أو لأنها تطير في الخياشيم»(١).

وقال ابن العربي: «فيها مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦﴾ ذكر فيه أهل التفسير قولين: أحدهما أنها سمة سوداء تكون على أنفه يوم القيامة يميز بها بين الناس. وهذا كقوله: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾(٢).

وقيل: يضرب بالنار على أنفه يوم القيامة؛ يعني وسما يكون علامة عليه. وقد قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾(٣)؛ فهذه علامة ظاهرة. وقال: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ۝١٠٢ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾(٤) وهذه علامة أخرى ظاهرة، فأفادت هذه الآية علامة ثالثة وهي الوسم على الخرطوم من جملة الوجه.

المسألة الثانية قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: كان الوسم في الوجه لذوي المعصية قديما عند الناس حتى أنه روي كما تقدم أن اليهود لما أهملوا رجم الزاني اعتاضوا عنه بالضرب وتحميم الوجه، وهذا وضع باطل.

ومن الوسم الصحيح في الوجه ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور علامة على قبح المعصية، وتشديدا لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته. وقد كان عزيزا بقول الحق، وقد صار مهينا بالمعصية؛ وأعظم الإهانة إهانة الوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة اللَّه سببا لحياة الأبد، والتحريم له على النار؛ فإن اللَّه قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، حسبما ثبت في الصحيح»(٥).

قال البقاعي: «لما كان هذا المذكور قد أغرق في الشر فتوقع السامع جزاءه، قال معلمًا أنه يجعل له من الخزي والفضائح ما يصير به شهرة بين الخلائق في الدنيا والآخرة: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ أي: نجعل ما يلحق به من العار في الدارين كالوسم الذي لا ينمحي أثره، تقول العرب: وسمه ميسم سوء. ولما كان الوسم منكئًا، وكان

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٨٧-٨٨).
(٢) الرحمن: الآية (٤١).
(٣) آل عمران: الآية (١٠٦).
(٤) طه: الآيتان (١٠٢و١٠٣).
(٥) أحكام القرآن (٤/ ١٨٥٦-١٨٥٧).

جعله في موضع لا يستر أنكأ، وكان الوجه أشرف ما في الإنسان، وكان أظهر ما فيه وأكرمه الأنف، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية، واشتقوا منه الأنفة قال: ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي: الأنف الطويل جميعه وما قاربه من الحنكين وسمًا مستعليًا عليه بوضوح جدًا ليكون هتكة بين الناس وفضيحة لقومه وذلًا وعارًا، وكذا كان لعمري له بهذا الذكر الشنيع والذنب القبيح من الكفر وما معه، وسيكون له يوم الجمع الأعظم ما هو أشنع من هذا، على أنه قد حقق في الدنيا هذا الخطم حسًا بأنه ضرب يوم بدر ضربة خطمت أنفه -قاله ابن عباس رضي الله عنهما- والتعبير عن الأنف بهذا للاستهانة والاستخفاف»[١].

* * *

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٠٥-٣٠٦).

قوله تعالى : ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ليصرمنها : أي ليقطعن ثمرها ولَيَجُذُّنَّهُ .

مصبحين : أي داخلين في الصباح .

طائف : أي هلاك أو بلاء .

كالصريم : أي : كالليل الأسود . قال أبو عمرو :

ألا بكرت وعاذلتي تلوم ... تجهلني وما انكشف الصريم

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي : «اعلم أنه تعالى لما قال : لأجل أن كان ذا مال وبنين ، جحد وكفر وعصى وتمرد ، وكان هذا استفهامًا على سبيل الإنكار ، بين في هذه الآية أنه تعالى إنما أعطاه المال والبنين على سبيل الابتلاء والامتحان ، وليصرفه إلى طاعة اللَّه ، وليواظب على شكر نعم اللَّه ، فإن لم يفعل ذلك فإنه تعالى يقطع عنه تلك النعم ، ويصب عليه أنواع البلاء والآفات فقال : ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي : كلفنا هؤلاء أن يشكروا على النعم ، كما كلفنا أصحاب الجنة ذات الثمار ، أن يشكروا ويعطوا الفقراء حقوقهم ، روي أن واحدًا من ثقيف وكان مسلمًا ، كان يملك ضيعة فيها نخل وزرع بقرب صنعاء ، وكان يجعل من كل ما فيها عند الحصاد نصيبًا وافرًا للفقراء ، فلما مات ورثها منه بنوه ، ثم قالوا : عيالنا كثير ، والمال قليل ، ولا يمكننا أن نعطي المساكين ، مثل ما كان يفعل أبونا ، فأحرق اللَّه جنتهم ، وقيل : كانوا من بني إسرائيل»[1] .

قال ابن كثير : «هذا مَثَل ضَرَبه اللَّه تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٨٨).

الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعم الجسيمة، وهو بَعْثُهُ محمدًا ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم، ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا فيما بينهم لَيَجُذَّنَ ثَمرها ليلا لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾ أي: فيما حلفوا به. ولهذا حنثهم اللَّه في أيمانهم، فقال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩﴾ أي: أصابتها آفة سماوية، ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾ قال ابن عباس: أي كالليل الأسود. وقال الثوري والسدي: مثل الزرع إذا حُصِد، أي: هشيمًا يبسًا»[(١)].

قال ابن عاشور: «ضمير الغائبين في قوله: ﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾ يعود إلى المكذبين في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾. والجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًا دَعت إليه مناسبة قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾[(٢)] فإن الازدهاء والغرور بسعة الرزق، المفضيين إلى الاستخفاف بدعوة الحق، وإهمال النظر في كنهها ودلائلها، قد أوقعا من قديم الزمان أصحابهما في بَطَر النعمة وإهمال الشكر فجَرَّ ذلك عليهم شر العواقب، فضرب اللَّه للمشركين مثلًا بحال أصحاب هذه الجَنة لعلهم يستفيقون من غفلتهم وغرورهم، كما ضرب المثل بقريب منه في سورة الكهف، وضرب مثلًا بقارون في سورة القصص.

والبلْوى حقيقتها: الاختبار؛ وهي هنا تمثيل بحال المبتلَى في إرخاء الحبل له بالنعمة ليشكر أو يكفر، فالبلوى المذكورة هنا بلوى بالخير، فإن اللَّه أمدّ أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلما أكمل لهم النعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدائم فدعاهم وذكرهم بنعم اللَّه أعرضوا وطَغوا، ولم يتوجهوا إلى النظر في النعم السالفة ولا في النعمة الكاملة التي أكمَلَتْ لهم النعم. ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنّة المذكورة هنا هو الإعراض عن طلب مرضاة اللَّه وعن شكر نعمته. وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢٢).

(٢) القلم: الآيتان (١٤ و١٥).

بعد النعيم والقحط بعد الخصب، وإن اختلف السبب في نوعه فقد اتحد جنسه. وقد حصل ذلك بعد سنين إذْ أخذهم اللَّه بسبع سنين بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة»[(١)].

قال السعدي: «يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا؛ بل ربما يكون استدراجًا لهم من حيث لا يشعرون، فاغترارهم بذلك نظير اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها، وأينعت أشجارها، وآن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم، وطوع أمرهم، وأنه ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء أنهم سيصرمونها أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن اللَّه بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويبادرهم إليها.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلا ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ فأبادها وأتلفها ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم»[(٢)].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان، لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(٣)]وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**» قيل: يا رسول اللَّه، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**»»[(٤)].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٧٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤٨-٤٤٩).

(٣) الحج: الآية (٢٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣)، والبخاري (١/ ١١٥/ ٣١)، ومسلم (٤/ ٢٢١٣-٢٢١٤/ ٢٨٨٨)، وأبوداود (٤/ ٤٦٢/ ٤٢٦٨)، والنسائي (٧/ ١٤٢/ ٤١٣٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣١١/ ٣٩٦٥) من حديث أبي بكرة ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

على حرد: أي: على منع. يقال: نزل فلان حريدا، أي: ممتنعا عن مخالطة القوم. وقيل: على قصد وعزم. قال الشاعر:

أقبل سيل جاء من عند الله ... يحرد حرد الجنة المغلة

أقوال المفسرين في تأويل الآيات

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فتنادى هؤلاء القوم وهم أصحاب الجنة. يقول: نادى بعضهم بعضا مصبحين يقول: بعد أن أصبحوا ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ وذلك الزرع ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ يقول: إن كنتم حاصدي زرعكم ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يقول: فمضوا إلى حرثهم وهم يتسارّون بينهم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ يقول: وهم يتسارّون يقول بعضهم لبعض: لا يدخلنّ جنتكم اليوم عليكم مسكين..

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ وغدوا على أمر قد قصدوه واعتمدوه، واستسرّوه بينهم، قادرين عليه في أنفسهم»[1].

قال ابن كثير: «أي: لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضًا ليذهبوا إلى الجذَاذ، ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: تريدون الصرام. قال مجاهد: كان حرثهم عِنَبًا. ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحدًا كلامهم. ثم فسر اللّه عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به، فقال: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: يقول بعضهم

(١) جامع البيان (٢٩/ ٣١-٣٤).

لبعض: لا تمكنوا اليوم فقيرًا يدخلها عليكم!.. فيما يزعمون ويَرومون»[١].

قال السعدي: «لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ﴾ قاصدين له ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق اللَّه، ويقولون: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أي: بكروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة، خوفًا أن يسمعهم أحد، فيخبر الفقراء. ﴿وَغَدَوْاْ﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ أي: على إمساك ومنع لحق اللَّه، جازمين بقدرتهم عليها»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٤٩).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلما صار هؤلاء القوم إلى جنتهم، ورأوها محترقا حرثها، أنكروها وشكوا فيها، هل هي جنتهم أم لا؟ فقال بعضهم لأصحابه، ظنا منه أنهم قد أغفلوا طريق جنتهم، وأن التي رأوا غيرها: إنا أيها القوم لضالون طريق جنتنا، فقال من علم أنها جنتهم، وأنهم لم يخطئوا الطريق: بل نحن أيها القوم محرومون، حُرِمنا منفعة جنتنا بذهاب حرثها»[1].

قال الرازي: «فيه وجوه أحدها: أنهم لما رأوا جنتهم محترقة ظنوا أنهم قد ضلوا الطريق فقالوا: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ ثم لما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾ حرمنا خيرها بشؤم عزمنا على البخل ومنع الفقراء.

وثانيها: يحتمل أنهم لما رأوا جنتهم محترقة قالوا: إنا لضالون حيث كنا عازمين على منع الفقراء، وحيث كنا نعتقد كوننا قادرين على الانتفاع بها، بل الأمر انقلب علينا فصرنا نحن المحرومين»[2].

قال البقاعي: «﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: بعد سير يسير وليس للزرع ولا للثمر بها أثر ﴿قَالُوٓاْ﴾ لأنها صارت لسوء حالها من ذلك الطائف بعيدة من حال ما كانت عليه عند تباعدهم وتغيير نياتهم، فأدهشهم منظرها وحيرهم خبرها وأكدوا؛ لأن ضلالهم لا يصدق مع قرب عهدهم بها، وكثرة ملابستهم لها، وقوة معرفتهم بها فقالوا: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: عن طريق جنتنا؛ لأن هذه لا تشبهها بوجه فيما كان فيه بالأمس من النضارة، وشدة الحمل، وحسن الهيئة. ولما انجلى ما أدهشهم في الحال قالوا مضربين عن الضلال: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧﴾ أي: ثابت حرماننا مما كان فيها من الخير الذي لا نغيب عنها إلا سواد الليل، فحرمنا اللّٰه إياها بما عزمنا عليه من

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٣٤).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ٩٠-٩١).

حرمان المساكين؛ لأن اللَّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»[١].

قال ابن عاشور: «أي: استفاقوا من غفلتهم، ورجعوا على أنفسهم باللائمَة على بطرهم، وإهمال شكر النعمة التي سيقت إليهم، وعلموا أنهم أُخذوا بسبب ذلك، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢]. ومن حِكم الشيخ ابن عطاء اللَّه الاسكندراني: «مَن لَم يشكر النعم فقد تَعَرَّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيَّدها بعِقالها»»[٣].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣١١-٣١٢).

(٢) الأعراف: الآية (١٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٨٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة: أي: أعدلهم وخيرهم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾! قال مجاهد، والسدي، وابن جريج: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: لولا تستثنون. قال السدي: وكان استثناؤهم في ذلك الزمان تسبيحًا. وقال ابن جريج: هو قول القائل: إن شاء اللَّه. وقيل: معناه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أي: هلا تسبحون اللَّه وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم، ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يلوم بعضهم بعضًا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: اعتدينا وبَغَينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا، ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ قيل: رغبوا في بذلها لهم في الدنيا. وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة، واللَّه أعلم»[١].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢٣).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: كفعلنا بجنة أصحاب الجنة، إذ أصبحت كالصريم بالذي أرسلنا عليها من البلاء والآفة المفسدة، فعلنا بمن خالف أمرنا وكفر برسلنا في عاجل الدنيا، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ يعني عقوبة الآخرة بمن عصى ربه وكفر به، أكبر يوم القيامة من عقوبة الدنيا وعذابها»[1].

قال ابن كثير: «أي: هكذا عذاب من خالف أمر اللَّه، وبخل بما آتاه اللَّه وأنعم به عليه، ومنع حق المسكين والفقراء وذوي الحاجات، وبدل نعمة اللَّه كفرا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشق»[2].

قال الرازي: «﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني كما ذكرنا من إحراقها بالنار، وههنا تم الكلام في قصة أصحاب الجنة.

واعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة أمران أحدهما: أنه تعالى قال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾[3] والمعنى: لأجل أن أعطاه المال والبنين كفر باللَّه كلا: بل اللَّه تعالى إنما أعطاه ذلك للابتلاء، فإذا صرفه إلى الكفر دمر اللَّه عليه بدليل أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية دمر اللَّه على جنتهم، فكيف يكون الحال في حق من عاند الرسول وأصر على الكفر والمعصية؟، والثاني: أن أصحاب الجنة خرجوا لينتفعوا بالجنة، ويمنعوا الفقراء عنها، فقلب اللَّه عليهم القضية، فكذا أهل مكة لما خرجوا إلى بدر حلفوا على أن يقتلوا محمدًا وأصحابه، وإذا رجعوا إلى مكة طافوا بالكعبة وشربوا

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٣٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢٣).
(٣) القلم: الآيتان (١٤و١٥).

الخمور، فأخلف الله ظنهم فقتلوا وأسروا كأهل هذه الجنة.

ثم إنه لما خوف الكفار بعذاب الدنيا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ وهو ظاهر لا حاجة به إلى التفسير»[1].

قال محمد المكي الناصري: «وكتاب الله عندما سجل هذه القصة بين دفتي المصحف الكريم إنما يريد ضرب المثل لكافة المؤمنين، حتى يؤدوا للمساكين والمحرومين ما لهم من حقوق معلومة في أموالهم وثمراتهم، فبأداء تلك الحقوق تزكوا أموالهم، وتنمو ثرواتهم، وإلا ضاع عليهم رأس المال والربح، جزاء ما ضيعوه من الصدقة والزكاة، وخسروا خسرانا مبينا»[2].

* * *

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ٩٢).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٨٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا عقوبة اللّٰه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ يعني: بساتين النعيم الدائم.

وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: أفنجعل أيها الناس في كرامتي ونعمتي في الآخرة الذين خضعوا لي بالطاعة، وذلوا لي بالعبودية، وخشعوا لأمري ونهيي، كالمجرمين الذي اكتسبوا المآثم، وركبوا المعاصي، وخالفوا أمري ونهيي؟ كلا ما اللّٰه بفاعل ذلك.

وقوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أتجعلون المطيع لله من عبيده، والعاصي له منهم في كرامته سواء؟ يقول -جل ثناؤه-: لا تسوّوا بينهما فإنهما لا يستويان عند الله؛ بل المطيع له الكرامة الدائمة، والعاصي له الهوان الباقي»[١].

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا اللّٰه ﷻ، وخالفوا أمره بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد، ولا تفرغ، ولا ينقضي نعيمها.

ثم قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾؟ أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء؛ ولهذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾! أي: كيف تظنون ذلك؟»[٢].

قال القرطبي: «أي: إن للمتقين في الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا. وكان صناديد قريش يرون

(١) جامع البيان (٢٩/ ٣٦-٣٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢٤).

وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد اللَّه المؤمنين قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا.

فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ أي: كالكفار.

وقال ابن عباس وغيره: قالت كفار مكة: إنا نعطى في الآخرة خيرا مما تعطون، فنزلت ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾. ثم وبخهم فقال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ هذا الحكم الأعوج، كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم أن لكم من الخير ما للمسلمين»[١].

قال ابن عاشور: «وإنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة وحرمان المشركين منه، لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨﴾[٢]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾[٣]، وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾[٤] وقال السموأل أو الحارثي:

سَلي إن جَهِلْتِ الناسَ عنّا وعنهمُ ... فليس سواءٌ عالم وجهول

وإذا انتفى أن يكون للمشركين حظ في جزاء الخير انتفى ما قالوه من أنهم أفضل حظًا في الآخرة من المسلمين كما هو حالهم في الدّنيا بطريق فحوى الخطاب.

وقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ كلام موجه إلى المشركين وهم المقصود بـ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ عبر عنهم بطريق الإظهار دون ضمير الخطاب لما في وصف المجرمين من المقابلة ليكون في الوصفين إيماء إلى سبب نفي المماثلة بين الفريقين»[٥].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥١).
(٢) السجدة: الآية (١٨).
(٣) الحشر: الآية (٢٠).
(٤) ص: الآية (٢٨).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ٩٢).

قال السعدي: «يخبر تعالى بما أعده للمتقين للكفر والمعاصي من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه فاسد»[1].

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥١).

قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمشركين به من قريش: ألكم أيها القوم بتسويتكم بين المسلمين والمجرمين في كرامة اللّٰه كتاب نزل من عند اللّٰه أتاكم به رسول من رسله بأن لكم ما تَخَيَّرون، فأنتم تدرسون فيه ما تقولون. .

وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾ يقول -جل ثناؤه-: إن لكم في ذلك الذي تخيرون من الأمور لأنفسكم، وهذا أمر من اللّٰه توبيخ لهؤلاء القوم وتقريع لهم فيما كانوا يقولون من الباطل، ويتمنون من الأمانيّ الكاذبة»[1].

قال ابن عاشور: «إضراب انتقال من توبيخ إلى احتجاج على كذبهم.

والاستفهام المقدر مع ﴿أَمۡ﴾ إنكار لأن يكون لهم كتاب إنكارًا مبنيًا على الفرض وإن كانوا لم يدّعوه.

وحاصل هذا الانتقال والانتقالات الثلاثة بعده وهي ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا﴾[2] الخ، ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾[3] الخ أن حكمكم هذا لا يخلو من أن يكون سنده كتابًا سماويًا نزل من لدنا، وإما أن يكون سنده عَهْدًا منا بأنا نعطيكم ما تقترحون، وإما أن يكون لكم كفيل علينا، وإما أن يكون تعويلًا على نصر شركائكم. . .

وفي هذا إدماج بالتعريض بأنهم أمّيُّون ليسوا أهل كتاب، وأنهم لما جاءَهم كتاب لهديهم وإلحاقهم بالأمم ذات الكتاب كفروا نعمته وكذبوه قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝١٠﴾[4] وقال: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾[5]»[6].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٣٧).
(٢) القلم: الآية (٣٩).
(٣) القلم: الآيتان (٤٠و٤١).
(٤) الأنبياء: الآية (١٠).
(٥) الأنعام: الآية (١٥٧).
(٦) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٣).

قال البقاعي: «لما كان الحكم لا يمكن وجوده إلا مكيفًا بكيفية، وكان ﷻ قد نفى حكمهم هذا بإنكار جميع كيفياته التي يمكن أن يصح معها، وكان الحكم الصحيح لا بد وأن يكون مستندًا إلى عقل أو نقل، زاد بطلان حكمهم وضوحًا بنفي الأمرين معًا، فقال عاطفًا على ما تقديره: ألكم دليل من العقل إليه تلجؤون: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ﴾ أي: سماوي معروف أنه من عند اللَّه خاص بكم ﴿فِيهِ﴾ أي: لا في غيره من أساطير الأولين وزبر الممحوقين ﴿تَدۡرُسُونَ﴾ أي: تقرؤون قراءة أتقنتم مخالطتها أو أنعمتم فهمه بسببها.

ولما ذكر الدرس ذكر المدروس فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ﴾ أي: خاصة على وجه التأكيد الذي لا رخصة في تركه. ﴿فِيهِ﴾ أي: الكتاب لتكونوا في غاية الوثوق به، لا في غيره مما لا وثوق لكم به. ﴿لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: تبالغون في انتقائه وأخذ خياره، وكسر الهمزة وكان حقها الفتح لولا اللام لأن ما بعدها هو المدروس، ويجوز أن تكون الجملة حكاية للمدروس وأن تكون استئنافية»[1].

قال محمد المكي الناصري: «وجّه كتاب اللَّه إلى المشركين عدة أسئلة استنكارية تعجزهم وتفحمهم، إذ لا يستطيعون الجواب عنها بأي جواب مقنع: هل عندكم أيها المشركون كتاب منزل تتدارسونه فيما بينكم، تستمدون منه هذه الأحكام السخيفة التي تحكمون بها لأنفسكم، وتحكمون بها على غيركم، طبقًا لشهواتكم وأهوائكم ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨﴾»[2].

* * *

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣١٩-٣٢٠).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٨٩-٢٩٠).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: هل لكم أيمان علينا تنتهي بكم إلى يوم القيامة، بأن لكم ما تحكمون أي: بأن لكم حكمكم، ولكن الألف كسرت من «إن» لما دخل في الخبر اللام: أي هل لكم أيمان علينا بأن لكم حكمكم؟»[(١)].

قال البقاعي: «ولما نفى دليل العقل والنقل مع التعجب منهم والتهكم بهم، وكان قد بقي أن الإنسان ربما عاهد غيره على شيء فيلزمه الوفاء به وإن كان خارجًا عما يدعو إليه العقل والنقل، نفي ذلك بقوله: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾ أي: غليظة جدًا ﴿عَلَيْنَا﴾ قد حملتمونا إياها ﴿بَٰلِغَةٌ﴾ أي: لأجل عظمها إلى نهاية رتب التأكيد بحيث يكون بلوغ غيرها ما يقصد بالنسبة إلى بلوغها ذلك عدمًا، أي: أن بلوغها هو البلوغ لا غيره، أو ثباتها منته ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يمكن الخروج عن عهدتها إلا في ذلك اليوم ليحتاج لأجلها إلى إكرامكم في الدارين.

ولما ذكر ذلك القسم بالأيمان ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ﴾ أي: خاصة دون المسلمين ﴿لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: تفعلونه فعل الحاكم الذي يلزم قوله لعلو أمره على وجه التأكيد الذي لا مندوحة عنه فتحكمون لأنفسكم بما تريدون من الخير»[(٢)].

قال صديق حسن خان: «زاد سبحانه في التوبيخ فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ أي: عهود مؤكدة بالأيمان موثقة متناهية إذ العهد كلام مؤكد بالقسم فأطلق الجزء وأريد الكل، والمعنى أم لكم أيمان على اللَّه استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة ثابتة لكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا يخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ»[(٣)].

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٣٧).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٠-٣٢١).

(٣) فتح البيان (١٤/ ٢٧١).

قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾

★ غريب الآية:

زعيم: الزعيم: الكفيل والضامن.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: سل يا محمد هؤلاء المشركين أيهم بأن لهم علينا أيمانا بالغة بحكمهم إلى يوم القيامة ﴿زَعِيمٌ﴾ يعني: كفيل به، والزعيم عند العرب: الضامن والمتكلم عن القوم..

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ۝٤١﴾ يقول -تعالى ذكره-: ألهؤلاء القوم شركاء فيما يقولون ويصفون من الأمور التي يزعمون أنها لهم؟، فليأتوا بشركائهم في ذلك إن كانوا فيما يدّعون من الشركاء صادقين»[1].

قال البقاعي: «ولما عجب منهم وتهكم بهم، ذيل ذلك بتهكم أعلى منه يكشف عوارهم غاية الكشف وينزل بهم أشد الحتف، فقال مخوفًا لهم بالإعراض: ﴿سَلْهُمْ﴾ أي: يا أيها الرسول الذي محت دلائله بقوة أنوارها الأنوار.

ولما كان السؤال سببًا لحصول العلم علقت «سل» على مطلوبها الثاني، وكان حقه أن يعدى ب«عن»، فقال: ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر العظيم من المعاهدة والدليل النقلي والعقلي ﴿زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل وضامن، أو سيد، أو رئيس، أو متكلم بحق أو باطل لتلزمه في ادعائه صحة ذلك ما تدعه به ضحكة للعباد، وأعجوبة للحاضر منهم والباد، فلم يجسر لما تعلمون من حقية هذا القرآن، وما لأقوالهم كلها من العراقة في البطلان أحد منهم على شدة عداوتهم ومحبتهم للمغالبة وشماختهم أن يبرز لادعاء ذلك، ولما نفى أن يكون لهم منه سبحانه في تسويتهم

(١) جامع البيان (٢٩/ ٣٧-٣٨).

بالمسلمين دليل عقلي أو نقلي أو عهد وثيق على هذا الترتيب المحكم والمنهاج الأقوم، أتبعه ما يكون من عند غيره إن كان ثم غير على ما ادعوا فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: شرعوا لهم من الدين أمرًا، ووعدوهم بشيء أقاموا عليه من الأدلة ما أقمنا لنبينا ﷺ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ أي: بأقوالهم وأفعالهم كما أتينا نحن في نصر نبينا محمد ﷺ من الأمرين معًا بما لا شبهة فيه، وسجل عليهم بالكتاب ملهبًا مهيجًا بما يحرق به أكبادهم، ولا يقدرون على دفعه بوجه، فيكون ذلك أعظم دليل على إبطالهم فقال: ﴿إِن كَانُوا﴾ أي: جبلة وطبعًا ﴿صَادِقِينَ﴾ أي: عريقين في هذا الوصف كما يدعونه»[1].

قال الرازي: «قال للرسول -عليه الصلاة والسلام-: والمعنى أيهم بذلك الحكم زعيم، أي قائم به وبالاستدلال على صحته، كما يقوم زعيم القوم بإصلاح أمورهم. ثم قال: وفي تفسيره وجهان:

الأول: المعنى أم لهم أشياء يعتقدون أنها شركاء اللَّه فيعتقدون أن أولئك الشركاء يجعلونهم في الآخرة مثل المؤمنين في الثواب والخلاص من العقاب، وإنما أضاف الشركاء إليهم لأنهم جعلوها شركاء لله وهذا كقوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

الوجه الثاني: في المعنى أم لهم ناس يشاركونهم في هذا المذهب، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم، والمراد بيان أنه كما ليس لهم دليل عقلي في إثبات هذا المذهب، ولا دليل نقلي وهو كتاب يدرسونه، فليس لهم من يوافقهم من العقلاء على هذا القول، وذلك يدل على أنه باطل من كل الوجوه»[3].

قال ابن عاشور: «استئناف بياني عن جملة ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، لأن الأيمان، وهي العهود، تقتضي الكفلاء عادة قال الحارث بن حِلِّزة:

واذكُروا حِلف ذِي المَجاز وما قُدِّ ... م فيه العهودُ والكفلاء

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢١-٣٢٢).

(٢) الروم: الآية (٤٠).

(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٩٤).

فلما ذُكر إنكار أن يكون لهم عهود، كُمل ذلك بأن يطلب منهم أن يعينوا من هم الزعماء بتلك الأيمان.

فالاستفهام في قوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾ مستعمل في التهكم زيادة على الإنكار عليهم.

والزعيم: الكفيل، وقد جعل الزعيم أحدًا منهم زيادة في التهكم؛ وهو أن جعل الزعيم لهم واحدًا منهم لعزتهم ومناعاتهم لكبرياء اللَّه تعالى.

﴿أَمْ﴾ إضراب انتقالي ثالث إلى إبطال مستند آخر مفروض لهم في سند قولهم: إنا نعْطَى مثل ما يُعطَى المسلمون أو خيرًا مما يُعطونه، وهو أن يُفرض أن أصنامهم تنصرهم وتجعل لهم حَظًا من جزاء الخير في الآخرة.

والمعنى: بل أثبتت لهم، أي لأجلهم ونفعهم شركاءُ، أي شركاء لنا في الإلهية في زعمهم، فحذف متعلق ﴿شُرَكَآءُ﴾ لشهرته عندهم فصار شركاء بمنزلة اللقب، أي أم آلهتهم لهم فليأتوا بهم لينفعوهم يوم القيامة»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٩٥-٩٦).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

★غريب الآية:

ترهقهم: تغشاهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة، التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال اللَّه وعظمته، ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ يدعون إلى السجود لله. فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعا واختيارا. ويذهب الفجار المنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء. وهذا الجزاء من جنس عملهم؛ فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله، وتوحيده وعبادته، وهم سالمون لا علة فيهم فيستكبرون عن ذلك ويأبون. فلا تسأل يومئذ عن حالهم، وسوء مآلهم، فإن اللَّه سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة. ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، ويوجب التدارك مدة الإمكان»[1].

قال شيخ الإسلام: «وأما الذي أقوله الآن وأكتبه وإن كنت لم أكتبه فيما تقدم من أجوبتي وإنما أقوله في كثير من المجالس- إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات، فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها.

وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥٢-٤٥٣).

ذلك على ما شاء اللَّه تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير، فلم أجد إلى ساعتي هذه- عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف؛ بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته، وبيان أن ذلك من صفات اللَّه ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلا اللَّه. وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شيء كثير.

وتمام هذا أني لم أجدهم تنازعوا إلا في مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، فروي عن ابن عباس وطائفة أن المراد به الشدة، إن اللَّه يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات؛ للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين.

ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات؛ فإنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضفها إلى اللَّه، ولم يقل عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل، إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف؛ ولكن كثير من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولا له، ثم يريدون صرفه عنه، ويجعلون هذا تأويلا، وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة»[1].

قال ابن القيم: «والصحابة متنازعون في تفسير الآية، هل المراد الكشف عن الشدة، أو المراد بها أن الرب تعالى يكشف عن ساقه؟ ولا يحفظ عن الصحابة والتابعين نزاع فيما يذكر أنه من الصفات أم لا في غير هذا الموضع، وليس في ظاهر القرآن ما يدل على أن ذلك صفة لله، لأنه سبحانه لم يضف الساق إليه، وإنما ذكره مجردا عن الإضافة منكرا، والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين والإصبع لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «**فيكشف الرب عن ساقه فيخرون له سجدا**»[2]. ومن حمل الآية على ذلك قال: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ مطابق لقوله ﷺ: «**فيكشف عن ساقه فيخرون له سجدا**»، وتنكيره

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٤-٣٩٥).

(٢) سيأتي تخريجه.

للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: يكشف عن ساق عظيمة، جلت عظمتها، وتعالى شأنها أن يكون لها نظير، أو مثيل، أو شبيه، قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه، فإن لغة القوم في مثل ذلك أن يقال كشفت الشدة عن القوم لا كشف عنها كما قال اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾[1]، وقال: ﴿۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥﴾[2]. فالعذاب والشدة هو المكشوف لا المكشوف عنه، وأيضا فهناك تحدث الشدة وتشتد ولا تزال إلا بدخول الجنة، وهناك لا يدعون إلى السجود وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة»[3].

قال الشوكاني -بعد ذكره اختلاف السلف في هذه المسألة-: وقد أغنانا اللّه سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول اللّه ﷺ كما عرفت[4]، وذلك لا يستلزم تجسيما ولا تشبيها فليس كمثله شيء.

دعوا كل قول عند قول محمد ... فما آمن في دينه كمخاطر»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الساق لله تعالى

* عن أبي سعيد سمعت النبي ﷺ يقول: «**يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا**»[6].

* عن عبد اللّه بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**يجمع اللّه الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء.. إلى أن قال: «فيتمثل الرب ﷻ فيأتيهم فيقول: ما لكم لا تنطلقون كما انطلق الناس؟»، قال: «فيقولون إن لنا لإلها ما رأيناه بعد، فيقول: هل تعرفونه إن رأيتموه؟ فيقولون: إن بيننا وبينه علامة إذا رأيناها عرفناها، قال: فيقول: ما هي؟**

(١) الزخرف: الآية (٥٠).
(٢) المؤمنون: الآية (٧٥).
(٣) الصواعق المرسلة (١/ ٢٥٢-٢٥٣).
(٤) أي: حديث أبي سعيد الخدري ﷺ الآتي ذكره.
(٥) فتح القدير (٥/ ٣٩٥).
(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦-١٧)، والبخاري (٨/ ٨٥٧/ ٤٩١٩) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٦٧-١٧١/ ١٨٣).

فيقولون: يكشف عن ساقه»، قال: «فعند ذلك يكشف عن ساق فيخر كل من كان بظهره طبق، ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون، وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون. . » الحديث[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جمع الله العباد بصعيد واحد نادى مناد ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، فيلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، ويبقى الناس على حالهم فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم ههنا؟ فيقولون: ننتظر إلهنا، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلينا عرفناه، فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجودا، وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد، ثم يقودهم إلى الجنة**»[٢].

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ ابن حجر: «وقع في هذا الموضع «يكشف ربنا عن ساقه» وهو من رواية سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم فأخرجها الإسماعيلي كذلك ثم قال: في قوله: «عن ساقه» نكرة. ثم أخرجه من طريق حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم بلفظ: «يكشف عن ساق» قال الإسماعيلي: هذه أصح لموافقتها لفظ القرآن في الجملة، لا يظن أن الله ذو أعضاء وجوارح لما في ذلك من مشابهة المخلوقين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٣]»[٤].

قال الشيخ الألباني معلقا: «نعم ليس كمثله شيء ولكن لا يلزم من إثبات ما أثبته الله لنفسه من الصفات شيء من التشبيه أصلا، كما لا يلزم من إثبات ذاته تعالى التشبيه، فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات -وهي حق ثابت- فكذلك صفاته تعالى

---

(١) أخرجه: الطبراني (٩/ ٣٥٧-٣٦١/ ٩٧٦٣)، والحاكم (٢/ ٣٧٦-٣٧٧) وقال: «حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ ووافقه الذهبي»، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٠-٣٤٣) وقال: «رواه الطبراني من طرق ورجال أحدهما رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة»، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٤١٨-٤٢٢/ ٣٥٩١).

(٢) أخرجه: الدارمي في سننه (٢/ ٣٢٦-٣٢٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٤٠-٣٤١/ ٧٣٢)، وحسن إسناده الألباني رحمه الله في الصحيحة (٥٨٤).

(٣) الشورى: الآية (١١).

(٤) الفتح (٨/ ٨٥٧-٨٥٨).

لا تشبه الصفات، وهي أيضا حقائق ثابتة تتناسب مع جلال الله وعظمته وتنزيهه، فلا محذور من نسبة الساق إلى الله تعالى إذا ثبت ذلك في الشرع، وأنا وإن كنت أرى من حيث الرواية أن لفظ (ساق) أصح من لفظ (ساقه) فإنه لا فرق بينهما عندي من حيث الدراية؛ لأن سياق الحديث يدل على أن المعنى هو ساق الله -تبارك وتعالى-، وأصرح الروايات في ذلك رواية هشام عند الحاكم بلفظ: «هل بينكم وبين الله من آية تعرفونه؟ فيقولون: نعم الساق، فيكشف عن ساق..».

قلت: فهذا صريح أو كالصريح بأن المعنى إنما هو ساق ذي الجلالة -تبارك وتعالى-. فالظاهر أن سعيد بن أبي هلال كان يرويه تارة بالمعنى حين كان يقول: (عن ساقه)، ولا بأس عليه من ذلك، ما دام أنه أصاب الحق»[1].

قال الجامي: «فانطلاقا من هذا الحديث الصحيح -أي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ- الذي يثبت لله ساقا، نرى أن الآية من آيات الصفات المفسرة بالسنة؛ لأن الآية جاءت محتملة المعنى حيث جاء الساق مجردا عن الإضافة المخصصة، فجاءت السنة مبينة بأن المراد بالساق هو ساق الرحمن. فنسلك في إثبات الساق مسلك السلف الصالح الذي سلكناه من قبل وهو إثبات بلا تمثيل ولا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل. فالكلام في صفة الساق كالكلام في صفة اليد والوجه مثلا. فكما أن اليد والوجه والقدم والبصر والعين صفات تليق به تعالى، وليست جوارح وأعضاء وأبعاضا وأجزاء كصفاتنا؛ بل هي صفات خبرية ثابتة ينتهي علمنا فيها عند المعنى العام دون تكلف لمعرفة كيفيتها، فكذلك الساق صفة لله ثابتة ثبوت تلك الصفات وعلى غرارها إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]؛ ولأن الكلام في الصفات الخبرية كالكلام في الصفات الذاتية يحتذي حذوه. وأما الخلاف والنزاع الذي جرى بين الصحابة والتابعين فينبغي أن نعتبره منتهيا بعد ثبوت حديث أبي سعيد الخدري الذي نعده تفسيرا للآية المجملة ثم نعده فيصلا في هذه القضية. هذه هي طريقة أهل العلم قديما وحديثا، إذ لا يلتفتون إلى أقوال أهل العلم الاجتهادية وآرائهم بعد ثبوت السنة ولا سيما إذا كانت السنة قد جاءت مفسرة أو مفصلة لما أجمل في القرآن، وهذا ما نحن بصدده. وبالله التوفيق»[3].

---

(١) الصحيحة (٢/ ١٢٧-١٢٨).
(٢) الشورى: الآية (١١).
(٣) الصفات الإلهية (ص: ٣١٦).

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: كِلْ يا محمد أمر هؤلاء المكذبين بالقرآن إليّ، وهذا كقول القائل لآخر غيره يتوعد رجلا: دعني وإياه، وخلني وإياه، بمعنى: إنه من وراء مساءته. و«مَن» في قوله: ﴿وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ في موضع نصب؛ لأن معنى الكلام ما ذكرت، وهو نظير قولهم: لو تُرِكْتَ ورأيك ما أفلحت. والعرب تنصب: ورأيك؛ لأن معنى الكلام: لو وكلتك إلى رأيك لم تفلح.

وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول -جل ثناؤه-: سنكيدهم من حيث لا يعلمون، وذلك بأن يمتعهم بمتاع الدنيا حتى يظنوا أنهم متعوا به بخير لهم عند اللَّه، فيتمادوا في طغيانهم، ثم يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون.

وقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: وأنسئ في آجالهم ملاوة من الزمان، وذلك برهة من الدهر على كفرهم وتمرّدهم على اللَّه لتتكامل حجج اللَّه عليهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ يقول: إن كيدي بأهل الكفر قويّ شديد»[1].

قال ابن كثير: «﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن. وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإياه مني ومنه، أنا أعلم به كيف أستدرجه، وأمده في غيه وأنظر، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك من اللَّه كرامة، وهو في نفس الأمر إهانة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[2]، وقال: ﴿فَلَمَّا

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٤٣-٤٤).

(٢) المؤمنون: الآيتان (٥٥و٥٦).

نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[(١)]. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي»[(٢)].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما خوف الكفار بعظمة يوم القيامة زاد في التخويف فخوفهم بما عنده، وفي قدرته من القهر، فقال: ذرني وإياه، يريد كله إليَّ، فإني أكفيكه، كأنه يقول: يا محمد حسبك انتقامًا منه أن تكل أمره إلي، وتخلي بيني وبينه، فإني عالم بما يجب أن يفعل به قادر على ذلك، ثم قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ يقال: استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة، حتى يورطه فيه. وقوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: أبو روق: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي كلما أذنبوا ذنبًا جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار، فالاستدراج إنما حصل في الاغتناء الذي لا يشعرون أنه استدراج، وهو الإنعام عليهم لأنهم يحسبونه تفضيلًا لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب لهلاكهم.

ثم قال: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي: أمهلهم كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾[(٣)] وأطيل لهم المدة والملاوة المدة من الدهر، يقال: أملى اللَّه له أي أطال اللَّه له الملاوة. والملوان: الليل والنهار، والملأ مقصورًا: الأرض الواسعة، سميت به لامتدادها. وقيل: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي: بالموت فلا أعاجلهم به، ثم إنه إنما سمى إحسانه كيدًا كما سماه استدراجًا لكونه في صورة الكيد، ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبب للهلاك»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إمهال اللَّه ﷻ الظالم

* عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه سبحانه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ

(١) الأنعام: الآية (٤٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢٦).
(٣) آل عمران: الآية (١٧٨).
(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٩٧-٩٨).

ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1]»[2].

★ **غريب الحديث:**

قال النووي: «معنى يملي: يمهل، ويؤخر، ويطيل له في المدة. وهو مشتق من الملوة وهي: المدة، والزمان -بضم الميم وكسرها وفتحها- ومعنى لم يفلته: لم يطلقه ولم ينفلت منه، قال أهل اللغة: يقال أفلته: أطلقه، وانفلت: تخلص منه»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: ««لم يفلته» بضم أوله من الرباعي أي لم يخلصه، أي إذا أهلكه لم يرفع عنه الهلاك، وهذا على تفسير الظلم بالشرك على إطلاقه، وإن فسر بما هو أعم فيحمل كل على ما يليق به، وقيل: معنى لم يفلته: لم يؤخره، وفيه نظر؛ لأنه يتبادر منه أن الظالم إذا صرف عن منصبه وأهين لا يعود إلى عزه، والمشاهد في بعضهم بخلاف ذلك، فالأولى حمله على ما قدمته»[4].

وقال القرطبي: ««يملي»: يطيل في مدته، ويصح، ويكثر ماله وولده ليكثر ظلمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾[5]، وهذا كما فعل اللّه بالظلمة من الأمم السالفة، والقرون الخالية، حتى إذا عم ظلمهم وتكامل جرمهم أخذهم اللّه أخذة رابية، فلا ترى لهم من باقية، وذلك سنة اللّه في كل جبار عنيد، ولذلك قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[6]»[7].

وقال المناوي: «فيه تسلية للمظلوم ووعيد للظالم؛ وأنه لا يغتر بالإمهال فإنه ليس بإهمال»[8].

* * *

---

(١) هود: الآية (١٠٢).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).

(٣) شرح مسلم (١٦/ ١١٢).

(٤) الفتح (٨/ ٤٥٢).

(٥) آل عمران: الآية (١٧٨).

(٦) هود: الآية (١٠٢).

(٧) المفهم (٦/ ٥٥٧-٥٥٨).

(٨) فيض القدير (٢/ ٢٦٤).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مغرم: المغرم: ما يلزم أداؤه من الدين. وأصله: اللزوم مع إلحاح. قال الشاعر:

يوم الجفار ويوم النسار كانا عذابا وكانا غراما

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: أتسأل يا محمد هؤلاء المشركين بالله على ما أتيتهم به من النصيحة، ودعوتهم إليه من الحقّ، ثوابا وجزاء ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ يعني: من غرم ذلك الأجر مثقلون، قد أثقلهم القيام بأدائه، فتحاموا لذلك قبول نصيحتك، وتجنبوا لعظم ما أصابهن من ثقل الغرم الذي سألتهم على ذلك الدخول في الذي دعوتهم إليه من الدين.

وقوله: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ يقول: أعندهم اللوح المحفوظ الذي فيه نبأ ما هو كائن، فهم يكتبون منه ما فيه، ويجادلونك به، ويزعمون أنهم على كفرهم بربهم أفضل منزلة عند الله من أهل الإيمان به»[(١)].

قال ابن عطية: «هذه ﴿أَمْ﴾ التي تتضمن الإضراب عن الكلام الأول لا على جهة الرفض له؛ لكن على جهة الترك والإقبال على سواه، وهذا التوقيف لمحمد ﷺ، والمراد به توبيخ الكفار؛ لأنه لو سألهم أجرا فأثقلهم غرم ذلك لكان لهم بعض العذر في إعراضهم وقرارهم، وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ معناه: هل لهم علم بما يكون فيدعون مع ذلك أن الأمر على اختيارهم جار»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٤٤).

(٢) المحرر الوجيز (٥/ ٣٥٤).

قال البقاعي: «ولما كان هذا القرآن أعظم إحسان، ساقه ﷺ إليهم فكان موجبًا للشكر عليهم للذي أنزله ولإكرام الآتي به، فكان سببًا لمباشرتهم من التكذيب به والأذى للآتي به إليهم ما يوجب أخذهم، قال دالًا على متانة كيده سبحانه، ودقة استدراجه، عاطفًا على ما تقديره لبيان أنهم يباشرون ما يهلكهم باختيارهم من غير موجب: أكان تكذيبهم هذا الذكر لشيء فيه يرتابون؟ قوله منكرًا عليهم، مبينًا أن تكذيبهم إنما هو لأنه طبع وخبث سجية لا شهوة لهم فيه ولا شبهة: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ أنت يا أعف الخلق وأعلاهم همما ﴿أَجْرًا﴾ على إبلاغك إياهم ﴿فَهُم﴾ أي: فتسبب عن ذلك وتعقب أنهم ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ كلفتهم به فهم لشدته ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ أي: واقع إثقالهم به حتى أوجب لهم ذلك الغرم الناقص لأموالهم التقاعد عن التصديق بما جئت به إليهم من عندنا فصاروا يشتهون إقلاعك عنه.

ولما نفى أن يكون تكذيبهم بشهوة دعتهم إلى ذلك نفى أن يكون لهم في ذلك شبهة من شك في الذكر، أو حيف في المذكر، وأن يكونوا على ثقة أو ظن من سلامة العاقبة، فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمُ﴾ أي: خاصة ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ أي: علموه من اللوح المحفوظ أو غيره ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿يَكْتُبُونَ﴾ أي: ما يريدون منه ليكونوا قد اطلعوا على أن هذا الذكر ليس من عند اللَّه، أو على أنهم لا درك عليهم في التكذيب به، فقد علم بهذا أنه لا شهوة لهم في ذلك عادية ولا شبهة، وإنما تكذيبهم مجرد خبث طباع، وظلمة نفوس وأماني فارغة وأطماع»[1].

قال السعدي: «ليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى اللَّه لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا يثقل عليهم.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند اللَّه، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم»[2].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٢٩-٣٣٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥٤).

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مكظوم: أي مملوء غيظًا وكربًا، وكظم غيظه: حبسه. وكظم خصمه: أجابه بجواب مسكت.

نبذ: طرح.

بالعراء: الفضاء لا ستر به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فاصبر يا محمد لقضاء ربك وحكمه فيك، وفي هؤلاء المشركين بما أتيتهم به من هذا القرآن، وهذا الدين، وامض لما أمرك به ربك، ولا يثنيك عن تبليغ ما أمرت بتبليغه تكذيبهم إياك وأذاهم لك.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ الذي حبسه في بطنه، وهو يونس بن مَتَّى ﷺ فيعاقبك ربك على تركك تبليغ ذلك، كما عاقبه فحبسه في بطنه: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ يقول: إذ نادى وهو مغموم، قد أثقله الغمّ وكظمه..

وقوله: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يقول -جل ثناؤه-: لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من ربه، فرحمه بها، وتاب عليه من مغاضبته ربه ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ وهو الفضاء من الأرض: ومنه قول قيس بن جَعْدة:

وَرَفَعْتُ رِجْلا لا أخافُ عِثارَها ... وَنَبَذْتُ بالبَلَدِ العَرَاءِ ثِيابِي

﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ فقال بعضهم:

معناه وهو مُلِيم . . وقال آخرون: بل معنى ذلك: وهو مذنب»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ يقول -تعالى ذكره-: فاجتبى صاحبَ الحوت ربُّه، يعني: اصطفاه واختاره لنبوّته ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني من المرسلين العاملين بما أمرهم به ربهم، المنتهين عما نهاهم عنه»[٢].

قال البقاعي: «﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ أي: أوفر الصبر وأوجده على كل ما يقولون فيك وعلى غير ذلك من كل ما يقع منهم، ومن غيره من مر القضاء والقدر ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: للقضاء الذي قضاه وقدره المحسن إليك الذي أكرمك بما أكرمك به من الرسالة، وألزمك بما ألزمك من البلاغ، وخذلهم بالتكذيب، ومد لهم على ذلك في الآجال، وأوسع عليهم النعم، وأخر ما وعدك به من النصر، ولما كان حاصل قصة يونس -على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام- أنه استثقل الكرامة بالرسالة لما فيها من الأمور الشديدة من معالجة الخلق فامتحن، كان سببًا لقبوله ذلك، ثم كان سبب إسلام قومه إدناء العذاب منهم وتقريب غشيانه لهم، أشار له بقصته إلى أنه يراد إعلاؤه - وعلى سائر الأنبياء- وإعلاء أمته على سائر الأمم بما يحتاج إلى صبر على ما يستثقل من ضر أو أمر شديد مر فقال: ﴿وَلَا تَكُن﴾ أي: ولا يكن حالك في الضجر والعجلة إلى غير ذلك. ولما كان قد افتتح السورة بالنون الذي من مدلولاته الحوت، عبر به هنا تحقيقًا لإرادته فقال: ﴿كَصَاحِبِ﴾ أي: كحال صاحب ﴿ٱلۡحُوتِ﴾ وهو يونس بن متى -عليه الصلاة والسلام- ﴿إِذۡ﴾ أي: حين، والعامل في هذا الظرف المضاف المحذوف من الحال ونحوها، أو يكون التقدير: لا يكن حالك كحاله يحصل لك مثل ما حصل له حين ﴿نَادَىٰ﴾ أي: ربه المربي له بإحاسنه في الظلمات من بطن الحوت وظلمة ما يحيط به من الجثة وظلمة لجج البحار ﴿وَهُوَ﴾ أي: والحال أنه عند ندائه ﴿مَكۡظُومٌ﴾ أي: مملوء كربًا وهمًا وشدة وغمًا، محمول على السكوت ببطنه فهو لا ينطق من شدة حزنه، ومحبوس عن جميع ما يريد من التصرف إلى أن ألجأه سبحانه بذلك إلى الدعاء والتضرع، من الكظم؛ وهو السكوت عن امتلاء وتجرع للمرارات، ومن هذا كظمت السقاء أي شددته وملأته فكان مكظومًا، والمكظوم: المكروب -كأنه قد أخذ بكظمه وهو

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٤٤-٤٥) بتصرف يسير.

(٢) جامع البيان (٢٩/ ٤٥).

مخرج نفسه.

ولما تشوف السامع إلى ما كان من أمره بعد هذا الأمر العجيب قال: ﴿لَّوْلَآ أَن﴾ وعظم الإحسان بالتذكير وصيغة التفاعل فقال: ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ أي: أدركه إدراكًا عظيمًا كان كلاً من النعمة والمنة يريد أن تدرك الآخر ﴿نِعْمَةٌ﴾ أي: عظيمة جدًّا ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: الذي أرسله وأحسن إليه بإرساله وتهذيبه للرسالة والتوبة عليه والرحمة له ﴿لَنُبِذَ﴾ أي: لولا هذه الحالة السنية التي أنعم اللَّه عليه بها لطرح طرحًا هينًا جدًا ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: الأرض القفر التي لا بناء فيها ولا نبات، البعيدة من الإنس حين طرح فيها كما حكم بذلك من الأزل ﴿وَهُوَ﴾ أي: والحال أنه ﴿مَذْمُومٌ﴾ أي: ملوم على الذنب، ولما كان التقدير: ولكنه تداركه بالنعمة فلم يكن في نبذه ملومًا، سبب عنه قوله: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ﴾ أي: اختاره لرسالته ﴿رَبُّهُۥ﴾ ثم سبب عن اجتبائه قوله: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الذين رسخوا في رتبة الصلاح فصلحوا في أنفسهم للنبوة والرسالة وصلح بهم غيرهم، فنبذ بالعراء وهو محمود، ومن صبر أعظم من صبره كان أعظم أجرًا من أجره، وأنت كذلك فأنت أشرف العاملين والعالمين»[1].

قال ابن القيم: «نهاه سبحانه أن يتشبه بصاحب الحوت حيث لم يصبر صبر أولي العزم فقال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ وهاهنا سؤال نافع، وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله: (إذ نادى) ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه، إذ يصير المعنى: لا تكن مثله في ندائه، وقد أثنى اللَّه سبحانه عليه في هذا النداء فأخبر أنه نجاه به فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[2] وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج اللَّه عنه**: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[3] فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادى به ربه، وإنما نهي عن التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة، وهي

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣١-٣٣٣). (٢) الأنبياء: الآيتان (٨٧و٨٨).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٠) مطولا، والترمذي (٥/ ٤٩٥/ ٣٥٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٦٨/ ١٠٤٩٢)، والحاكم (١/ ٥٠٥)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت، وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم، والكظيم والكاظم: الذي قد امتلأ غيظًا وغضبًا وهما وحزنا، وكظم عليه فلم يخرجه. فإن قيل: وعلى ذلك فما العامل في الظرف؟ قيل: ما في صاحب الحوت من معنى الفعل. فإن قيل: فالسؤال بعد قائم، فإنه إذا قيد المنهي بقيد أو زمن كان داخلًا في حيز النهي؛ فإن كان المعنى لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال أو هذا الوقت كان نهيًا عن تلك الحالة. قيل: لما كان نداؤه مسببًا عن كونه صاحب الحوت فنهي أن يشبه به في تلك الحال التي أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء، وهي ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى، ولم يقل تعالى: ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضبًا فالتقمه الحوت فنادى؛ بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر واكتفى بغايتها وما انتهت إليه. فإن قيل: فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهي عنه أي: لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلئ غيظًا وهما وغمًا بل يكون نداؤك نداء راض بما قضى عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم. قيل: هذا المعنى وإن كان صحيحًا إلا أن النهي لم يقع عن التشبه به في مجرده وإنما نهي عن التشبه به في الحال التي حملته على ذهابه مغاضبًا حتى سجن في بطن الحوت، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ أي: في ضعف صبره لحكم ربه، فإن الحالة التي نهي عنها هي ضد الحالة التي أمر بها. فإن قيل: فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكوني القدري الذي يقدره عليه، ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه؛ بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته؟ قيل: منع من ذلك أن اللَّه سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر، وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾[1] فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثني عليه ويمدحه به، وكذلك أثنى على أيوب بقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2] وعلى يعقوب بقوله:

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٨٧و٨٨).

(٢) الأنبياء: الآية (٨٣).

﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[١] وعلى موسى بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾[٢] وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «**اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي**» الحديث[٣].

فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل؛ بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر، والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه، وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن إليه وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ فَمَا ٱسۡتَكَانُواْ لِرَبِّهِمۡ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾[٤]، والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه؛ بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو ما به إليه. وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه؟ فقال: ربي يرضى ذل العبد إليه. والمقصود: أنه سبحانه أمر أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر، ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم، وخيرهم، وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[٥].

قال عطية محمد سالم: «لم يبين هنا من هو صاحب الحوت، ولا نداءه وهو مكظوم، ولا الوجه المنهي عنه أن يكون مثله، وقد بين تعالى صاحب الحوت في الصافات في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩﴾[٦]. إلى قوله: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾[٧].

وأما النداء، فقال الشيخ -رحمة الله تعالى علينا وعليه-: قد بينه تعالى في سورة الأنبياء عند قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا

---

(١) يوسف: الآية (٨٦). (٢) القصص: الآية (٢٤).

(٣) أخرجه: الطبراني (١٣/ ٧٣/ ١٨١)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥): رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على فقه السيرة ص (١٣٧) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه.

(٤) المؤمنون: الآية (٧٦).

(٥) عدة الصابرين (ص: ٦٣-٦٤).

(٦) الصافات: الآية (١٣٩).

(٧) الصافات: الآية (١٤٢).

لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

فصاحب الحوت هو يونس، ونداؤه هو المذكور في الآية، وحالة ندائه وهو مكظوم.

أما الوجه المنهي عن أن يكون مثله فهو الحال الذي كان عليه عند النداء، وهو في حالة غضبه، وهو مكظوم، وهذا بيان لجانب من خلقه ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ أي: على إيذاء قومك، ولعل هذا من خصائص وخواص توجيهات اللَّه إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾[2] إلى آخر الآية، فقد بين تعالى خلقًا فاضلًا عامًا للأمة في حسن المعاملة والصفح.

ثم خص النَّبي ﷺ بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أي: لا تعاقب انتقامًا ولو بالمثلية ولكن اصبر، وقد كان منه ﷺ مصداق ذلك في رجوعه من ثقيف حينما آذوه، وجاء جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال يأتمر بأمره إلى أنه قال: «**لا، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.. إني لأرجو أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يؤمن بالله**»[3] فقد صفح وصبر ورجى من اللَّه إيمان من يخرج من أصلابهم. وهذا أقصى درجات الصبر والصفح وأعظم درجات الخلق الكريم.

قوله تعالى: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾. بين تعالى أنه لم ينبذ بالعراء على صفة مذمومة؛ بل إنه تعالى أنبت عليه شجرة تظلّه وتستره، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾[4]. بينه تعالى بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾[5]»[6].

قال السعدي: «﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا، فالحكم القدري يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٨٧و٨٨). (٢) النحل: الآيتان (١٢٦و١٢٧).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٨٤-٣٨٥/ ٣٢٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠-١٤٢١/ ١٧٩٥)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٥-٤٠٦/ ٧٧٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) الصافات: الآية (١٤٦). (٥) الصافات: الآيتان (١٤٧و١٤٨).

(٦) تتمة أضواء البيان (٨/ ٤٣٣-٤٣٤).

يقابل بالقبول والتسليم، والانقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وهو يونس بن متى، -عليه الصلاة والسلام-، أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب في البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيهم يلقون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه فالتقمه الحوت وهو مليم، وقوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم بأن قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاستجاب اللَّه له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت اللَّه عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: لطرح في العراء؛ وهي الأرض الخالية ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ولكن اللَّه تغمده برحمته فنبذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم وأحوالهم، فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبرًا لا يدركه فيه أحد من العالمين. فجعل اللَّه له العاقبة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوءهم»[(١)].

قال محمد المكي الناصري: «عقب كتاب اللَّه على ذلك كله بدعوة الرسول ﷺ إلى المزيد من الصبر على تحمل أذى المشركين الذي لا ينقطع، والمزيد من الصبر على القيام بأعباء الرسالة التي لا يثقل الكاهل مثلها شيء، لافتا نظره إلى أن لا يسلك مسلك أخيه نبي اللَّه يونس ﷺ، الذي تخلى عن حمل أعباء الرسالة عندما ضاق صدره وذهب مغاضبا لقومه، سائحا في أرض اللَّه، حتى وجد قوما يركبون سفينة في البحر، فركبها معهم، وانتهى الأمر به إلى أن يلتقمه الحوت، ويحفظه في بطنه إلى حين، فنادى ربه وهو في بطن الحوت ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٢)] فتداركه لطف اللَّه، وألقاه الحوت في أرض عراء، وأنبت اللَّه عليه شجرة من يقطين، ليأكل من ثمرها، ويستظل بظلها، وإذ ذاك فهم عن اللَّه، وعاد إلى قومه وكان سروره بالغا عندما وجدهم قد اهتدوا بدعوته،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥٤-٤٥٦).

(٢) الأنبياء: الآية (٨٧).

وآمنوا برسالته، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾، فالمراد بصاحب الحوت هنا يونس عليه السلام كما سبق في سورة الصافات.

وتحذيرا من أن يفهم بعض المؤمنين من هذه الآيات الكريمة تنقيصا من قدر يونس عليه السلام نبه رسول اللَّه ﷺ أمته إلى احترام مقامه وتوقيره، وعدم المفاضلة بينه وبين يونس، فقال ﷺ كما روي في الصحيحين: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى»»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة يونس بن متى -عليه الصلاة والسلام-

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال التوربشتي: «وإنما خص يونس بالذكر من بين الرسل لما قص اللَّه عليه في كتابه من أمر يونس، وتوليه عن قومه، وضجره عند تثبطهم في الإجابة، وقلة الاحتمال عنهم والاحتفال بهم حين أرادوا التنصل، فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وقال: ﴿مُلِيمٌ﴾[٣] فلم يأمن ﷺ أن يخامر بواطن الضعفاء من أمته ما يعود إلى نقيصة في حقهم، فنبأهم أن ذلك ليس بقادح فيما آتاه اللَّه من فضله، وأنه مع ما كان من شأنه كسائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين»[٤].

وانظر بقية فوائد الحديث عند قوله تعالى من سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ الآية (١٦٣).

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٩١-٢٩٢).
(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٥)، والبخاري (٦/ ٥٥٧/ ٣٤١٦)، ومسلم (٤/ ١٨٤٦/ ٢٣٧٦).
(٣) الصافات: الآية (١٤٢).
(٤) شرح الطيبي (١١/ ٣٦٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن قتيبة: «يريد أنهم ينظرون إليك بالعداوة نظرا شديدا يكاد يزلقك من شدته، أي: يسقطك. ومثله قول الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا في موطن ... نظرا يزيل مواطئ الأقدام

أي: ينظر بعضهم إلى بعض نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء، يزيل الأقدام عن مواطئها. فتفهم قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي يقاربون أن يفعلوا ذلك، ولم يفعلوا. وتفهم قول الشاعر: نظرا يزيل ولم يقل: يكاد يزيل؛ لأنه نواها في نفسه»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: وإن يكاد الذين كفروا يا محمد يَنْفُذونك بأبصارهم من شدة عداوتهم لك، ويزيلونك فيرموا بك عند نظرهم إليك غيظا عليك. وقد قيل: إنه عُنِيَ بذلك: وإن يكاد الذين كفروا مما عانوك بأبصارهم ليرمون بك يا محمد، ويصرعونك، كما تقول العرب: كاد فلان يصرعني بشدة نظره إليّ، قالوا: وإنما كانت قريش عانوا رسول اللّه ﷺ ليصيبوه بالعين، فنظروا إليه ليعينوه، وقالوا: ما رأينا رجلا مثله، أو إنه لمجنون، فقال اللّه لنبيه عند ذلك: وإن يكاد الذين كفروا ليرمونك بأبصارهم ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقوله: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ يقول: لما سمعوا كتاب اللّه يتلى ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ يقول -تعالى ذكره-: يقول هؤلاء المشركون الذين وصف صفتهم إن محمدا لمجنون، وهذا الذي جاءنا به من الهذيان الذي يَهْذِي به في جنونه ﴿وَمَا هُوَ

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص: ١٧٠-١٧١).

(٢) جامع البيان (٢٩/ ٤٦).

﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ وما محمد إلا ذِكر ذَكَّر اللَّه به العالَمينِ الثقلين الجنّ والإنس»[1] .

قال ابن القيم: «وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾ إنه الإصابة بالعين فأرادوا أن يصيبوا بها رسول اللَّه، فنظر إليه قوم من العائنين وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حجته، وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها ثم يقول لخادمه خذ المكتل والدرهم وآتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول: لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه! فما تذهب إلا قليلا حتى يسقط منها طائفة، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول اللَّه بالعين، ويفعل به كفعله في غيره فعصمه اللَّه تعالى وحفظه، وأنزل عليه ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن الكريم نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك. قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك، وهذا مستعمل في الكلام، يقول القائل:

نظر إلي نظر قد كان يصرعني

قال: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن الكريم، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيحدون إليه النظر بالبغضاء النظر الذي يؤثر في المنظور.

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون بسببه شدة العداوة والحسد فيؤثر نظره فيه كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة، فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قبلا اجتمعت الهمة عليه وتوجهت النفس بكليتها إليه فيتأثر بنظره، حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته، وقد شاهد الناس من ذلك كثيرا.

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٤٧).

وقد يكون سببه الإعجاب وهو الذي يسمونه بإصابة العين، وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين، وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه فيصاب بذلك.

قال عبد الرزاق بن معمر عن هشام بن قتيبة قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**العين حق**»[١] رواه البخاري ومسلم، و«نهى عن الوشم» رواه البخاري ومسلم، وروى سفيان عن عمرو بن دينار، عن عروة، عن عامر، عن عبيد ابن رفاعة، أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول اللَّه إن ابني جعفر تصيبهم العين أفتسترقي لهم؟ قال: **نعم، فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين**»[٢] صحيح.

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العدواة، فهو نظر يكاد يزلقه لولا حفظ اللَّه وعصمته، فهذا أشد من نظر العائن؛ بل هو جنس من نظر العائن، فمن قال: إنه من الإصابة بالعين أراد هذا المعنى، ومن قال: ليس به أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب، فالقرآن الكريم حق»[٣].

قال القرطبي: «أقوال المفسرين واللغويين تدل على ما ذكرنا، وأن مرادهم بالنظر إليه قتله. ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك..

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٥٢﴾ أي: وما القرآن إلا ذكر للعالمين. وقيل: أي وما محمد إلا ذكر للعالمين يتذكرون به. وقيل: معناه شرف، أي القرآن. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝٤٤﴾[٤] والنبي ﷺ شرف للعالمين أيضا. شرفوا باتباعه والإيمان به ﷺ»[٥].

قال ابن كثير: «في هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر اللَّه ﷻ»[٦].

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٩٣٨)، والترمذي (٤/ ٣٤٦/ ٢٠٥٩)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٠/ ٣٥١٠)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٥/ ٧٥٣٧).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٢٣١-٢٣٢).

(٤) الزخرف: الآية (٤٤).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٦٦).

(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٢٧).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العين حق

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**العين حق**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

العين: تقول: عنت الرجل: أصبته بعينك، فهو معين ومعيون، ورجل عائن ومعيان وعيون. والعين: نظر باستحسان مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله: «**العين حق**» أي: ثابت موجود، لا شك فيه. وهذا قول علماء الأمة، ومذهب أهل السنة. وقد أنكرته طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون بالأحاديث النصوص الصريحة، الكثيرة الصحيحة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود. فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أحَلَّتْه القِدْر، لكن ذلك بمشيئة اللَّه تعالى كما قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾[(٢)]، ولا يلتفت إلى معرض عن الشرع والعقل يتمسك في إنكار ذلك باستبعاد ليس له أصل، فإنا نشاهد من خواص الأحجار، وتأثير السحر، وسموم الحيوانات ما يقضى منها العجب، ويتحقق أن كل ذلك فعل مسبب كل سبب. ولا يلتفت أيضا إلى قول من قال من المثبتين للعين: إن العائن تنبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد، كما تنبعث قوة سمية من الأفعى والعقرب تتصل باللديغ فتهلكه؛ لأنا نقول لهؤلاء: إن كنتم تريدون بالقوة: أن هناك معنى يقتضي ذلك الضرر بذاته وأن ذلك ليس فعلا لله تعالى فذلك كفر؛ لأنه جحد لما علم من الشرع والعقل من أنه لا خالق إلا اللَّه ﷻ- ولا فاعل على الحقيقة إلا هو. وإن كان يريد بذلك: أن اللَّه تعالى هو الفاعل للسبب والمسبب فهو الحق الصريح، غير أن إطلاق لفظ القوة في هذا المعنى ليس بحسن عند المتشرعين ولا صحيح»[(٣)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٩)، والبخاري (١٠/ ٤٦٤/ ٥٩٤٤)، ومسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٧)، وأبو داود (٤/ ٢١٠/ ٣٨٧٩)، وابن ماجه (٢/ ١١٥٩/ ٣٥٠٧).

(٢) البقرة: الآية (١٠٢).

(٣) المفهم (٥/ ٥٦٥-٥٦٦).

قال ابن القيم: «أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين، وقالوا: إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل، ومن أغلظهم حجابا، وأكثفهم طباعا، وأبعدهم معرفة عن الأرواح والنفوس، وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها. وعقلاء الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم لا تدفع أمر العين، ولا تنكره، وإن اختلفوا في سببه وجهة تأثير العين.

فقالت طائفة: إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة، انبعثت من عينه قوة سمية تتصل بالمعين فيتضرر. قالوا: ولا يستنكر هذا كما لا يستنكر انبعاث قوة سمية من الأفعى تتصل بالإنسان فيهلك، وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعي أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك فكذلك العائن.

وقالت فرقة أخرى: لا يستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهر لطيفة غير مرئية فتتصل بالمعين، وتتخلل مسام جسمه، فيحصل له الضرر.

وقالت فرقة أخرى: قد أجرى اللَّه العادة بخلق ما يشاء من الضرر عند مقابلة عين العائن لمن يعينه من غير أن يكون منه قوة ولا سبب ولا تأثير أصلا، وهذا مذهب منكري الأسباب والقوى والتأثيرات في العالم، وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب، وخالفوا العقلاء أجمعين.

ولا ريب أن اللَّه سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قوى وطبائع مختلفة، وجعل في كثير منها خواص وكيفيات مؤثرة، ولا يمكن لعاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام، فإنه أمر مشاهد محسوس، وأنت ترى الوجه كيف يحمر حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحي منه، ويصفر صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه، وقد شاهد الناس من يسقم من النظر وتضعف قواه، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح، ولشدة ارتباطها بالعين ينسب الفعل إليها، وليست هي الفاعلة، وإنما التأثير للروح، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها وكيفيتها وخواصها، فروح الحاسد مؤذية للمحسود أذى بينا، ولهذا أمر اللَّه سبحانه رسوله أن يستعيذ به من شره، وتأثير الحاسد في أذى المحسود أمر لا ينكره إلا من هو خارج عن حقيقة الإنسانية، وهو أصل الإصابة بالعين، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة، وتقابل المحسود، فتؤثر فيه بتلك الخاصية، وأشبه الأشياء بهذا الأفعى؛ فإن السم كامن فيها بالقوة، فإذا قابلت عدوها، انبعثت منها قوة غضبية، وتكيفت

بكيفية خبيثة مؤذية، فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثر في إسقاط الجنين، ومنها ما تؤثر في طمس البصر، كما قال النبي ﷺ في الأبتر: وذي الطفيتين من الحيات: «**إنهما يلتمسان البصر، ويسقطان الحبل**»(١).

ومنها ما تؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية من غير اتصال به لشدة خبث تلك النفس، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة، والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية كما يظنه من قل علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة؛ بل التأثير يكون تارة بالاتصال، وتارة بالمقابلة، وتارة بالرؤية، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه، وتارة بالأدعية والرقى والتعوذات، وتارة بالوهم والتخيل، ونفس العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية، بل قد يكون أعمى، فيوصف له الشيء، فتؤثر نفسه فيه، وإن لم يره، وكثير من العائنين يؤثر في المعين بالوصف من غير رؤية، وقد قال تعالى لنبيه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾(٢)، فكل عائن حاسد، وليس كل حاسد عائنا، فلما كان الحاسد أعم من العائن، كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة، فإن صادفته مكشوفا لا وقاية عليه أثرت فيه ولابد، وإن صادفته حذرا شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام لم تؤثر فيه، وربما ردت السهام على صاحبها، وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء، فهذا من النفوس والأرواح، وذاك من الأجسام والأشباح. وأصله من إعجاب العائن بالشيء، ثم تتبعه كيفية نفسه الخبيثة، ثم تستعين على تنفيذ سمها بنظرة إلى المعين، وقد يعين الرجل نفسه، وقد يعين بغير إرادته بل بطبعه، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني»(٣).

* عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**العين حق، ولو كان شيء سابق القدر**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٩)، والبخاري (٦/ ٤٢٧/ ٣٢٩٧)، ومسلم (٤/ ١٧٥٢/ ٢٢٣٣)، وأبو داود (٥/ ٤١١/ ٥٢٥٢)، والترمذي (٤/ ٦٤-٦٥/ ١٤٨٣)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٩/ ٣٥٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سورة الفلق كاملة.

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٦٥-١٦٨).

سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قوله ﷺ: «ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين» فيه إثبات القدر، وهو حق بالنصوص وإجماع أهل السنة.. ومعناه أن الأشياء كلها بقدر اللَّه تعالى، ولا تقع إلا على حسب ما قدرها اللَّه تعالى وسبق بها علمه، فلا يقع ضرر العين ولا غيره من الخير والشر إلا بقدر اللَّه تعالى. وفيه صحة أمر العين؛ وأنها قوية الضرر. واللَّه أعلم»[٢].

قال الحافظ: «فيه إشارة إلى الرد على من زعم من المتصوفة أن قوله: «العين حق» يريد به القدر، أي: العين التي تجري منها الأحكام؛ فإن عين الشيء حقيقته، والمعنى أن الذي يصيب من الضرر بالعادة عند نظر الناظر إنما هو بقدر اللَّه السابق لا بشيء يحدثه الناظر في المنظور، ووجه الرد أن الحديث ظاهر في المغايرة بين القدر وبين العين، وإن كنا نعتقد أن العين من جملة المقدور، لكن ظاهره إثبات العين التي تصيب إما بما جعل اللَّه تعالى فيها من ذلك وأودعه فيها، وإما بإجراء العادة بحدوث الضرر عند تحديد النظر، وإنما جرى الحديث مجرى المبالغة في إثبات العين لا أنه يمكن أن يرد القدر شيء إذ القدر عبارة عن سابق علم اللَّه، وهو لا راد لأمره، أشار إلى ذلك القرطبي[٣]. وحاصله لو فرض أن شيئا له قوة بحيث يسبق القدر لكان العين، لكنها لا تسبق، فكيف غيرها؟»[٤].

قال القرطبي: «قوله: «وإذا استغسلتم فاغسلوا» هذا خطاب لمن يتهم بأنه عائن، فيجب عليه ذلك ويقضى عليه به إذا طلب منه ذلك، ولا سيما إذا خيف على المعين الهلاك»[٥].

قال الحافظ: «وفي الحديث من الفوائد أن العائن إذا عرف يقضى عليه بالاغتسال، وأن الاغتسال من النشرة النافعة»[٦].

---

(١) أخرجه: مسلم (٤/ ١٧١٩/ ٢١٨٨)، والترمذي (٤/ ٣٤٧/ ٢٠٦٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨١/ ٧٦٢٠).
(٢) شرح مسلم (١٤/ ١٤٥-١٤٦).
(٣) المفهم (٥/ ٥٦٦).
(٤) فتح الباري (١٠/ ٢٥٠).
(٥) المفهم (٥/ ٥٦٦).
(٦) الفتح (١٠/ ٢٥٢).

قال المازري: «وهذا أمر يحمل على الوجوب، ويتضح عندي الوجوب ويبعد الخلاف فيه إذا خشي على المعيون الهلاك، وكان وضوء العائن مما جرت العادة بالبرء به، أو كان الشرع أخبر به خبرا عاما، ولم يمكن زوال الهلاك عن المعيون إلا بوضوء هذا العائن؛ فإنه يصير من باب من تعين عليه إحياء نفس مسلم، وهو يجبر على بذل الطعام الذي له ثمن ويضر بذله، فكيف هذا مما يرتفع الخلاف فيه؟!»[(١)].

وقال: «وصفة وضوء العائن عند العلماء أن يؤتى بقدح من ماء، ولا يوضع القدح في الأرض، فيأخذ منه غرفة فيتمضمض بها ثم يمجها في القدح، ثم يأخذ منه ما يغسل به وجهه، ثم يأخذ بشماله ما يغسل به كفه اليمنى، ثم بيمينه ما يغسل به كفه اليسرى، ثم بشماله ما يغسل به مرفقه الأيمن، ثم بيمينه ما يغسل به مرفقه الأيسر، ولا يغسل ما بين المرفقين والكفين، ثم قدمه اليمنى، ثم اليسرى، ثم ركبته اليمنى، ثم اليسرى على الصفة المتقدمة والرتبة المتقدمة، وكل ذلك في القدح، ثم داخلة إزاره وهو الطرف المتدلي الذي يلي حقوه الأيمن. وقد ظن بعضهم أن داخلة الإزار كناية عن الفرج، وجمهور العلماء على ما قلناه. فإذا استكمل هذا صبه خلفه من على رأسه»[(٢)].

قال أبو عمر بن عبد البر: «وأحسن شيء في تفسير الاغتسال للمعين ما وصفه الزهري، وهو راوي الحديث، ذكر ذلك عنه ابن أبي ذئب وغيره: حدثنا أبو عثمان سعيد بن نصر، قال: حدثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا ابن وضاح، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا شبابة، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل، عن أبيه، أن عامرا مر به وهو يغتسل، فقال: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة، قال: فلبط به حتى ما يعقل لشدة الوجع، فأخبر بذلك النبي ﷺ، فتغيظ عليه، فدعاه النبي ﷺ، فقال: **قتلته، علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا بركت؟** فأمر النبي ﷺ بذلك فقال: **اغسلوه**، فاغتسل، فخرج مع الركب[(٣)]. قال: وقال الزهري: إن هذا من العلم، يغتسل له الذي عانه، يؤتى بقدح من ماء، فيدخل يده

(١) المعلم (٣/ ٩٢).
(٢) المعلم (٣/ ٩٢).
(٣) سيأتي تخريجه قريبا.

القدح، فيمضمض ويمجه في القدح، ويغسل وجهه في القدح، ثم يصب بيده اليسرى على كفه اليمنى ثم بكفه اليمنى على كفه اليسرى، ثم يدخل بيده اليسرى فيصب بها على مرفق يده اليمنى، ثم بيده اليمنى على مرفق يده اليسرى، ثم يغسل قدمه اليمنى، ثم يدخل اليمنى فيغسل قدمه اليسرى، ثم يدخل يده اليمنى فيغسل الركبتين، ثم يأخذ داخلة إزاره فيصب على رأسه صبة واحدة، ولا يضع القدح حتى يفرغ. وزاد ابن حبيب في قول الزهري هذا، حكاه عن الحنفي، عن ابن أبي ذئب، عن الزهري: يصب من خلفه صبة واحدة يجرى على جسده، ولا يوضع القدح في الأرض. قال: ويغسل أطرافه المذكورة كلها وداخلة إزاره في القدح»[1].

وقال ابن القيم مبينا أنواع العلاج من العين: «ومنها: أن يؤمر العائن بغسل مغابنه وأطرافه وداخلة إزاره، وفيه قولان:

أحدهما: أنه فرجه.

والثاني: أنه طرف إزاره الداخل الذي يلي جسده من الجانب الأيمن، ثم يصب على رأس المعين من خلفه بغتة، وهذا مما لا يناله علاج الأطباء، ولا ينتفع به من أنكره، أو سخر منه، أو شك فيه، أو فعله مجربا لا يعتقد أن ذلك ينفعه.

وإذا كان في الطبيعة خواص لا تعرف الأطباء عللها ألبتة، بل هي عندهم خارجة عن قياس الطبيعة تفعل بالخاصية، فما الذي ينكره زنادقتهم وجهلتهم من الخواص الشرعية، هذا مع أن في المعالجة بهذا الاستغسال ما تشهد له العقول الصحيحة، وتقر لمناسبته، فاعلم أن ترياق سم الحية في لحمها، وأن علاج تأثير النفس الغضبية في تسكين غضبها، وإطفاء ناره بوضع يدك عليه، والمسح عليه، وتسكين غضبه، وذلك بمنزلة رجل معه شعلة من نار، وقد أراد أن يقذفك بها، فصببت عليها الماء، وهي في يده حتى طفئت، ولذلك أمر العائن أن يقول: (اللهم بارك عليه) ليدفع تلك الكيفية الخبيثة بالدعاء الذي هو إحسان إلى المعين، فإن دواء الشيء بضده. ولما كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر في المواضع الرقيقة من الجسد، لأنها تطلب النفوذ، فلا تجد أرق من المغابن، وداخلة الإزار، ولا سيما إن كان كناية عن الفرج، فإذا غسلت بالماء، بطل تأثيرها وعملها، وأيضا فهذه المواضع

---

(١) التمهيد (فتح البر ٦/ ٢٨٩-٢٩٠).

للأرواح الشيطانية بها اختصاص.

والمقصود: أن غسلها بالماء يطفئ تلك النارية، ويذهب بتلك السمية.

وفيه أمر آخر؛ وهو وصول أثر الغسل إلى القلب من أرق المواضع وأسرعها تنفيذا، فيطفئ تلك النارية والسمية بالماء، فيشفى المعين، وهذا كما أن ذوات السموم إذا قتلت بعد لسعها خف أثر اللسعة عن الملسوع، ووجد راحة، فإن أنفسها تمد أذاها بعد لسعها، وتوصله إلى الملسوع، فإذا قتلت خف الألم، وهذا مشاهد. وإن كان من أسبابه فرح الملسوع، واشتفاء نفسه بقتل عدوه، فتقوى الطبيعة على الألم، فتدفعه.

وبالجملة: غسل العائن يذهب تلك الكيفية التي ظهرت منه، وإنما ينفع غسله عند تكيف نفسه بتلك الكيفية.

فإن قيل: فقد ظهرت مناسبة الغسل، فما مناسبة صب ذلك الماء على المعين؟ قيل: هو في غاية المناسبة، فإن ذلك الماء ماء طفئ به تلك النارية، وأبطل تلك الكيفية الرديئة من الفاعل، فكما طفئت به النارية القائمة بالفاعل طفئت به، وأبطلت عن المحل المتأثر بعد ملابسته للمؤثر العائن، والماء الذي يطفأ به الحديد يدخل في أدوية عدة طبيعية ذكرها الأطباء، فهذا الذي طفئ به نارية العائن لا يستنكر أن يدخل في دواء يناسب هذا الداء.

وبالجملة: فطب الطبائعية وعلاجهم بالنسبة إلى العلاج النبوي كطب الطرقية بالنسبة إلى طبهم؛ بل أقل، فإن التفاوت الذي بينهم وبين الأنبياء أعظم، وأعظم من التفاوت الذي بينهم وبين الطرقية بما لا يدرك الإنسان مقداره. فقد ظهر لك عقد الإخاء الذي بين الحكمة والشرع، وعدم مناقضة أحدهما للآخر، والله يهدي من يشاء إلى الصواب، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب، وله النعمة السابغة، والحجة البالغة»(١).

قال الحافظ: «هذا الغسل ينفع بعد استحكام النظرة، فأما عند الإصابة وقبل الاستحكام فقد أرشد الشارع إلى ما يدفعه بقوله في قصة سهل بن حنيف المذكورة

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧١-١٧٢).

كما مضى «**ألا بركت عليه**»[1] وفي رواية ابن ماجه: «**فليدع بالبركة**»»[2].

قال القاضي عياض: «وفيه من الفقه ما قاله بعض العلماء: ينبغي إذا عرف أحد بالإصابة بالعين اجتنابه والتحرر منه، وينبغي للإمام منعه من مداخلة الناس، ويأمره بلزوم بيته، وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به، ويكف أذاه عن الناس، فضرره أشد من ضرر أكل الثوم والبصل الذي منعه النبي ﷺ دخول المسجد لئلا يؤذي المسلمين، ومن ضرر المجذوم الذي منع عمر والعلماء اختلاطهم بالناس، ومن ضرر العوادي من المواشي الذي أمر بتغريبها حتى لا يتأذى منها»[3].

قال ابن القيم: «وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء أن من عرف بذلك حبسه الإمام وأجرى له ما ينفق عليه إلى الموت وهذا هو الصواب قطعا»[4].

قال النووي -بعد سوقه لكلام القاضي المتقدم-: «وهذا الذي قاله هذا القائل صحيح متعين، ولا يعرف عن غيره تصريح بخلافه، والله أعلم»[5].

* عن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «**يا محمد! اشتكيت؟ فقال: «نعم»، قال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك**»[6].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قوله: «**ومن شر كل نفس أو عين حاسد**» هذا تصريح بالرقى بأسماء الله تعالى، وفيه توكيد الرقية والدعاء وتكريره. وقوله: «من شر كل نفس» قيل: يحتمل أن المراد بالنفس نفس الآدمي. وقيل: يحتمل أن المراد بها العين؛ فإن النفس تطلق على العين، ويقال: رجل نفوس: إذا كان يصيب الناس بعينه كما قال في الرواية الأخرى «من شر كل ذي عين» ويكون قوله: «**أو عين حاسد**» من باب

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٨٦-٤٨٧)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٠/ ٣٥٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٠/ ١٠٠٣٧)، وصححه ابن حبان (١٣/ ٤٧٠-٤٧١/ ٦١٠٦ الإحسان)، والحاكم (٣/ ٤١١-٤١٢) ووافقه الذهبي.

(٢) الفتح (١٠/ ٢٥١).

(٣) الإكمال (٧/ ٨٥).

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٦٨).

(٥) شرح مسلم (١٤/ ١٤٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٥٨)، ومسلم (٤/ ١٧١٨-١٧١٩/ ٢١٨٦)، والترمذي (٣/ ٣٠٣/ ٩٧٢)، وقال: «حديث أبي سعيد حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٣/ ٧٦٦٠)، وابن ماجه (٢/ ١١٦٤/ ٣٥٢٣).

التوكيد بلفظ مختلف، أو شكا من الراوي في لفظه، والله أعلم»[١].

قال ابن عبد البر: «لا أعلم خلافا بين أهل العلم في جواز الاسترقاء من العين والحمة، وقد ثبت ذلك عن النبي ﷺ والآثار في الرقى أكثر من أن تحصى. وقال جماعة من أهل العلم: الرقى جائز من كل وجع، ومن كل ألم، ومن العين وغير العين»[٢].

وقال أيضا: «لا أعلم خلافا بين العلماء في جواز الرقية من العين، أو الحمة؛ وهي لدغة العقرب، وما كان مثلها، إذا كانت الرقية بأسماء الله ﷻ، ومما يجوز الرقي به، وكان ذلك بعد نزول الوجع والبلاء، وظهور العلة والداء»[٣].

وقال البغوي: «تجوز الرقية بذكر الله ﷻ في جميع الأوجاع»[٤].

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان، وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «قوله: «أخذ بهما وترك ما سواهما» أي مما كان يتعوذ به من الكلام غير القرآن لما ثبت أنه كان يرقي بالفاتحة، وفيهما الاستعاذة بالله فكان يرقى بها تارة ويرقى بالمعوذتين أخرى لما تضمنتاه من الاستعاذة من كل مكروه؛ إذ الاستعاذة من شر ما خلق تعم كل شر يستعاذ منه في الأشباح والأرواح، والاستعاذة من شر الغاسق وهو الليل وآيته أو القمر إذا غاب يتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة، والاستعاذة من شر النفاثات تتضمن الاستعاذة من شر السواحر وسحرهن، والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من شر النفوس الخبيثة المؤذية. والسورة الثانية تتضمن الاستعاذة من شر الإنس والجن، فجمعت السورتان الاستعاذة من كل شر فكانا جديرين بالأخذ بهما وترك ماعداهما»[٦].

---

(١) شرح مسلم (١٤/ ١٤٣).
(٢) التمهيد (٦/ ٢٧٤ فتح البر).
(٣) الاستذكار (٢٧/ ١٨-١٩).
(٤) شرح السنة (٢/ ١٦٢).
(٥) أخرجه: الترمذي (٤/ ٣٤٥/ ٢٠٥٨)، وقال: «حديث حسن غريب»، والنسائي (٨/ ٦٦٤-٦٦٥/ ٥٥٠٩)، وابن ماجه (٢/ ١١٦١/ ٣٥١١).
(٦) الفيض (٥/ ٢٠٢).

قال الحافظ: «وهذا لا يدل على المنع من التعوذ بغير هاتين السورتين، بل يدل على الأولوية، ولاسيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما، وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلا»[١].

قال ابن القيم: «ومن جرب هذه الدعوات والعوذ عرف مقدار منفعتها، وشدة الحاجة إليها، وهي تمنع وصول أثر العائن، وتدفعه بعد وصوله بحسب قوة إيمان قائلها، وقوة نفسه، واستعداده، وقوة توكله وثبات قلبه؛ فإنها سلاح، والسلاح بضاربه»[٢].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أمرني رسول اللّه ﷺ -أو أمر- أن يسترقى من العين»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «الرقية من العين والنظرة وغير ذلك باسم اللّه تعالى وكتابه مرجو بركتها لأمر النبي ﷺ بذلك»[٤].

قال القرطبي: «فجازت الرقية من كل الآفات من الأمراض، والجراح، والقروح، والحمة، والعين، وغير ذلك؛ إذا كان الرقى بما يفهم، ولم يكن فيه شرك، ولا شيء ممنوع. وأفضل ذلك وأنفعه: ما كان بأسماء اللّه تعالى وكلامه وكلام رسوله ﷺ»[٥].

* * *

(١) الفتح (١٠/ ٢٤٠).
(٢) زاد المعاد (٤/ ١٧٠).
(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٣ و١٣٨)، والبخاري (١٠/ ٢٤٥/ ٥٧٣٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٧٢٥/ ٢١٩٥)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٦٥/ ٧٥٣٦)، وابن ماجه (٢/ ١١٦١/ ٣٥١٢).
(٤) شرح صحيح البخاري (٩/ ٤٣٠).
(٥) المفهم (٥/ ٥٨١).



سورة الحاقة

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة. وتهديد المكذبين بوقوعه. وتذكيرهم بما حل بالأمم التي كذبت به من عذاب في الدنيا ثم عذاب الآخرة.

وتهديد المكذبين لرسل اللَّه تعالى بالأمم التي أشركت وكذبت. وأدمج في ذلك أن اللَّه نجى المؤمنين من العذاب، وفي ذلك تذكير بنعمة اللَّه على البشر إذ أبقى نوعهم بالإنجاء من الطوفان.

ووصف أهوال من الجزاء وتفاوت الناس يومئذ فيه.

ووصف فظاعة حال العقاب على الكفر وعلى نبذ شريعة الإسلام.

والتنويه بالقرآن. وتنزيه الرسول ﷺ وعن أن يكون غير رسول. وتنزيه اللَّه تعالى عن أن يقر من يتقول عليه. وتثبيت الرسول ﷺ. وإنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١١١).

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ① مَا ٱلْحَآقَّةُ ② وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ③﴾

★ **غريب الآية:**

الحاقة: القيامة. سميت بذلك لأن وقوعها حق ثابت مقطوع به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الساعة ﴿ٱلْحَآقَّةُ ①﴾ التي تحقّ فيها الأمور، ويجب فيها الجزاء على الأعمال ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ②﴾ يقول: أيّ شيء الساعة الحاقة. وذُكر عن العرب أنها تقول: لما عرف الحاقة متى والحقة متى، وبالكسر بمعنى واحد في اللغات الثلاث، وتقول: وقد حقّ عليه الشيء إذا وجب، فهو يحقّ حقوقا.

والحاقة الأولى مرفوعة بالثانية؛ لأن الثانية بمنزلة الكناية عنها، كأنه عجب منها، فقال: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ①﴾ ما هي، كما يقال: زيد ما زيد. والحاقة الثانية مرفوعة بما، و«ما» بمعنى أي، و«ما» رفع بالحاقة الثانية، ومثله في القرآن ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ㉗﴾[1] و﴿ٱلْقَارِعَةُ ① مَا ٱلْقَارِعَةُ ②﴾[2]، فما في موضع رفع بالقارعة الثانية، والأولى بجملة الكلام بعدها»[3].

قال الرازي: «**المسألة الأولى**: أجمعوا على أن الحاقة هي القيامة، واختلفوا في معنى الحاقة على وجوه:

أحدها: أن الحق هو الثابت الكائن، فالحاقة الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء التي هي آتية لا ريب فيها.

وثانيها: أنها التي تحق فيها الأمور، أي: تعرف على الحقيقة من قولك: لا أحق هذا، أي: لا أعرف حقيقته، جعل الفعل لها وهو لأهلها.

---

(١) الواقعة: الآية (٢٧).

(٢) القارعة: الآيتان (١و٢).

(٣) جامع البيان (٢٩/ ٤٧).

وثالثها: أنها ذوات الحواق من الأمور، وهي الصادقة الواجبة الصدق، والثواب، والعقاب، وغيرهما من أحوال القيامة أمور واجبة الوقوع والوجود، فهي كلها حواق.

ورابعها: أن الحاقة بمعنى الحقة، والحقة أخص من الحق وأوجب، تقول: هذه حقتي أي: حقي، وعلى هذا الحاقة بمعنى الحق، وهذا الوجه قريب من الوجه الأول.

وخامسها: قال الليث: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ النازلة التي حقت بالجارية فلا كاذبة لها وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾[1].

وسادسها: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ الساعة التي يحق فيها الجزاء على كل ضلال وهدى، وهي القيامة.

وسابعها: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ هو الوقت الذي يحق على القوم أن يقع بهم.

وثامنها: أنها الحق بأن يكون فيها جميع آثار أعمال المكلفين، فإن في ذلك اليوم يحصل الثواب والعقاب ويخرج عن حد الانتظار؛ وهو قول الزجاج.

وتاسعها: قال الأزهري: والذي عندي في الحاقة أنها سميت بذلك لأنها تحق كل محاق في دين الله بالباطل، أي: تخاصم كل مخاصم وتغلبه، من قولك: حاققته فحققته أي غالبته فغلبته وفلجت عليه. وعاشرها: قال أبو مسلم: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ الفاعلة من حقت كلمة ربك.

المسألة الثانية: الحاقة مرفوعة بالابتداء وخبرها ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ والأصل الحاقة ما هي؟ أي: أي شيء هي؟ تفخيمًا لشأنها، وتعظيمًا لهولها، فوضع الظاهر موضع المضمر لأنه أهول لها، ومثله قوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أي: وأي شيء أعلمك ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ يعني: إنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها، يعني: أنه في العظم والشدة بحيث لا يبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك»[2].

قال السعدي: «﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تحق وتنزل

---

(١) الواقعة: الآية (٢).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ١٠٣).

بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبآت الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه بما كرره من قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ فإن لها شأنا عظيما، وهولا جسيما»[(١)].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥٧).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾

★ **غريب الآية:**

القارعة: القيامة. سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بأفزاعها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «ذكر تعالى تكذيب ﴿ثَمُودُ وَعَادٌۢ﴾ بهذا الأمر الذي هو حق، مشيرًا إلى أن من كذب بذلك ينزل عليه مثل ما نزل بأولئك. و(القارعة) من أسماء القيامة أيضًا»[(١)].

قال الرازي: «القارعة: هي التي تقرع الناس بالأفزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والأرض والجبال بالدك والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار، وإنما قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ ولم يقل: بها، ليدل على أن معنى القرع حاصل في الحاقة، فيكون ذلك زيادة على وصف شدتها. ولما ذكرها وفخمها أتبع ذلك بذكر من كذب بها، وما حل بهم بسبب التكذيب تذكيرًا لأهل مكة، وتخويفًا لهم من عاقبة تكذيبهم»[(٢)].

قال السعدي: «ذكر نموذجا من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية فقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المشهورة سكان الحجر الذين أرسل اللَّه إليهم رسوله صالحا عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تقرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى سكان حضرموت حين بعث اللَّه إليهم رسوله هودا -عليه الصلاة والسلام- يدعوهم إلى عبادة اللَّه وحده فكذبوه وأنكروا ما أخبر به من البعث، فأهلك اللَّه الطائفتين بالهلاك العاجل»[(٣)].

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ٣٥٦).
(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ١٠٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥٧-٤٥٨).

قال ابن عاشور: «وهو تذكير بما حل بثمود وعاد لتكذيبهم بالبعث والجزاء، تعريضًا بالمشركين من أهل مكة بتهديدهم أن يحق عليهم مثل ما حل بثمود وعاد، فإنهم سواء في التكذيب بالبعث، وعلى هذا يكون قوله ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ الخ توطئة له وتمهيدًا لهذه الموعظة العظيمة استرهابًا لنفوس السامعين.. وابتدىء بثمود وعاد في الذكر من بين الأمم المكذبة لأنهما أكثر الأمم المكذبة شهرة عند المشركين من أهل مكة، لأنهما من الأمم العربية، ولأن ديارهما مجاورة شمالًا وجنوبًا»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١١٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾ قوم صالح، فأهلكهم اللَّه بالطاغية.

واختلف -في معنى الطاغية التي أهلك اللَّه بها ثمود- أهلُ التأويل، فقال بعضهم: هي طغيانهم وكفرهم باللَّه..

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فأهلكوا بالصيحة التي قد جاوزت مقادير الصياح وطغت عليها..

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فأُهلكوا بالصيحة الطاغية.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لأن اللَّه إنما أخبر عن ثمود بالمعنى الذي أهلكها به، كما أخبر عن عاد بالذي أهلكها به، فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ ولو كان الخبر عن ثمود بالسبب الذي أهلكها من أجله كان الخبر أيضا عن عاد كذلك؛ إذ كان ذلك في سياق واحد، وفي إتباعه ذلك بخبره عن عاد بأن هلاكها كان بالريح الدليل الواضح على أن إخباره عن ثمود إنما هو ما بينت»[1].

قال ابن عاشور: «ابتدىء بذكر ثمود لأن العذاب الذي أصابهم من قبيل القرع إذ أصابتهم الصواعق المسماة في بعض الآيات بالصيحة. والطاغية: الصاعقة -في قول ابن عباس وقتادة- نَزلت عليهم صاعقة أو صواعق فأهلكتهم، لأن منازل ثمود كانت في طريق أهل مكة إلى الشام في رحلتهم فهم يرونها، قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ

(١) جامع البيان (٢٩/ ٤٩).

بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾[١]، ولأن الكلام على مهلك عاد أنسب فأخر لذلك أيضًا .

وإنما سميت الصاعقةُ أو الصيحة ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ لأنها كانت متجاوزة الحال المتعارف في الشدة، فشبه فعلها بفعل الطاغي المتجاوز الحد في العدوان والبطش»[٢].

قال السعدي: «﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطعت قلوبهم وزهقت لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم»[٣].

* * *

(١) النمل: الآية (٥٢).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١١٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾

⋆ غريب الآية:

صرصر: أي: ريح شديدة الصوت والبرد.

عاتية: شديدة.

حسوما: أي: متتالية. وقيل: من الحَسْم، بمعنى: القطع والاستئصال والإفناء.

خاوية: أي خالية، لا شيء في جوفها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وأما عاد قوم هود فأهلكهم اللَّه بريح صرصر، وهي الشديدة العصوف، مع شدة بردها، ﴿عَاتِيَةٍ﴾ يقول: عتت على خزانها في الهبوب، فتجاوزت في الشدّة والعصوف مقدارها المعروف في الهبوب والبرد..

وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: سخر تلك الرياح على عاد سبع ليال وثمانية أيام حسوما؛ فقال بعضهم: عُني بذلك تباعا..

وقال آخرون: عني بقوله: ﴿حُسُومًا﴾: الريح، وأنها تحسم كلّ شيء، فلا تبقي من عاد أحدا، وجعل هذه الحسوم من صفة الريح..

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عُني بقوله: ﴿حُسُومًا﴾: متتابعة، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك. وكان بعض أهل العربية يقول: الحسوم: التباع، إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوّله عن آخره قيل فيه حسوم؛ قال:

وإنما أخذ والله أعلم من حسم الداء: إذا كوى صاحبه؛ لأنه لحم يكوى بالمكواة، ثم يتابع عليه.

وقوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ يقول: فترى يا محمد قوم عاد في تلك السبع الليالي والثمانية الأيام الحسوم صرعى قد هلكوا، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ يقول: كأنهم أصول نخل قد خوت..

وقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فهل ترى يا محمد لعاد قوم هود من بقاء. وقيل: عُني بذلك: فهل ترى منهم باقيا. وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من البصريين يقول: معنى ذلك: فهل ترى لهم من بقية، ويقول: مجازها مجاز الطاغية مصدر»[1].

قال السعدي: «﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: قوية شديدة الهبوب لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: عتت على خزانها، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد وزادت على الحد كما هو الصحيح. ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: نحسا وشرا فظيعا عليهم فدمرتهم وأهلكتهم، ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ أي: هلكى موتى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رءوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض. ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عذاب الله للأمم المشركة التي ردت توحيده، وسنن أنبيائه ورسله

* عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿حُسُومًا﴾ قال: متتابعات.[3]

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٤٩-٥٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥٨).

(٣) أخرجه: ابن جرير (٢٩/ ٥٠)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢١٨/ ٩٠٦١)، والحاكم (٢/ ٥٠٠) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٨) وقال: «رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف» وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٨٥٨): «أخرجه الطبراني عن ابن مسعود موقوفا بإسناد حسن وصححه الحاكم». وفي الباب عن ابن عباس أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٥٠).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**»[(١)].

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: «بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذهيبة فقسمها بين الأربعة الأقرع بن حابس الحنظلي، ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي، ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا. قال: «**إنما أتألفهم**» فأقبل رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية محلوق فقال: اتق الله يا محمد فقال: «**من يطع الله إذا عصيت؟ أيأمنني الله على أهل الأرض ولا تأمنوني؟**» فسأله رجل قتله -أحسبه خالد بن الوليد- فمنعه، فلما ولى قال: «**إن من ضئضئ هذا - أو: في عقب هذا- قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[(٢)].

★ غريب الأحاديث:

الصبا: الريح التي تجيء من ظهرك إذا استقبلت القبلة.

الدبور: الريح التي تجيء من قبل وجهك إذا استقبلت القبلة أيضا.

★ فوائد الأحاديث:

تقدمت في سورة هود[(٣)] عند قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾.

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨ و٣٢٤ و٣٤١)، والبخاري (٦/ ٣٦٩/ ٣٢٠٥)، ومسلم (٢/ ٦١٧/ ٩٠٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٧/ ١١٦١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٨)، والبخاري (٦/ ٤٦٣-٤٦٤/ ٣٣٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٤١/ ١٠٦٤)، وأبو داود (٥/ ١٢١-١٢٢/ ٤٧٦٤)، والنسائي (٧/ ١٣٤-١٣٥/ ٤١١٢).

(٣) الآية (٥٠).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما أخبر تعالى عمن أهلك بالريح ومن أهلك بما سببه الريح تسبيبًا قريبًا بغير واسطة، وكان ذلك كله -لخروجه عن العادة- رادًا على أهل الطبائع، أخبر بمن أهلك مما سببته الريح من الماء بواسطة السحاب، وكانت سبب تطابقه عليهم مع أن كفرهم بالتعطيل الذي هو أنحس أنواع الكفر للقول بالطبيعة التي تتضمن الإنكار للبعث، وكان إغراقهم بما يكذب معتقدهم لخروجه عن العادة، فقال منبهًا على قوة كفرهم بالمجيء: ﴿وَجَآءَ﴾ أي: أتى إتيانًا عاليًا شديدًا ﴿فِرْعَوْنُ﴾ أي: الذي ملكناه على طائفة من الأرض فعتى وتجبر وادعى الإلهية ناسيًا هيبتنا وقدرتنا بنقمتنا، وأنكر الصانع، وقال بالطبائع ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي: في جهته وفي حيزه وما يليه، وفي السير بسيرته من العلو في الأرض بغير الحق والعتو في الكفر، وهو ظرف مكان، هكذا على قراءة البصريين والكسائي بكسر القاف وفتح الموحدة، فعم ذلك كل من كان كافرًا عاتيًا من قبله ومن بعده، وهو معنى قراءة الباقين بفتح القاف وإسكان الباء الموحدة على أنه ظرف يقابل «بعد» بزيادة.

ولما كان قوم لوط ﷺ قد جمعوا أنواعًا من الفسوق لم يشاركهم فيها أحد، فاشتمل عذابهم على ما لم يكن مثله عذاب، فكان كل من فعلهم الذي لم يسبقهم به أحد من العالمين وعذابهم الذي ما كان مثله قبل ولا بعد، رادًا على أهل الطبائع، نص عليهم من بين من دخل فيمن قبله على القراءتين فقال: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي: أهل المدائن المنقلبات بأهلها حتى صار عاليها سافلًا، لما حصل لأهلها من الانقلاب حتى صاروا إياه، واتبعت حجارة الكبريت، وخسف بها، وغمرت بما ليس في الأرض مثله وهي قرى قوم لوط ﷺ ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي: الخطأ، أو الأفعال ذات الخطأ التي تتخطى منها إلى نفس الفعل القبيح من اللواط والصفع والضراط مع

الشرك وغير ذلك من أنواع الفسق والعناد والطغيان»[١].

قال ابن عاشور: «وقد جُمع في الذكر هنا عدةُ أمم تقدمت قبل بعثة موسى ﷺ إجمالًا وتصريحًا، وخص منهم بالتصريح قوم فرعون والمؤتفكات لأنهم من أشهر الأمم ذكرًا عند أهل الكتاب المختلطين بالعرب والنازلين بجوارهم، فمن العرب من يبلغه بعض الخبر عن قصتهم.

وفي عطف هؤلاء على ثمود وعاد -في سياق ذكر التكذيب بالقارعة- إيماء إلى أنهم تشابهوا في التكذيب بالقارعة كما تشابهوا في المجيء بالخاطئة وعصيان رسل ربّهم، فحصل في الكلام احتباك»[٢].

قال السعدي: «أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطغاة العتاة كفرعون -مصر الذي أرسل اللّه إليه عبده ورسوله موسى ابن عمران -عليه الصلاة والسلام-، وأراهم من الآيات البينات ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا، وكفروا ظلما وعلوا، وجاء من قبله من المكذبين، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي: قرى قوم لوط، الجميع جاءوا ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالفعلة الطاغية وهي الكفر، والتكذيب، والظلم، والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش والفسوق»[٣].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤٦-٣٤٨).
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٥٩).

قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

رابية: أي زائدة في الشدة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: فعصى هؤلاء الذين ذكرهم اللَّه، وهم فرعون ومن قبله والمؤتفكات رسول ربهم.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ يقول: فأخذهم ربهم بتكذيبهم رسله أخذة، يعني أخذة زائدة شديدة نامية، من قولهم: أربيت: إذا أخذ أكثر مما أعطى من الربا؛ يقال: أربيتَ فرَبا رِباك، والفضة والذهب قد رَبوا»[(١)].

قال ابن كثير: «وهذا جنس، أي: كُلّ كذّبَ رسول اللَّه إليهم. كما قال: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[(٢)]. ومن كذب رسول اللَّه فقد كذب بالجميع، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾[(٣)]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[(٤)]. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾[(٥)] وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ أي: عظيمة شديدة أليمة»[(٦)].

قال البقاعي: «ولما كان الرسل كلهم جميعًا كالفرد الواحد لاتفاق مقاصدهم في الدعاء إلى اللَّه والحمل على طاعته، قال -مستأنفًا مسببًا عن مجيئهم بذلك، موحدًا في اللفظ ما هو صالح للكثير بإرادة الجنس-: ﴿فَعَصَوْاْ﴾ أي: خالفوا ونابذوا ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالفت كل أمة من أرسله المحسن إليها بإبداعها من العدم، وإيداعها القوى، وترزيقها، وبعث رسولها لإرشادها اغترارًا بإحسانه، ولم

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٥٣).
(٢) ق: الآية (١٤).
(٣) الشعراء: الآية (١٠٥).
(٤) الشعراء: الآية (١٢٣).
(٥) الشعراء: الآية (١٤١).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٣٦-٢٣٧).

يجوزوا أن المحسن يقدر على الضر كما قدر على النفع؛ لأنه الضار كما أنه النافع فللتنبيه على مثل ذلك لا يجوز نقل أحد الاسمين عن الآخر، وسبب عن العصيان قوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ أي: ربهم أخذ قهر وغضب ﴿أَخْذَةً﴾ لم يبق من أمة منهم أحدًا ممن كذب الرسول فلم يكن كمن ينصر على عدو من الآدميين لا بد من أن يفوته كثير منهم وإن اجتهد في الطلب، وما ذاك إلا لتمام علمه ﷻ بالجزئيات والكليات، وشمول قدرته، وتلك الأخذة مع كونها بهذه العظمة من أنها أخذتهم كنفس واحدة جعلها سبحانه ﴿رَّابِيَةً﴾ أي: عالية عليهم علية القدر في قوة البطش، وشدة الفتك، زائدة على الحد نامية بقدر زيادة أعمالهم في القبح»[١].

قال الرازي: «الضمير إن كان عائدًا إلى ﴿فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾، فرسول ربهم هو موسى عليه السلام، وإن كان عائدًا إلى أهل المؤتفكات فرسول ربهم هو لوط، قال الواحدي: والوجه أن يقال: المراد بالرسول كلاهما للخبر عن الأمتين بعد ذكرهما بقوله، ﴿فَعَصَوْا۟﴾ فيكون كقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢]. وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ يقال: ربا الشيء يربو إذا زاد، ثم فيه وجهان: الأول: أنها كانت زائدة في الشدة على عقوبات سائر الكفار كما أن أفعالهم كانت زائدة في القبح على أفعال سائر الكفار. الثاني: أن عقوبة آل فرعون في الدنيا كانت متصلة بعذاب الآخرة لقوله: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾[٣]، وعقوبة الآخرة أشد من عقوبة الدنيا، فتلك العقوبة كأنها كانت تنمو وتربو»[٤].

قال عطية محمد سالم: «نص تعالى هنا أن فرعون ومن قبله، والمؤتفكات جاءوا بالخاطئة وهي: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾[٥]، وكذلك عاد وثمود كذبوا بالقارعة. فالجميع اشترك في الخاطئة، وهي عصيان الرسول ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾[٦]، ولكنه قد أخذهم أخذة رابية.

ونوع في أخذهم ذلك: فأغرق فرعون وقوم نوح، وأخذ ثمود بالصيحة، وعادًا بريح، وقوم لوط بقلب قراهم، كما أخذ جيش أبرهة بطير أبابيل، فهل في ذلك مناسبة بين كل أمة وعقوبتها، أم أنه للتنويع في العقوبة لبيان قدرته تعالى وتنكيله

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٤٨-٣٤٩).
(٢) الشعراء: الآية (١٦).
(٣) نوح: الآية (٢٥).
(٤) تفسير الرازي (٣٠/ ١٠٧).
(٥) الحاقة: الآية (١٠).
(٦) المزمل: الآية (١٦).

بالعصاة لرسل الله؟.

الواقع أن أي نوع من العقوبة فيه آية على القدرة، وفيه تنكيل بمن وقع بهم، ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلًا، ولعل ما يشير إليه القرآن ولو إشارة خفيفة هو الآتي: أما فرعون فقد كان يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾[1]، فلما كان يتطاول بها جعل اللَّه هلاكه فيها أي في جنسها.

وأما قوم نوح فلما يئس منهم بعد ألف سنة إلا خمسين عامًا، وأصبحوا لا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا، فلزم تطهير الأرض منهم، ولا يصلح لذلك إلا الطوفان.

وأما ثمود فأخذوا بالصيحة الطاغية، لأنهم نادوا صاحبهم فتعاطى فعقر، فلما كان نداؤهم صاحبهم سببًا في عقر الناقة كان هلاكهم بالصيحة الطاغية.

وأما عاد فلطغيانهم بقوتهم، كما قال تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾[2]، وسواء عماد بيوتهم وقصورهم، فهو كناية عن طول أجسامهم ووفرة أموالهم وتوافر القوة عندهم، فأخذوا بالريح وهو أرق وألطف ما يكون، مما لم يكونوا يتوقعون منه أية مضرة ولا شدة.

وكذلك جيش أبرهة لما جاء مدل بعدده وعدته، وجاء معه بالفيل أقوى الحيونات، سلط اللَّه عليه أضعف المخلوقات والطيور ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾[3].

أما قوم لوط فلكونهم قلبوا الأوضاع بإتيان الذكور دون الإناث، فكان الجزاء من جنس العمل، قلب عليهم قراهم. والعلم عند اللَّه تعالى. ولا شك أن في ذلك كله تخويف لقريش»[4].

* * *

---

(١) الزخرف: الآية (٥١).

(٢) الفجر: الآيات (٦-٨).

(٣) الفيل: الآيتان (٣و٤).

(٤) تتمة أضواء البيان (٨/ ٤٤١-٤٤٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾

★ غريب الآية:

الجارية: السفينة، سميت بذلك لأنها تجري في الماء.

تعيها: تحفظها.

واعية: مصغية لما يقال، قال الشاعر:

إذا لم تكن حافظا واعيا فجمعك للكتب لا ينفع

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «سائر المفسرين قالوا: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: تجاوز حده حتى علا كل شيء وارتفع فوقه، و﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم، ولا شك أن الذين خوطبوا بهذا هم أولاد الذين كانوا في السفينة، وقوله: ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ يعني في السفينة التي تجري في الماء، وهي سفينة نوح عليه السلام، والجارية من أسماء السفينة، ومنه قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ الضمير في قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ إلى ماذا يرجع؟ فيه وجهان:

الأول: قال الزجاج: إنه عائد إلى الواقعة التي هي معلومة، وإن كانت ههنا غير مذكورة، والتقدير: لنجعل نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة عظة وعبرة.

الثاني: قال الفراء: لنجعل السفينة، وهذا ضعيف، والأول هو الصواب، ويدل على صحته قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فالضمير في قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ عائد إلى ما عاد إليه الضمير الأول، لكن الضمير في قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ لا يمكن عوده إلى السفينة

---

(١) الرحمن: الآية (١٧).

فكذا الضمير الأول.

قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: لكل شيء حفظته في نفسك وعيته ووعيت العلم، ووعيت ما قلت، ويقال: لكل ما حفظته في غير نفسك: أوعيته. يقال: أوعيت المتاع في الوعاء، ومنه قول الشاعر:

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

واعلم أن وجه التذكير في هذا أن نجاة قوم من الغرق بالسفينة وتغريق من سواهم يدل على قدرة مدبر العالم ونفاذ مشيئته، ونهاية حكمته ورحمته وشدة قهره وسطوته.. فإن قيل: لم قال: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ على التوحيد والتنكير؟ قلنا: للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن اللّه فهي السواد الأعظم عند اللّه، وأن ما سواه لا يلتفت إليهم، وإن امتلأ العالم منهم»[1].

قال القرطبي: «والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب: زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول»[2].

قال ابن عاشور: «وذكر إحدى الحكم والعلل لهذا الحمل -وهي حكمة تذكير البشر به على تعاقب الأعصار- ليكون لهم باعثًا على الشكر، وعظةً لهم من أسواء الكفر، وليخبر بها من عَلِمها قومًا لم يعلموها فتعيهَا أسماعهم»[3].

* * *

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ١٠٧-١٠٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٦٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٣).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «المراد من هذه النفخة الواحدة هي النفخة الأولى لأن عندها يحصل خراب العالم، فإن قيل: لم قال بعد ذلك ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾[1] والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية؟ قلنا: جعل اليوم اسمًا للحين الواسع الذي تقع فيه النفختان، والصعقة والنشور، والوقوف والحساب، فلذلك قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ كما تقول: جئته عام كذا، وإنما كان مجيئك في وقت واحد من أوقاته»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهي هذه النفخة. وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة، لأن أمر اللَّه لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار وتأكيد»[3].

قال ابن عاشور: «الفاء لتفريع ما بعدها على التهويل الذي صُدرت به السورة من قوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝﴾[4] فعلم أنه تهويل لأمر العذاب الذي هُدد به المشركون من أمثال ما نال أمثالهم في الدنيا، ومن عذاب الآخرة الذي ينتظرهم، فلما أتم تهديدهم بعذاب الدنيا فرع عليه إنذارهم بعذاب الآخرة الذي يحل عند القارعة التي كذبوا بها كما كذبت بها ثمود وعاد، فحصل من هذا بيان للقارعة بأنها ساعة البعثِ وهي الواقعة.

والتنصيص على هذا للتنبيه على التعجيب من تأثر جميع الأجساد البشرية بنفخة

---

(١) الحاقة: الآية (١٨).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ١٠٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٣٨).

(٤) الحاقة: الآيات (١-٣).

واحدة دون تكرير تعجيبًا عن عظيم قدرة اللَّه ونفوذ أمره، لأن سياق الكلام من مبدأ السورة تهويل يوم القيامة، فَتعداد أهواله مقصود، ولأجل القصد إليه هنا لم يذكر وصف واحد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾[١].

فحصل من ذكر نفحة واحدة تأكيد معنى النفخ وتأكيد معنى الوحدة، وهذا يبين ما روي عن صاحب «الكشاف» في تقريره بلفظٍ مجمل نقله الطيبي، فليس المراد بوصفها بـ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ أنها غير مُتَبعة بثانية فقد جاء في آيات أخرى أنهما نفختان؛ بل المراد أنها غير محتاج حصولُ المراد منها إلى تكررها كناية عن سرعة وقوع الواقعة، أي يوم الواقعة.

وأما ذكر كلمة ﴿نَفْخَةٌ﴾ فليتأتى إجراء وصف الوحدة عليها فذِكر ﴿نَفْخَةٌ﴾ تبعٌ غير مسوق له الكلام، فتكون هذه النفخة هي الأولى وهي المؤذنة بانقراض الدنيا، ثم تقع النفخة الثانية التي تكون عند بعث الأموات»[٢].

قال السعدي: «لما ذكر ما فعله تعالى بالمكذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا؟ وأن اللَّه نجى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة. فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل[٣] ﴿فِى ٱلصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة. ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين»[٤].

* * *

(١) الروم: الآية (٢٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٢٤-١٢٥).

(٣) قلت: لم يرد نص في أن النافخ اسمه إسرافيل فمن عنده فضل علم فليدلي به.

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

دكتا: سويتا. ومنه: ناقة دكاء، أي: لا سنام لها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «رفعت الأرض والجبال، إما بالزلزلة التي تكون في القيامة، وإما بريح بلغت من قوة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال، أو بملك من الملائكة، أو بقدرة اللَّه من غير سبب فدكتا، أي: فدكت الجملتان جملة الأرض وجملة الجبال، فضرب بعضها ببعض، حتى تندق وتصير كثيبًا مهيلًا وهباء منبثًا. والدك أبلغ من الدق، وقيل: فبسطتا بسطة واحدة فصارتا أرضًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا من قولك: اندك السنام إذا انفرش، وبعير أدك، وناقة دكاء، ومنه الدكان»[1].

قال البقاعي: «ولما ذكر التأثير في الإحياء، أتبعه التأثير في الجمادات، وبدأ بالسفليات لملابستها للإنسان فتكون عبرته بها أكثر فقال: ﴿وَحُمِلَتِ﴾ أي: بمجرد القدرة ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ أي: المنبسطة، ورجت رجًا ﴿وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: التي بها ثباتها فرفعت من أماكنها، وبستا بسًا فكانت هباء منبثًا، لم يبق فيهما حجر ولا كدية. ولما أريد قوة الدك والإبلاغ في تأثيره، جعل الجبال شيئًا واحدًا فقال: ﴿فَدُكَّتَا﴾ أي: مسحت الجملتان؛ الأرض وأوتادها، وبسطتا ودق بعضها ببعض ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فصارتا كثيبًا مهيلًا، وسويتا بأيسر أمر، فلم يميز شيء منهما من الآخر؛ بل صارا في غاية الاستواء، من قولهم: ناقة دكاء، أي: لا سنام لها. وأرض دكاء أي: متسعة مستوية، قالوا: والدَّك والدَّق أخوان، والدَّك أبلغ، قال أبو حيان: والدَّك فيه تفرق الأجزاء، والدَّق فيه اختلاط الأجزاء»[2].

قال السعدي: «﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ أي: فتتت الجبال،

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٥٣-٣٥٤).

واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت عليها، فكان الجميع قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها»[١].

قال القاسمي: «والمعنى: رفعتا وضربتا ببعضهما من شدة الزلازل، وفي توصيفها بالوحدة تعظيم لها وإشعار بأن المؤثر لدك الأرض والجبال وخراب العالم هي وحدها غير محتاجة إلى أخرى»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن أبي بن كعب في قوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ قال: يصيران غبرة على وجوه الكفار لا على وجوه المؤمنين، وذلك قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾[٣][٤].

★ غريب الأثر:

الغبرة: قال الراغب: «من الغبار اشتق الغبرة، وهو ما يعلق بالشيء من الغبار وما كان على لونه قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾ كناية عن تغير الوجه للغم. كقوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾[٥] يقال: غبر غبرة، واغبر، واغبار»[٦].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٠-٤٦١).
(٢) محاسن التأويل (١٦/ ٢٧٤).
(٣) عبس: الآيتان (٤٠و٤١).
(٤) أخرجه: الحاكم (٢/ ٥٠١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.
(٥) النحل: الآية (٥٨).
(٦) المفردات (ص: ٦٠١).

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾

★ **غريب الآية:**

واهية: أي: منشقة ضعيفة من الوهي، وهو شق الأديم والثوب.

أرجائها: نواحيها وجوانبها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما ذكر نفخ الصور سبب عنه قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا دكتا، وهي بدل من «إذ» كرر لطول الفصل وأفاد تهويلًا لها وتعظيمًا، ونصب الظرف بقوله: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: التي وقع الوعد والوعيد بها، فكانت كأنها شيء ثقيل جدًا ليس له ممسك، فما له من ذاته غير السقوط، وهي القيامة والحاقة والقارعة، نوع أسماءها تهويلًا لها، أي: قامت القيامة، وكان المراد بها النفخة الثانية.

ولما ذكر تأثير العالم السفلي ذكر العلوي فقال: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: هذا الجنس لشدة ذلك اليوم، ولما كان الشيء لا ينشق إلا لخلل فيه، سبب عنه قوله تحقيقًا لذلك. ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا وقعت الواقعة ﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفة متساقطة خفيفة لا تتماسك.

ولما كانت العادة جارية فيما يعرف أن الملك يظهر أنواعًا من عظمته يوم عرض الجند، قال -معرفًا لنا بنحو ما ألفناه-: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: هذا النوع الذي يصدق على الواحد فما فوقه، والجمع لا يصدق على ما دون الجمع فهذا أشمل ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي: نواحي السماء وأطرافها وحواشي ما لم يتشقق منها»[1].

قال السعدي: «وأما ما يصنع بالسماء؛ فإنها تضطرب، وتمور، وتتشقق،

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٥٤-٣٥٥).

ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها. ﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَآۚ﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي عني بقوله: ﴿ثَمَٰنِيَةٌ﴾ فقال بعضهم: عني به ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم عدتهن إلا اللَّه. وقال آخرون: بل عني به ثمانية أملاك»[(١)].

قال شيخ الإسلام: «قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾[(٢)] وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ يوجب أن لله عرشا يحمل، ويوجب أن ذلك العرش ليس هو الملك كما تقوله طائفة من الجهمية؛ فإن الملك هو مجموع الخلق، فهنا دلت الآية على أن لله ملائكة من جملة خلقه يحملون عرشه، وآخرون يكونون حوله، وعلى أنه يوم القيامة يحمله ثمانية إما ثمانية أملاك، وإما ثمانية أصناف وصفوف، وهذا إلى مذهب المثبتة أقرب منه إلى قول النافية بلا ريب»[(٣)].

وقال: «إضافة العرش مخصوصة إلى اللَّه لقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ يقتضي أنه مضاف إلى اللَّه إضافة تخصه، كما في سائر المضافات إلى اللَّه، كقوله: بيت اللَّه، وناقة اللَّه، ونحو ذلك»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة حملة العرش

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة اللَّه من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام**»[(٥)].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٥٨) بتصرف.

(٢) غافر: الآية (٧).

(٣) نقض تأسيس الجهمية (١/ ٥٦٧).

(٤) نقض تأسيس الجهمية (١/ ٥٧٦).

(٥) أخرجه: أبو داود (٥/ ٩٦/ ٤٧٢٧)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٤٢٥/ ١٧٣٠) وفيه: (أربعة مائة عام) بدل (سبعمائة عام). وفي (٥/ ٢١٢/ ٤٤١٨)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٢٣٧٠/ ١٨٩٦٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٨٤-٢٨٥/ ٨٤٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٤٨/ ٤٧٦). وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٨٠) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح»، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٨٥٩): «إسناده على شرط الصحيح». وقال الذهبي: «إسناده صحيح» (مختصر العلو ص: ١١٤).

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت فوائد هذا الحديث في سورة غافر عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾[1]، وفي سورة سبأ عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[2].

* * *

(١) غافر: الآية (٧).

(٢) سبأ: الآية (٢٣).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم؛ بل هو عالم بالظواهر، والسرائر، والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾»[1].

قال الرازي: «في الآية وجهان:

الأول: تقرير الآية: تعرضون لا يخفى أمركم؛ فإنه عالم بكل شيء، ولا يخفى عليه منكم خافية، ونظيره قوله: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[2] فيكون الغرض منه المبالغة في التهديد، يعني تعرضون على من لا يخفى عليه شيء أصلًا.

الوجه الثاني: المراد لا يخفى يوم القيامة ما كان مخفيًا منكم في الدنيا؛ فإنه تظهر أحوال المؤمنين فيتكامل بذلك سرورهم، وتظهر أحوال أهل العذاب فيظهر بذلك حزنهم وفضيحتهم، وهو المراد من قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾[3] وفي هذا أعظم الزجر والوعيد؛ وهو خوف الفضيحة»[4].

قال البقاعي: «لما بلغ النهاية في تحذير العباد من يوم التناد، وكان لهم حالتان: خاصة وعامة، فالعامة العرض، والخاصة التقسيم إلى محسن ومسيء، زاده عظمًا بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذا كان ما تقدم.

ولما كان المهول نفس العرض بنى فعله للمفعول؛ ولأنه كلام القادرين فقال: ﴿تُعْرَضُونَ﴾ أي: على اللَّه ﷻ للحساب كما يعرض السلطان الجند لينظر في أمرهم ليختار منهم المصلح للإكرام والتقريب والإثابة، والمفسد للإبعاد والتعذيب والإصابة، عبر عن الحساب بالعرض الذي هو جزؤه، فالمحسن لا يكون له غير

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٤٠).
(٢) غافر: الآية (١٦).
(٣) الطارق: الآيتان (٩و١٠).
(٤) تفسير الرازي (٢٠/ ١١١).

ذلك، والمسيء يناقش ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: في ذلك اليوم على أحد بوجه من الوجوه ﴿خَافِيَةٌ﴾ أي: لا يقع أصلًا على حال من الأحوال شيء من خفاء لشيء كان من حقه الخفاء في الدنيا لا من الأعمال، ولا من الأنفس، وإن كان في غاية الدقة والغموض؛ لأن ذلك يوم الظهور التام من القبور ومن الصدور، وغير ذلك من الأمور، ليكون ذلك أجل لسعادة من سعد، وأقبح لشقاوة من شقي فأبعد»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٥٩-٣٦٠).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

هاؤم: اسم فعل، بمعنى: خذوا، وهي بمنزلة: هاكم.

قطوفها: جمع قِطْف، وهو العنقود.

دانية: أي: تدنو من مريدها لا يمنعه من تناولها بعد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فالذي وصفت أمره، وهو الذي أوتي كتابه بيمينه، في عيشة مرضية، أو عيشة فيها الرضا، فوصفت العيشة بالرضا وهي مرضية؛ لأن ذلك مدح للعيشة، والعرب تفعل ذلك في المدح والذّم فتقول: هذا ليل نائم، وسرّ كاتم، وماء دافق، فيوجهون الفعل إليه، وهو في الأصل مقول لما يراد من المدح أو الذّم، ومن قال ذلك لم يجز له أن يقول للضارب مضروب، ولا للمضروب ضارب؛ لأنه لا مدح فيه ولا ذمّ.

وقوله: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ يقول: في بستان عال رفيع، و﴿فِى﴾ من قوله: ﴿فِى جَنَّةٍ﴾ من صلة عيشة. وقوله: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ يقول: ما يقطف من الجنة من ثمارها دانٍ قريب من قاطفه..

وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ يقول لهم ربهم -جل ثناؤه-: كلوا معشر من رضيت عنه، فأدخلته جنتي من ثمارها، وطيب ما فيها من الأطعمة، واشربوا من أشرِبتها، هَنِيئا لَكُمْ لا تتأذون بما تأكلون، ولا بما تشربون، ولا تحتاجون من أكل ذلك إلى غائط ولا بول، ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ يقول: كلوا واشربوا هنيئا: جزاء من اللّه لكم، وثوابا بما أسلفتم، أو على ما

أسلفتم: أي على ما قدّمتم في دنياكم لآخرتكم من العمل بطاعة اللَّه، ﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ يقول: في أيام الدنيا التي خلت فمضت»[١].

قال الرازي: «اعلم أنه لما أوتي كتابيه بيمينه، ثم إنه يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ دل ذلك على أنه بلغ الغاية في السرور لأنه لما أعطي كتابه بيمينه علم أنه من الناجين ومن الفائزين بالنعيم، فأحب أن يظهر ذلك لغيره حتى يفرحوا بما ناله. وقيل: يقول ذلك لأهل بيته وقرابته»[٢].

قال السعدي: «هؤلاء هم أهل السعادة يعطون كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم، تمييزا لهم، وتنويها بشأنهم، ورفعا لمقدارهم، ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور ومحبة أن يطلع الخلق على ما من اللَّه عليه به من الكرامة: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: دونكم كتابي فاقرأوه فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب. والذي أوصلني إلى هذه الحال ما من اللَّه به علي من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ أي: أيقنت، فالظن -هنا- بمعنى اليقين. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢﴾ المنازل والقصور عالية المحل. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها قياما وقعودا ومتكئين. ويقال لهم إكراما: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهي، ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ أي: تاما كاملا من غير مكدر ولا منغص. وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصالحة -وترك الأعمال السيئة- من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر لله، وإنابة إليه. فالأعمال جعلها اللَّه سببا لدخول الجنة ومادة لنعيمها وأصلا لسعادتها»[٣].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٦١).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ١١٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٢و٤٦٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دخول الجنة بفضل الله، والعمل سبب مباشر

* عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا وأبشروا؛ فإنه لا يدخل أحدا الجنة عمله**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة**»[1].

★ غريب الحديث:

يتغمدني: يقال: تغمده الله برحمته: غمره بها.

سددوا: أقصدوا السداد، أي: الصواب.

قاربوا: أي: لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملال فتتركوا العمل فتفرطوا.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم -بعد كلامه عن درجات الجنة-: «وحكمة الرب سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها، وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال، كما قال غير واحد من السلف: (ينجون من النار بعفو الله ومغفرته، ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ومغفرته، ويتقاسمون المنازل بأعمالهم).

وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال، كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] قالوا: وأما نفي دخولها بالأعمال كما في قوله ﷺ: «**لن يدخل الجنة أحد بعمله**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **ولا أنا**»، فالمراد منه نفي أصل الدخول.

وأحسن من هذا أن يقال: الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفي معها

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٢٥ و٢٧٣)، والبخاري (١١/ ٣٥٥/ ٦٤٦٧) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٧١/ ٢٨١٨)، والنسائي في الكبرى كما في التحفة (١٢/ ٣٦٩).

(٢) الزخرف: الآية (٧٢).

(٣) النحل: الآية (٣٢).

الدخول؛ فالمقتضية هي باء السببية الدالة على أن الأعمال سبب للدخول مقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، والباء التي نفي بها الدخول هي باء المعاوضة والمقابلة، التي في نحو قولهم: اشتريت هذا بهذا.

فأخبر النبي ﷺ أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنه لولا تغمد اللَّه سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة، فليس عمل العبد -وإن تناهى- موجبا بمجرده لدخول الجنة، ولا عوضا لها، فإن أعماله -وإن وقعت منه على الوجه الذي يحبه اللَّه ويرضاه- فهي لا تقاوم نعمة اللَّه التي أنعم بها عليه في دار الدنيا، ولا تعادلها؛ بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها في مقابلة اليسير من نعمه، وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها»[1].

قال الحافظ: «قال الرافعي: في الحديث أن العامل لا ينبغي أن يتكل على عمله في طلب النجاة ونيل الدرجات؛ لأنه إنما عمل بتوفيق اللَّه، وإنما ترك المعصية بعصمة اللَّه، فكل ذلك بفضله ورحمته»[2].

وقد مضى شيء من هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾[3] من سورة الزخرف.

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١١٩-١٢٠).
(٢) الفتح (١١/ ٣٥٩).
(٣) الزخرف: الآية (٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾

★ غريب الآية:

القاضية: أي: الموتة الفاصلة. يقال: قضى فلان: إذا مات.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العَرَصات بشماله، فحينئذ يندم غاية الندم، فيقول: ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذابَ اللَّه وبأسه، بل خَلَص الأمر إليَّ وحدي، فلا معين لي ولا مجير»[1].

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى بين أنه لما نظر في كتابه وتذكر قبائح أفعاله خجل منها، وصار العذاب الحاصل من تلك الخجالة أزيد من عذاب النار، فقال: ليتهم عذبوني بالنار، وما عرضوا هذا الكتاب الذي ذكرني قبائح أفعالي حتى لا أقع في هذه الخجالة، وهذا ينبهك على أن العذاب الروحاني أشد من العذاب الجسماني، وقوله: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ولم أدر أي شيء حسابيه، لأنه حاصل ولا طائل له في ذلك الحساب، وإنما كله عليه.

الضمير في ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان: الأول: إلى الموتة الأولى، وهي وإن لم تكن مذكورة إلا أنها لظهورها كانت كالمذكورة. والقاضية: القاطعة عن الحياة؛ وفيها إشارة إلى الانتهاء والفراغ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ﴾[2] ويقال:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٤٢).

(٢) الجمعة: الآية (١٠).

قضى على فلان، أي: مات. فالمعنى يا ليت الموتة التي متها كانت القاطعة لأمري، فلم أبعث بعدها، ولم ألق ما وصلت إليه، قال قتادة: تمنى الموت ولم يكن في الدنيا عنده شيء أكره من الموت، وشر من الموت ما يطلب له الموت، قال الشاعر:

وشر من الموت الذي إن لقيته ... تمنيت منه الموت والموت أعظم

والثاني: أنه عائد إلى الحالة التي شاهدها عند مطالعة الكتاب، والمعنى: ياليت هذه الحالة كانت الموتة التي قضيت علي؛ لأنه رأى تلك الحالة أبشع وأمر مما ذاقه من مرارة الموت وشدته فتمناه عندها»[1].

قال السعدي: «هؤلاء أهل الشقاء يعطون كتب أعمالهم السيئة بشمالهم تمييزا لهم وخزيا وعارا وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والحزن ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾؛ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية. ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦﴾ أي: ليتني كنت نسيا منسيا ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾ أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها. ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب اللّٰه فيقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨﴾ أي: ما نفعني في الدنيا؛ لأني لم أقدم منه شيئا، ولا في الآخرة قد ذهب وقت نفعه. ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾ أي: ذهب واضمحل فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العدد الخطيرة، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح»[2].

قال محمد مكي الناصري: «بينما أصحاب الشمال بمجرد ما يؤتون كتابهم بشمالهم، يدركون أنهم من الأشقياء المعذبين عند اللّٰه، وفي الحين تنطق ألسنتهم بما يعبر عن دخائل نفوسهم، إذ يتمنون، وما تنفعهم الأماني، لو أنهم لم يوتوا أي كتاب، ويتمنون لو أنهم لم يعرفوا أي حساب، ويتمنون لو أنهم ماتوا موتة واحدة لا حياة بعدها ولا عقاب، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾.

ويفاجأ أصحاب الشمال بالحقيقة المؤلمة التي لم يكونوا ينتظرونها

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ١١٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٣-٤٦٤).

ولا يحسبون لها أي حساب، وهي أن مالهم الذي كانوا يتبجحون به على الفقراء، وسلطانهم الذي كانوا يستعلون به على الضعفاء، لا يغنيان عنهما من اللّٰه شيئا، فالآخرة إنما هي دار الجزاء على العمل: الجزاء بالثواب على العمل الصالح، والجزاء بالعقاب على العمل الفاسد، ولا عبرة فيها بما تواطأ عليه الناس من الاعتبارات السطحية، والقيم الوهمية، وذلك ما ينطق به لسان الشقي من أصحاب الشمال إذ يقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩)﴾»[1].

* * *

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٩٨-٢٩٩).

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾

★ غريب الآية:

غلوه: أي: ضعوا الغل في يديه، وهو القيد.

صلوه: صلي النار: دخلها.

غسلين: أي: صديد أهل النار، وهو ما ينغسل من أبدان أهل النار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: اجعلوا في عنقه غلا يخنقه. ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ أي: قلبوه على جمرها ولهبها. ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها، فلا يزال يعذب هذا العذاب الفظيع، فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة له من التوبيخ والعتاب. فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ بأن كان كافرا بربه، معاندا لرسله، رادا ما جاءوا به من الحق.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم من ماله ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران: الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ .

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥﴾ أي : يوم القيامة ﴿حَمِيمٌ﴾ أي : قريب أو صديق يشفع له لينجو من عذاب اللَّه أو يفوز بثواب الله : ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[١] . ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ وليس له طعام إلا من غسلين وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، ونتن الريح، وقبح الطعم ومرارته، لا يأكل هذا الطعام الذميم ﴿إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسلكوا سبل الجحيم، فلذلك استحقوا العذاب الأليم»[٢] .

وقال محمد المكي الناصري : «يصف كتاب اللَّه ما يصدر إلى خزنة جهنم من الأوامر الإلهية الرهيبة، بشأن كل واحد من أصحاب الشمال الضالين المضلين، إذ يقال لهم : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠﴾ أي : ضعوا في عنقه الأغلال، ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ أي : اغمروه في جهنم من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ أي : أدخلوه.

ووضح كتاب اللَّه أن عقاب اللَّه لأصحاب الشمال إنما هو عقاب عادل لا غبار عليه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٣] ، فقد كانوا فرادى وجماعات ينكرون حقيقة الحقائق؛ وهي الإيمان باللَّه، وكانوا ينكرون كل ما لله من صفات العظمة والكمال، ومظاهر الجلال والجمال، وكانوا حجر عثرة في طريق انتشار دعوته، وتبليغ رسالته، وحربا على كتبه المنزلة وشريعته، وكانوا عنصر فساد وتخريب في الأرض، لا يؤدون لعيال اللَّه وعبيده أي حق، ولا يقدمون إليهم أي عون مما آتاهم من الرزق، وإلى حيثيات هذا الحكم الإلهي العادل، الذي صدر بعقاب أصحاب الشمال يشير قوله تعالى هنا : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾ أي : أنه كان لا يؤدي حقوق اللَّه ولا حقوق الناس، ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥﴾ أي : ليس له من صديق حميم يستطيع أن يخلصه وينقذه من عذاب اللَّه، أو يتطوع بالنيابة عنه في تحمل العقاب المحكوم به عليه، ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾ و«الغسلين» شر طعام أهل النار كما فسره قتادة»[٤] .

---

(١) سبأ : الآية (٢٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٤-٤٦٦).

(٣) الكهف : الآية (٤٩).

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٢٩٩-٣٠٠).

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مُقسمًا لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم: إن القرآن كلامُه ووحيه وتنزيلُه على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾ يعني: محمدًا ﷺ، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل؛ ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكي: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١﴾[1] وهذا جبريل عليه السلام. ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢﴾[2] يعني: محمدًا ﷺ ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣﴾[3] يعني: أن محمدا رأى جبريل على صورته التي خلقه اللَّه عليها، ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤﴾[4] أي: بمتهم ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥﴾[5]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾، فأضافه تارة إلى قول الرسول الملكي، وتارة إلى الرسول البشري؛ لأن كلا منهما مبلغ عن اللَّه ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾»[6].

قال ابن القيم: التأكد من هذا القول «قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾ إلى آخرها قال مقاتل: بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه. وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر. وقال

---

(١) التكوير: الآيات (١٩-٢١).
(٢) التكوير: الآية (٢٢).
(٣) التكوير: الآية (٢٣).
(٤) التكوير: الآية (٢٤).
(٥) التكوير: الآية (٢٥).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٤٤).

الكلبي: تبصرون من شيء وما لا تبصرون من شيء. وهذا أعم قسم وقع في القرآن، فإنه يعم العلويات والسفليات، والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلهم، والجن، والإنس، والعرش، والكرسي، وكل مخلوق، وكل ذلك من آيات قدرته، وربوبيته، وهو سبحانه يصرف الأقسام كما يصرف الآيات، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية، ودليل على صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند اللَّه، وهو كلامه لا كلام شاعر، ولا مجنون، ولا كاهن.

ومن تأمل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند اللَّه، وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1] أي: إن كان نطقكم حقيقة، وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق كما في الحديث «إنه لحق مثل ما أنك ههنا»[2]، فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود؛ بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق، ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهرا وباطنا، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ وهذا رسول البشرى محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل، فمن أنكر أن يكون اللَّه قد تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة لو كانت إضافته إليه إنشاء وابتداء لم يكن رسولا ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير.

---

(١) الذاريات: الآية (٢٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣٢و٢٤٥)، وأبو داود (٤/ ٤٨٢/ ٤٢٩٤) من حديث معاذ ﷺ بلفظ «إن هذا لحق كما أنك قاعد». وصحح الحاكم (٤/ ٤٢٠-٤٢١) وقفه على معاذ ﷺ ووافقه الذهبي، وحسن إسناده الشيخ الألباني في المشكاة رقم (٥٤٢٤).

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالى إلى غيره، وأنه لم يتكلم به بل قاله من تلقاء نفسه كما بين كذب من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾[1] فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر، وسيصليه اللّه سقر.

ثم أخبر سبحانه أنه تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أمورا:

أحدها: أنه تعالى فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

والثاني: أنه تكلم به حقيقة لقوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير، ونظير هذا قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾[2] ونظيره قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[3] وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾[4] وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[5] وما كان من اللّه فليس بمخلوق، ولا ينتقض هذا بأن الرزق والمطر وما في السموات والأرض جميعا منه وهو مخلوق، لأن ذلك كله أعيان قائمة بنفسها، وصفات وأفعال لتلك الأعيان، فإضافتها إلى اللّه سبحانه وأنها منه إضافة خلق، كإضافة بيته وعبده وناقته وروحه وبابه إليه، بخلاف كلامه فإنه لابد أن يقوم بمتكلم، إذ كلام من غير متكلم كسمع من غير سامع، وبصر من غير مبصر، وذلك عين المحال، فإذا أضيف إلى الرب كان بمنزلة إضافة سمعه، وبصره، وحياته، وقدرته، وعلمه، ومشيئته إليه، ومن زعم أن هذه إضافة مخلوق إلى خالق فقد زعم أن اللّه لا سمع له، ولا بصر، ولا حياة، ولا قدرة، ولا مشيئة تقوم به، وهذا هو التعطيل الذي هو شر من الإشراك، وإن زعم أن إضافة السمع، والبصر، والعلم، والحياة، والقدرة إضافة صفة إلى موصوف فإضافة الكلام إليه إضافة مخلوق إلى خالق فقد تناقض وخرج عن موجب العقل، والفطرة، والشرع، ولغات الأمم، وفرق بين مماثلين حقيقة، وعقلا، وشرعا، وفطرة، ولغة.

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[6]؛ فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر

---

(١) المدثر: الآية (٢٥).
(٢) السجدة: الآية (١٣).
(٣) النحل: الآية (١٠٢).
(٤) الزمر: الآية (١).
(٥) فصلت: الآية (٤٢).
(٦) التوبة: الآية (٦).

بقوله فيقول: قلت كذا وكذا، وقلت له: ما أمرتني أن أقوله كما قال المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾(١) والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا كما قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٢) ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(٣) ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾(٤) ونظائره، فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا، وهذا قول الرسول -أي: قاله مبلغا- وهذا قوله مبلغا عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم ولا في موضع واحد؛ بل قيل للصديق -وقد تلى آية- هذا كلامك وكلام صاحبك، فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي هذا كلام اللَّه.

الأمر الثالث: ما تضمنه قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾ إن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى: لا يأمرهم، ولا ينهاهم، ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم؛ بل يتركهم هملا بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلا ما لا يليق به تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦﴾(٥)»(٦).

قال السعدي: «أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق؛ بل يدخل في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن اللَّه تعالى. ونزه اللَّه رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا لعلموا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، ليروا أمرا مثل الشمس يدلهم على أنه رسول اللَّه حقا، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول البشر بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده»(٧).

* * *

(١) المائدة: الآية (١١٧).
(٢) إبراهيم: الآية (٣١).
(٣) الإسراء: الآية (٥٣).
(٤) النور: الآية (٣٠).
(٥) المؤمنون: الآية (١١٦).
(٦) التبيان (١٠٩-١١٢).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٦).

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾

★ غريب الآية:

الوتين: عرق متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه. قال الشماخ بن ضرار:

إذا بلغتني وحملت رحا حرابة فاشرقي بدم الوتين

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ أي: محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريا علينا، فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك، لعاجلناه بالعقوبة. ولهذا قال ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ قيل: معناه لانتقمنا منه باليمين؛ لأنها أشد في البطش، وقيل: لأخذنا بيمينه. ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ قال ابن عباس: وهو نياط القلب؛ وهو العِرْقُ الذي القلب معلق فيه. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، والحكم، وقتادة، والضحاك، ومسلم البَطِين، وأبو صخر حُميد بن زياد. وقال محمد بن كعب: هو القلب ومَرَاقُّه وما يليه.

وقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك. والمعنى في هذا: بل هو صادق بار راشد؛ لأن اللَّه ﷻ مقرر له ما يبلغه عنه، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات»[(١)].

قال ابن القيم: «أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقول عليه فيما قاله، وأنه لو تقول عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه وافترى عليه، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب،

---
(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٤٥).

وخالف الخلق، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك؟ بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بأهل الحق؟ يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم قائلا: إن اللَّه أمرني بذلك وأباحه لي؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها.

فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها، ثم يعجز الخلق عن معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه فيشهد له بإقراره وفعله وقوله، فمن أعظم المحال وأبطل الباطل وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه الذي هو شر الخلق على الإطلاق، فمن جوز على اللَّه أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن باللَّه قطعا، ولا عرف اللَّه، ولا هذا هو رب العالمين، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل وحكمة وحجى، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ونادى على جهله.

وأذمر في عذل مناظرة جرت لي مع بعض اليهود قلت له -بعد أن أقضى في نبوة النبي ﷺ- إلى أن قلت له: إنكار نبوته يتضمن القدح في رب العالمين، وتنقصه بأقبح النقص، فكان الكلام معكم في الرسول، والكلام الآن في تنزيه الرب تعالى. فقال: كيف تقول مثل هذا الكلام؟ فقلت له: بيانه علي فاسمع الآن: أنتم تزعمون أنه لم يكن رسولا، وإنما كان ملكا قاهرا قهر الناس بسيفه ﷺ حتى دانوا له، ومكث ثلاثا وعشرين سنة يكذب على اللَّه ويقول: أوحى إلي ولم يوح إليه، وأمرني ولم يأمره، ونهاني ولم ينهه، وقال اللَّه كذا ولم يقل ذلك، وأحل كذا وحرم كذا، وأوجب كذا وكره كذا، ولم يحل ذلك ولا حرمه ولا أوجبه؛ بل هو فعل ذلك من تلقاء نفسه كاذبا مفتريا على اللَّه وعلى أنبيائه وعلى رسله وملائكته، ثم مكث من ذلك ثلاث عشرة سنة يستعرض عباده: يسفك دماءهم، ويأخذ أموالهم، ويسترق نساءهم وأبناءهم، ولا ذنب لهم إلا الرد عليه ومخالفته وهو في ذلك كله يقول: اللَّه أمرني بذلك ولم يأمره، ومع ذلك فهو ساع في تبديل أديان الرسل، ونسخ شرائعهم، وحل نواميسهم، فهذه حاله عندكم، فلا يخلو إما أن يكون الرب تعالى عالما بذلك

مطلعا عليه من حاله يراه ويشاهده أم لا؟ فإن قلتم : إن ذلك جميعه غائب عن اللّه لم يعلم به قدحتم في الرب تعالى، ونسبتموه إلى الجهل المفرط إذ لم يطلع على هذا الحادث العظيم، ولا علمه ولا رآه، وإن قلتم : بل كان ذلك بعلمه وإطلاعه ومشاهدته، قيل لكم : فهل كان قادرا على أن يغير ذلك ويأخذ على يديه ويحول بينه وبينه أم لا؟ فإن قلتم : ليس قادرا على ذلك، نسبتموه إلى العجز المنافي للربوبية، وكان هذا الإنسان هو وأتباعه أقدر منه على تنفيذ إرادتهم، وإن قلتم : بل كان قادرا، ولكن مكنه ونصره وسلطه على الخلق ولم ينصر أولياءه وأتباع رسله نسبتموه إلى أعظم السفه والظلم والإخلال بالحكمة، هذا لو كان مخلى بينه وبين ما فعله، فكيف وهو في ذلك كله ناصره، ومؤيده، ومجيب دعواته، ومهلك من خالفه، وكذبه، ومصدقه بأنواع التصديق، ومظهر الآيات على يديه التي لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يأتوا بواحدة منها لما أمكنهم، ولعجزوا عن ذلك، وكل وقت من الأوقات يحدث له من أسباب النصر، والتمكين، والظهور، والعلو، وكثرة الأتباع أمرا خارجا عن العادة، فظهر أن من أنكر كونه رسولا نبيا فقد سب اللّه، وقدح منه، ونسبه إلى الجهل والعجز والسفه.

قلت له : ولا ينتقض هذا بالملوك الظلمة الذين مكنهم اللّه في الأرض وقتا ما، ثم قطع دابرهم، وأبطل سنتهم، ومحا آثارهم وجورهم، فإن أولئك لم يعيدوا شيئا من هذا، ولا أيدوا ونصروا، وظهرت على أيديهم الآيات، ولا صدقهم الرب تعالى بإقراره ولا بفعله ولا بقوله؛ بل أمرهم كان بالضد من أمر الرسول كفرعون ونمرود وأضرابهما، ولا ينتقض هذا بمن ادعى النبوة من الكذابين، فإن حالة كانت ضد حال الرسول من كل وجه؛ بل حالهم من أظهر الأدلة على صدق الرسول، ومن حكمة اللّه سبحانه أن أخرج مثل هؤلاء إلى الوجود ليعلم حال الكذابين وحال الصادقين، وكان ظهورهم من أبين الأدلة على صدق الرسل، والفرق بين هؤلاء وبينهم، فبضدها تتبين الأشياء، والضد يظهر حسنه الضد، فمعرفة أدلة الباطل وشبهه من أنواع أدلة الحق وبراهينه. فلما سمع ذلك قال : معاذ الله! لا نقول أنه ملك ظالم؛ بل نبي كريم، من اتبعه فهو من السعداء، وكذلك من اتبع موسى فهو كمن اتبع محمدا؟ قلت له : بطل كل ما تموهون به بعد هذا، فإنكم إذا أقررتم أنه نبي صادق فلا بد من تصديقه في جميع ما أخبر به، وقد علم أتباعه وأعداؤه بالضرورة

أنه دعا الناس كلهم إلى الإيمان، وأخبر أن من لم يؤمن به فهو كافر مخلد في النار، وقاتل من لم يؤمن به من أهل الكتاب، وسجل عليهم بالكفر، واستباح أموالهم ودماءهم ونساءهم وأبناءهم، فإن كان ذلك عدوانا منه وجورا لم يكن نبيا، وعاد الأمر إلى القدح في الرب تعالى، وإن كان ذلك بأمر اللَّه ووحيه لم يسع أحدا مخالفته، وترك اتباعه، ولزم تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر، وقد أرشد سبحانه إلى هذا الملك في غير موضع من كتابه فقال ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[(١)] يقول سبحانه: لو تقول علينا قولا واحدا من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوجه إليه لما أقررناه، ولأخذنا بيمينه، ثم أهلكناه، هذا أحد القولين. قال ابن قتيبة: في هذا قولان: أحدهما: أن اليمين القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوة لأن قوة كل شيء في ميامنه. قلت: وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين. قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل: خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، واسفع بيده، فكأن قال: لو كذب علينا في شيء مما بلغ إليكم عنا لأخذنا بيمينه ثم عاقبناه بقطع الوتين، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن. فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئا من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة، فإن كذبا على اللَّه ليس ككذب على غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلا عن أن ينصره، ويؤيده، ويصدقه.

ويقول: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ والوتين: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة. وقال ابن قتيبة: ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكن أراد لو كذب علينا لأمتناه، أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه قال: ومثله قوله: «**ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان قطعت أبهري**»[(٢)]. والأبهر: عرق يتصل بالقلب، فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتلني السم فكنت كمن انقطع أبهره.

---

(١) الحاقة: الآيات (٤٤-٤٧).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١٦٥/ ٤٤٢٨) معلقا من حديث عائشة ﵂، ووصله الحاكم (٣/ ٥٨) وغيره، وأخرجه: أحمد (٦/ ١٨)، وأبو داود (٤/ ٦٥٢/ ٤٥١٤) من حديث أم مبشر ﵂.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لا يحجزه مني أحد ولا يمنعه مني»[(١)].

قال السعدي: «هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته، فإنه لو تقول عليه وافترى ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ الكاذبة. ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وهو عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات منه الإنسان، فلو قدر أن الرسول -حاشا وكلا- تقوَّل على الله لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر؛ لأنه حكيم على كل شيء قدير، فحكمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك. فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه على رسالته.

وقوله: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: لو أهلكه ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله»[(٢)].

* * *

(١) التبيان (١١٢-١١٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٦-٤٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن هذا القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ﴾ يعني: عظة يتذكر به، ويتعظ به، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهم الذين يتقون عقاب الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه»[1].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أسماء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه، ونفسه وما يزكيها ويطهرها ويعليها، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها، ويتذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر. فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين»[2].

قال السعدي: «﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها، ويعملون عليها، يذكرهم العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين»[3].

قال ابن عاشور: «عطف على ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾[4]، والضمير عائد إلى القرآن الذي تقدم ضميره في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾، فلما أبطل طعنهم في القرآن بأنه قول شاعر، أو قول كاهن أعقب ببيان شرفه ونفعه، إمعانًا في إبطال كلامهم بإظهار الفرق البيّن بينه وبين شعر الشعراء وزمزمة الكهان، إذ هو تذكرة وليس ما ألحقوه به من أقوال أولئك من التذكير في شيء. والتذكرة: اسم مصدر

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٦٨). (٢) التبيان (١١٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٧).
(٤) الحاقة: الآية (٤٠).

التذكير، وهو التنبيه إلى مغفول عنه.

والإخبار بـ ﴿إِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ إخبار بالمصدر للمبالغة في الوصف. والمعنى: أنه مذكِّر للناس بما يغفلون عنه من العلم بالله، وما يليق بجلاله لينتشلهم من هوة التمادي في الغفلة حتى يفوت الفوات، فالقرآن في ذاته تذكرة لمن يريد أن يتذكر سواء تذكَّر أم لم يتذكر، وقد تقدم تسمية القرآن بالذِكر والتذكير في آيات عديدة منها قوله تعالى في سورة طه: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾[١] وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾[٢].

والمراد بالمتقين المؤمنون، فإنهم المتصفون بتقوى الله، لأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء دون المشركين. فالقرآن كان هاديًا إياهم للإيمان كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣] وكلما نزل منه شيء أو تلوا منه شيئًا ذكرهم بما علموا لئلا تعتريهم غفلة أو نسيان، فالقرآن تذكرة للمتقين في الماضي والحال والمستقبل، فإن الإخبار عنه باسم المصدر يتحمل الأزمنة الثلاثة، إذ المصدر لا إشعار له بوقت بخلاف الفعل وما أشبهه.

وإنما علق ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بكونه تذكرة لأن المتقين هم الذين أدركوا مزيته»[٤].

* * *

(١) طه: الآية (٣).

(٢) الحجر: الآية (٦).

(٣) البقرة: الآية (٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٩/١٤٨-١٤٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة، وحكاه عن قتادة بمثله. وروى ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ يقول: لندامة. ويحتمل عود الضمير على القرآن، أي: وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين، كما قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[2] ولهذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾ أي: الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب.

ثم قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الذي أنزل هذا القرآن العظيم»[3].

قال ابن القيم: «أي لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم.

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التحسر، وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين، فقيل: هو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، أي: الحق اليقين نحو مسجد الجامع، وصلاة الأولى،

---

(١) الشعراء: الآيتان (٢٠٠و٢٠١).

(٢) سبأ: الآية (٥٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٤٥-٢٤٦).

وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق، فنقول وبالله التوفيق:

ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝﴾[1] فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها علمه؛ وهو التصديق التام به بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلا، وتيقنهم أنها دار المتقين، ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله وتيقنهم صدق المخبر.

المرتبة الثانية: عين اليقين: وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة: فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر، وفي المسند للإمام أحمد مرفوعا: «**ليس الخبر كالمعاين**»[2]، وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموت ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة، ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان، وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[3]، ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

المرتبة الثالثة: مرتبة حق اليقين: وهي مباشرة الشيء بالإحساس به كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين، ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة، وتارة

---

(١) التكاثر: الآيات (٥-٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٥)، والطبراني (١٢/ ٥٤/ ١٢٤٥١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٤/ ٦٩/ ٦٢١٣)، والحاكم (٢/ ٣٥١) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، كلهم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥٣): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح، وصححه ابن حبان».

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٢٦)، والبخاري (٦/ ٥٠٧/ ٣٣٧٢)، ومسلم (١/ ١٣٣/ ١٥١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٥-١٣٣٦/ ٤٠٢٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٥/ ١١٠٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾ فإن القلب يباشر الإيمان به، ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب، ويبقى لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الإيمان، وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين.

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثلا فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين، وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته؛ بل من إضافة الجنس إلى نوعه. إن العلم والعين والحق أعم من كونها يقينا، فأضيف العام إلى الخاص مثل بعض المتاع وكل الدراهم، ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصدقان على ذات واحدة بخلاف قولك: دار عمرو، وثوب زيد، ظن من ظن أنها من إضافة الموصوف إلى صفته، وليس كذلك بل هي من باب إضافة الجنس إلى نوعه كثوب خز وخاتم فضة، فالمضاف إليه قد يكون مغايرا للمضاف لا يصدقان على ذات واحدة، وقد يجانسه فيصدقان على مسمى واحد، والله أعلم»[1].

قال السعدي: «وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين؛ فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة. ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٥١﴾ أي: أعلى مراتب العلم، فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:

أولها: علم اليقين: وهو العلم المستفاد من الخبر. ثم عين اليقين: وهو العلم المدرك بحاسة البصر. ثم حق اليقين: وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة. وهذا القرآن الكريم بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية يحصل به لمن ذاقه حق

(١) التبيان في أقسام القرآن (١١٩-١٢١).

اليقين. ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقدسه بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله»[1].

وقال ابن القيم: «ختم السورة بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٥٢﴾ وهي جديرة بهذه الخاتمة، لما تضمنته من الأخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله، وذكر عظمة ملكه، وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة، وذكر عظمته تعالى في إرسال رسوله وإنزال كتابه؛ وأن تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سمواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذبا متقولا عليه مفترى عليه يبدل دينه، وينسخ شرائعه، ويقتل عباده، ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو سبحانه مع ذلك يؤيده، وينصره، ويجيب دعواته، ويأخذ أعداءه، ويرفع قدره، ويعلي ذكره، فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم، فسبحان ربنا العظيم، وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علوًّا كبيرًا»[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٤-٤٦٨).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص: ١٢١).



سورة المعارج

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «حوت من الأغراض تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة، وإثبات ذلك اليوم ووصف أهواله.

ووصف شيء من جلال اللَّه فيه، وتهويل دار العذاب وهي جهنم. وذكر أسباب استحقاق عذابها.

ومقابلة ذلك بأعمال المؤمنين التي أوجبت لهم دار الكرامة وهي أضداد صفات الكافرين.

وتثبيت النبي ﷺ، وتسليته على ما يلقاه من المشركين.

ووصف كثير من خصال المسلمين التي بثها الإسلام فيهم، وتحذير المشركين من استئصالهم وتبديلهم بخير منهم»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٥٣).

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يقول تعالى مبينا لجهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب اللَّه، استهزاء وتعنتا وتعجيزا: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل من متمردي المشركين أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[1] إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من اللَّه، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة، فلو عرفوا اللَّه تعالى، وعرفوا عظمته، وسعة سلطانه، وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولاستسلموا وتأدبوا»[2].

قال محمد المكي الناصري: «أي: تساءل سائل عن العذاب المنتظر، يستعجل به لماذا لم ينزل عليه في الحين، على حد ما ورد في قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾[3] وما ورد في قوله تعالى في آية ثالثة: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾»[4].

قال عطية محمد سالم: «في قوله تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣﴾[5] دليل على تأكيد وقوعه؛ لأن ما ليس له دافع لا بد من وقوعه. أما

---

(١) الأنفال: الآية (٣٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٦٩-٤٧٠).

(٣) الحج: الآية (٤٧).

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٣٠١).

(٥) المعارج: الآيتان (٢و٣).

متى يكون فقد دلّت آية الطور نظيرة هذه أن ذلك سيكون يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝﴾[1] ثم بين ظرف وقوعه ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝﴾[2] وفي سياق هذه السورة في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝﴾[4] فإنها كلها من أحوال يوم القيامة، فدل بذلك على زمن وقوعه. ولعل في قوله تعالى: ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝﴾ رد على أولئك المستخفين بالعذاب المستعجلين به مجازاة لهم بالمثل، كما دعوا وطلبوا لأنفسهم العذاب استخفافًا فهي تدعوهم إليها زجرًا وتخويفًا مقابلة دعاء بدعاء، أي: إن كنتم في الدنيا دعوتم بالعذاب فهذا هو العذاب يدعوكم إليه ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن سماع الدعوة، وأعرض عنها وتولى، وهذا الرد بهذه الصفات التي قبله من تغيير السماء كالمهل وتسيير الجبال كالعهن، وتقطع أواصر القرابة من الفزع والهول مما يخلع القلوب كما وقع بالفعل في الدنيا»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝﴾ قال: «النضر بن الحارث بن كلدة»[6].

★ فوائد الأثر:

قال القرطبي: «هو النضر بن الحارث حيث قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[7]. فنزل سؤاله، وقتل يوم بدر صبرا هو وعقبة بن أبي معيط لم يقتل صبرا غيرهما، قاله ابن عباس ومجاهد»[8].

---

(١) الطور: الآيتان (٧و٨).
(٢) الطور: الآيتان (٩و١٠).
(٣) المعارج: الآيات (٩-١١).
(٤) المعارج: الآيتان (١٧و١٨).
(٥) تتمة أضواء البيان (٨/ ٤٥٥-٤٥٦).
(٦) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٤٩٨/ ١١٦٢٠)، والحاكم (٢/ ٥٠٢) موقوفا على سعيد بن جبير وقال: «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.
(٧) الأنفال: الآية (٣٢).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٢٧٨).

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾

★ **غريب الآية:**

المعارج: المصاعد والمدارج، جمع معرج.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ يعني: ذا العلو، والدرجات، والفواضل، والنعم»(١).

قال السعدي: «أي ذو العلو، والجلال، والعظمة، والتدبير لسائر الخلق»(٢).

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٧٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٤٧٠).

قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «تعرج إليه الملائكة بما دبرها على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فأما الأبرار فتعرج أرواحهم إلى اللَّه، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها اللَّه ﷻ، فتحيي ربها وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام والبر والإعظام. وأما أرواح الفجار فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة العلو

* عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

يتعاقبون: من التعاقب. أي تأتي طائفة بإثر طائفة، ثم تعود الأولى عقب الثانية، وإنما يكون التعاقب بين طائفتين أو بين رجلين مرة هذا، ومرة هذا.

يعرج: يصعد، وكل من صعد في شيء فقد عرج، ولذلك قيل للدرج: المعارج.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٦)، والبخاري (١٣/ ٥١١/ ٧٤٢٩)، ومسلم (١/ ٤٣٩/ ٦٣٢)، والنسائي (١/ ٢٦٠-٢٦١/ ٤٨٤).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «ثم يعرج الذين باتوا فيكم..»:

قال الغنيمان: «وهذا هو محل الشاهد من الحديث؛ لأن السؤال حصل بعد صعودهم، حيث يصلون إلى المكان المحدد لهم، والله تعالى فوقهم، وهو تعالى يخاطبهم بذلك، بدون واسطة، كما هو ظاهر النص، ولو كان ذلك بوحي لم يكن هناك فرق بين كونهم في السماء، أو في الأرض.

وهذا الحديث يتفق في المعنى مع قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ وكأن البخاري يشير بذلك إلى تفسيرها، وأن عروج الملائكة المذكور في هذا الحديث، داخل في مدلولها»[(١)].

انظر فوائد أخرى للحديث تقدمت في سورة البقرة الآية (٣٠).

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ من اليمن بذهيبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها. قال: فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل. فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء؟**» قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله! اتق الله. قال: «**ويلك! أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟**» قال: ثم ولى الرجل. قال خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**». فقال خالد: وكم من مصلي يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟. قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم**». قال: ثم نظر إليه وهو مقف فقال: «**إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»، وأظنه قال: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**»[(٢)].

(١) شرح كتاب التوحيد (١/ ٤٣٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٨)، البخاري (٨/ ٨٤/ ٤٣٥١) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٤٢/ ١٠٦٤[١٤٤])، وأبو داود (٥/ ١٢١-١٢٢/ ٤٧٦٤)، والنسائي (٧/ ١٣٤-١٣٥/ ٤١١٢).

★ غريب الحديث:

ذهيبة: تصغير ذهبة، وكأنه أنثها على معنى الطائفة أو الجملة.

أديم مقروظ: أي: مدبوغ بالقرظ، والقرظ: شجر يدبغ بورقه، ولونه إلى الصفرة.

لم تحصل من ترابها: أي: لم تخلط من ترابها.

غائر العينين: من الغور، والمراد أن عينيه داخلتان في محاجرهما، لاصقتين بقعر الحدقة.

مشرف الوجنتين: الوجنتان: العظمان المشرفان على الخدين، والمراد بارزهما.

ناشز الجبهة: أي مرتفعها.

ضئضئ: المراد به النسل والعقب.

يمرقون من الدين: أي: يخرجون منه خروج الصيد إذا نفر من الصيد من جهة أخرى، ولم يتعلق بالسهم من دمه شيء.

الرمية: الصيد الذي ترميه فتقصده، وينقذف فيه سهمك، وهو كل دابة مرمية.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وقد حكى البيهقي عن أبي بكر الضبعي قال: العرب تضع (في) موضع (على) كقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1] وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾[2] فكذلك قوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: على العرش فوق السماء كما صحت الأخبار بذلك»[3].

قال الغنيمان: «وهذا الحديث مثل قول اللّٰه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾[4]. فإما أن تكون (في) بمعنى (على) كما تقدم؛ أو يقصد بالسماء العلو أي: أأمنتم من في

(١) التوبة (٢). (٢) طه: الآية (٧١).
(٣) الفتح (١٣/ ٥١٥).
(٤) الملك: الآيتان (١٦ و١٧).

العلو، وكلاهما صحيح سائغ في اللغة والمعنى»[١].

وقال أيضا: «وهو في السماء، أي: في العلو بائن من خلقه. وهذه المسألة من كبار مسائل العقيدة الإسلامية، ومع ظهورها، وكثرة الأدلة عليها وتنوعها واتفاق الرسل، والكتب، وأتباع الرسل عليها، ضل فيها طوائف كثيرة كالجهمية، والمعتزلة، وأكثر الأشعرية، ولا يزال على الضلال فيها خلق كثير ممن يتبنى مذهب الأشعرية، والماتريدية، معتقدين أن ذلك الضلال هو الحق وأنه مذهب أهل السنة، وأن أدلة كتب اللَّه، ووحيه إلى رسله، ظواهر تدل على التشبيه بظاهرها، فلهذا يجب صرفها عن ذلك الظاهر. ويرى هؤلاء أن من اعتقد ما دل عليه القرآن، والسنة بظاهرها، أنه مشبه ومجسم، مع أن العقل والفطر السالمة من الانحراف يتفقان على ما دل عليه وحي اللَّه تعالى، ولهذا ترمي الأشعرية كل من اعتقد علو اللَّه واستواءه على عرشه على الحقيقة بالتشبيه والتجسيم، وأحيانا يصرحون بكفرهم كما هو عقيدتهم في قرار نفوسهم، ومع هذا ترى كثيرا منهم رافعا عقيرته داعيا إلى الاتفاق والوئام، وهذا لن يكون أبدا ما دام في الأرض معتقد للحق؛ لأنه لا اتفاق بين الهدى والضلال والحق والباطل، وكيف يكون اتفاق مع من يرى أن من اعتقد ما دلت عليه النصوص الصريحة، الواضحة الكثيرة أنه ضال ومشبه؟»[٢].

* عن أبي ذر قال: سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾[٣] قال: مستقرها تحت العرش[٤].

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائد هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾[٥].

* * *

---

(١) شرح كتاب التوحيد (١/ ٤٤٧).

(٢) شرح كتاب التوحيد (١/ ٤٣٦).

(٣) يس: الآية (٣٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٢)، والبخاري (١٣/ ٥١٢/ ٧٤٣٣)، ومسلم (١/ ١٣٨/ ١٥٩)، والترمذي (٤/ ٤١٦/ ٢١٨٦) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩/ ١١٤٣٠).

(٥) هود: الآية (٧).

قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فيه أربعة أقوال:

أحدها: أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين وهو قرار الأرض السابعة، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة.

القول الثاني: أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق اللّه العالم إلى قيام الساعة.

القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة. وهو قول غريب جدا.

القول الرابع: أن المراد بذلك يوم القيامة»[1].

قال السعدي: «ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله؛ وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة، وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى بلوغها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى. فهذا الملك العظيم والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه، ما عمهم وشملهم وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي. فبؤسا لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٠-٢٥١).

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن اللَّه -تبارك وتعالى- يظهر لعباده في يوم القيامة من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح صاعدة ونازلة، بالتدابير الإلهية، والشئون في الخليقة في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن اللَّه تعالى يخففه على المؤمن»[1].

قال محمد المكي الناصري: «وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، إما أن يكون إشارة إلى يوم القيامة، وما فيه من طول الموقف والشدائد والأهوال، وإما أن يكون إشارة إلى مدة اليوم الذي يعرج فيه الملك، وأن مقدار مسافته لو عرجه آدمي خمسون ألف سنة، من أيام البشر، ونسب أبو حيان هذا القول إلى ابن عباس وابن إسحاق وجماعة من الحذاق منهم القاضي منذر بن سعيد. وسبق في سورة (الحج) ذكر اليوم الذي يعدل بألف سنة، حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[2]، وبهذا يكون كلا اليومين من الأيام التي لا تندرج في عداد (أيام البشر)، إذ حساب أيام البشر تابع للزمان المعتاد بينهم، والمعهود عندهم، وهذه أيام أخرى ليست من جنس أيامهم، ولله في خلقه شؤون»[3].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ هذه الآية الكريمة تدل على أن مقدار اليوم عند اللَّه ألف سنة. وكذلك قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾[4]. وقد جاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك، هي قوله تعالى في سورة سأل سائل: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ ﴿وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الآية.

اعلم -أولًا- أن أبا عبيدة روى عن إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة أنه حضر كلا من ابن عباس، وسعيد بن المسيب سئل عن هذه الآيات فلم يدر ما يقول فيها، ويقول: لا أدري.

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٠-٤٧١).
(٢) الحج: الآية (٤٧).
(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٣٠٢).
(٤) السجدة: الآية (٥).

وللجمع بينهما وجهان:

الأول: هو ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس، من أن يوم الألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق اللَّه فيها السموات والأرض. ويوم الألف في سورة السجدة، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى، ويوم الخمسين ألفا هو يوم القيامة.

الوجه الثاني: أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾[١] ذكر هذين الوجهين صاحب الإتقان. والعلم عند اللَّه تعالى»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في طول يوم القيامة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه، وجبينه، وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»**.[٣]

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قيل معناه: لو حاسب فيه غير اللَّه تعالى، وقال الحسن: قدر مواقفهم للحساب، وقال ابن اليمان: كل موقف منها ألف سنة»[٤].

قال عبد الحق الإشبيلي: «اعلم رحمك اللَّه أن يوم القيامة ليس طوله كما عهدت من طول الأيام؛ بل هو آلاف من الأعوام ينصرف فيه هذا الأنام على الوجوه والأقدام حتى ينفذ فيهم ما كتب لهم وعليهم من الأحكام، وليس يكون خلاصهم

(١) المدثر: الآيتان (٩و١٠).
(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (٢٠٦-٢٠٧).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٣)، ومسلم (٢/ ٦٨٠/ ٩٨٧) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ٣٠٢-٣٠٣/ ١٦٥٨).
(٤) المفهم (٣/ ٢٥).

دفعة واحدة ولا فراغهم في مرة واحدة؛ بل يتخلصون ويفرغون شيئا بعد شيء، كما تقدم، لكن طول ذلك اليوم خمسين ألف سنة، فيفرغون بفراغ اليوم ويفرغ اليوم بفراغهم، وليس أيضا هذا اليوم مثل أيام الدنيا التي تكون على حكم دوران الفلك؛ إذا ذهب الليل جاء النهار، وإذا ذهب النهار جاء الليل، حكمة اللَّه التي حيرت العقول وأكلت الأبصار وأخرست الألسن، ليس هنالك ليل ولا نهار، إنما هو وقت واحد وهو الذي يسمى يوما إنما هو مقدار من ذلك الوقت، يطوله اللَّه ﷻ ما يشاء ويقصر إن شاء، ويسمي ما شاء بما شاء»[1].

وقال: «وبالجملة فليس يتم ذلك اليوم إلا وقد نزل كل إنسان بداره، واستقر في قراره من جنته أو ناره.

فتفكر أيها الإنسان في طول ذلك اليوم، وفي طول ذلك القيام فيه مع ذلك الحال الأخطر، والفزع الأكبر، والهول الذي لا يكيف ولا يقدر. فاختر لنفسك كم تريد أن تقف فيه؟ وكيف تريد أن تكون فيه؟ ما دام النظر إليك، والاختيار بيديك مع توفيق ربك ﷻ لك، ومعونته إياك»[2].

* * *

(١) كتاب العاقبة (ص: ٢٠٠).

(٢) كتاب العاقبة (٢٠١-٢٠٢).

قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ يعني: صبرا لا جزع فيه، يقول له: اصبر على أذى هؤلاء المشركين لك، ولا يثنيك ما تلقى منهم من المكروه عن تبليغ ما أمرك ربك أن تبلغهم من الرسالة»[1].

قال البقاعي: «﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ أي: على أذاهم ولا ينفك ذلك عن تبليغهم؛ فإنك شارفت وقت الانتقام منهم أيها الفاتح الخاتم الذي لم أبين لأحد ما بينت على لسانه، والصبر: حبس النفس على المكروه من الإقدام أو الإحجام، وجماله بسكون الظاهر بالتثبت والباطن بالعرفان. ﴿صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ أي: لا يشوبه شيء من اضطراب ولا استثقال، ولا شكوى ولا استعجال؛ فإن عذابهم ونصرك عليهم لعظمة من أرسلك، فلا بد من وقوعه؛ لأن القدح فيه والتكذيب به قدح فيها، وهذا قبل الأمر بالقتال»[2].

قال السعدي: «أي: اصبر على دعوتك لقومك صبرا جميلا لا ضجر فيه ولا ملل؛ بل استمر على أمر اللَّه، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيرا كثيرا»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٩/ ٧٢).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٣٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧١-٤٧٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن هؤلاء المشركين يرون العذاب الذي سألوا عنه، الواقع عليهم، بعيدا وقوعه، وإنما أخبر -جل ثناؤه- أنهم يرون ذلك بعيدا لأنهم كانوا لا يصدّقون به، وينكرون البعث بعد الممات، والثواب والعقاب، فقال: إنهم يرونه غير واقع، ونحن نراه قريبا، لأنه كائن، وكلّ ما هو آت قريب»[1].

قال البقاعي: «ولما كان كونه تعالى بما تقدم من العظمة أمرًا معلومًا بما له من الآثار من هذا الكون وما فيه، وكان استبعادهم لما أخبر به أمرًا واهيًا ضعيفًا سفسافًا لا يكاد يصدق أن أحدًا يحاول أن يرد به هذه الأمور التي هي في وضوحها كالشمس لا خفاء بها أصلًا ولا لبس، قال مؤكدًا: ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: الكفار المكذبين المستعجلين ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ أي: ذلك اليوم الطويل أو عذابه ﴿بَعِيدًا﴾ أي: زمن وقوعه؛ لأنهم يرونه غير ممكن، أو يفعلون أفعال من يستبعده ﴿وَنَرَىٰهُ﴾ لما لنا من العظمة التي قضت بوجوده، وهو علينا هين ﴿قَرِيبًا﴾ سواء أريد بذلك قرب الزمان أو قرب المكان، فهو هين على قدرتنا وهو آت لا محالة، وكل آت قريب، والبعيد والقريب عندنا على حد سواء»[2].

قال السعدي: «﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ الضمير يعود إلى البعث الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب، أي: إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريبا، لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٧٣).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٣-٣٩٤).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٢).

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠﴾

★ **غريب الآية:**

كالمهل: كالنحاس المذاب. وقيل: المهل: دردي الزيت.

العهن: الصوف المنفوش.

حميم: الحميم: القريب المشفق. أصله: من القرب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما ذكر عن هذا اليوم ما يبعث على السؤال عنه، استأنف بيانه مبينًا عظمته فقال: ﴿يَوۡمَ﴾ أي: يقع حين ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: التي هي أوثق ما تراه وأصلبه من عظم ما يقع فيه من الأهوال ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أي: الشيء المذاب من المعادن في مهل، أو دردي الزيت ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ﴾ التي هي أشد الأرض وأثقل ما فيها ﴿كَٱلۡعِهۡنِ﴾ أي: الصوف المصبوغ ألوانًا المنقوش، تطيره الريح كالهباء، وذلك لأن الجبال في أصلها متلونة كما قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ﴾[1] الآية، قال البغوي: ولا يقال عهن إلا للمصبوغ، قال: وأول ما تتغير الجبال تصير رملًا مهيلًا، ثم عهنًا منفوشًا، ثم هباء منثورًا، انتهى. ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ﴾ من شدة الأهوال ﴿حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ أي: قريب في غاية القرب والصداقة قريبًا مثله عن شيء من الأشياء لفرط الشواغل؛ ولأنه قد كشف لهم أنه لا تغني نفس عن نفس شيئًا، وأنه قد تقطعت الأسباب وتلاشت الأنساب لما كشف الابتلاء عن أنه لا عز إلا بالتقوى، هذا على قراءة الجماعة بفتح الياء، وعلى قراءة ابن كثير بالبناء للمفعول المعنى أنه لا يطالب أحد بأحد كما بعض الحكام في الدنيا من أنه يلزم أقارب من قربه لأنه لا حاجة له بذلك، لأن القدرة محيطة بالكل على حد سواء»[2].

---

(١) فاطر: الآية (٢٧).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٤-٣٩٥).

قال السعدي: «﴿يَوْمَ﴾ أي: القيامة الذي تقع فيه هذه الأمور العظيمة فـ ﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ وهو الرصاص المذاب من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ. ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذاك هباء منثورا فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟ أليس حقيقا أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟»[1].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله.. وهذه الآية الكريمة كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾[2]، وكقوله: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[3] وكقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾[4]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[5]»[6].

قال عطية محمد سالم: «الحميم: القريب والصديق والولي الموالي كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[7]. وفي هذه الآية الكريمة أنه في يوم القيامة لا يسأل حميم حميمًا مع أنهم يبصرونهم بأبصارهم.

وقد بين تعالى موجب ذلك وهو اشتغال كل إنسان بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾[8]، وكل يفر من الآخر يقول نفسي نفسي، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

وقد جاء ما هو أعظم من ذلك في حديث الشفاعة كل نبي يقول: نفسي نفسي،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٢).
(٢) لقمان: الآية (٣٣).
(٣) فاطر: الآية (١٨).
(٤) المؤمنون: الآية (١٠١).
(٥) عبس: الآيات (٣٤-٣٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٢).
(٧) فصلت: الآية (٣٤).
(٨) عبس: الآية (٣٧).

وجاء قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾[١]، وليس بعد ذلك من فزع، إلا المؤمنون ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[٢] جعلنا اللَّه تعالى منهم، آمين»[٣].

* * *

(١) الحج: الآية (٢).

(٢) النمل: الآية (٨٩).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٤٥٨-٤٥٩).

قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يودُّ: يتمنى ويحب.

يفتدي: الافتداء: تقديم عوض دفعا لضرر واقع.

فصيلته: أي: عشيرته التي انفصل عنها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض، وبأعز ما يجده من المال، ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حُشَاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب اللَّه به، ولا يقبل منه»[1].

قال البقاعي: «ولما كان عدم السؤال قد يكون لعدم رؤية بعضهم بعضًا لكثرة الجمع وشدة الزحام، وتفرق الناس فيه على حسب مراتب أعمالهم، استأنف الجواب لمن كأنه يقول: لعل ذلك يترك لعدم رؤيتهم لهم؟ فقال دالًا بالمجهول والتفعيل على عظمة ذلك التبصير وخروجه عن العادة، جامعًا لأن المقصود من الحميم الجنس، والجمع أدل على عموم التبصير، قال البغوي: وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس - انتهى، وكان حكمة ذلك أنه أدل على تقطع الأسباب فلا يسأل أحد منهم الآخر عن شيء من أمره لاشتغال كل بنفسه، فعدم السؤال لا للخفاء بل للاشتغال وهم كل إنسان بما عنده: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْۚ﴾ أي: يبصرهم مبصر فلا يخفى أحد على أحد وإن بعد مكانه، ويفر كل من الآخر

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٢).

لشغله بنفسه، ولما تناهى الإخبار بعظمة ذلك اليوم إلى حد لا تحتمله القلوب، ذكر نتيجة ذلك فقال مستأنفًا: ﴿يَوَدُّ﴾ أي: يتمنى ويشتهي ﴿ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: هذا النوع سواء كان كافرًا أو مسلمًا عاصيًا علم أنه يعذب بعصيانه، وقيد به لأن المسلم الطائع يشفع فيمن أذن له فيه ولا يهمه شيء من ذلك، ودل على أن هذه الودادة مجرد تمن بقوله: ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ أي: نفسه ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: يوم إذ كانت هذه المخاوف بأعلق الناس بقلبه وأقربهم منه فضلًا عن أن يسأل عن أحواله. ولما كان السياق للافتداء، بدأ بأعزهم في ذلك بخلاف ما يأتي في «عبس» فقال: ﴿بِبَنِيهِ﴾ لشدة ما يرى.

ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد، وأعز من يلزمه لنصره والذب عنه، أتبعه ما يليه في الرتبة والمودة وما الافتداء به، لا سيما عند العرب، من أقبح العار فقال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ أي: زوجته التي يلزمه الذب عنها والكون دائمًا معها لكونها عديلة روحه في الدنيا. ولما ذكر الصاحبة لما لها من تمام الوصلة، أتبعها الشقيق الذي لا يلزم من الذب عنه ما يلزم من الذب عن الحريم وربما كان مباينًا، فقال: ﴿وَأَخِيهِ﴾ . ولما كان من بقي من الأقارب بعد ذلك متقاربين في الرتبة ذكر أقربهم فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنه ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي: تضمه إليها عند الشدائد وتحميه؛ لأنه أقرب الناس إليها وأعزهم عليها، فهم أعظم الناس حقًا عليه وأعزهم لديه. ولما كانت هذه الآية في الفدية، قدم الأبعد عن ذلك فالأبعد من جهة النفع والمعرة. ولما كانت آية «عبس» في الفرار والنفرة، قدم الألصق فالألصق، والأعلق في الأنس فالأعلق. ولما خص هنا عم فقال: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الثقلين وغيرهم سواء كان فيهم صديق لا صبر عنه ولا بد في كل حال منه أو لا. ولما كان ربما خص ذلك بغيره، قال محققًا لإرادة الحقيقة في معنى «من»: ﴿جَمِيعًا﴾ .

ولما كان الإنسان تكشف له الأمور هناك أي كشف، وتظهر له أتم ظهور، قال تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1] فيعلم أنه لا ينجيه من الخطايا المحيطة المحبطة شيء، دل على الاستبعاد بأداة البعد فقال عاطفًا على «يفتدي»: ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي: ثم

(١) ق: الآية (٢٢).

يود لو يكون له بذلك نجاة تتجدد له في وقت من الأوقات»[1].

قال ابن عاشور: «رتب الأقرباء على حسب شدة الميل الطبيعي في العرف الغالب، لأن الميل الطبيعي ينشأ عن الملازمة وكثرة المخالطة. ولم يذكر الأبوان لدخولهما في الفصيلة قصدا للإيجاز»[2].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٣٩٥-٣٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦١).

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۝١٨﴾

★ غريب الآية:

لظى: اسم لجهنم. يقال: لَظِيتِ النارُ تلَظَّى، أي: التهبت.

نزاعة: أي: كثيرة النزع.

للشوى: الشوى: جلدة الرأس. واحدها: شَواَة. قال الأعشى:

قالت قتيلة ماله قد جللت شيبا شواته

أوعى: أي: جعله في وعاء وكنزه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿كَلَّآ﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت عليهم، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء. ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦﴾ أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها. ﴿تَدْعُوا۟﴾ إلى نفسها ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۝١٨﴾ أي: أدبر عن اتباع الحق وأعرض عنه، فليس له فيه غرض، وجمع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها، فلم ينفق منها ما ينفعه، ويدفع عنه النار، فإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتهاب بهم»[1].

قال ابن عاشور: «﴿كَلَّآ﴾ حرف ردع وإبطال لكلام سابق، ولا يخلو من أن يذكر بعده كلام، وهو هنا لإبطال ما يخامر نفوس المجرم من الودادة، نزل منزلة الكلام لأن اللّه مطلع عليه، أو لإبطال ما يتفوه به من تمنّي ذلك. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[2]، ألا ترى أنه عبر عن قوله ذلك بالودادة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾[3] أي: يصيرون

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٣-٤٧٤).
(٢) النبأ: الآية (٤٠).
(٣) النساء: الآية (٤٢).

من ترابها. فالتقدير: يقال له: كلا، أي: لا افتداء ولا إنجاء..

﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ جنس الموصوفين بأنهم أدبروا وتولوا وجمعوا، وهم المجرمون الذين يودون أن يفتَدوا من عذاب يومئذٍ. وهذه الصفات خصائص المشركين، وهي من آثار دين الشرك التي هي أقوى باعث لهم على إعراضهم عن دعوة الإسلام.

وهي ثلاثة: الإدبار، والإعراض، وجمع المال، أي: الخشية على أموالهم.

والإدبار: ترك شيء في جهة الوراء، لأن الدّبر هو الظهر، فأدبر: جعل شيئًا وراءه بأن لا يعرج عليه أصلًا أو بأن يقبل عليه ثم يفارقَه.

والتولّي: الإدبار عن شيء والبعد عنه، وأصله مشتق من الوَلاية وهي الملازمة قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1]، ثم قالوا: ولَّى عنه، أرادوا اتخذ غيره وليًا، أي: ترك وَلايته إلى ولاية غيره مثل ما قالوا: رَغب فيه ورغب عنه، فصار «ولي» بمعنى: أدبر وأعرض، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾[2]أي: عامِلْه بالإعراض عنه.

ففي التولي معنى إيثار غير المتولَّى عنه، ولذلك يكون بين التولّي والإدبار فرق، وباعتبار ذلك الفرق عُطف و﴿تَوَلَّىٰ﴾ على ﴿أَدْبَرَ﴾ أي: تدعو من ترك الحق وتولى عنه إلى الباطل. وهذه دقيقة من إعجاز القرآن بأن يكون الإدبار مرادًا به إدبارَ غير تَول، أي: إدبارًا من أول وهلة، ويكون التولي مرادًا به الإعراض بعد ملابسة، ولذلك يكون الإدبار مستعارًا لعدم قبول القرآن ونفي استماع دعوة الرسول ﷺ وهو حال الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ﴾[3]، والتولي مستعار للإعراض عن القرآن بعد سماعه، وللنفور عن دعوة الرسول كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾[4] وكلا الحالين حال كفر ومحققة للعقاب وهما مجتمعتان في جميع المشركين. والمقصود من ذكرهما معًا تفظيع أصحابهما»[5].

---

(١) البقرة: الآية (١٤٤).
(٢) النجم: الآية (٢٩).
(٣) فصلت: الآية (٢٦).
(٤) الأنفال: الآية (٣١).
(٥) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦٢-١٦٥).

وقال: «﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ أي: جمع المال فكنزه ولم ينفع به المحَاويج، ومنه جاء فعل «أوعى» إذا شحّ. وفي الحديث: «ولا تُوعي فيُوعَى عليك»[1].

وفي قوله: ﴿جَمَعَ﴾ إشارة إلى الحرص، وفي قوله: ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ إشارة إلى طول الأمل. وعن قتادة: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾ كان جَمُوعًا للخبيث، وهذا تفسير حسن، أي بأن يُقدَّر ل «جمع» مفعول يدل عليه السياق، أي وزاد على إدباره وتوليه أنه جمع الخبائث»[2].

وقال عبد الكريم الخطيب: «﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ حال أخرى من أحوال لظى، وأنها تدعو إليها من أعرض عن الإيمان بالله، وأعطى ظهره لدعوة الحق.. فكأنها بدعوتها تلك إنما تستقبل من أقبل عليها، وولى وجهه نحوها، حين أعرض عن الإيمان بالله، وكما تستقبل من أعرض عن الإيمان تستقبل من جمع المال وأوعاه أي وضعه في وعاء، وضن به عن الإنفاق في وجوه الخير، والإحسان..

وفي الجمع بين الإعراض عن الإيمان بالله، والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله إشارة إلى شناعة البخل، وأنه يعدل الكفر، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤﴾[3]»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الصدقة في ما استطعت

* عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقال: «**لا توعي فيوعي الله عليك. ارضخي ما استطعت**»[5].

وفي رواية: «**أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك**».

---

(١) سيأتي تخريجه قريبا.
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٦٦).
(٣) الحاقة: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٤) التفسير القرآني (٢٩/ ١١٧٢-١١٧٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٤٥)، والبخاري (٣/ ٣٨٣-٣٨٤/ ١٤٣٤) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧١٣/ ١٠٢٩). والنسائي (٥/ ٧٧-٧٨/ ٢٥٥٠)، وأخرجه بنحوه: أبو داود (٢/ ٣٢٤-٣٢٥/ ١٦٩٩)، والترمذي (٤/ ٣٠١/ ١٩٦٠) وقال: «حديث حسن صحيح».

★ غريب الحديث:

لا توعي: يقال: أوعيت المتاع في الوعاء أوعيه: إذا جعلته فيه، ووعيت الشيء: حفظته، ومعنى لا توعي: أي لا تمنعيه بالإيعاء والادخار.

ارضخي: بكسر الهمزة من الرضخ بمعجمتين وهو العطاء اليسير.

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «قوله: «لا توعي»، يريد: لا تخبئي الشيء في الوعاء، فتدخريه ولا تنفقيه. يقال: أوعيت الشيء إذا جعلته في الوعاء. ومنه قوله سبحانه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾. يقول: إن مادة الرزق متصلة باتصال النفقة، ومنقطعة بانقطاعها، فلا تمنعي فضل الزاد فتحرمي مادة الرزق، وكذلك قوله: «لا تحصي فيحصي اللَّه عليك»، وذلك أنها تحصي ما تحصي للتبقية والذخر، فيحصى عليها بقطع البركة، ومنع الزيادة، وقد يكون مرجع الإحصاء إلى المحاسبة عليه، والمناقشة في الآخرة»[1].

قال القاضي عياض: «قوله: «ارضخي ما استطعت»: ليس على ظاهره من ذلك بالأمر بالإرضاخ والتوسع فيه جهد طاقتها، فهذا لا يؤمر به أحد في مال غيره، وإنما يرجع «ما استطعت» إلى العدل في ذلك والاحتياط، ولذلك جاء بلفظ الرضخ الذي يدل عليه، واللَّه أعلم بأن هذا اللفظ إنما جاء في نفقتها من مال الزبير وما أدخل عليها، وقد يحتمل أن المراد بذلك ما منحه إياها ووهبه لها، لقولها: «ما أدخل عليه»[2]، فيكون الحديث على ظاهره بالتوسع في العطاء، واللَّه أعلم»[3].

قال ابن بطال: «دل هذا الحديث على أن الصدقة قد تنمي المال، وتكون سببا إلى البركة والزيادة فيه، وأن من شح ولم يتصدق فإن اللَّه يوكي عليه ويمنعه من البركة في ماله والنماء فيه»[4].

قال المناوي: «والمراد النهي عن منع الصدقة خوف الفقر، ومن علم أن اللَّه يرزقه من حيث لا يحتسب فحقه أن يعطي ولا يحسب»[5].

---

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٢٨٣).
(٢) وهي رواية أخرى.
(٣) الإكمال (٣/ ٥٦٠).
(٤) شرح البخاري (٣/ ٤٣٦).
(٥) الفيض (١/ ٤٧٥).

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾

★ غريب الآية:

هلوعا: الهلوع: الشديد الحرص.

جزوعا: الجزوع: الشديد الجزع والرعب والخوف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ ثم فسره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠﴾ أي: إذا أصابه الضر فزع، وجزع، وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ أي: إذا حصلت له نعمة من اللَّه بخل بها على غيره، ومنع حق اللَّه فيها»[1].

قال السعدي: «وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية أنه هلوع. وفسر الهلوع بأنه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝٢٠﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى اللَّه. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ فلا ينفق مما آتاه اللَّه، ولا يشكر اللَّه على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء»[2].

قال الرازي: «المراد من الشر والخير الفقر والغنى أو المرض والصحة، فالمعنى أنه إذا صار فقيرًا أو مريضًا أخذ في الجزع والشكاية، وإذا صار غنيًا أو صحيحًا أخذ في منع المعروف وشح بماله ولم يلتفت إلى الناس، فإن قيل: حاصل

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٤).

هذا الكلام أنه نفور عن المضار طالب للراحة، وهذا هو اللائق بالعقل فلم ذمه اللّه عليه؟ قلنا: إنما ذمه عليه لأنه قاصر النظر على الأحوال الجسمانية العاجلة، وكان من الواجب عليه أن يكون مشغولًا بأحوال الآخرة، فإذا وقع في مرض أو فقر وعلم أنه فعل اللّه تعالى كان راضيًا به، لعلمه أن اللّه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإذا وجد المال والصحة صرفهما إلى طلب السعادات الأخروية»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في موبقة الشح

* عن أبي هريرة يقول: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**شر ما في رجل شح هالع، وجبن خالع**»[(٢)].

⋆ غريب الحديث:

شح: الشح معناه: البخل الذي يمنع إخراج الحق الواجب عليه.

هالع: من الهلع وهو: أفحش الجزع.

الجبن الخالع: هو الشديد الذي يخلع فؤاده من شدة خوفه.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن جرير: «يعني بقوله: «هالع»، جازع، يجزع صاحبه من الإنفاق في الحقوق مخافة الفاقة والإقتار، ووصف بالهلع الشح، وهو من صفة الشحيح، كما قيل: (ليل نائم، ونهار صائم)، يراد به: ينام في هذا ويصام في هذا، فكذلك معنى قولهم: «شح هالع»، أنه يهلع به صاحبه، ومنه قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾، قيل: ضجورا، وقيل: جزوعا. و(الهلع) عند العرب أشد الجزع وأقبحه، يقال منه: (هلع فلان يهلع هلعا وهلوعا).

وأما (الجبن الخالع)، فهو الجبن الذي يخلع فؤاد صاحبه من الخوف والرعب عند لقاء الناس.

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٣٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٢ و٣٢٠)، وأبو داود (٣/ ٢٦-٢٧/ ٢٥١١)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٨/ ٤٢/ ٣٢٥٠).

وإنما وصفهما ﷺ بأنهما شر ما في الإنسان من خلائقه؛ لأن الشح يحمل صاحبه على كل عظيمة، من منع حقوق اللَّه ﷻ التي أوجبها في ماله كالزكاة، ويحول بينه وبين أداء ما يلزمه للناس من الديون، ولأهله من النفقات، ويدعوه إلى السرقة وغصب الناس أموالهم وخيانتهم فيما اتمنوه عليه، وأشباه ذلك من الأمور التي يمل تعدادها، وأن الجبن الخالع يصد عن القيام بحق اللَّه من جهاد أعداء اللَّه، ويدعو إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حذرا على نفسه من المأمور أو المنهي، ونحو ذلك»[١].

وقال ابن القيم: «هنا أمران: أمر لفظي، وأمر معنوي. فأما اللفظي: فإنه وصف الشح بكونه هالعا، والهالع صاحبه، وأكثر ما يسمى هلوعا، ولا يقال: هالع له؛ فإنه لا يتعدى، ففيه وجهان: أحدهما: أنه على النسب كقولهم ليل نائم، وسر كاتم، ونهار صائم، ويوم عاصف، كله عند سيبويه على النسب أي: ذو كذا، كما قالوا: تامر ولابن، والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير.

وأما المعنوي: فإن الشح والجبن أردى صفتين في العبد، ولا سيما إذا كان شحه هالعا أي: ملق له في الهلع، وجبنه خالعا أي: قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة، ولا شجاعة، ولا نفع بماله، ولا ببدنه، كما يقال: لا طعنة، ولا جفنة، ولا يطرد، ولا يشرد؛ بل قد قمعه، وصغره، وحقره، ودساه الشح، والخوف، والطمع، والفزع. وإذا أردت معرفة الهلوع؛ فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلا أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستطامة والاستكانة وباء بها سريعا، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه، وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ الطمع طار إليه سريعا، وإذا ظفر به أهله من نفسه محل الروح فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودنائتها، وتدسيسها في البدن وإخفائها وتحقيرها، واللَّه المستعان»[٢].

* * *

---

(١) تهذيب الآثار (١/ ١٤٢-١٤٣ من مسند عمر).

(٢) عدة الصابرين (ص: ٤١٨-٤١٩).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية محمد سالم: «وصف اللَّه تعالى من استثناهم من الإنسان الهلوع بتسع صفات. اثنتان منها تختص بالصلاة، وهما: الأولى والأخيرة مما يدل على أهمية الصلاة، ووجوب شدة الاهتمام بها. وهذا من المسلمات في الدين لمكانتها من الإسلام، وفي وصفهم هنا بأنهم على صلاتهم دائمون، وفي الأخير على صلاتهم يحافظون.

قال في الكشاف: الدوام عليها المواظبة على أدائها لا يخلون بها، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل. وذكر حديث عائشة مرفوعًا «**أحب الأعمال إلى اللَّه أدومها ولو قل**»[(١)]. ويشهد لهذا الذي قاله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا﴾[(٢)]وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾[(٣)]. قال: والمحافظة عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها ويكملوها بسننها وآدابها، وهذا يشهد له قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾[(٤)]. وحديث المسيء صلاته، حيث قال له ﷺ: «**ارجع فصل فإنك لم تصل**»[(٥)]، فنفى عنه أنه صلى مع إيقاعه الصلاة أمامه، وذلك لعدم الحفاظ عليها بتوفيتها حقها.

وقد بدأ اللَّه أولئك المستثنين وختمهم بالصلاة مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير، ومبدأ لهذا المذكور كله لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا

---

(١) سيأتي تخريجه قريبا.
(٢) النور: الآيتان (٣٦و٣٧).
(٣) الجمعة: الآية (٩).
(٤) المؤمنون: الآيتان (١و٢).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٧)، والبخاري (٢/ ٣٠١/ ٧٥٧)، ومسلم (١/ ٢٩٨/ ٣٩٧)، وأبوداود (١/ ٥٣٤-٥٣٥/ ٨٥٦)، والترمذي (٢/ ١٠٣-١٠٤/ ٣٠٣)، والنسائي (٢/ ٤٦١/ ٨٨٣)، وابن ماجه (١/ ٣٣٦-٣٣٧/ ١٠٦٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[١] فهي عون على كل خير. ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[٢]، فهي سياج من كل منكر، فجمعت طرفي المقصد شرعًا، وهما العون على الخير والحفاظ من الشر أي جلب المصالح ودرء المفاسد، ولذا فقد عني بها النَّبي ﷺ كل عنايتها، كما هو معلوم»[٣].

قال ابن جرير: «يقول: إلا الذين يطيعون اللَّه بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيعون منها شيئا، فإن أولئك غير داخلين في عداد من خلق هلوعا، وهو مع ذلك بربه كافر لا يصلي لله.

وقيل: عُني بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ المؤمنون الذين كانوا مع رسول اللَّه ﷺ؛ وقيل: عُني به كلّ من صلى الخمس»[٤].

قال الرازي: «فإن قيل: قال: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ثم: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٥]قلنا: معنى دوامهم عليها أن لا يتركوها في شيء من الأوقات، ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه، وهذا الاهتمام إنما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة وتارة بأمور لاحقة بها، وتارة بأمور متراخية عنها، أما الأمور السابقة فهو أن يكون قبل دخول وقتها متعلق القلب بدخول أوقاتها، ومتعلق بالوضوء، وستر العورة وطلب القبلة، ووجدان الثوب والمكان الطاهرين، والإتيان بالصلاة في الجماعة، وفي المساجد المباركة، وأن يجتهد قبل الدخول في الصلاة في تفريغ القلب عن الوساوس والالتفات إلى ما سوى اللَّه تعالى، وأن يبالغ في الاحتراز عن الرياء والسمعة، وأما الأمور المقارنة فهو أن لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، وأن يكون حاضر القلب عند القراءة، فاهمًا للأذكار، مطلعًا على حكم الصلاة، وأما الأمور المتراخية فهي أن لا يشتغل بعد إقامة الصلاة باللغو واللهو واللعب، وأن يحترز كل الاحتراز عن الإتيان بعدها بشيء من المعاصي»[٦].

---

(١) البقرة: الآية (٤٥).
(٢) العنكبوت: الآية (٤٥).
(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٤٦٠-٤٦٢).
(٤) جامع البيان (٢٩/ ٧٩).
(٥) المعارج: الآية (٣٤).
(٦) تفسير الرازي (٣٠/ ١٣٠-١٣١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الملل لله تعالى

* عن عائشة ﵂ قالت: «لم يكن النبي ﷺ يصوم شهرا أكثر من شعبان، وكان يصوم شعبان كله، وكان يقول: «**خذوا من العمل ما تطيقون، فإن اللَّه لا يمل حتى تملوا**». وأحب الصلاة إلى النبي ﷺ ما دووم عليه وإن قلَّت، وكان إذا صلى صلاة داوم عليها»[(١)].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وفيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيرا من الكثير المنقطع لأن بدوام القليل تدوم الطاعة، والذكر، والمراقبة، والنية، والإخلاص، والإقبال على الخالق ﷻ، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافا كثيرة»[(٢)].

قال الحافظ: «المداومة على عمل من أعمال البر ولو كان مفضولا أحب إلى اللَّه من عمل يكون أعظم أجرا لكن ليس فيه مداومة»[(٣)].

وقال أيضا: «وقوله «ما تطيقون»: أي قدر طاقتكم، والحاصل أنه أمر بالجد في العبادة والإبلاغ بها إلى حد النهاية، ولكن يفيد ما لا تقع معه المشقة المفضية إلى السآمة والملال»[(٤)].

قال النووي: «وفي هذا الحديث كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته؛ لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر، فتكون النفس أنشط والقلب منشرحا، فتتم العبادة بخلاف من تعاطى من الأعمال ما يشق، فإنه بصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم، وقد ذم اللَّه ﷻ من اعتاد عبادة ثم أفرط فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[(٥)] وقد ندم عبد اللَّه بن عمرو بن العاص

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٨٩ و٢٤٤)، والبخاري (٤/ ٢٦٧-٢٦٨/ ١٩٧٠)، ومسلم (٢/ ٨١١/ ٧٨٢)، وعنده: (أحب العمل إلى اللَّه ما داوم عليه صاحبه وإن قل) بدل (وأحب الصلاة)، والنسائي (٤/ ٤٦٠/ ٢١٧٩).

(٢) شرح مسلم (٦/ ٦٣).

(٣) الفتح (١١/ ٣٦٠).

(٤) الفتح (١١/ ٣٦١).

(٥) الحديد: الآية (٢٧).

على تركه قبول رخصة رسول اللَّه ﷺ في تخفيف العبادة ومجانبة التشديد»[١].

قال الباجي: «يحتمل معنيين: أحدهما: الندب لنا إلى تكلف ما لنا به طاقة من العمل، والثاني: نهينا عن تكلف ما لا نطيق والأمر بالاقتصار على ما نطيقه، وهو الأليق بنفس الحديث. وقوله: «من العمل» الأظهر أنه أراد به عمل البر؛ لأنه ورد على سببه وهو قول مالك أن اللفظ الوارد مقصور عليه، والثاني: أنه لفظ ورد من جهة صاحب الشرع، ويجب أن يحمل على الأعمال الشرعية»[٢].

قال ابن الجوزي: «إنما أحب الدائم لمعنيين:

أحدهما: أن المقبل على اللَّه ﷻ بالعمل إذا تركه من غير عذر كان كالمعرض بعد الوصل، فهو معرض للذم، ولهذا ورد الوعيد في حق من حفظ آية ثم نسيها، وإن كان قبل حفظها لا يتعين عليه الحفظ، ولكنه أعرض بعد المواصلة، فلاق به الوعيد، وكذلك يكره أن يؤثر الإنسان بمكانه من الصف الأول لأنه كالراغب عن القرب إلى اللَّه ﷻ، ولهذا قال ﷺ لعبد اللَّه بن عمرو: «**لا تكونن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل**»[٣].

والثاني: أن مداوم الخير ملازم للخدمة، فكأنه يتردد إلى باب الطاعة كل وقت، فلا ينسى من البر لتردده، وليس كمن لازم الباب يوما دائما ثم انقطع شهرا كاملا»[٤].

قلت: وفي الحديث إثبات صفة الملل، وهي كصفات الاستهزاء والخداع المضافة لله تعالى في القرآن، والصواب فيها ما عليه أئمة السلف من إثباتها لله تعالى على طريق الكمال، فله استهزاء يليق به، وهو منه -تبارك وتعالى- عدل وإنصاف، وله ملل يليق به، وهو كمال، وغير ذلك مما ورد في هذا المعنى.

سئل الشيخ ابن عثيمين عن صفة الملل فأجاب قائلا: «من المعلوم أن القاعدة

---

(١) شرح مسلم (٦/ ٦٣).

(٢) المنتقى (١/ ٢١٣).

(٣) رواه: أحمد (٢/ ١٧٠)، والبخاري (٣/ ٤٧/ ١١٥٢)، ومسلم (٢/ ٨١٤/ ١١٥٩[١٨٥])، والنسائي (٣/ ٢٨١/ ١٧٦٢)، وابن ماجه (١/ ٤٢٢/ ١٣٣١) من حديث عبد اللَّه بن عمرو ﵄.

(٤) كشف المشكل (٤/ ٢٧٨-٢٧٩).

عند أهل السنة والجماعة أننا نصف اللَّه -تبارك وتعالى- بما وصف به نفسه من غير تمثيل، ولا تكييف، فإذا كان هذا الحديث يدل على أن لله مللا فإن ملل اللَّه ليس كمثل مللنا نحن؛ بل هو ملل ليس فيه شيء من النقص، أما ملل الإنسان فإن فيه أشياء من النقص، لأنه يتعب نفسيا وجسميا مما نزل به لعدم قوة تحمله، وأما ملل اللَّه إن كان هذا الحديث يدل عليه فإنه ملل يليق به ﷻ- ولا يتضمن نقصا بوجه من الوجوه»[١].

وقال أيضا: «من العلماء من قال: إن هذا دليل على إثبات الملل لله، لكن ملل اللَّه ليس كملل المخلوق، إذ إن ملل المخلوق نقص، لأنه يدل على سأمه وضجره من هذا الشيء، أما ملل اللَّه فهو كمال وليس فيه نقص، ويجري هذا كسائر الصفات التي نثبتها لله على وجه الكمال وإن كانت في حق المخلوق ليست كمالا.

ومن العلماء من يقول: إن قوله: «**لا يمل حتى تملوا**» يراد به بيان أنه مهما عملت من عمل فإن اللَّه يجازيك عليه فاعمل ما بدا لك، فإن اللَّه لا يمل من ثوابك حتى تمل من العمل، وعلى هذا فيكون المراد بالملل لازم الملل.

ومنهم من قال إن هذا الحديث لا يدل على صفة الملل لله إطلاقا، لأن قول القائل: لا أقول حتى تقوم، لا يستلزم قيام الثاني وهكذا أيضا «لا يمل حتى تملوا» لا يستلزم ثبوت الملل لله ﷻ-.

وعلى كل حال يجب علينا أن نعتقد أن اللَّه تعالى منزه عن كل صفة نقص من الملل وغيره، وإذا ثبت أن هذا الحديث دليل على الملل فالمراد به ملل ليس كملل المخلوق»[٢].

* * *

(١) مجموع فتاوى ورسائل (١/ ١٧٤).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل (١/ ١٧٤-١٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما ذكر زكاة الروح، أتبعه زكاة عديلها المال، فقال مبينًا للرسوخ في الوصف بالعطف بالواو: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: التي منَّ سبحانه بها عليهم ﴿حَقٌّ﴾ ولما كان السياق هنا لأعم من المحسنين الذين تقدموا في «الذاريات» اقتصر على الفرض فقال: ﴿مَعْلُومٌ﴾ أي: من الزكوات وجميع النفقات الواجبة. ولما كان في السؤال من بذل الوجه وكسر النفس ما يوجب الرقة مع وقاية النفس مع المذمة، قدم قوله: ﴿لِلسَّائِلِ﴾ أي: المتكلف لسؤال الإنفاق المتكفف. ولما كان في الناس من شرفت همته وعلت رتبته على مهاوي الابتذال بذل السؤال من الإقلال بذب المقبل على اللَّه للتفطن والتوسم لأولئك فقال: ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: المتعفف الذي لا يسأل فيظن غنيًا، ولا مال له يغنيه، فهو يتلظى بناره في ليله ونهاره، ولا مفزع له بعد ربه المالك لعلانيته وإسراره إلا إلى إفاضة مدامعه بذله وانكساره، وهذا من اللَّه تعالى حث على تفقد أرباب الضرورات ممن لا كسب له ومن افتقر بعد الغنى، وقد كان للسلف الصالح في هذا وأشباهه قصب السبق»[1].

قال الرازي: «اختلفوا في الحق المعلوم: فقال ابن عباس والحسن وابن سيرين: إنه الزكاة المفروضة. قال ابن عباس: من أدى زكاة ماله فلا جناح عليه أن لا يتصدق. قالوا: والدليل على أن المراد به الزكاة المفروضة وجهان: الأول: أن الحق المعلوم المقدر هو الزكاة، أما الصدقة فهي غير مقدرة. الثاني: وهو أنه تعالى ذكر هذا على سبيل الاستثناء ممن ذمه، فدل على أن الذي لا يعطي هذا الحق يكون مذمومًا، ولا حق على هذه الصفة إلا الزكاة.

وقال آخرون: هذا الحق سوى الزكاة، وهو يكون على طريق الندب

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٣-٤٠٤).

والاستحباب، وهذا قول مجاهد وعطاء والنخعي. وقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ يعني الذي يسأل ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنيًا فيحرم»[(١)].

قال عبد الكريم الخطيب: «إن من شأن من يؤمن باللَّه، ويداوم على الصلاة من شأنه أن يذكر ربه، ويذكر أن ما في يده هو من رزق اللَّه له، ومن إحسانه إليه، وهو بهذا لا يبخل بهذا المال، ولا يضن به على الإنفاق في وجوه البر، لأن ما ينفقه هو مدخر عند اللَّه له، ثم هو في الوقت نفسه لا ينقص شيئا من الرزق المقدر له، فما أنفقه في وجوه الخير هو صدقة زائدة، تصدق اللَّه ﷻ بها عليه، لتكون طهرة له، وما أمسك في يده هو الرزق المقدر له. والحق المعلوم في أموال المؤمنين هو الزكاة المفروضة عليهم. والسائل: هو الذي يسأل عند الحاجة، والمحروم: هو المحتاج الذي لا يسأل حياء وتعففا.

هذا وقد جمع اللَّه ﷻ بين الصلاة والزكاة في سبعة وعشرين موضعا من القرآن الكريم، كما التزم القرآن الكريم تقديم الصلاة على الزكاة في كل موضع اجتمعتا فيه. وفي هذا الجمع بين الصلاة والزكاة إشارة إلى أنهما من باب واحد في باب الإيمان والإحسان.

ثم إن في تقديم الصلاة على الزكاة إشارة إلى أن الصلاة هي التي تخلق في الإنسان العواطف والمشاعر التي تدعو إلى الرحمة، والعطف، والإحسان، فالزكاة ثمرة من ثمرات الصلاة، والثمرة فرع من أصل هو الشجرة»[(٢)].

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٣١).

(٢) التفسير القرآني للقرآن (٢٩/ ١١٧٧-١١٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: يؤمنون بما أخبر اللَّه به، وأخبرت به رسله، من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك فيستعدون للآخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل، وبما جاءوا به من الكتب»[1].

قال البقاعي: «ولما كان المال قد يصرف لإصلاح الدنيا، بين أن النافع منه إنما هو المصدق للإيمان فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ أي: يوقعون التصديق لمن يخبرهم ويجددونه كل وقت ﴿بِيَوْمِ﴾ ولما كان المقصود الحث على العمل لأجل العرض على الملك الأعلى عبر بقوله: ﴿الدِّينِ﴾ أي: الجزاء الذي ما مثله؛ وهو يوم القيامة الذي يقع الحساب فيه، والدينونة على النقير والقطمير، والتصديق به حق التصديق الاستعداد له بالأعمال الصالحة، فالذين يعملون لذلك اليوم هم العمال، وأما المصدقون بمجرد الأقوال فلهم الوبال وإن أنفقوا أمثال الجبال»[2].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٥).

(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٤-٤٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مشفقون: خائفون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: والذين هم في الدنيا من عذاب ربهم وجلون أن يعذبهم في الآخرة، فهم من خشية ذلك لا يضيعون له فرضا، ولا يتعدّون له حدّا.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ أن ينال من عصاه وخالف أمره»(١).

قال الرازي: «والإشفاق يكون من أمرين، إما الخوف من ترك الواجبات أو الخوف من الإقدام على المحظورات، وهذا كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(٢)، وكقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٣)، ومن يدوم به الخوف والإشفاق فيما كلف يكون حذرًا من التقصير، حريصًا على القيام بما كلف به من علم وعمل.

ثم إنه تعالى أكد ذلك الخوف فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ والمراد أن الإنسان لا يمكنه القطع بأنه أدى الواجبات كما ينبغي، واحترز عن المحظورات بالكلية؛ بل يجوز أن يكون قد وقع منه تقصير في شيء من ذلك، فلا جرم يكون خائفًا أبدًا»(٤).

قال صديق حسن خان: «أي خائفون وجلون مع ما لهم من أعمال الطاعة لأعمالهم، واعترافا بما يجب لله سبحانه عليهم.

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨٣).
(٢) المؤمنون: الآية (٦٠).
(٣) الحج: الآية (٣٥).
(٤) تفسير الرازي (٣٠/ ١٣١).

وجملة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ مقررة لمضمون ما قبلها، مبينة أن ذلك مما لا ينبغي أن يأمنه أحد لجواز أن يحل به وإن بلغ في الطاعة ما بلغ، وأن حق كل أحد أن يخافه، ويكون مترجما بين الخوف والرجاء»[1].

* * *

(١) فتح البيان (١٤/ ٣١٨).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١﴾

★ **غريب الآية:**

العادون: جمع العادي، وهو الخارج عن الحق، والعادي: الظالم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني: أقبالهم حافظون عن كلّ ما حرم اللَّه عليهم وضعها فيه، ﴿إِلَّا﴾ أنهم غير ملومين في ترك حفظها، ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من إمائهم. وقيل: ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ ولم يتقدم ذلك جحد لدلالة قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على أن في الكلام معنى جحد، وذلك كقول القائل: اعمل ما بدا لك إلا على ارتكاب المعصية، فإنك معاقب عليه، ومعناه: اعمل ما بدا لك إلا أنك معاقب على ارتكاب المعصية.

قوله: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١﴾ فمن التمس لفرجه منكحا سوى زوجته، أو ملك يمينه، ففاعلو ذلك هم العادون، الذي عدوا ما أحل اللَّه لهم إلى ما حرّم عليهم فهم الملومون»[١].

قال البقاعي: «لما ذكر التحلي بتطهير النفس بالصلاة وتزكية المال بالصدقة ندب إلى التخلي عن أمر جامع بين تدنيس المال والنفس، وهو الزنا الحامل عليه شهوة الفرج التي هي أعظم الشهوات حملًا للنفس على المهلكات، فقال بعد ذكر التخويف بالعذاب، إعلامًا بأنه أسرع إلى صاحب هذه القاذورة وقوعًا من الذباب في أحلى الشراب، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ﴾ أي: ببواطنهم الغالبة على ظواهرهم ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ أي: سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا ﴿حَافِظُونَ﴾ أي: حفظًا ثابتًا دائمًا عن

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨٤).

كل ما نهى اللَّه عنه. ولما ذكر هذا الحفظ على هذا الوجه ذكر ما أذن فيه في أسلوب الاستثناء إشعارًا بأنه كأنه لم يذكر، فيخرج «إلا» بعد تقرير عموم الحفظ لا أنه مقصود ابتداء بقصد الصفة فقال: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ أي: بعقد النكاح.

ولما قدمهن لشرفهن وشرف الولد بهن أتبعه قوله: ﴿أَوْ مَا﴾ عبر بما هو الأغلب لغير العقلاء ندبًا إلى إيساع البطان في احتمالهن ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: من السراري اللاتي هن محل الحرث والنسل، اللاتي هن أقل عقلًا من الرجال.

ولما كان الناكح عبادة نادرًا جدًا، وكان الأصل في العبادة الخروج عن العادة، وإن لم يتجرد للعبادة كان ملومًا، اكتفى في مدحه بنفي اللوم عنه، وأكده لأن الأصل كان استحقاقه للملام لإقباله على تحصيل ما له من المرام فقال -مسببًا عن المستثنى-: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي: بسبب إقبالهم بالفروج عليهن، وإزالة الحجاب من أجل ذلك ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: في الاستمتاع بهن من لائم ما -كما نبه عليه بالبناء للمفعول- فهم يصحبونهن قصدًا للتعفف، وصون النفس، وابتغاء الولد للتعاون على طاعة اللَّه.

ولما أفهم ذلك تحريم غير المستثنى ووجب الحفظ للفروج عنه، صرح به على وجه يشمل المقدمات فقال مسببًا عنه: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ أي: طلب، وعبر بصيغة الافتعال لأن ذلك لا يقع إلا عن إقبال عظيم من النفس، واجتهاد في الطلب ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: شيئًا من هذا خارجًا عن هذا الأمر الذي أحله اللَّه تعالى، والذي هو أعلى المراتب في أمر النكاح وقضاء اللذة أحسنها وأجملها. ولما كان الوصول إلى ذلك لا يكون إلا بتسبب من الفاعل ربط بالفاء قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين هم في الحضيض من الدناءة، وغاية البعد عن مواطن الرحمة ﴿هُمُ﴾ أي: بضمائرهم وظواهرهم ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ أي: المختصون بالخروج عن الحد المأذون فيه»[1].

قال السعدي: «﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩﴾ فلا يطأون بها وطأ محرما، من زنى أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك، ويحفظونها أيضا من النظر إليها ومسها ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضا وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة. ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: سرياتهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٦-٤٠٨).

مَلُومِينَ﴾ في وطئهن في المحل الذي هو محل الحرث. ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي: المتجاوزون ما أحل اللَّه إلى ما حرم اللَّه.

دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة، لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٥-٤٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإلا الذين هم لأمانات اللَّه التي ائتمنهم عليها من فرائضه، وأمانات عباده التي ائتُمِنُوا عليها، وعهوده التي أخذها عليهم بطاعته فيما أمرهم به ونهاهم، وعهود عباده التي أعطاهم على ما عقده لهم على نفسه راعون، يرقبون ذلك، ويحفظونه فلا يضيعونه، ولكنهم يؤدّونها ويتعاهدونها على ما ألزمهم اللَّه وأوجب عليهم حفظها»[1].

قال السعدي: «أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية، التي لا يطلع عليها إلا اللَّه، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار، وكذلك العهد، شامل للعهد الذي عاهد عليه اللَّه، والعهد الذي عاهد عليه الخلق، فإن العهد يسأل عنه العبد هل قام به ووفاه؟ أم رفضه وخانه فلم يقم به؟»[2].

قال صديق حسن خان: «أي: لا يُخِلُّون بشيء من الأمانات التي يؤتمنون عليها، ولا ينقضون شيئا من العهود التي يعقدونها على أنفسهم، قرأ الجمهور لأماناتهم بالجمع، وقرئ بالإفراد وهما سبعيتان، والمراد الجنس وهي تتناول أمانات الشرع وأمانات العباد، ويدخل فيها عهود الخلق والنذور والأيمان، وقيل: الأمانات ما تدل عليه العقول، والعهود ما أتى بها الرسول»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفات المنافقين

* عن عبد اللَّه بن عمرو أن النبي ﷺ قال: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصا**،

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٦).

(٣) فتح البيان (١٤/ ٣١٩).

ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر»[(١)] .

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن رجب : «قد أمر اللَّه بالوفاء بالعهد ، فقال : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[(٢)] ، وقال : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[(٣)] ، وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾[(٤)] ، وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «**لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به**» ، وفي رواية : «**إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة ، فيقال : ألا هذه غدرة فلان**»[(٥)] ، وخرجاه أيضا من حديث أنس بمعناه[(٦)] . وخرج مسلم من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : «**لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة**»[(٧)] . والغدر حرام في كل عهد بين المسلم وغيره ، ولو كان المعاهد كافرا . . وقد أمر اللَّه تعالى في كتابه بالوفاء بعهود المشركين إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقضوا منها شيئا .

وأما عهود المسلمين فيما بينهم فالوفاء بها أشد ، ونقضها أعظم إثما . . ويدخل في العهود التي يجب الوفاء بها ، ويحرم الغدر فيها : جميع عقود المسلمين فيما بينهم إذا تراضوا عليها من المبايعات ، والمناكحات ، وغيرها من العقود اللازمة التي يجب الوفاء بها ، وكذلك ما يجب الوفاء به لله ﷻ مما يعاهد العبد ربه عليه من نذر

---

(١) أخرجه : أحمد (٢/ ١٨٩و١٩٨) ، والبخاري (١/ ١٢٠-١٢١/ ٣٤) واللفظ له ، ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٨) ، وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٤٦٨٨) ، والترمذي (٥/ ٢٠-٢١/ ٢٦٣٢) وقال : «حسن صحيح» ، والنسائي (٨/ ٤٩٠-٤٩١/ ٥٠٣٥) .

(٢) الإسراء : الآية (٣٤) .

(٣) النحل : الآية (٩١) .

(٤) آل عمران : الآية (٧٧) .

(٥) أخرجه : أحمد (٢/ ٥٦) ، والبخاري (٦/ ٣٤٨/ ٣١٨٨) ، ومسلم (٣/ / ١٣٦٠/ ١٧٣٥[١٠]) ، وأبو داود (٣/ ١٨٨/ ٢٧٥٦) ، والترمذي (٤/ ١٢٢/ ١٥٨١) ، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٢٤/ ٨٧٣٦) .

(٦) أخرجه : البخاري (٦/ ٣٤٨/ ٣١٨٦و٣١٨٧) ، ومسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٧) .

(٧) أخرجه : مسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٨) .

التبرر ونحوه»[١].

قال شيخ الإسلام: «جاء الكتاب والسنة بالأمر بالوفاء بالعهود، والشروط، والمواثيق، والعقود، وبأداء الأمانة، ورعاية ذلك والنهي عن الغدر، ونقض العهود، والخيانة، والتشديد على من يفعل ذلك»[٢].

وقال أيضا: «أمر اللَّه سبحانه في سورة النحل وغيرها بالوفاء بها -أي العهود- إلا ما اشتمل على محرم، فعلم أن العهود يجب الوفاء بها إذا لم تكن محرمة، وإن لم يثبت حلها بشرع خاص»[٣].

قال الحافظ: «الغدر حرام باتفاق، سواء كان في حق المسلم والذمي»[٤].

وقال ابن بطال: «قال ابن المهلب: والغدر حرام بالمؤمنين وبأهل الذمة، وفاعله مستحق لاسم النفاق، وللعنة اللَّه، والملائكة، والناس أجمعين»[٥].

* * *

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٨٧-٤٨٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٢٤٥-٢٤٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٥١).
(٤) فتح الباري (٦/ ٣٤٤).
(٥) شرح البخاري (٥/ ٣٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: والذين لا يكتمون ما استشهدوا عليه، ولكنهم يقومون بأدائها، حيث يلزمهم أداؤها غير مغيرة ولا مبدلة»(١).

قال البقاعي: «ولما كان أجل العهود والأمانات ما كان بإشهاد قال مبينًا لفضل الشهادة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم﴾ أي: بغاية ما يكون من توجيه القلوب ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾ التي شهدوا بها، أو يستشهدون بها لطلب أو غيره، وتقديم المعمول إشارة إلى أنهم في فرط قيامهم بها ومراعاتهم لها كأنهم لا شاغل لهم سواها ﴿قَآئِمُونَ﴾ أي: يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام والحسن أداء من هو متهيئ لها واقف في انتظارها»(٢).

قال صديق حسن خان: «أي: يتحملونها ويؤدونها على غاية التمام وحسن الأداء، ويقيمونها عند الحكام على من كانت عليه من قريب أو بعيد، أو رفيع أو وضيع، بلا ترجيح للقوي على الضعيف، ولا يكتمونها ولا يغيرونها إظهارا للصلابة في الدين، ورغبة في إحياء حقوق المسلمين»(٣).

قال السعدي: «أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريبا ولا صديقا ونحوه، ويكون القصد بها وجه اللّه. قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾(٤)﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾(٥)»(٦).

* * *

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨٤).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٠٨-٤٠٩).
(٣) فتح البيان (١٤/ ٣١٩).
(٤) الطلاق: الآية (٢).
(٥) النساء: الآية (١٣٥).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٦-٤٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: والذين هم على مواقيت صلاتهم التي فرضها اللَّه عليهم وحدودها التي أوجبها عليهم يحافظون، ولا يضيعون لها ميقاتا ولا حدًّا»[(١)].

قال أبو حيان: «إن الديمومة على الشيء والمحافظة عليه شيء واحد، لكنه لما كانت الصلاة هي عمود الإسلام بولغ في التوكيد فيها، فذكرت أول خصال الإسلام المذكورة في هذه السورة وآخرها، ليعلم مرتبتها في الأركان التي بني الإسلام عليها»[(٢)].

قال عبد الكريم الخطيب: «وحفظ الصلاة هو أداؤها على وجهها الصحيح، بما يسبقها من طهارة الجسد والثوب والمكان، وبما يقوم بين يديها من انشراح صدر، وروح نفس، واستحضار ذهن، واجتماع فكر، وبما يصحبها من خشية وجلال في مناجاة ذي العظمة والجلال.

فمن صفات المؤمنين أنهم على صلاتهم دائمون، أي: يؤدونها في أوقاتها، وأنهم إذ يؤدونها إنما يؤدونها على تلك الصفة من الجلال والرهبة والخشوع..

وقد فصل بين أداء الصلاة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣﴾[(٣)] وبين الصفة التي تؤدى بها في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾ - فصل بينهما بتلك الآيات التي تدعو إلى أداء الزكاة، وإلى التصديق بيوم الدين، والخشية من عذاب اللَّه، وإلى حفظ الفروج، وأداء الأمانات، والقيام بالشهادات- لأن أداء الصلاة مطلوب على أية حال، لا يقوم للمؤمن عذر أبدا يحله من أدائها في أوقاتها.

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨٤).

(٢) البحر المحيط (٨/ ٣٢٩).

(٣) المعارج: الآية (٢٣).

أما أداؤها على تلك الصفة الخاصة من الخشوع والخضوع والرهبة والجلال، فهو أداء للأمانة، وأنه لا تبرأ ذمة الإنسان منها إلا بأدائها على تلك الصفة، فإذا لم يؤدها على تلك الصفة فهي لا تزال أمانة في يده، ومطلوب منه أن يؤديها على وجهه، أما إذا لم يؤد الصلاة أصلا فهو تضييع لتلك الأمانة، يحاسب عليها حساب المضيعين للأمانات، وإنه حينئذ ليعز عليه أن يجدها إذا هو أراد أن يؤديها، لأنها أفلتت من يده!

وهذا يعني أن دوام الصلاة والمواظبة عليها في أوقاتها من شأنه أن يبلغ بالإنسان يوما القدرة على أدائها كاملة، وأنه إذا فاته في مرحلة من مراحل أدائها أن يمتلئ قلبه بالخشوع والرهبة معها، فإنه مع المواظبة- سيجيء اليوم الذي يجد فيه لصلاته ما يجد المصلون الخاشعون..

ومن جهة، فإن التنويه بالصلاة بدءا وختاما يجعل هذه الفضائل التي بين أداء الصلاة، والصفة التي تؤدى عليها- في ضمان هذا الحارس القوي الأمين، وهو الصلاة، فإذا لم يكن بين يدي هذه الفضائل صلاة، وإذا لم يكن خلفها صلاة، جاءت هذه الفضائل في صورة باهتة هزيلة، لا تلبث أن تجف وتموت، ولا يبقى لها في كيان الإنسان داع يدعو إليها، أو هاتف يهتف بها، ومن هنا كانت الصلاة عماد الدين»[1].

قال صديق حسن خان: «أي: على أذكارها وأركانها وشرائطها لا يخلون بشيء من ذلك. قال قتادة: على وضوئها وركوعها وسجودها. قال ابن جريج: المراد التطوع، وكرر ذكر الصلاة للدلالة على فضلها وأنافتها على غيرها، ولاختلاف ما وصفهم به أولا وما وصفهم به ثانيا، فإن معنى الدوام هو أن لا يشتغل عنها بشيء من الشواغل كما سلف، ومعنى المحافظة أن يراعي الأمور التي لا تكون صلاة بدونها.

وقيل: المراد يحافظون عليها بعد فعلها من أن يفعلوا ما يحبطها ويبطل ثوابها، وكرر الموصولات للدلالة على أن كل وصف من تلك الأوصاف لجلالته يستحق أن يستقل بموصوف منفرد، وقال الكرخي: وفي هذه الصلات مبالغات لا تخفى،

(١) التفسير القرآني للقرآن (١٥/ ١١٨٥-١١٨٦).

وهي تقديم الضمير، وبناء الجملة عليه، وتقديم الجار والمجرور على الفعل، وجعل بعض الجملة اسمية مفيدة للدوام والثبات، وبعضها فعلية مفيدة للاستمرار التجددي»[١].

* * *

(١) فتح البيان (١٤/ ٣٢٠).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ۝٣٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال في بساتين مكرمون، يكرمهم اللَّه بكرامته»(١).

قال السعدي: «أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ أي: قد أوصل اللَّه لهم من الكرامة والنعيم المقيم ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون. وحاصل هذا أن اللَّه وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق المرضية الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية اللَّه الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة اللَّه، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ حقوقهم وأماناتهم، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكرهه اللَّه تعالى»(٢).

* * *

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٧).

قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾

★ غريب الآية:

مهطعين: جمع مُهْطِع: وهو المقبل ببصره على الشيء لا يزايله. وأهطع الرجل: إذا مد عنقه وصوب رأسه. وأَهْطَع في عدوه: أسرع.

عزين: جماعات متفرقين. واحدها عِزَة. قال الراعي:

أخليفة الرحمن إن عشيرتي ... أمسوا سوامهم عزين فلولا

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه، متفرقون عنه، شاردون يمينًا وشمالا فِرَقًا فِرَقًا، وشِيعًا شِيعًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١﴾[1] الآية وهذه مثلها؛ فإنه قال تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦﴾ أي: فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مسرعين نافرين منك، كما قال الحسن البصري: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: منطلقين، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾ واحدها عزةٌ، أي: متفرقين. وهو حال من مهطعين، أي: في حال تفرقهم واختلافهم»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم التفرق

* عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس؟ اسكنوا في الصلاة**». قال: ثم خرج علينا

---

(١) المدثر: الآيات (٤٩-٥١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٥).

فرآنا حلقا، فقال: «**مالي أراكم عزين؟**». قال: ثم خرج علينا، فقال: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟**». فقلنا: يا رسول الله! وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «**يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف**».[1]

★ غريب الحديث:

مالي أراكم عزين: أي: متفرقين جماعة جماعة وهو بتخفيف الزاي، الواحد عزة، معناه النهي عن التفرق والأمر بالاجتماع»[2].

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «وفي معناه قوله سبحانه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾. أقول: قوله: «ما لي أراكم عزين؟» إنكار على رؤيته ﷺ متفرقين أشتاتا، والمقصود الإنكار عليهم كائنين على تلك الحالة؛ يعني لا ينبغي لكم أن تتفرقوا ولا تكونوا مجتمعين مع توصيتي إياكم بذلك، وكيف وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[3] اهـ»[4].

وانظر فوائد أخرى للحديث في تفسير سورة الصافات الآية (١).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠١)، ومسلم (١/ ٣٢٢/ ٤٣٠) واللفظ له، وأبو داود (٥/ ١٦٣/ ٤٨٢٣).

وأخرجه: دون ذكر موضع الشاهد النسائي (٢/ ٤٢٧/ ٨١٥)، وابن ماجه (١/ ٣١٧/ ٩٩٢).

(٢) شرح مسلم (٤/ ١٢٨).

(٣) آل عمران: الآية (١٠٣).

(٤) شرح الطيبي (٤/ ١١٤٣).

قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أيُّ سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر، والجحود برب العالمين، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر بأمانيهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا»[١].

قال ابن القيم: «وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزا عظيما من كنوز المعرفة والعلم، فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة، والآية الدالة على وجوده، ووحدانيته، وكماله، وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى لا يرسل إليهم رسولا، ولا ينزل عليهم كتابا، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعد ما أماتهم خلقا جديدا، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر، فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبوني، ويكذبون رسلي، ويعدلون بي خلقي، وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم، ويشبه هذا قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾[٢] وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده، ومعرفته، وصدق رسله، فدعاهم منهم ومن خلقه إلى الإقرار بأسمائه، وصفاته، وتوحيده، وصدق رسله، والإيمان بالمعاد»[٣].

قال محمد المكي الناصري: «أي: أيطمع كل واحد من هؤلاء الفارين

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٧-٤٧٨).

(٢) الواقعة: الآية (٥٧).

(٣) شفاء العليل (١/ ١٠٧-١٠٨).

المستهزئين المغرورين أن يدخل الجنة وهو على ما هو عليه، عنادا للحق، وإصرارا على الكفر، ثم يجيب كتاب اللّه ردا على ما يتمنونه من الأماني الفارغة: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا سبيل لهم إلى دخول الجنة أبدا، ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۝٣٩﴾ أي: أنهم يعرفون من أي شيء خلقناهم، فلا مفر لهم من الاعتراف بالخالق الذي خلقهم، والمبدع الذي أنشأهم، ولا سبيل لهم إلى الجنة إلا سلوك الطريق الوحيدة المؤدية إليها، ألا وهي طريق الإيمان باللّه وبكتبه ورسله واليوم الآخر، ولا سيما الإيمان بالذكر الحكيم، والتصديق برسالة خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم»[1].

* * *

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٣٠٤-٣٠٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٤١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: الذي خلق السموات والأرض، وجعل مشرقا ومغربا، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها. وتقدير الكلام: ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة. ولهذا أتى ب «لا» في ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفي، وهو مضمون الكلام، وهو الرد على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة، وقد شاهدوا من عظيم قدرة اللّه تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة، وهو خلق السموات والأرض، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات، وسائر صنوف الموجودات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾[1] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٣٣﴾[2]. وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾[3]. وقال هاهنا: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين. كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾[4] وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾[5].

---

(١) غافر: الآية (٥٧).
(٢) الأحقاف: الآية (٣٣).
(٣) يس: الآيتان (٨١و٨٢).
(٤) القيامة: الآيتان (٣و٤).
(٥) الواقعة: الآيتان (٦٠و٦١).

واختار ابن جرير[١] ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾[٢]. والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله أعلم»[٣].

وقال ابن القيم: «أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب وهي إما: مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب، فكذلك جمع في موضع وأفرد في موضع وثنى في موضع آخر فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾[٤] فقيل: هما مشرقا الصيف والشتاء، وجاء في كل موضع ما يناسبه فجاء: في سورة الرحمن ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾؛ لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات فذكر فيها الخلق، والتعليم، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والسماء والأرض، والحب والثمر، والجن والإنس، ومادة أبي البشر وأبي الجن، والبحرين، والجنة والنار، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما، وأخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين.

وأما سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته، وكمالها، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم، فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع؛ إذ هو أدل على المقسم عليه، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب، فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون، فيأتي بهم في نشأة أخرى كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع ويذهب بها في مغرب.

وأما في سورة (المزمل) فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده، فليس للمشرق والمغرب رب سواه، فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله ﴿وَمَا

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨٧).
(٢) محمد: الآية (٣٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٦-٢٥٧).
(٤) الرحمن: الآية (١٧).

رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١] فقال: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾[٢]، وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته للسموات وما حوته من الشمس والقمر والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين، وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه، ثم قال: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لقادرون على أن نذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيرا منهم كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾[٣]وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني. وعبر عن هذا المعنى بقوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه، ولهذا عدى بـ«على» دون «إلى» كما في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾[٤]فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بـ«على» بخلاف سبقه إليه؛ فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه، فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه، والثاني بمعنى وصلت إليه قبله»[٥].

قال محمد المكي الناصري: «يؤكد كتاب اللّه أن للقدرة الإلهية من إمكانات الخلق والإبداع على غير مثال سابق، ما يشمل الكون كله من أدناه إلى أقصاه، إذ الحق ﷻ هو رب المشارق وهو رب المغارب على تعددها، والكل منه وإليه، ولن يعجزه ما قدره من المعاد والبعث والنشور، كما يزعم المشركون الذين سيطر عليهم الجهل والغرور؛ بل إن اللّه تعالى قادر على أن يعيدهم بنفس الأجساد التي كانوا عليها في الدنيا، وقادر على أن يبدلهم من أجسادهم في الدنيا أشكالا أخرى خيرا منها في الآخرة، وما دام الحق ﷻ هو الذي خلق الإنسان على غير مثال سابق، وهو سبحانه غير مسبوق بغيره في خلق الإنسان وإبداعه، فأمر إعادة الإنسان بعد موته شيء يسير وهين بالنسبة لقدرته وحكمته، ولا حاجة إلى القسم عليه، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ وإلى هذا المعنى ينظر قوله تعالى في آية أخرى: ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ

---

(١) الشعراء: الآية (٢٣).
(٢) الشعراء: الآية (٢٤). (٣) النساء: الآية (١٣٣).
(٤) الواقعة: الآيتان (٦٠و٦١).
(٥) التبيان في أقسام القرآن (١١٧-١١٨).

أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[١].

وهناك تفسير آخر لقوله تعالى: ﴿أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ بمعنى أن نخلق بدلهم أمة أخرى تطيع اللَّه ولا تعصيه، وتصدق بيوم الدين ولا تشك فيه، على غرار قوله تعالى في آية ثانية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾[٢]، وقوله تعالى في آية ثالثة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٣]، وهذا التفسير الأخير هو الذي اختاره ابن جرير»[٤].

* * *

(١) الواقعة: الآية (٦١).

(٢) محمد: الآية (٣٨).

(٣) إبراهيم: الآية (١٩).

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٣٠٨-٣٠٩).

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول لنبيه محمد ﷺ: فذر هؤلاء المشركين المهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين، يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في هذه الدنيا، ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يقول: حتى يلاقوا عذاب يوم القيامة الذي يوعدونه»(١).

قال ابن القيم: «وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي، ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي فلا يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين»(٢).

* * *

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٨٨).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (١٢٠-١٢١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأجداث: جمع جدث، وهو القبر.

نصب: النُّصْب: ما نصب من حجارة ونحوها، فعبد وعظم.

قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعاقبة واللّه ربك فاعبدا

يوفضون: يسرعون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «هذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه؛ فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي يؤمون الصوت لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾[1] أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته لا يعرجون عنه»[2].

قال السعدي: «ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم الذي يوعدون، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، ﴿سِرَاعًا﴾ مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: كأنهم إلى علم يؤمون ويسرعون، أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي؛ بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام بين يدي رب العالمين»[3].

قال عطية محمد سالم: «بين هنا حالة الخروج من الأجداث وهي القبور، وهي أنهم يخرجون سراعا، وبين في موضع آخر أنهم يخرجون مبعثرين هنا وهناك في قوله

---

(١) طه: الآية (١٠٨).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (١٢١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٩).

تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾[2]»[3].

* * *

(١) العاديات: الآية (٩).

(٢) الزلزلة: الآية (٦).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٥١٩).

قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾

★ **غريب الآية:**

ترهقهم: تغشاهم وتلحقهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم، وقريب من هذا قوله: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥﴾[1] ونظيره قوله: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾[2] وضد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨﴾[3] فنفى عنه الجوع الذي هو ذل الباطن، والعري الذي هو ذل الظاهر، وضده أيضا قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾[4] فالنضرة: عز الظاهر، وجماله، والسرور: عز الباطن، وجماله، ومثله أيضا قوله: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾[5] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن، ومثله قوله: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[6] فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن، ومثله قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧﴾[7] فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم، ومثله قوله أيضا ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾[8]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾[9] ومنه قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ

---

(١) القيامة: الآيتان (٢٤و٢٥).
(٢) يونس: الآية (٢٧).
(٣) طه: الآية (١١٨).
(٤) الإنسان: الآية (١١).
(٥) الإنسان: الآية (٢١).
(٦) الأعراف: الآية (٢٦).
(٧) الصافات: الآيتان (٦و٧).
(٨) غافر: الآية (٦٤).
(٩) البقرة: الآية (١٩٧).

﴿١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[١] فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن، ومنه قول امرأة العزيز ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾[٢] فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره، وباطنه أحسن من ظاهره، وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا، والله أعلم بالصواب»[٣].

قال السعدي: «ذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت الحركات وانقطعت الأصوات»[٤].

* * *

(١) آل عمران: الآيتان (١٠٦و١٠٧).

(٢) يوسف: الآية (٣٢).

(٣) التبيان (١٢١-١٢٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٧٩).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول ﷻ: هذا اليوم الذي وصفت صفته؛ وهو يوم القيامة الذي كان مشركو قريش يوعدون في الدنيا أنهم لا قوة في الآخرة، كانوا يكذبون به»[1].

قال عبد الكريم الخطيب: «إلفات للمشركين إلى هذا اليوم، وما يطلع عليهم فيه من بلاء عظيم، وكرب يقصم الظهور! إنه هو ذلك اليوم الذين كانوا يوعدون به في الحياة الدنيا، ولا يقصدون به، ولا يعملون حسابا له وهاهو ذا قد جاءهم بالعذاب، فماذا هم فاعلون؟ لا شيء إلا الصراخ والعويل، وتقطيع القلوب حسرة وندامة»[2].

قال البقاعي: «لما كان الوعيد لا يتحقق إلا إذا كان من القادر، وإذا كان كذلك كان مخيفًا موجعًا من غير ذكر من صدر عنه، بني للمفعول قوله: ﴿يُوعَدُونَ﴾ أي: يجدد لهم الإيعاد به في الدنيا في كل وقت لعلهم يتعظون فترق قلوبهم فيرجعون عمَّا هم فيه من الجبروت، وهذا هو زمان العذاب الذي سألوا عنه أول السورة، فقد رجع كما ترى آخرها على أولها أي رجوع، وانضم مفصلها إلى موصلها انضمام المفرد إلى المجموع - والله الهادي إلى الصواب»[3].

* * *

(١) جامع البيان (٢٩/ ٩٠).
(٢) التفسير القرآني (٢٩/ ١١٩١).
(٣) نظم الدرر (٢٠/ ٤٢٢).



سورة نوح

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أعظم مقاصد السورة ضرب المثل للمشركين بقوم نوح، وهم أول المشركين الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا، وهو أعظم عقاب؛ أعني: الطوفان. وفي ذلك تمثيل لحال النبي ﷺ مع قومه بحالهم.

وفيها تفصيل كثير من دعوة نوح عليه السلام إلى توحيد اللَّه ونبذ عبادة الأصنام، وإنذاره قومه بعذاب أليم، واستدلاله لهم ببدائع صنع اللَّه تعالى، وتذكيرهم بيوم البعث.

وتصميم قومه على عصيانه وعلى تصلبهم في شركهم.

وتسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها.

ودعوة نوح على قومه بالاستئصال.

وأشارت إلى الطوفان.

ودعاء نوح بالمغفرة له وللمؤمنين وبالتبار للكافرين كلهم.

وتخلل ذلك إدماج وعد المطيعين بسعة الأرزاق، وإكثار النسل، ونعيم الجنة»[1].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٨٥-١٨٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية محمد سالم: «فيه بيان أن اللَّه تعالى أرسل رسوله نوحًا لينذر قومه قبل أن يأتيهم العذاب، فالنذارة أولًا؛ وهي عامة في جميع الأمم والرسل كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[1]، وذلك لإقامة الحجة أولًا، كما في قوله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[2]، وقد تقدم للشيخ رحمة اللَّه تعالى علينا وعليه بيان هذه المسألة في سورة بني إسرائيل عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾»[3].

قال البقاعي: «لما ختمت «سأل» بالإنذار للكفار، وكانوا عباد أوثان، بعذاب الدنيا والآخرة، أتبعها أعظم عذاب كان في الدنيا على تكذيب الرسل بقصة نوح عليه السلام، وكان قومه عباد أوثان، وكانوا يستهزئون به، وكانوا أشد تمردًا من قريش وأجلف وأقوى وأكثر، فلم ينفعهم شيء من ذلك عند نزول البلاء وبروك النقمة عليهم وإتيان العذاب إليهم، وابتدأها بالإنذار تخويفًا من عواقب التكذيب به، فقال مؤكدًا لأجل إنكارهم أن يكون الرسول بشرًا أو لتنزيلهم منزلة المنكرين من حيث أقروا برسالته وطعنوا في رسالة غيره مع المساواة في البشرية: ﴿إِنَّآ﴾ أي: بما لنا من العظمة الباهرة البالغة ﴿أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ وهو أول رسول أتى بعد اختلاف أولاد آدم عليه السلام في دين أبيهم الأقوم ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: الذين كانوا في غاية القوة على القيام بما يحاولونه وهم بصدد أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، ويكرموه لما بينهم من القرب بالنسب واللسان، وكانوا جميع أهل الأرض من الآدميين.

---

(١) الإسراء: الآية (١٥).

(٢) النساء: الآية (١٦٥).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٥٢٣).

ولما بان بما مضى المرسِل والرسول والمرسَل إليهم، وكان الإرسال متضمنًا معنى القول، أخذ في تفسيره بيانًا للمرسل به فقال: ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ أي: حذر تحذيرًا بليغًا عظيمًا ﴿قَوْمَكَ﴾ من الاستمرار على الكفر.

ولما كان المقصود إعلامهم بذلك في بعض الأوقات؛ لأن الإنسان لا بد له من أوقات شغل بنفسه من نوم وأكل وغيره، أتى بالجار تخفيفًا عليه ورفقًا به ﷺ فقال: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ أي: على ما هم عليه من الأعمال الخبيثة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[١].

قال محمد المكي الناصري: «يتحدث كتاب اللَّه عن الرسالة الأولى التي كلف اللَّه بها رسوله نوحا ﷺ، وما دعاهم إليه من عبادة اللَّه وتقواه، وما حضهم عليه من طاعة اللَّه ورسوله لنيل غفرانه ورضاه، وما حذرهم منه من حلول الأجل وهم غافلون، وحلول النقمة وهم مستكبرون»[٢].

قال ابن عاشور: «معنى ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أنه يخوفهم غضب اللَّه تعالى عليهم إذ عبدوا الأصنام؛ ولم يتقوا الله؛ ولم يطيعوا ما جاءهم به رسوله، فأمره اللَّه أن ينذرهم عذابًا يأتيهم من اللَّه ليكون إنذاره مقدّمًا على حلول العذاب. وهذا يقتضي أنه أُمر بأن يعلمهم بهذا العذاب، وأن اللَّه وقَّته بمدة بقائهم على الشرك بعد إبلاغ نوح إليهم ما أُرسل به في مدة يقع الإبلاغ في مثلها..

وإضافة «قوم» إلى ضمير «نوح» لأنه أرسل إليهم فلهم مزيد اختصاص به، ولأنه واحد منهم وهم بيَن أبناءٍ له وأنسباءٍ، فإضافتهم إلى ضميره تعريف لهم إذ لم يكن لهم اسم خاص من أسماء الأمم الواقعة من بعد.

وعُدل عن أن يقال له: أنذر الناس إلى قوله: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ إلهابًا لنفس نوح ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب، فإن فيهم أبناءه وقرابته وأحبته، وهم عدد تكوّن بالتوالد في بني آدم»[٣].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٢) التيسير (٦/ ٣١٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٨٦-١٨٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال نوح لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾ أنذركم عذاب اللّه فاحذروه أن ينزل بكم على كفركم به ﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: قد أبنت لكم إنذاري إياكم.

وقوله: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل نوح لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ بأن اعبدوا اللّه، يقول: إني لكم نذير أنذركم، وآمركم بعبادة اللّه ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ يقول: واتقوا عقابه بالإيمان به، والعمل بطاعته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ يقول: وانتهوا إلى ما آمركم به، واقبلوا نصيحتي لكم»[1].

قال عطية محمد سالم: «جعل الطاعة هنا لنبي اللّه نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وعلق عليها مغفرة اللّه لذنوبهم.

وقد بين تعالى أن طاعة النّبي هي طاعة اللّه، فهي في الأصل طاعة لله لأنه مبلغ عن اللّه كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٧٩ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٨٠﴾[1]»[2].

قال السعدي: «﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي: شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بيانا شافيا، فأخبرهم وأمرهم بأصل ذلك فقال: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا اللّه غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالثواب»[3].

---

(١) النساء: الآيتان (٧٩-٨٠).

(٢) جامع البيان (٢٩/ ٩١).

(٣) تتمة أضواء البيان (٨/ ٥٢٣-٥٢٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٨٠-٤٨١).

قال المراغي: « ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: قال نوح لقومه: إني أنذركم عذاب اللَّه فاحذروا أن ينزل بكم على كفركم به.

ثم فصل ما أنذرهم به، فذكر ثلاثة أشياء: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: آمركم بعبادة اللَّه وحده، والأمر بذلك يتناول جميع الواجبات والمندوبات من أفعال القلوب وأفعال الجوارح. ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: وآمركم بتقواه وخوف عذابه، بأن تتركوا محارمه، وتجتنبوا مآثمه. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: وانتهوا إلى ما آمركم به، واقبلوا نصيحتي لكم»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (٢٩/ ٧٩).

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «أي: إن تفعلوا ذلك يغفر لكم من ذنوبكم، وهذا وعد بخير الآخرة.

وأما قوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ فهو وعد بخير دنيوي يستوي الناس في رغبته، وهو طول البقاء، فإنه من النعم العظيمة لأن في جبلة الإنسان حب البقاء في الحياة على ما في الحياة من عوارض ومكدرات. وهذا ناموس جعله اللَّه تعالى في جبلة الإنسان لتجري أعمال الناس على ما يعين على حفظ النوع»[١]

قال ابن كثير: «وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث «وصلة الرحم تزيد في العمر»[٢]»[٣].

قال محمد تقي الدين الهلالي -معلقًا على كلام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى-: «الذي عليه المحققون وبه نطق كتاب اللَّه أن العمر الذي قدره اللَّه تعالى لكل إنسان لا يزيد ولا ينقص، قال اللَّه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٤]وقال تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾[٥]، وفي الحديث الصحيح: «أن اللَّه تعالى يأمر الملك أن يكتب رزق الإنسان، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»[٦] وفق ما علمه اللَّه تعالى في الأزل، والبداء مستحيل على اللَّه تعالى، وكل ما جاء بخلاف هذا وجب تأويله ورده إلى هذا الأصل، فمعنى الزيادة في العمر أن اللَّه يبارك في

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٨٨).

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٨). (٤) الأعراف: الآية (٣٤).

(٥) المنافقون: الآية (١١).

(٦) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

عمر الإنسان الذي يعمل الصالحات حتى يعمل في المدة القصيرة ما لا يعمله غيره في المدة الطويلة»[١].

* * *

(١) سبيل الرشاد (٢/ ٢٥١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع؛ فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات»[1].

قال الرازي: «ما الفائدة في قوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ الجواب: الغرض الزجر عن حب الدنيا، وعن التهالك عليها والإعراض عن الدين بسبب حبها، يعني أن غلوهم في حب الدنيا وطلب لذاتها بلغ إلى حيث يدل على أنهم شاكون في الموت»[2].

قال البقاعي: «لما كان الإنسان مجبولًا على الأطماع الفارغة، فكان ربما قال للتعنت أو غيره: لم لا يخلدنا؟ قال فطمًا عن ذلك مؤكدًا لاقتضاء المقام له: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي له الكمال كله فلا راد لأمره ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ وأما قبل مجيئه فربما يقع الدعاء والطاعات والبر في البركة فيه بمنع الشواغل وإطابة الحياة، فبادروا مجيء الأجل بالإيمان؛ لأنه إذا جاء لم يمكنكم التدارك، ولا ينفعكم بعد العيان الإيمان.

ولما كان من يعلم هذا يقينًا، ويعلم أنه إذا كشف له عند الغرغرة أحب أن يؤخر ليتوب حين لا تأخير، أحسن العمل خوفًا من فوات وقته وتحتم مقته، نبه على ذلك بقوله: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان العلم أو تجدده وقتًا ما في غرائزكم لعلمتم تنبيه رسولكم ﷺ أن اللَّه يفعل ما يشاء، وأن الأجل آت لا محالة فعملتم للنجاة، ولكنكم تعملون في الانهماك في الشهوات عمل الشاك في الموت»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٨).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ١٣٦).

(٣) نظم الدرر (٢٩/ ٤٢٩).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة صلة الرحم

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ قال: «**من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه**»(١).

★ **فوائد الحديث:**

تقدمت معاني الحديث عند قوله تعالى من سورة الرعد: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾(٢) وعند قوله تعالى من سورة فاطر: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾(٣).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤٧ و٢٦٦)، والبخاري (١٠/ ٥٠٩/ ٥٩٨٦) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٨٢/ ٢٥٥٧)، وأبو داود (٢/ ٣٢١/ ١٦٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٨/ ١١٤٢٩).

(٢) الآيتان (٣٨و٣٩).

(٣) الآية (١١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال نوح لما بلغ قومه رسالة ربه، وأنذرهم ما أمره به أن ينذرهموه فعصوه، وردّوا عليه ما أتاهم به من عنده ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ إلى توحيدك وعبادتك، وحذرتهم بأسك وسطوتك، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ يقول: فلم يزدهم دعائي إياهم إلى ما دعوتهم إليه من الحقّ الذي أرسلتني به لهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ يقول: إلا إدبارا عنه، وهربا منه، وإعراضا عنه»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاما، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالا لأمرك وابتغاء لطاعتك، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ أي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فَروا منه وحَادُوا عنه»[2].

قال البقاعي: «ولما كان ﷺ أطول الأنبياء عمرًا، وكان قد طال نصحه لهم وبلاؤه بهم، نبه على ذلك بقوله مستأنفًا: ﴿قَالَ﴾ مناديًا لمن أرسله لأنه تحقق أن لا قريب منه غيره، وأسقط أداة النداء كما هي عادة أهل القرب فقال: ﴿رَبِّ﴾ ولما كانت العادة جارية بأن التكرار لا بد أن يؤثر ولو قليلًا، فكانت مخالفتهم لذلك مما هو أهل لأن يشك فيه، قال مؤكدًا إظهارًا لتحسره وحرقته -عليه الصلاة والسلام- منهم في تماديهم في إصرارهم على التكذيب شكاية لحاله إلى اللّه تعالى،

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٩٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٩).

واستنصارًا به، واستمطارًا للتنبيه على ما يفعل به بذله الجهد، وتنبيهًا لمن يقص به عليهم هذا، وإن كان المخاطب سبحانه عالمًا بالسر وأخفى: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ﴾ أي: أوقعت الدعاء إلى اللَّه ﷻ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿قَوْمِي﴾ أي: الذين هم جديرون بإجابتي لمعرفتهم بي وقربهم مني وفيهم قوة المحاولة لما يريدون.

ولما كان قد عم جميع الأوقات بالدعاء قال: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ فعبر بهذا عن المداومة.

ولما تسبب عن ذلك ضد المراد قال: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ﴾ أي: شيئًا من أحوالهم التي كانوا عليها ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: بعدًا عنك ونفورًا وبغضًا وإعراضًا حتى كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، وأسند الزيادة إلى الدعاء لأنه سببها»[١].

قال محمد المكي الناصري: «ومما يجب التنبيه إليه في هذا المقام أن أسلوب الدعوة الذي حكاه كتاب اللَّه عن نوح ﵇ لا يختلف في شيء عن أسلوب الدعوة الذي استعمله خاتم النبيين والمرسلين صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين، كما أن الحجج والبراهين الكونية والنفسية التي كان نوح يقارع بها قومه هي نفس الحجج والبراهين التي واجه بها رسول اللَّه مشركي قريش ومن لف لفهم، وسلك طريقهم، مما يوضح لكل ذي عينين أن طبيعة الرسالة الإلهية واحدة، وأن مصدر الوحي الإلهي واحد، وأن الشبه التي تعرض لقصار النظر، والضلالات التي يقعون فيها، على تباعد ما بين العصور والأجيال، هي شبه وضلالات متقاربة، إن لم تكن متماثلة في أغلب الأحيان، وكما أن الداء البشري واحد، فالدواء الإلهي واحد»[٢].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٢٩-٤٣١).

(٢) التيسير (٦/ ٣١١-٣١٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾

★ غريب الآية:

استغشوا: طلبوا التغشي. وتغشى بثوبه: تغطى به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية محمد سالم: «بين تعالى الغرض من جعل الأصابع في الآذان لعدم السماع، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾[1]، وإصرارهم واستكبارهم إنما هو عن اتباع ما دعاهم إليه نوح ﷺ، كما قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾[2]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[3]»[4].

قال ابن جرير: «يقول جلّ وعزّ: وإني كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانيتك، والعمل بطاعتك، والبراءة من عبادة كلّ ما سواك، لتغفر لهم إذا هم فعلوا ذلك جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا دعائي إياهم إلى ذلك ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ يقول: وتغشوا في ثيابهم، وتغطوا بها لئلا يسمعوا دعائي..

وقوله: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ يقول: وثبتوا على ما هم عليه من الكفر وأقاموا عليه..

وقوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ يقول: وتكبروا فتعاظموا عن الاذعان للحق، وقبول ما دعوتهم إليه من النصيحة»[5].

قال الرازي: «اعلم أن نوحًا ﷺ إنما دعاهم إلى العبادة والتقوى والطاعة

---

(١) فصلت: الآية (٢٦).
(٢) هود: الآية (٢٧).
(٣) الشورى: الآية (١٣).
(٤) تتمة أضواء البيان (٨/ ٥٢٤).
(٥) جامع البيان (٢٩/ ٩٢-٩٣).

لأجل أن يغفر لهم؛ فإن المقصود الأول هو حصول المغفرة، وأما الطاعة فهي إنما طلبت ليتوسل بها إلى تحصيل المغفرة، ولذلك لما أمرهم بالعبادة قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[1] فلما كان المطلوب الأول من الدعوة حصول المغفرة لا جرم قال: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ واعلم أنه ﷺ لما دعاهم عاملوه بأشياء:

أولها: قوله: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والمعنى أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا الحجة والبينة.

وثانيها: قوله: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: تغطوا بها، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه. وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا؛ فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك صار المانع من السماع أقوى.

وثالثها: قوله: ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ والمعنى: أنهم أصروا على مذهبهم، أو على إعراضهم عن سماع دعوة الحق.

ورابعها: قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ أي: عظيمًا بالغًا إلى النهاية القصوى»[2].

* * *

(١) نوح: الآية (٤).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما ذكر دعاءه في جميع الأوقات مع إعراضهم، وكان هذا مؤيسًا وموجبًا للإقلاع عن الدعاء، وإن وجد الدعاء بعده فهو في غاية البعد منه على إيجاده مع الاستغراق به لجميع الحالات كما استغرق جميع الأوقات، فعبر بأداة التراخي للدلالة على تباعد الأحوال فقال: ﴿ثُمَّ﴾ وأكد لنحو ما مضى من أن تجرد إقبالهم على دعائهم بعد ذلك لا يكاد يصدق فضلًا عن الإكثار منه فقال: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى الإيمان ومنابذة الشيطان.

ولما كان الجهر أحد نوعي الدعاء، نصبه به نصب المصدر فقال: ﴿جِهَارًا﴾ أي: مكاشفة في فخامة الصوت، والتعميم لجماعتهم جليلهم وحقيرهم، والإخلاص في ذلك، والمداومة له حتى كاد بصري يكل من شدة التحديق إليهم، والإقبال عليهم من غير احتجاب عنهم، ولا ارتقاب منهم بل مباغتة، وكررت ذلك عليهم حتى أخرجت ما عندهم من الجواب، ولم أكف عند سد آذانهم واستغشائهم ثيابهم.

ولما كان الجهر قد لا يشيع ولا ينشر في جماعاتهم، قال مشيرًا إلى أنه أذاع ذلك، وأكد للإشارة إلى ما فيه من الشدة فقال: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ﴾ أي: أظهرت، وأشعت، وشهرت ليعلموا أنه الحق من ربهم لكوني لست مستحييًا منه، ولا مستهجنًا له، ﴿لَهُمْ﴾ أي: خصصتهم بذلك، لم يكن فيه حظ نفس بوجه فإني كررت ذلك عليهم بعد أن سقط الوجوب عني، ولما قدم الجهر لأنه أقرب إلى عدم الاتهام، وكان السر أجدر بمعرفة الضمائر وأقرب إلى الاستمالة، أتبعه به فقال: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ أي: دعوت كل واحد منهم على انفراده ليكون أدعى له وأجدر بقبوله النصيحة، وأدل على الإخلاص، وكل ذلك ما فعلته إلا لأجل نصيحتهم، لا حظَّ

لي أنا في ذلك، ولما كان تحين الإنسان ليكون وحده ليس عنده أحد، ولا هو مشتغل بصارف مما يعسر جدًا فلا يكاد يصدق أكده فقال: ﴿إِسْرَارًا﴾ وليدل بتأكيده على تأكيد ما قبله من الأفعال، والظاهر من حاله ومن هذا الترتيب مما صرح به من الاجتهاد أنه سار فيه على مقتضى الحكمة، فدعا أولًا أقرب الناس إليه وأشدهم به إلفًا، ثم انتقل إلى من بعدهم حتى عمهم الدعاء، وكانت هذه الدعوة سرًا كل واحد منهم على حدته ليغلموا نصحه ولا يحمل أحد منهم ذلك على تبكيت ولا تقريع، فلا يكون في دعائه ما يكون سببا لأنفة أحد منهم، فلما أطبقوا على الإعراض جهر ليعلموا أنه ملجأ من اللّه إلى ذلك، وأنها عزمة إن قصروا فيها عن الإجابة عوقبوا، فلما أصروا جمع بين السر والعلن، فلما تمادوا وطال الأذى شكى، وعلى هذا فـ«ثم» لبعد الرتب لا للترتيب في الزمان، ويمكن كونها للترتيب؛ لأن الجهر أبعد عن الاتهام ثم الإعلان بعده أزيد بعدًا»[1].

قال الرازي: «اعلم أن هذه الآيات تدل على أن مراتب دعوته كانت ثلاثة، فبدأ بالمناصحة في السر، فعاملوه بالأمور الأربعة، ثم ثنى بالمجاهرة، فلما لم يؤثر جمع بين الإعلان والإسرار، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض إما بحسب الزمان، أو بحسب الرتبة؛ لأن الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الإسرار والجهار أغلظ من الجهار وحده»[2].

قال ابن عاشور: «المعنى: أنه توخى ما يظنه أوْغَل إلى قلوبهم من صفات الدعوة، فجهر حين يكون الجهر أجدى مثلُ مجامع العامة، وأسَرَّ للذين يظنهم متجنبين لَوْم قومهم عليهم في التصدّي لسماع دعوته، وبذلك تكون ضمائر الغيبة في قوله: ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾، وقوله: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ موزعة على مختلفِ الناس»[3].

قال صديق حسن خان: «والمقصود أنه دعاهم على وجوه متخالفة وأساليب متفاوتة، فلم ينجح ذلك فيهم، وهكذا الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يبتدئ بالأهون ثم بالأشد فالأشد»[4].

* * *

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٣٥و٤٣٧).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/ ١٣٧-١٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٩٧).

(٤) فتح البيان (١٤/ ٣٣٤).

قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ۝١٢﴾

★ **غريب الآية:**

مدرارا: غزيرا متتابعا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: فقلت لهم: سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم، وعبادة ما سواه من الآلهة ووحدوه، وأخلصوا له العبادة، يغفر لكم، إنه كان غفارًا لذنوب من أناب إليه، وتاب إليه من ذنوبه.

وقوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ يقول: يسقيكم ربكم إن تبتم ووحدتموه وأخلصتم له العبادة الغيث، فيرسل به السماء عليكم مدرارا متتابعا»[1].

قال الرازي: «اعلم أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، ويدل عليه وجوه:

أحدها: أن الكفر سبب لخراب العالم على ما قال في كفر النصارى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾[2] فلما كان الكفر سببًا لخراب العالم وجب أن يكون الإيمان سببًا لعمارة العالم.

وثانيها: الآيات منها هذه الآية ومنها قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾[3] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن

(١) جامع البيان (٢٩/ ٩٣).
(٢) مريم: الآيتان (٩٠و٩١).
(٣) الأعراف: الآية (٩٦).

فَوۡقِهِمۡ﴾(١) ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾(٢) ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾(٣)، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ﴾(٤).

وثالثها: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾(٥)فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية»(٦).

قال ابن كثير: «أي: ارجعوا إليه، وارجعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إليه من قريب، فإنه من تاب إليه تاب عليه، ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك. ولهذا قال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ أي: متواصلة الأمطار»(٧).

قال القرطبي: «في هذه الآية والتي في هود -أي قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾(٨)- دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار»(٩).

قال ابن جرير: «﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ يقول: ويعطكم مع ذلك ربكم أموالا وبنين، فيكثرها عندكم ويزيد فيما عندكم منها ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ يقول: يرزقكم بساتين ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ تسقون منها جناتكم ومزارعكم؛ وقال ذلك لهم نوح، لأنهم كانوا فيما ذُكر قوم يحبون الأموال والأولاد»(١٠).

قال ابن كثير: «أي: إذا تبتم إلى اللّٰه واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وَأَدَرَّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام

(١) المائدة: الآية (٦٦).
(٢) الجن: الآية (١٦).
(٣) الطلاق: الآيتان (٢و٣).
(٤) طه: الآية (١٣٢).
(٥) الذاريات: الآية (٥٦).
(٦) تفسير الرازي (٣٠/ ١٣٨).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٥٩).
(٨) هود: الآية (٥٢).
(٩) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٣٠٢).
(١٠) جامع البيان (٢٩/ ٩٤).

الدعوة بالترغيب»[١].

قال محمد تقي الدين الهلالي: «كل أمة عم فيها العدل والرحمة فنصرت المظلوم، وأكرمت اليتيم، وأطعمت المسكين، وآمنت الضعيف، وسع اللَّه رزقها، ونصرها على أعدائها، كما قال النبي ﷺ: «**وإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**»[٢]، وهذه قاعدة لا تختلف، وسنة لا تتبدل في كل زمان ومكان، فانظروا إلى أمم زمننا تروا كل أمة يعم فيها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات تروها مرزوقة منصورة عزيزة الجانب، سواء كانت في الشرق أم في الغرب، مع اختلاف عقائدها، فإن اللَّه تعالى إنما يعذب الأمم في الحياة الدنيا وفي الآخرة على قدر ما بلغها من العلم، وأقيم عليها من الحجج، أما السعادة الكبرى التي تكون في العاجل والآجل فهي خاصة بمن آمن باللَّه ورسله، واتبع من أناب»[٣].

قال المراغي: «﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: فقلت لهم: سلوا ربكم غفران ذنوبكم، وتوبوا إليه من كفركم وعبادة ما سواه من الآلهة، ووحدوه وأخلصوا له العبادة. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ لذنوب من أناب إليه وتاب منها، متى صدقت العزيمة، وخلصت النية، وصحت التوبة، فضلا منه وجودا، وإن كانت كزبد البحر.

ولما كان الإنسان مجبولا على محبة الخيرات كما قال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ﴾[٤] لا جرم أعلمهم إن إيمانهم باللَّه يجمع لهم إلى الحظ الأوفر في الآخرة، الخصب والغنى وكثرة الأولاد في الدنيا، ومن ثم وعدهم بخمسة أشياء:

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: يرسل المطر عليكم متتابعا، فتزرعون ما تحبون، ويكثر الخصب والغلات النافعة لكم في معاشكم، من حبوب وثمار، وتحدث لكم طمأنينة، وأمن، وراحة لتوافر ما تشتهون، مما هو سبب السعادة والهدى.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ أي: ويكثر لكم الأموال والخيرات؛ على سائر ضروبها

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ١١٠/ ٢٨٩٦)، والنسائي (٦/ ٣٥٢/ ٣١٧٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٣) سبيل الرشاد (٢/ ٢٥١-٢٥٢).

(٤) الصف: الآية (١٣).

واختلاف ألوانها.

﴿وَبَنِينَ﴾ أي: ويكثر لكم الأولاد؛ فقد ثبت لدى علماء الاجتماع أن النسل لا يكثر في أمة إلا إذا استتب فيها الأمن، وارتفع منها الظلم، وساد العدل بين الأفراد، وتوافرت لهم وسائل الرزق.

وأصدق شاهد على هذا الأمة المصرية، فقد كانت في عصر المماليك في القرن السابع عشر الميلادي، أيام الظلم والعسف والجبروت، في فقر وضنك، وسلب ونهب، فتدهور عدد سكانها حتى بلغ الثلاثة الملايين.

ولما اعتل عرش مصر «محمد علي» رأس الأسرة المالكة في مصر في أوائل القرن الثامن عشر، وساس البلاد بحكمته، وسعى جهد طاقته في تنظيم مرافقها من زراعة وصناعة ومعارف وعلوم، تكاثر النسل وما زال يزيد، ونهج أبناؤه وحفدته نهجه حتى بلغ عدده في عصرنا الحاضر نحو عشرين مليونا.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: ويوجد لكم بساتين عامرة تأخذون من ثمارها ما به تنتفعون، ولن يطمع الناس في الفاكهة إلا إذا وجدت لديهم الأقوات، وكثرت الغلات.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ جارية بها يكثر الخصب والزرع بمختلف ألوانه وأشكاله. لا جرم أن الأمة الكثيرة البساتين والمزارع، يعمها الرخاء، وتسعد في حياتها الدنيوية»[1].

* * *

---

(١) تفسير المراغي (٢٩/ ٨٣-٨٤).

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وقارا: أي: عظمة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما كان من رجا ملكًا عمل بما يرضيه، ومن خافه تجنب ما يسخطه، نبههم على ذلك بالإشارة إلى الجلال الموجب للتوقير والجمال بالإحسان إلى الخلق، مصرحًا لهم بالترغيب ملوحًا إلى الترهيب، فقال مستأنفًا في جواب من يقول منهم: هل بقي شيء من قولك؟ ﴿مَا﴾ أي: أيّ شيء يحصل ﴿لَكُمْ﴾ حال كونكم ﴿لَا تَرْجُونَ﴾ أي: تكونون في وقت من الأوقات على حال تؤملون بها، وبين فاعل الوقار ومبدعه بتقديمه، فإنه لو أخره لكان ل «وقارًا» فقال: ﴿لِلَّهِ﴾ أي: الملك الذي له الأمر كله ﴿وَقَارًا﴾ أي: ثوابًا يوقركم فيه ولو قل، فإن قليله أكثر من كثير غيره، ولا تخافون له إهانة بالعقاب بأن تعلموا أنه لا بد من أن يحاسبكم بعد البعث فيثيب الطائع ويعاقب العاصي، كما هي عادة كل أحد مع من تحت يده، فتوقروا رسله بتصديقهم فتؤمنوا وتعملوا، فإن من أراد من أحد أنه يوقره وقره وعظمه ليجازيه على ذلك، فإن الجزاء من جنس العمل، وذلك إنما يكون بمعرفة اللَّه بما له من الجلال والجمال، والخلق إنما تفاضلوا بالمعرفة باللَّه لا بالأعمال، إنما سبق أبو بكر رضي الله عنه الناس بشيء وقر في صدره، فإن بالمعرفة تزكو الأعمال وتصلح الأقوال، وإنما يصح تعظيمه سبحانه بأن لا ترى لك عليه حقًا، ولا تنازع له اختيارًا، وتعظم أمره ونهيه، بعدم المعارضة بترخيص جاف أو تشديد غال أو حمل على توهم الانقياد، وتعظم حكمه بأن لا تبغي له عوجًا ولا تدافعه بعلم، ولا ينبغي له غرض وعلة»[1].

---

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٣٩-٤٤٠).

قال ابن القيم: «أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾[١]. قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرونه. وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم. وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة. وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته. وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم لو عظموا اللّه وعرفوا حق عظمته وحدوه، وأطاعوه، وشكروه، فطاعته سبحانه اجتناب معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره في القلب. ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار اللّه في قلب أحدكم أن يذكره عند ما يُستحى من ذكره، فيقرن اسمه به، كما تقول: قبح اللّه الكلب، والخنزير، والنتن، ونحو ذلك. فهذا من وقار اللّه، ومن وقاره أن لا تعدل به شيئا من خلقه لا في اللفظ بحيث تقول: واللّه وحياتك، مالي إلا اللّه وأنت، وما شاء اللّه وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله؛ بل أعظم كما عليه أكثر الظلمة والفجرة، ولا في الخوف والرجاء ويجعله أهون الناظرين إليه ولا يستهين بحقه ويقول هو مبني على المسامحة، ولا يجعله على الفضلة ويقدم حق المخلوق عليه، ولا يكون اللّه ورسوله في حد وناحية والناس في ناحية وحد فيكون في الحد والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه اللّه ورسوله، ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه ويعطي اللّه في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدما على مراد ربه، فهذا كله من عدم وقار اللّه في القلب، ومن كان كذلك فإن اللّه لا يلقي له في قلوب الناس وقارا ولا هيبة؛ بل يسقط وقاره وهيبته في قلوبهم وإن وقروه مخافة شره، فذاك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم، ومن وقار اللّه أن يستحي من إطلاعه على سره وضميره فيرى فيه ما يكره، ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس»[٢].

* * *

(١) الفتح: الآية (٩).

(٢) الفوائد (٢٤٢-٢٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أطوارا: أي: أحوالا مختلفة طورا بعد طور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقد خلقكم حالا بعد حال، طورا نطفة، وطورا علقة، وطورا مضغة»(١).

قال السعدي: «أي: خلقا من بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم»(٢).

قال عطية محمد سالم: «هي المبينة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾(٣). وهذا مروي معناه عن ابن عباس. قاله ابن كثير والقرطبي.

وقيل أطوارًا: شبابًا وشيوخًا وضعفاء.

وقيل أطوارًا: أي أنواعًا صحيحًا وسقيمًا، وبصيرًا وضريرًا، وغنيًا وفقيرًا.

وقيل أطوارًا: اختلافهم في الأخلاق والأفعال. قاله القرطبي.

ولكن كما قدم الشيخ رحمة اللّٰه تعالى علينا وعليه أنه إذا تعددت الأقوال في

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٩٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٨٣).

(٣) المؤمنون: الآيات (١٢-١٤).

الآية وكان فيها قرينة دالة على أحد الأقوال فإنه يبينه، وهنا قرينة في الآية على أن المراد هو الأول وإن كان الجميع صحيحًا، والقرينة هي أن الآية في قضية الخلق؛ وهو الإيجاد الأول، لأن ما بعد الإيجاد صفات عارضة. وقد جاء نظير الآية في سورة المؤمنون كما قدمنا، وقد ذيلت بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[1].

ومنها: أن الآية سِيقت في الدلالة على قدرة اللَّه على بعثهم بعد موتهم لمجازاتهم، فكان الأنسب بها أن يكون متعلقها كمال الخلقة والقدرة على الإيجاد.

والأنسب لهذا المعنى هو خلقهم من نطفة أمشاج وماء مهين، ثم تطويرها إلى علقة، ثم تطوير العلقة مضغة، ثم خلق المضغة عظامًا، ثم كسوا العظام لحمًا، ثم نشأته نشأة أخرى. إنها قدرة باهرة وسلطة قاهرة. ومثله في الواقعة: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩﴾[2]. وفي الطور في أصل الخلقة: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾[3].

إن أصل الخلقة والإيجاد وهو أقوى دليل على القدرة، وهو الذي يجاب به على الكفرة، كما في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧﴾[4] ثم قال: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾[5] ذلك كله دليل على أن المراد بالأطوار في الآية هو ما جاء عن ابن عباس المشتملة عليه سورة المؤمنون.

تنبيه:

إن بيان أطوار خلقة الإنسان على النحو المتقدم أقوى في انتزاع الاعتراف بقدرة اللَّه من العبد، من يحيي المخلوق جملة، لأنه يوقف على عدة مراحل من حياته وإيجاده، وكل طور منها آية مستقلة، وهذا التوجيه موجود في الظواهر الكونية أيضًا من سماء وأرض، فالسماء كانت دخانًا وكانت رتقا ففتقهما، والأرض كانت على غير ما هي عليه الآن، وبين الجميع في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢﴾[6] وأجمع من ذلك كله في قوله تعالى في فصلت:

---

(١) المؤمنون: الآية (١٤).

(٢) الواقعة: الآيتان (٥٨و٥٩).

(٣) الطور: الآية (٣٥).

(٤) عبس: الآية (١٧).

(٥) عبس: الآيتان (١٨و١٩).

(٦) النازعات: الآيات (٢٧-٣٢).

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾[1]، ثم ختم تعالى هذا التفصيل الكامل بقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، ففيه بيان أن تلك الأطوار في المخلوقات بتقدير معين، وأنه بعلم، ومن العزيز سبحانه، فكان من الممكن خلقها دفعة واحدة، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. ولكن العرض على هذا التفصيل أبعد أثرًا في نفس السامع، وأشد تأثيرًا عليه. والعلم عند الله تعالى»[2].

* * *

(١) فصلت: الآيات (٩-١٢).

(٢) تتمة أضواء البيان (٨/ ٥٢٥-٥٢٨).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل نوح صلوات الله وسلامه عليه لقومه المشركين بربهم، محتجا عليهم بحجج الله في وحدانيته: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أيها القوم فتعتبروا ﴿كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض، والطباق: مصدر من قولهم: طابقت مطابقة وطباقا. وإنما عنى بذلك: كيف خلق الله سبع سموات، سماء فوق سماء مطابقة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ يقول: وجعل القمر في السموات السبع نورا ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ﴾ فيهن ﴿سِرَاجًا﴾»[١].

قال السعدي: «فيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمة الله وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم يستحق أن يعظم ويحب ويخاف ويرجى»[٢].

قال المراغي: «بعد أن ذكر النظر في الأنفس أتبعه بالنظر في العالم العلوي والسفلي فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ أي: ألم تروا كيف خلق السموات متطابقة بعضها فوق بعض، وجعل للقمر بروجا ومنازل وفاوت نوره، فجعله يزداد حينا حتى يتناهى، ثم يبتدئ ينقص حتى يستسر ليدل ذلك على مضي الشهور والأعوام، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل. ونحو الآية قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾[٣]»[٤].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٩٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٨٣).

(٣) يونس: الآية (٥).

(٤) تفسير المراغي (٢٩/ ٨٥).

قال ابن عاشور: «وفي جعل القمر نورًا إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته، فإن القمر مظلم، وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعُّض وتمام هو أثر ظهوره هلالًا، ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدرًا، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المحاق. وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجًا لأنها ملتهبة، وأنوارها ذاتية فيها، صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت، وتُلمع أوانيَ الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة»[1].

قال عطية محمد سالم: «سياق هذه البراهين للرد على المكذبين بالبعث، ولكن في هذا السياق إشكال فيما يبدو كبير وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝﴾[2].

وإذا كان السياق للاستدلال بالمعلوم المشاهد على المجهول الغيبي فإن خلق الإنسان أطوارًا محسوس مشاهد ومسلم به، وإنبات الإنسان من الأرض بإطعامه من نباتها وإحيائها بعد موتها، واهتزاها وإنباتها النبات أمر محسوس.

ويمكن أن يقال للمخاطب: كما شاهدت خلق الإنسان من عدم وتطوره أطوارًا، وشاهدت إحياء الأرض الميتة، فإن اللَّه الذي خلقك وأحيا لك الأرض الميتة قادر على أن يعيدك ويخرجك منها إخراجًا.

ولكن كيف تقول: وكما شاهدت خلق السماوات سبعًا طباقًا فإن القادر على ذلك قادر على بعثك. والحال أن الإنسان لم يشاهد خلق السموات سبعًا طباقًا، ولا رأى كيف خلقها اللَّه سبعًا طباقًا، والإشكال هنا هو كيف قيل لهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ﴾.

والكيف للحال والهيئة، وهم لم يشاهدوها كما قال تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[3].

وكيف يستدلون بالمجهول عندهم على المغيب عنهم؟

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٠٤).

(٢) نوح: الآية (١٥).

(٣) الكهف: الآية (٥١).

وهنا تساءل ابن كثير تساؤلًا واردًا، وهو قوله: ﴿طِبَاقًا﴾ أي واحدة فوق واحدة، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس، مما علم من التسيير والكسوفات. وأظنه يعني التسيير من السير، فإن الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضًا، فأدناها القمر في السَّماء الدنيا، وذكر الكواكب السبعة في السموات السبع، وكلام أهل الهيئة، ولم يتعرض للإشكال بحل يركن إليه.

وقال القرطبي: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ﴾ على جهة الإخبار لا المعاينة. كما تقول: ألم تر كيف فعلت بفلان كذا؟ وعلى كلام القرطبي يرد السؤال الأول، إذا كان ذلك على جهة الإخبار، فكيف يجعل الخبر دليلًا على خبر آخر لا يدرك إلا بالسمع؟ والجواب عن ذلك مجملًا مما تشير إليه آيات القرآن الكريم كالآتي:

أولًا: أن تساؤل ابن كثير هل يتلقى ذلك من جهة السمع فقط؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس، لا محل له؛ لأنه لا طريق إلا النقل فقط، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[1] أي: آدم. فلم نعلم كيف خلق، ولا كيف سارت الروح في جسم جماد صلصال، فتحول إلى جسم حساس نام ناطق.

وأما قول القرطبي: إنه على جهة الإخبار لا المعاينة، فهو الذي يشهد له القرآن. ويجيب القرآن على السؤال الوارد عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٣﴾[2] لأن الله تعالى خاطب هنا الكفار قطعًا لقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

وخاطبهم بأمور مفصلة لم يشهدوها قطعًا من خلق الأرض في يومين، ومن

---

(١) الكهف: الآية (٥١).

(٢) فصلت: الآيات (٩-١٣).

تقدير أقواتها في أربعة أيام، ومن استوائه إلى السَّماء وهي دخان، ومن قوله لها وللأرض: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ، ومن قولهما: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ . ومن قضائهن سبع سماوات في يومين، ومن وحيه في كل سماء أمرها.

كل ذلك تفصيل لأمور لم يشهدوها ولم يعلموا عنها بشيء، ومن ضمنها قضاؤه سبع سماوات، فكان كله على سبيل الإخبار لجماعة الكفار.

وعقبه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فكان مقتضى هذا الإخبار وموجب هذا التقدير من العزيز العليم، أن يصدقوا أو أن يؤمنوا. وهذا من خصائص كل إخبار يكون مقطوعًا بصدقه من كل من هو واثق بقوله: يقول الخبر، وكان لقوة صدقه ملزم لسامعه، ولا يبالي قائله بقبول السامع له أو إعراضه عنه.

ولذا قال تعالى بعد ذلك مباشرة ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ أي: بعد إعلامهم بذلك كله، فلا عليك منهم: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ . وحيث إن اللَّه خاطبهم هنا ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ﴾ فكان هذا أمر لفرط صدق الإخبار به، كالمشاهد المحسوس الملزم لهم؟

وقد جاءت السنة وبينت تلك الكيفية أنها سبع طباق بين كل سماء والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وشمل كل سماء وسمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام.

وقد يقال: إن الرؤية هنا في الكيفية حاصلة بالعين محسوسة، ولكن في شخصية الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج حيث عرج به ورأى السبع الطباق، وكان يستأذن لكل سماء. ومشاهدة الواحد من الجنس كمشاهدة الجميع، فكأننا شاهدناها كلنا لإيماننا بصدقه ﷺ، ولحقيقة معرفتهم إياه ﷺ في الصدق من قبل. والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

* * *

---

(١) تتمة أضواء البيان (٨/ ٥٢٩-٥٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: والله أنشأكم من تراب الأرض، فخلقكم منه إنشاء ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ يقول: ثم يعيدكم في الأرض كما كنتم ترابا فيصيركم كما كنتم من قبل أن يخلقكم ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ يقول: ويخرجكم منها إذا شاء أحياء كما كنتم بشرا من قبل أن يعيدكم فيها، فيصيركم ترابا إخراجا»[1].

قال البقاعي: «ولما دل على كمال علمه وتمام قدرته بخلق الإنسان، ثم بخلق ما هو أكبر منه أعاد الدلالة بخلق الإنسان؛ لأنه أعظم المحدثات وأدلها على الله ﷻ على وجه آخر، مبين لبعض ما أشار إليه الأول من التفصيل مصرحًا بالبعث، فقال مستعيرًا الإنبات للإنشاء: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: الملك الأعظم الذي له الأمر كله ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ أي: بخلق أبيكم آدم -عليه الصلاة والسلام- ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: كما ينبت الزرع، وعبر بذلك تذكيرًا لنا لما كان من خلق أبينا آدم -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنه أدل على الحدوث والتكون من الأرض، وأشار إلى أنه جعل غذءانا من الأرض التي خلقنا منها، وبذلك الغذاء نمونا.

ولما كان إنكارهم للبعث كأنه إنكار للابتداء أكده بالمصدر، وأجراه على غير فعله بتجريده من الزيادة، إشارة إلى هوانه عليه ﷻ وسهولته مع أنه إبداع وابتداء واختراع فقال: ﴿نَبَاتٗا﴾ ومع ذلك فالآية صالحة للاحتباك: ذكر «أنبت» أولًا دال على حذف مصدره ثانيًا، وذكر «النبات» ثانيًا دال على حذف فعله أولًا، ليكون التقدير: «أنبتكم إنباتًا فنبتم نباتًا».

ولما كان في الموت أيضًا دليل على تمام العلم والقدرة، غير أنه ليس كدلالة

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ٩٧).

الابتداء بالابتداع، وكان مسلمًا ليس فيه نزاع، ذكره من غير تأكيد بالمصدر فقال دالًّا على البعث والنشور: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ على التدريج ﴿فِيهَا﴾ أي: الأرض بالموت والإقبار وإن طالت الآجال ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ أي: فيها بالإعادة، وأكد بالمصدر الجاري على الفعل إشارة إلى شدة العناية به، وتحتيم وقوعه لإنكارهم له فقال: ﴿إِخْرَاجًا﴾ أي: غريبًا ليس هو كما تعلمون بل تكونون به في غاية ما يكون من الحياة الباقية، تلابس أرواحكم بها أجسامكم ملابسة لا انفكاك بعدها لأحدهما عن الآخر»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٣-٤٤٥).

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾

★ **غريب الآية:**

فجاجا: جمع فج، وهو المسلك بين جبلين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: بسطها ومهدها وقررها وثَبتها بالجبال الراسيات الشُّمُّ الشامخات. ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ أي: خلقها لكم لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أين شئتم، من نواحيها وأرجائها وأقطارها، وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة اللَّه وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرزاق، جعل السماء بناء، والأرض مهادا، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد؛ لأنه لا نظير له ولا عَديل له، ولا ند ولا كفء، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العلي الكبير»[1].

قال البقاعي: «ولما كان النابت من الشيء لا يتصرف في ذلك الشيء، دل على كمال قدرته بخرق تلك العادة لهم على وجه الإنعام عليهم، فقال مظهرًا للاسم الشريف مرة بعد أخرى تعظيمًا للأدلة، ولئلا تقيد القدرة بما يقترن به الاسم دالاًّ بالعالم السفلي بعد الإرشاد بالعلوي، وأخر السفلي لأن آياته على ظهورها خفيت بكثرة الإلف لها: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: المستجمع لجميع الجلال والإكرام ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ أي: نعمة عليكم اهتمامًا بأمركم ﴿ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: سهل عليكم التصرف فيها والتقلب عليها سهولة التصرف في البساط، ثم علل ذلك فقال: ﴿لِّتَسْلُكُواْ﴾ أي: منجدين ﴿مِنْهَا﴾ أي: الأرض مجددين لذلك ﴿سُبُلًا﴾ أي: طرقًا واضحة مسلوكة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦١).

بكثرة ﴿فِجَاجًا﴾ أي: ذوات اتساع، لتتوصلوا إلى البلاد الشاسعة برًّا وبحرًا، فيعم الانتفاع بجميع البقاع، فالذي قدر على إحداثكم وأقدركم على التصرف في أصلكم مع ضعفكم قادر على إخراجكم من أجداثكم التي لم تزل طوع أمره ومحل عظمته وقهره»[1].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٥-٤٤٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾

★غريب الآية:

كبارا: كبيرا بالغ الكبر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية محمد سالم: «ينص تعالى هنا أن قوم نوح اتبعوا من هذا وصفه مع أن المال يزيد الإنسان نفعًا. وقد بين تعالى أن المال فعلًا قد يورث خسارة، وهلاكًا كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾[1]»[2].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه، وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء؛ أنه مع البيان المتقدم ذكره، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى: أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله، ومتع بمال وأولاد، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام»[3].

قال الرازي: «اعلم أن نوحًا عليه السلام لما دعاهم إلى الله، ونبههم على هذه الدلائل الظاهرة حكى عنهم أنواع قبائحهم، وأقوالهم، وأفعالهم، فالأول قوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ وذلك لأنه قال في أول السورة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ فكأنه قال: قلت لهم أطيعون فهم عصوني.

الثاني قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾..

ذكر في الآية الأولى أنهم عصوه، وفي هذه الآية أنهم ضموا إلى عصيانه معصية

---

(١) العلق: الآيتان (٦ و٧).

(٢) تتمة أضواء البيان (٨/ ٥٣٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦١).

أخرى وهي طاعة رؤسائهم الذين يدعونهم إلى الكفر، وقوله: ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني هذان وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا إلا أنهما لما صارا سببًا للخسار في الآخرة فكأنهما صارا محض الخسار، والأمر كذلك في الحقيقة؛ لأن الدنيا في جنب الآخرة كالعدم، فإذا صارت المنافع الدنيوية أسبابًا للخسار في الآخرة صار ذلك جاريًا مجرى اللقمة الواحدة من الحلو إذا كانت مسمومة سم الوقت. واستدل بهذه الآية من قال: إنه ليس لله على الكافر نعمة؛ لأن هذه النعم استدراجات ووسائل إلى العذاب الأبدي فكانت كالعدم، ولهذا المعنى قال نوح عليه السلام في هذه الآية: ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾»[1].

قال القرطبي: «واختلف في مكرهم ما هو؟ فقيل: تحريشهم سفلتهم على قتل نوح. وقيل: هو تعزيرهم الناس بما أوتوا من الدنيا والولد، حتى قالت الضعفة: لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم. وقال الكلبي: هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد. وقيل: مكرهم: كفرهم. وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[2]»[3].

قال محمد المكي الناصري: «بعد ما قام نوح عليه السلام بتبليغ الرسالة عن ربه، واستعمل مع قومه وسائل الترغيب والترهيب، وقضى أكبر قسم من حياته الطويلة في أداء الواجب دون الوصول معهم إلى جدوى أخذ يستعيذ بالله من كفرهم وعصيانهم، ويبرأ إليه من مكرهم وعدوانهم، وذلك ما يحكيه عنه قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾»[4].

* * *

(١) تفسير الرازي (٣٠/ ١٤٢).

(٢) نوح: الآية (٢٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٩٨).

(٤) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٣١٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «لما كان دعاء الرسل عليهم الصلاة والسلام جديرًا بالقبول؛ لما لهم من الجلالة والحلاوة والبيان والرونق والظهور في الفلاح، أكدوا قولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركنها على حالة من الحالات لا قبيحة ولا حسنة، وأضافوها إليهم تحسبًا فيها، ثم خصوا بالتسمية زيادة في الحث وتصريحًا بالمقصود فقالوا مكررين النهي والعامل تأكيدًا-: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾ ولعلهم كانوا يوافقون العرب في أن الود هو الحب الكثير، فناسب المقام بذاتهم بقوله: ﴿وَدًّا﴾، وأعادوا النافي تأكيدًا فقالوا: ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾ ، وأكدوا هذا التأكيد وأبلغوا فيه فقالوا: ﴿وَلَا يَغُوثَ﴾ ،ولما بلغ التأكيد نهاية، وعلم أن المقصود النهي عن كل فرد فرد لا عن المجموع بقيد الجمع أعروا فقالوا: ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ معرى عن التأكيد للعلم بإرادته، وكان هؤلاء ناسًا صالحين، فلما ماتوا حزن عليهم الناس، ثم زين لهم إبليس تصويرهم تشويقًا إلى العمل بطرائقهم الحسنة فصوروهم، فلما تمادى الزمان زين لهم عبادتهم لتحصيل المنافع الدنيوية ببركاتهم ثم نسي القوم الصالحون، وجعلوا أصنامًا آلهة من دون اللَّه، وكانت عبادة هؤلاء أول عبادة الأوثان، فأرسل اللَّه ﷻ نوحًا -عليه الصلاة والسلام- للنهي عن ذلك إلى أن كان من أمره وأمر قومه ما هو معلوم، ثم أخرج إبليس هذه الأصنام بعد الطوفان فوصل شرها إلى العرب، فكان ود لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير لآل ذي الكلاع، وقيل غير ذلك، واللَّه أعلم..

لما ذكر مكرهم وما أظهروا من قولهم، عطف عليه ما توقع السامع من أمره، فقال: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ﴾ أي: الأصنام وعابدوها بهذه العبادة ﴿كَثِيرًا﴾ من عبادك الذين خلقتهم على الفطرة السليمة من أهل زمانهم وممن أتى بعدهم، فإنهم أول من

سن هذه السنة السيئة فعليهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

ولما كان التقدير: فلا تزد الظالمين إلا خسارًا، عطف عليه قوله مظهرًا في موضع الإضمار تعميمًا وتعليقًا للحكم بالوصف: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: الراسخين في الوصف، الموجب لأن تكون آثار المتصف به كآثار الماشي في الظلام في وقوعها مختلة، شيئًا من الأشياء التي هي فيهم ﴿إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: طبعًا على عقولهم وقلوبهم حتى يعموا عن الحق وعن جميع مقاصدهم الفاسدة الضالة الراسخة في الضلال، فلا يكون منها شيء على وجه يكون فيه شيء من سداد، وكان هذا بعد أن أعلمه اللَّه ﷻ أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، والكلام عليه على كل حال كالكلام على دعاء موسى وهارون عليهما وعلى محمد أفضل الصلاة والسلام في الشد على قلوب فرعون وملئه لئلا يؤمنوا في حال ينفعهم فيه، كما مضى في سورة يونس ﷺ»[1].

قال محمد مكي الناصري: «وصف كتاب اللَّه الدعوة الضالة المضلة التي كان يقوم بها قوم نوح لإفساد الناس، وتحريضهم على الاستمساك بالشرك والوثنية، والتزام عبادة الأصنام، كما وصف كتاب اللَّه أثر دعوتهم الضالة في النفوس، واستيلاءها على الأفكار، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾.

وهذه الأصنام وغيرها قد استمرت تقاليد عبادتها إلى حين ظهور الإسلام، إذ انتقلت عدواها من قوم نوح إلى العرب، فكان لقبيلة كلب صنم يدعى (وُدًّا)، وكان لقبيلة هذيل صنم يدعى باسم (سُوَاع)، وكان لقبيلة مراد ثم لبني غطيف صنم يدعى باسم (يغوث)، وكان لقبيلة همدان صنم يدعى باسم (يعوق)، وكان (نسر) صنما لقبيلة حِمْيَر.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ إشارة إلى هذا المعنى، إذ أن السابقة الخبيثة والسنة السيئة التي سنها قوم نوح قد انتقلت عدواها منهم إلى غيرهم من البشر، ولا تزال عبادة الأصنام قائمة إلى اليوم في عدة شعوب أضلها سادتها وكبراؤها، ولولا أنْ منَّ اللَّه على البشرية بالإسلام لكان كثير من أبنائها حتى اليوم غارق في

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٤٨-٤٥٢).

عبادة الأصنام، وإلى تقرير هذه الحقيقة نفسها يشير دعاء إبراهيم الخليل بعد نوح ﷺ، فقد حكى الله تعالى عن إبراهيم قوله في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]»[2].

قال السعدي: «﴿وَقَالُوا۟﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عينوا آلهتهم فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وهذه أسماء رجال صالحين لما ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم لينشطوا -بزعمهم- على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيرا من الخلق، ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم بحق لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالا أي: فلم يبق محل لنجاحهم ولا لصلاحهم»[3].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أسماء أصنام قوم نوح ﷺ التي انتقلت إلى العرب فيما بعد

* عن ابن عباس قال: «صارت الأصنام والأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، وكانوا أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ

---

(١) إبراهيم: الآيتان (٣٥و٣٦).

(٢) التيسير (٦/ ٣١٢-٣١٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٨٥).

العلم عبدت»(١).

★ **غريب الحديث:**

أنصابا: جمع نصب، وأصله ما نصب كغرض ونحوه، والمراد به هنا الأصنام المصورة على صورهم المنصوبة في مجالسهم(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال في تيسير العزيز الحميد: «تبين أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم، كما أن سبب الشرك بالنجوم هو الغلو فيها واعتقاد النحوس فيها والسعود، ونحو ذلك. وهذا هو الغالب على الفلاسفة ونحوهم، كما أن ذاك هو الغالب على عباد القبور ونحوهم، وهو أصل عبادة الأصنام؛ فإنهم عظموا الأموات تعظيما مبتدعا، فصوروا صورهم، وتبركوا بها، فآل الأمر إلى أن عبدت الصور ومن صورته، وهذا أول شر حدث في الأرض، وهو الذي أوحاه الشيطان إلى عباد القبور في هذه الأزمان، فإنه ألقى إليهم أن البناء على القبور والعكوف عليها من محبة الصالحين وتعظيمهم، وأن الدعاء عندها أرجى في الإجابة من الدعاء في المسجد الحرام والمساجد، فاعتادوها لذلك. فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى الدعاء به والإقسام على اللَّه به»(٣).

قال شيخ الإسلام: «وإنما المقصود أن أصل الشرك في العالم كان من عبادة البشر الصالحين، وعبادة تماثيلهم، وهم المقصودون. ومن الشرك ما كان أصله عبادة الكواكب، إما الشمس وإما القمر وإما غيرهما، وصورت الأصنام طلاسم لتلك الكواكب، وشرك قوم إبراهيم -واللَّه أعلم- كان من هذا، أو كان بعضه من هذا، ومن الشرك ما كان أصله عبادة الملائكة أو الجن، وضعت لأجلهم، وإلا فنفس الأصنام الجمادية لم تعبد لذاتها، بل لأسباب اقتضت ذلك، وشرك العرب كان أعظمه الأول، وكان فيه من الجميع. فإن عمرو بن لحي هو أول من غير دين إبراهيم -عليه السلام-، وكان قد أتى الشام ورآهم بالبلقاء لهم أصنام يستجلبون بها

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٨٦٢/ ٤٩٢٠).
(٢) تيسير العزيز الحميد (٣٠٩-٣١٠).
(٣) (ص: ٣١١).

المنافع، ويدفعون بها المضار، فصنع مثل ذلك في مكة لما كانت خزاعة ولاة البيت قبل قريش، وكان هو سيد خزاعة، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار** -أي: أمعاءه- **وهو أول من غير دين إبراهيم، وسيب السوائب، وبحر البحيرة**»[(١)]. وكذلك -واللَّه أعلم- شرك قوم نوح، وإن كان مبدؤه من عبادة الصالحين، فالشيطان يجر الناس من هذا إلى غيره؛ لكن هذا أقرب إلى الناس؛ لأنهم يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءه، فيعكفون على قبره، ويقصدون ذلك منه، فتارة يسألونه، وتارة يسألون اللَّه به، وتارة يصلون ويدعون عند قبره ظانين أن الصلاة والدعاء عند قبره أفضل منه في المساجد والبيوت.

ولما كان هذا مبدأ الشرك سد النبي ﷺ هذا الباب، كما سد باب الشرك بالكواكب»[(٢)].

قال ابن القيم: «ومن أعظم كيد الشيطان: أنه ينصب لأهل الشرك قبر معظم يعظمه الناس، ثم يجعله وثنا يعبد من دون اللَّه، ثم يوحي إلى أوليائه: أن من نهى عن عبادته، واتخاذه عيدا، وجعله وثنا فقد تنقصه، وهضم حقه، فيسعى الجاهلون المشركون في قتله وعقوبته ويكفرونه، وذنبه عند أهل الشرك: أمره بما أمر اللَّه به ورسوله، ونهيه عما نهى اللَّه عنه ورسوله: من جعله وثنا وعيدا، وإيقاد السرج عليه، وبناء المساجد والقباب عليه، وتجصيصه، وإشادته، وتقبيله، واستلامه، ودعائه، أو الدعاء به، أو السفر إليه، أو الاستعانة به من دون اللَّه، مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث اللَّه به رسوله من تجريد التوحيد به، وأن لا يعبد إلا اللَّه، فإذا نهى الموحد عن ذلك غضب المشركون، واشمأزت قلوبهم، وقالوا: قد تنقص أهل الرتب العالية، وزعم أنهم لا حرمة لهم، ولا قدر. وسرى ذلك في نفوس الجهال والطغام، وكثير ممن ينسب إلى العلم والدين؛ حتى عادوا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموها، وزعموا أنهم هم أولياء اللَّه وأنصار دينه ورسوله. ويأبى اللَّه ذلك، فما

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٦)، والبخاري (٦/ ٦٧٩/ ٣٥٢١)، ومسلم (٤/ ٢١٩٢/ ٢٨٥٦[٥١])، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٨/ ١١١٥٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) الفتاوى (١٧/ ٤٦٠-٤٦١).

كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتبعون له الموافقون له، العارفون بما جاء به، الداعون إليه، لا المتشبعون بما لم يعطوا، لابسو ثياب الزور، الذين يصدون الناس عن سنة نبيهم، ويبغونها عوجا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. ولا تحسب أيها المنعم عليه باتباع صراط اللّٰه المستقيم، صراط أهل نعمته ورحمته وكرامته، أن النهي عن اتخاذ القبور أوثانا وأعيادا وأنصابا، والنهي عن اتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها، والسفر إليها، والنذر لها، واستلامها، وتقبيلها، وتعفير الجباه في عرصاتها: غض من أصحابها، ولا تنقيص لهم، ولا تنقص، كما يحسبه أهل الشرك والضلال؛ بل ذلك من إكرامهم، وتعظيمهم، واحترامهم، ومتابعتهم فيما يحبونه، وتجنب ما يكرهونه. فأنت واللّٰه وليهم ومحبهم، وناصر طريقتهم وسنتهم، وعلى هديهم ومنهاجهم. وهؤلاء المشركون أعصى الناس لهم، وأبعدهم من هديهم ومتابعتهم، كالنصارى مع المسيح، واليهود مع موسى، والرافضة مع علي، وأهل الحق أولى بأهل الحق من أهل الباطل. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[1]. والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض.

فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن، فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا إليه، وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع، والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم، وسلوك طريقتهم، دون عبادة قبورهم، والعكوف عليها، واتخاذها أعيادا. فإن من اقتفى آثارهم كان متسببا إلى تكثير أجورهم باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه، واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر. فأي تعظيم لهم واحترام في هذا؟

وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة التي يكرهها اللّٰه ورسوله، لإعراضهم عن المشروع أو بعضه، وإن قاموا بصورته الظاهرة فقد هجروا حقيقته المقصودة منه، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه، عارفا بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح، مهتما بها كل الاهتمام، أغنته

---

(١) التوبة: الآية (٧١).

عن الشرك، وكل من قصر فيها أو في بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك . .

فإن قيل : فما الذي أوقع عباد القبور في الافتتان بها، مع العلم بأن ساكنيها أموات، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا؟

قيل : أوقعهم في ذلك أمور :

منها : الجهل بحقيقة ما بعث اللَّه به رسوله، بل جميع الرسل : من تحقيق التوحيد، وقطع أسباب الشرك، فقل نصيبهم جدا من ذلك، ودعاهم الشيطان إلى الفتنة، ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته، واستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعصموا بقدر ما معهم من العلم .

ومنها : أحاديث مكذوبة مختلقة، وضعها أشباه عباد الأصنام : من المقابرية، على رسول اللَّه ﷺ تناقض دينه، وما جاء به، كحديث «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»[1]، وحديث «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه»[2]، وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام، وضعها المشركون، وراجت على أشباههم من الجهال والضلال . واللَّه بعث رسوله يقتل من حسن ظنه بالأحجار، وجنب أمته الفتنة بالقبور بكل طريق، كما تقدم .

ومنها : حكايات حكيت لهم عن تلك القبور : أن فلانا استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها، وفلان دعاه أو دعا به في حاجة فقضيت له، وفلان نزل به ضر فاستوحى صاحب ذلك القبر فكشف ضره . وعند السدنة والمقابرية من ذلك شيء يطول ذكره . وهم من أكذب خلق اللَّه على الأحياء والأموات . والنفوس مولعة بقضاء حوائجها، وإزالة ضروراتها . ويسمع بأن قبر فلان ترياق مجرب . والشيطان له تلطف في الدعوة، فيدعوه أولا إلى الدعاء عنده، فيدعو العبد بحرقة وانكسار وذلة، فيجيب اللَّه دعوته لما قام بقلبه لا لأجل القبر؛ فإنه لو دعاه كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرا في إجابة تلك الدعوة، واللَّه سبحانه يجيب دعوة المضطر، ولو كان كافرا، وقد قال تعالى : ﴿كُلًّا

---

(١) موضوع، قال شيخ الإسلام في التوسل (ص: ١٥١): «هذا الحديث كذب مفترى عن النبي ﷺ بإجماع العارفين بحديثه».

(٢) موضوع: قال شيخ الإسلام في الفتاوى (٢٤/ ٣٣٥) «من المكذوبات».

﴿نُمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾[1]، وقد قال الخليل: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۖ﴾ فقال اللَّه سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2]..

والمقصود: أن الشيطان بلطف كيده يحسن الدعاء عند القبر، وأنه أرجح منه في بيته ومسجده، وأوقات الأسحار، فإذا تقرر ذلك عنده نقله درجة أخرى: من الدعاء عنده إلى الدعاء به، والإقسام على اللَّه به، وهذا أعظم من الذي قبله، فإن شأن اللَّه أعظم من أن يقسم عليه، أو يسأل بأحد من خلقه، وقد أنكر أئمة الإسلام ذلك.. فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على اللَّه به والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه وأنجع في قضاء حاجته، نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون اللَّه، ثم نقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثنا يعكف عليه، ويوقد عليه القنديل، ويعلق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له، والطواف به، وتقبيله، واستلامه، والحج إليه، والذبح عنده، ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيدا ومنسكا، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم»[3].

قال في تيسير العزيز الحميد: «وفي القصة فوائد نبه المصنف على بعضها: منها: أن من فهم هذا الباب وما بعده تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة اللَّه، وتقليبه القلوب العجب.

ومنها: معرفة أن أول شرك حدث في الأرض بشبهة محبة الصالحين.

ومنها: معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء.

ومنها: معرفة سبب قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تنكرها.

ومنها: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول محبة الصالحين، والثاني فعل أناس من أهل العلم والدين شيئا أرادوا به خيرا، فظن من بعدهم أنهم أرادوا غيره.

ومنها: معرفة جبلة الإنسان في كون الحق ينقص في قلبه، والباطل يزيد.

---

(١) الإسراء: الآية (٢٠).

(٢) البقرة: الآية (١٢٦).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣٠-٣٣٦) باختصار.

ومنها : أن فيها شاهدا لما نقل عن بعض السلف أن البدعة سبب للكفر ، وأنها أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها .

ومنها : معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ، ولو حسن قصد الفاعل .

ومنها : معرفة القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ، ومعرفة ما يؤول إليه .

ومنها : مضرة العكوف على قبر لأجل عمل صالح .

ومنها : معرفة النهي عن التماثيل ، والحكمة في إزالتها .

ومنها : معرفة عظم شأن هذه القصة ، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .

ومنها : وهي أعجب العجب : قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون اللّه حال بين قلوبهم ، حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات ، واعتقدوا أن نهي اللّه ورسوله هو الكفر المبيح للدم والمال .

ومنها : التصريح أنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

ومنها : ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك .

ومنها : التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم ، ففيها معرفة قدر وجوده ، ومضرة فقده .

ومنها : أن سبب فقد العلم موت العلماء»[1] .

* * *

---

(١) (ص : ٣١٢-٣١٣).

قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ أي: من كثرة ذنوبهم، وعتوهم، وإصرارهم على كفرهم، ومخالفتهم رسولهم ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ أي: نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ أي: لم يكن لهم معين، ولا مُغيث، ولا مُجير ينقذهم من عذاب اللَّه كقوله: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾[(1)]»[(2)].

قال السعدي: «ذكر اللَّه عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ في اليم الذي أحاط بهم ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ فذهبت أجسادهم في الغرق وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئاتهم، التي أتاهم نبيهم نوح ينذرهم عنها، ويخبرهم بشؤمها، وسوء مغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر، ولا أحد يقدر على أن يعارض القضاء والقدر»[(3)].

قال الرازي: «﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ وهذا تعريض بأنهم إنما واظبوا على عبادة تلك الأصنام لتكون دافعة للآفات عنهم جالبة للمنافع إليهم، فلما جاءهم عذاب اللَّه لم ينتفعوا بتلك الأصنام، وما قدرت تلك الأصنام على دفع عذاب اللَّه عنهم، وهو كقوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾[(4)]. واعلم أن هذه الآية حجة على كل من عول على شيء غير اللَّه تعالى»[(5)].

* * *

(١) هود: الآية (٤٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٦٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٨٥-٤٨٦).
(٤) الأنبياء: الآية (٤٣).
(٥) تفسير الرازي (٣٠/ ١٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾

★ غريب الآية:

ديارا: أي: من يمشي ويدور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عطية محمد سالم: «في هذه نص على أن نبي اللَّه نوحًا طلب من اللَّه إهلاك من على الأرض جميعًا، مع أن عادة الرسل الصبر على أممهم، وفيه إخبار نبي اللَّه نوح عمن سيولد من بعد، وأنهم لم يلدوا إلا فاجرًا كفارًا، فكيف دعا على قومه هذا الدعاء وكيف حكم على المواليد فيما بعد؟

والقرآن الكريم بين هذين الأمرين:

أما الأول: فإنه لم يدع عليهم هذا الدعاء إلا بعد أن تحدوه، ويئس منهم، أما تحديهم ففي قولهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[1] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾[2].

وأما يأسه منهم فلقوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[3].

وأما إخباره عمن سيولد بأنه لن يولد لهم إلا فاجر كفار، فهو من مفهوم الآية المذكورة آنفًا؛ لأنه إذا لم يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فسواء في الحاضر أو المستقبل. وكذلك بدليل الاستقراء؛ وهو دليل معتبر شرعًا وعقلًا، وهو أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا وما آمن معه إلا قليل، كانوا هم ومن معهم غيرهم

---

(١) هود: الآية (٣٢).

(٢) القمر: الآيتان (٩و١٠).

(٣) هود: الآية (٣٦).

حمل سفينة فقط، فكان دليلًا على قومه أنه فتنوا بالمال ولم يؤمنوا له، وهو دليل نبي اللَّه موسى عليه السلام أيضًا على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[(١)]. فأُخبر نبي اللَّه موسى عن قومه أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وذلك من استقراء حالهم في مصر لما أراهم الآية الكبرى ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(٢)]. وبعد أن ابتلاهم اللَّه بما قص علينا في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[(٣)]. وقوله تعالى بعدها: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[(٤)].

فمن كانت هذه حالته وموسى يعاين ذلك منهم، لا شك أنه يحكم عليهم أنهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

وكذلك كان دليل الاستقراء لرسول اللَّه ﷺ في قومه استدل به على عكس الأقوام الآخرين، حينما رجع من الطائف وفعلت معه ثقيف ما فعلت، فأدموا قدميه، وجاءه جبريل ومعه ملك الجبال، واستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين، فقال: «**لا، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، إني لأرجو أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله**»[(٥)] وذلك أنه ﷺ علم باستقراء حالهم أنهم لا يعلمون، فهم يمتنعون عن الإيمان لقلة تعلمهم، وأنهم في حاجة إلى التعليم.

فإذا علموا تعلّموا، وأن طبيعتهم قابلة للتعليم لا أنهم كغيرهم في إصرارهم، لأنه شاهد من كبارهم إذا عرض عليهم القرآن، وخوطبوا بخطاب العقل، ووعوا ما يخاطبون به، وسلموا من العصبية والنوازع الأخرى فإنهم يستجيبون حالًا! كما

---

(١) يونس: الآية (٨٨).
(٢) النازعات: الآيات (٢١-٢٤).
(٣) الأعراف: الآية (١٣٣).
(٤) الأعراف: الآيتان (١٣٤و١٣٥).
(٥) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٨٤-٣٨٥/ ٣٢٣١)، ومسلم (٣/ ١٤٢٠-١٤٢١/ ١٧٩٥)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٥-٤٠٦/ ٧٧٠٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

حدث لعمر وغيره ﷺ، إلا من أعلمه اللَّه بحاله مثل الوليد بن المغيرة ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾[1] -إلى قوله- ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝﴾[2] فعلم ﷺ حاله ومآله، ولذا فقد دعا عليه يوم بدر.

ومثله أبو لهب لما تبين حاله بقوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝﴾[3] فلكون العرب أهل فطرة، ولكون الإسلام دين الفطرة أيضًا كانت الاستجابة إليه أقرب.

انظر مدة مكثه ﷺ من البعثة إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى ثلاثًا وعشرين سنة، كم عدد من أسلم فيها، بينما نوح عليه السلام يمكث ألف سنة إلا خمسين عامًا فلم يؤمن معه إلا القليل.

ولذا كان قول نوح -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[4]، كان بدليل الاستقراء من قومه، والعلم عند اللَّه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝﴾[5]، لم يبين هنا هل استجيب له أم لا؟ وبينه في مواضع أخر؛ منها قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾[6] وفي هذه السورة نفسها وقبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ۝﴾[7] فجمع اللَّه لهم أقصى العقوبتين الإغراق والإحراق، مقابل أعظم الذنبين الضلال والإضلال.

وكذلك بين تعالى كيفية إهلاك قومه، ونجاته هو وأهله ومن معه في قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ الآية[8]»[9].

قال البقاعي: «لما أتم الخبر عن إغراقهم، وقدمه للاهتمام بتعظيم الرسول ﷺ في إجابة دعوته، تحذيرًا للعرب أن يخرجوا رسولهم ﷺ فيخرجوه إلى مثل ذلك،

---

(١) المدثر: الآيات (١١-١٤).
(٢) المدثر: الآية (٢٦).
(٣) المسد: الآيتان (٣و٤).
(٤) نوح: الآية (٢٧).
(٥) نوح: الآية (٢٦).
(٦) الأنبياء: الآية (٧٦).
(٧) نوح: الآية (٢٥).
(٨) القمر: الآيات (١٠-١٤).
(٩) تتمة أضواء البيان (٨/ ٣١٣-٣١٥).

عطف على قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ من أوله قوله عندما أخبره تعالى أنهم مغرقون، وأنه لا يؤمن منهم إلا من قد آمن بعدما طال بلاؤه بهم، حتى أن كان الرجل ليأتي بابنه إليه فيقول له: احذر هذا أن يضلك، وإن أبي حذَّر منه، وكانت صيغة العموم ليست بنص في أفرادها أبدًا، استنجازًا لوعده وتصريحًا بمراده: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ﴾ أي: تترك بوجه من الوجوه أصلًا ولو على أدنى الوجوه ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كلها من مشرقها إلى مغربها، وسهلها، وجبلها، ووهدها ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: الراسخين في الكفر؛ الذي هو كان لهم جبلة وطبعًا ﴿دَيَّارًا﴾ أي: أحدًا يدور فيها، وهو من ألفاظ العموم التي تستعمل في النفي العام، فيقال: من الدور أو الدار لا فعّال، وإلا لكان دوارًا، ويجوز -وهو أقرب- أن يكون هذا الدعاء عند ركوبه السفينة وابتداء الإغراق فيهم، يريد به العموم كراهية أن يبقى أحد منهم على ذروة جبل أو نحوه، لا أصل الإغراق، وأن يكون معنى ما قبله الحكم بإغراقهم وتحتم القضاء به أو الشروع فيه.

ولما كان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لا يقولون ولا يفعلون إلا ما فيه مصلحة الدين، علل دعاءه بقوله وأكده إظهارًا لجزمه باعتقاد ما أنزل عليه من مضمون قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[1] وإن كان ذلك خارجا عن العادة: ﴿إِنَّكَ﴾ أي: يا رب ﴿إِن تَذَرْهُمْ﴾ أي: تتركهم على أي حالة كانت في إبقائهم سالمين على وجه الأرض، على ما هم عليه من الكفر والضلال والإضلال، ولو كانت حالة دنية ﴿يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ أي: الذين آمنوا بي والذين يولدون على الفطرة السليمة.

ولما كان ربما كان الإنسان ضارا ووجد له ولد نافع، نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟﴾ أي: إن قدرت بقاءهم في الدنيا ﴿إِلَّا فَاجِرًا﴾ أي: مارقا من كل ما ينبغي الاعتصام به، واكتفى فيه بأصل الفاعل إشارة إلى أن من جاوز الحد أو شرع في شيء بعده من التمادي في الغي صار ذلك له ديدنا فبالغ، فلذلك قال: ﴿كَفَّارًا﴾ أي: بليغ الستر لما يحب إظهاره من آيات اللَّه، لأن قولك «يا رب» لا يتخلف أصلا، والظاهر أن هذا الكلام لا يقوله إلا عن وحي كما في سورة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ من

(١) هود: الآية (٣٦).

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[١]»[٢].

قال محمد المكي الناصري: «بينت الآيات الكريمة أن اللّٰه قد استجاب دعاء نوح عليه السلام، فأهلك جميع من كان على وجه الأرض من الكافرين وأغرقهم، ولم يستثن منهم أحدا حتى ولد نوح من صلبه، الذي كان اعتزل عن أبيه، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[٣] فرد عليه أبوه نوح قائلا: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾، ولم يجد ولد نوح وسيلة للخلاص من العذاب ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[٤]، وإنما نجى اللّٰه سفينة نوح وحدها بمن فيها من أصحابه المؤمنين، ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].
وإلى إغراق قوم نوح في الدنيا وعذابهم في الآخرة يشير قوله تعالى هنا: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾. على أن الدافع الذي دفع نوحا عليه السلام إلى الدعاء على قومه بالإبادة والهلاك لم يكن مجرد الرغبة في الانتقام منهم، على عدم استجابتهم إلى دعوته، وعدم إيمانهم برسالته، وإنما كان دعاؤه عليهم اقتناعا منه بأنهم قد بلغوا في الانحراف والفساد والضلال إلى حد أنه لم يبق أيُّ أمل في هدايتهم، ولا أدنى رجاء في إصلاحهم، فقد أصبح مرضهم مزمنا وداؤهم عضالا، والعضو المتآكل لا ينفع فيه إلا البتر، وآخر الدواء الكي، وإلى هذا المعنى المبرر لدعاء نوح عليه السلام على قومه، يشير قوله تعالى حكاية عنه وهو يخاطب ربه قائلا: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾»[٦].

قال أبو بكر بن العربي: «دعا نوح على الكافرين أجمعين، ودعا النبي ﷺ على من تحزب على المؤمنين، وألب عليهم، وكان هذا أصلا في الدعاء على الكفار في الجملة، فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهول، وربما كان عند اللّٰه معلوم الخاتمة للسعادة؛ وإنما خص النبي ﷺ الدعاء على عتبة وشيبة وأصحابه لعلمه بمآلهم، وما كشف له من الغطاء عن حالهم. واللّٰه أعلم»[٧].

---

(١) هود: الآية (٣٦).
(٢) نظم الدرر (٢٠/ ٤٥٦-٤٥٨).
(٣) هود: الآيتان (٤٢و٤٣).
(٤) هود: الآية (٤٣).
(٥) هود: الآية (٤٤).
(٦) التيسير في أحاديث التفسير (٦/ ٣١٢-٣١٣).
(٧) أحكام القرآن (٤/ ١٨٦١).

قال السعدي: «﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح ﷺ ذلك؛ لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جرم أن اللَّه استجاب دعوته، فأغرقهم أجمعين ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين»[١].

قال ابن عاشور: «وفي كلام نوح دلالة على أن المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر، ولا يهملون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية؛ إذ الأجيال كلها سواء في نظرهم الإصلاحي»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٤٨٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١٤).

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: ربّ اعف عني، واستر عليّ ذنوبي وعلى والدي ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ يقول: ولمن دخل مسجدي ومصلايَ مصلّيا مؤمنا، يقول: مصدّقا بواجب فرضك عليه. .

قوله: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ يقول: وللمصدقين بتوحيدك والمصدقات»[١].

قال محمد المكي الناصري: «وبعد ما عرض كتاب اللّه دعاء نوح على الكافرين، نقل إلينا صورة حية من دعائه للمؤمنين إلى يوم الدين، وفي نقل القرآن لهذه الصورة من الدعاء الصالح توجيه وإرشاد إلى كيفية الدعاء، وإلى صيغته وآدابه، وإلى من يستحق الدعاء له بالخير ومن لا يستحقه»[٢].

قال ابن عاشور: «جعل الدعاء لنفسه ووالديه خاتمة مناجاته، فابتدأ بنفسه ثم بأقرب الناس به وهما والداه، ثم عمّم أهله وذويه المؤمنين فدخل أولاده وبنوهم والمؤمنات من أزواجهم، وعبر عنهم بمن دخل بيته كناية عن سكناهم معه، فالمراد بقوله: ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ دخول مخصوص وهو الدخول المتكرر الملازم. ومنه سميت بطانة المرء دَخيلته ودُخْلَته، ثم عمم المؤمنين والمؤمنات»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مصاحبة أهل الطاعة

* عن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[٤].

---

(١) جامع البيان (٢٩/ ١٠١). (٢) التيسير (٦/ ٣١٥).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢١٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٨)، وأبو داود (٥/ ١٦٧-١٦٨/ ٤٨٣٢)، والترمذي (٤/ ٥١٩/ ٢٣٩٥) وقال: «هذا حديث حسن»، والحاكم (٤/ ١٢٨) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة اللَّه تعالى على مراد الله»[١].

قال القاري: «لا تقصد في المصاحبة «إلا مؤمنا»: أي: كاملا بل مكملا، أو المراد منه النهي عن مصاحبة الكفار والمنافقين؛ لأن مصاحبتهم مضرة في الدين، فالمراد بالمؤمن جنس المؤمنين. «ولا يأكل طعامك إلا تقي»: أي: مؤمن، أو متورع يصرف قوة الطعام إلى عبادة اللَّه الملك العلام، والنهي وإن نسب إلى التقي، ففي الحقيقة مسند إلى صاحب الطعام فهو من قبيل: لا أرينك ههنا، فالمعنى لا تطعم طعامك إلا تقيا. وفي رواية بزيادة: «ولا تأكل إلا طعام تقي»، فإن طعامه غالبا يكون حلالا مؤثرا في تحصيل العبادة»[٢].

قال الخطابي: «هذا إنما جاء في طعام الدعوة دون طعام الحاجة، وذلك أن اللَّه سبحانه قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾[٣] ومعلوم أن أسراهم كانوا كفارا غير مؤمنين ولا أتقياء. وإنما حذر من صحبة من ليس بتقي وزجر عن مخالطته ومؤاكلته؛ فإن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب. يقول: لا تؤالف من ليس من أهل التقوى والورع، ولا تتخذه جليسا تطاعمه وتنادمه»[٤].

قال الطيبي: «المؤمن يجوز أن يراد به العام، وأن يراد به الخاص الذي يقابله الفاسق، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾[٥] فيكون المعنى: لا تصاحب إلا صالحا. وقوله: «ولا يأكل» نهي لغير التقي أن يأكل طعامه، فالمراد نهيه عن أن يتعرض لما لا يأكل التقي طعامه من كسب الحرام، وتعاطي ما ينفر عنه التقي، والمعنى لا تصاحب إلا مطيعا ولا تخالل إلا تقيا»[٦].

* * *

(١) الفتاوى (١٥/ ٣٢٧).
(٢) مرقاة المفاتيح (٨/ ٧٥٠).
(٣) الإنسان: الآية (٨).
(٤) معالم السنن (٤/ ١٠٧).
(٥) السجدة: الآية (١٨).
(٦) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾

★ **غريب الآية:**

تبارًا: هلاكًا ودمارًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما كان التقدير بما أرشد إليه الاحتباك: ولا تكرم المارقين، عطف عليه قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: العريقين في الظلم في حال من الأحوال ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ أي: إلا هلاكًا مدمرًا، مفتتًا لصورهم، قاطعًا لأعقابهم، مخربًا لديارهم. وكما استجاب اللَّه ﷻ له في أهل الإيمان والكفران من أهل ذلك الزمان، فكذلك يستجيب له في أهل الإيمان وأهل الخسران بالسعادة والتبار في جميع الأعصار إلى أن يقفوا بين يدي العزيز الجبار. والآية من الاحتباك: إثبات الدعاء المقتضي لأصل إكرام المؤمنين أولًا، مرشد إلى حذف الدعاء المفهم لأصل إهانة الكافرين ثانيًا، وإثبات الدعاء بزيادة التبار ثانيًا مفهم لحذف الدعاء الموجب لزيادة المفاز أولًا، وهذا الآخر المفصح بالتبار هو ما أرشد إليه الابتداء بالإنذار، فقد انطبق الآخر على الأول على أصرح وجه وأكمل، وأحسن حال وأجمل منال، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم، والحمد لله تعالى على كل حال»[1].

قال الشوكاني: «أي: لا تزد المتصفين بالظلم إلاّ هلاكًا، وخسرانًا ودمارًا، وقد شمل دعاؤه هذا كل ظالم إلى يوم القيامة، كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة»[2].

* * *

(١) نظم الدرر (٢٠/ ٤٥٩-٤٦٠).

(٢) فتح القدير (٥/ ٤٢٩).

فهرس الموضوعات

سورة المنافقون

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة القلم

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة نوح

* * *